

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

شعبة اللغة والدراسات القرآنية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة

لسان الحديث بين الخطيب قنطرة

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

إشراف الدكتور:

أحمد رحمانى

إعداد الطالب:

مصدق بوعافية

السنة الجامعية: 1420-1421هـ

1999-2000م.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسم اللغة العربية

فلسطين

شعبة اللغة والدراسات القرآنية

لسان الدين بن الخطيب تتأهرا

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

إشراف الدكتور :

أحمد رحمانى

إعداد الطالب :

مصطفى بوعافية

السنة الجامعية : 1420-1421هـ

1999-2000 م

أحمد أبو

إلى روح والدي زيدان بن أحمد بن صالح بن وديعة
إلى والدتي

وفاء ورحمة وبراً

إلى إخوتي محمد ، علي ، شريف

إلى أخواتي زهرة ، فتيحة ، مليكة

كفاء ما أملوا ، و نصحوا .

المقدمة

لما عزمت على اختيار موضوع لبحثي يمتد وجهي شطر الأدب العربي القديم ، و الأدب الأندلسي على وجه الخصوص لما وجدت من أن الأدب المشرقي قد نال نصيبا وافرا من اهتمام الدارسين و النقاد العرب مشرقا ، و مغربا ، و لأن الأدب الأندلسي ، يمثل جانبا من حضارة الأمة الإسلامية ما زال في حاجة إلى مزيد من البحث ، و الدراسة ، و قد شدني إليه ما انطوى عليه من شعر يعتبر صفحة مشرقة في تاريخ الشعر العربي ، و أخذت أحدد ميدان الدراسة ، فلفت نظري شاعر عاش في القرن الثامن الهجري ، استأثر بجانب عظيم من اهتمام المؤرخين ، باعتباره أحد أقطاب هذا العلم في الغرب الإسلامي ، ألا و هو لسان الدين بن الخطيب ، و بعد قراءتي لما وقعت عليه يدي من شعره جعلت عنوان البحث "لسان الدين بن الخطيب شاعرا" .

و يعود اختياري لشعر ابن الخطيب ميدانا للبحث إلى أسباب أجملها فيما يلي :

- اهتمام الدارسين العرب ، و المستشرقين بالجانب العلمي من إنتاج ابن الخطيب ، بحيث حققت كتبه التاريخية ، و الطبية ، و وضعت حولها دراسات جعلت الجانب العلمي يطغى على الجانب الأدبي ، فرأيت من الأوفق أن أخص الجانب الشعري بدراسة مستقلة .

- ما يمثله شعر ابن الخطيب من قيمة تاريخية ، و توثيقية كبرى إذ يمكن أن نعده سجلا و افيبا إلى حد ما بكثير من الأحداث التي وقعت في مملكة غرناطة ، في القرن الثامن ، هذا بالإضافة إلى ماله من قيمة فنية .

- ما لهذا الشعر من خصائص إسلامية ، إذ ينبغي إذا أردنا أن ندرس الأدب الإسلامي أن لا تقتصر على الأدباء الإسلاميين المعاصرين بل من اللازم موضوعيا و منهجيا أن نبحث عن أصول هذا الأدب في تاريخ الأدب العربي ، لأن العقيدة الإسلامية لم تتفصل يوما عن الإنتاج الأدبي ، إن خفت ضوءها أحيانا تحت ركام الأهواء البشرية .

- أننا بهذا النوع من البحث نقف على مواطن الداء في مسيرة أمتنا الإسلامية ففي شعر ابن

الخطيب نلمس بعض عوامل خسارة المسلمين للأندلس بعد انتمائها إلى حوزة الإسلام ثمانية قرون .

و قد اتبعت في هذا البحث ، منهجا تكامليا ، مراعاة لطبيعة الموضوع ، فجمعت بين المنهج التاريخي ، و التحليلي ، و الفني ، فلجأت إلى واحد من هذه المناهج كلما مست الحاجة إليه .
و تبعا لذلك ، قسمت البحث إلى خمسة فصول ، يسبقها تمهيد ، و تعقبها خاتمة .
ففي التمهيد ، تناولت بصورة موجزة عصر ابن الخطيب ، فعرضت وصفا لطبيعة غرناطة ، و حدودها الجغرافية ثم عرجت على تلخيص الحياة السياسية في المملكة النصرية منذ نشأتها إلى وفاة الشاعر ، و بعد ذلك ألقيت الضوء على الحياة الاجتماعية و الدينية ، و الفكرية ، فرسمت بذلك صورة تقريبية لظروف حياة الشاعر .

أما الفصل الأول : فتناولت فيه حياة ابن الخطيب ، و آثاره ، فتكلمت عن اسمه ، و نسبه ، ونشأته ، و وزارتيه ، و محنته ، و اغترابه ، و نكبته و وفاته ، لأن معرفتنا بحياة الشاعر ، ضرورية لتحليل شعره ، و بعد ذلك وصفت آثار ابن الخطيب مقسما إياها حسب موضوعاتها ، فجعلت الآثار التاريخية قسما و الأدبية قسما ، و هكذا .. و في الأخير وصفت ديوان الشاعر و تعرضت للنسختين المطبوعتين مبينا قيمتهما التوثيقية .

و في الفصل الثاني تعرضت لشاعرية ابن الخطيب ، مبتدئا بتحليل لمفهوم الشاعرية في النقد العربي القديم ، و المعاصر ، منتقلا إلى عرض مصادر شاعرية ابن الخطيب ، و هنا تكلمت بإيجاز عن شيوخ لسان الدين باعتبارهم أحد مصادر شاعريته ، ثم عرضت لآراء الدارسين و النقد في شعر ابن الخطيب و ختمت هذا الفصل بذكر السمات العامة لشعره .

و في الفصل الثالث أخذت في دراسة شعره الإسلامي مقسما إياه إلى ثلاثة أقسام : شعر الجهاد ؛ و فيه تناولت جهود بني الأحمر ، في المحافظة على الأندلس ، و الاستغاثة بسلمي العدو ، و صورة الروم في قصائد الشاعر الجهادية ، و عوامل النصر على الأعداء و صورة الانكسار في شعر لسان الدين ، ثم انتقلت إلى القسم الثاني و هو شعر المولدات - شعر المدائح النبوية - و فيه تعرضت لبناء المدحة النبوية عند ابن الخطيب بما تشتمل عليه من استهلال ، و وصف لإرهاصات لمولد النبي (صلى الله عليه و سلم) و شمائله ، و معجزاته ، و حقيقة نبوته و شوق لزيارة قبره ، أما القسم الثالث فجعلته لشعر الزهد و التصوف فتكلمت عن المعاني الزهدية فيه ثم تعرضت للقضايا الصوفية التي تناولها لسان الدين في شعره من ميل صوفي عام و أخلاق المريد و المقامات الصوفية ، و المعرفة الإلهية .

أما الفصل الرابع فتناولت فيه شعر ابن الخطيب التقليدي ، فدرست فيه الأغراض التقليدية و هي المدح مقسما إياه إلى معاني تقليدية و معاني سياسية ثم الرثاء ، فالغزل ، فالوصف ، فالهجو ، فالهجاء ، فالإخوانيات .

و لم تعترضني في هذه الدراسة صعوبة تذكر إلا ما وجدته من عسر في الحصول على
النسخة الثانية من ديوان الشاعر ، و هي نسخة المغرب ، و قد نللت هذه الصعوبة بمساعدة أحد
الأساتذة الأفاضل .

و قبل أن أختتم هذه المقدمة أرى واجبا علي أن أتوجه بالشكر إلى أولي الفضل علي بعد الله
سبحانه و تعالى ، و في مقدمة هؤلاء أستاذي الدكتور أحمد رحمانى الذي تولى الإشراف على هذا
البحث ، و الذي وجدت فيه حذب الوالد ، و توجيه العالم ، فقد شجعني على المضي في البحث في أيلم
كانت علي عصبية ، كما أرشدني إلى إصلاح بعض مواطن الخلل، فعملت بتوجيهاته ، مقتنعا بها ،
فجزاه الله ، عني خيرا ، و لا يفوتني أن أعترف بالفضل للأستاذ الدكتور حسيني رضوان الذي بدأت
العمل تحت إشرافه ، غير أن ظروف حملته على مغادرة الجزائر ، جعلته ينقطع عن الإشراف على
رسالتي ، كما أشكر كل من قدم لي مساعدة من قريب أو من بعيد .

هذا ، و إن أصبت فمن الله تعالى وحده ، و إن أخطأت فمن نفسي ، و لا حول و لا قوة إلا
بالله عليه توكلت ، و إليه أنيب .

القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد

عصر ابن الخطيب

- مملكة بني الأحمر في القرن الثامن الهجري
- غرناطة
- بنو الأحمر
- أضاء على الحياة الاجتماعية و الدينية الفكرية

جامعة الأمير محمد بن سعود
القادر للعلوم الإسلامية

مملكة بني الأحمر في القرن الثامن الهجري :

عندما أطل القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي كانت الأندلس قد اختصرت في مملكة غرناطة الواقعة جنوب شبه جزيرة إيبيريا ، وأقلت شمس ملوك الطوائف الذين اقتسموا ميراث الخلافة الأموية بعد سقوط عاصمتها قرطبة . غير أن التنافس الشديد بين هؤلاء الملوك أو أشباه الملوك ، سمح للملوك المسيحيين بالاستيلاء على حواضر الأندلس واحدة فواحدة ، ولم يستطع المرابطون (540هـ - 1145م) و لا الموحدون (606هـ - 1212م) على الرغم من جهودهم الجهادية أن يقفوا أمام الزحف القشتالي الذي انتهى بسقوط الأندلس كاملة في يد الإسبان ، إلا أن غرناطة هذه المملكة الصغيرة ثبتت قرنين من الزمان قبل أن تسلم (629هـ - 897هـ) (1232م - 1491م) و يرجع بعض المؤرخين أسباب هذا الثبات إلى ثلاثة أسباب هي : الطبيعة الجغرافية للإقليم و حيوية الجنس العربي التي لا تنفد ، و أخيرا إلى اختلاف ملوك إسبانيا فيما بينهم ¹ .

فما هي مدينة غرناطة ؟ و ما حدودها ؟ و ما ملامحها الطبيعية ؟ ذلك ما سنعرفه فيما يلي :

- غرناطة مملكة بني الأحمر :

1 - غرناطة :

أنشأ ابن الخطيب فضلا في أول كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة ، للتعريف بهذه المدينة ووصف طبيعتها و تعرض لاسمها فقال : "يقال غرناطة و يقال إغرناطة . و كلاهما أعجمي" ² . لكن المشتهر من الاسمين هو غرناطة لخفة هذا الاسم مقارنة بصنوه . و لم تكن غرناطة سوى قرية صغيرة على عهد الخلافة الأموية ثم بعد حدوث الفتنة سنة أربعمائة من الهجرة (400هـ) لجأ أهل قرطبة إلى غرناطة "فصارت حاضرة الصقع فهي بالأندلس قطب بلاد الأندلس" ³ . و لا يبعد أن يكون. فيمن انتقل إليها بعض العلماء و الأدباء ، فاغتنت المدينة بهؤلاء و هؤلاء .

و كانت غرناطة تابعة لكورة البيرة ، فلما بني حبوس بن ماكسن الصنهاجي مدينة غرناطة و قصبته و أسوارها انتقل الناس إليها ثم زاد في عمارتها ابنه باديس ⁴ ، و هي من أول ما فتح من بلاد الأندلس يقول ابن الخطيب في الإحاطة : "ففرق طارق جيوشه فبعث مغيثا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى قرطبة و بعث جيشا آخر إلى مالقة و أرسل جيشا ثالثا إلى غرناطة ...

¹ - د . حسين مؤنس : رحلة الأندلس الدار السعودية للنشر و التوزيع ، ط2 ، 1405هـ - 1985م ، ص139 .

² - ابن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماي : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ط1 ، 1974م - ج1 ، ص91 .

³ - المصدر نفسه : ج1 ، ص39 .

⁴ - المقرئ ، أحمد بن محمد التلمسان ، فتح الطيب من عتبات الأندلس الطيب تحقيق . د.إحسان عباس ، دار صادر بيروت 1968 ، ج1 ، ص149 .

و كان دخول طارق بن زياد الأندلس يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين و تسعين و قيل شعبان ، و قيل رمضان ... و قيل تأخر الفتح المذكور إلى سنة ثلاث و تسعين عند دخول موسى¹ .
ولم تزل غرناطة محل تنافس طالبي الملك بعد سقوط دولة الموحيدين إذ تملكها ابن هود سنة 626هـ قبل أن يفتكها منه ابن الأحمر² .

و تقع في الإقليم الخامس³ جنوب شرق الأندلس ، و هي ذات جمال طبيعي أخذ نظرا لتكسوع ملامحها بين سهل و مرتفع و نهر و شجر ، و لترك ابن الخطيب يصف لنا هذه المدينة في بلاغته المعهودة ، ” و يشتمل شكل هذه المدينة العظيمة و ما يرجع إليها من أرباضها على جبال خمسة و سهل فسيح الساحة بعيد الأقطار تخترقه الجداول و الأنهار و تتراحم به القرى و الجنات و يسق البلد النهر الشهير آتيا من جهة الشرق و يجتمع بخارجها بوادي سنجل ، أما ما حازه السهل من جوفه فمنى عظيمة ، منها ما يغل في السنة شطر الألف من الذهب⁴ .

و هي ذات أراضي خصبة ، كثيرة الغلال تحيط بها القرى ، و من الطريف أن غرناطة بلغة أهل الأندلس هي الرمانة⁵ و ربما سميت بذلك لكثرة هذا النوع من الفواكه بها ، و هذه الخصوبة في الأشجار وذلك التعدد في الرياض أوحى إلى خيال ابن الخطيب بصورة وجه جميل هو مدينة غرناطة أما عذاره فهو ما يحف بها من الرياض أما الوادي الذي يمر بها فهو معصم امرأة حسناء و أما الأسورة فهي الجسور التي تقع هنا و هناك على الوادي يقول ابن الخطيب⁶ .

بلد يحف به الرياض كأنه وجه جميل و الرياض عذاره

و كأنما واديه معصم غادة و من الجبهر المحكمات سواره

وقد افتنن بجمال غرناطة كثير من الأدباء و الشعراء و لهم في ذلك شعر و مصدر ذلك الجمال ، كما سبق أن أشرنا ، تتوع المظاهر التضاريسية في هذه المدينة .. فوادي (شـنـجـيل) أو (شـنـيـل) ، ماؤه

¹ - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص 101 .

² - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص 142 .

³ - العرض عند آخره من خط الاستواء إحدى و أربعون درجة و إحدى و ثلاثون دقيقة و وسعه خمس درجات و بياض أهله ممتزج بالحمر و فيه شقرة و زرقه - انظر كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي تحقيق إسماعيل العرب . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط 2 ، 1982 ، ص 166 .

⁴ - د يوسف شكري فوحان: غرناطة في ظل ابن الأحمر دراسة حضارية ، المؤسسة الجامعية للنشر و الدراسات و التوزيع ، بيروت . ط 1 ، 1982م ص 201 ، عن اللمحة البدرية في الدولة النصرية لابن الخطيب ط دار الأفاق الجديدة بيروت 1978م ص 23 .

⁵ - المقرئ ، نوح الطيب ، ج 1 ، ص 147 .

⁶ - ابن الخطيب ، الإحاطة . ج 1 ، ص 115 .

رقرق "من ذوب الثلج ، و مجاجة الجليد ، و ممره على حصى جوهريّة بالنبات و الظلال محفوفة
بأتي من قبله علام البلد إلى غربه فيمر بين الصخور النجدية ذوات المناصب الرفيعة" ¹ .

و من المظاهر الطبيعية التي تجل هذه المدينة جبل "شليير" ، جبل الثلج الذي يكسو قمته
الثلج شتاء و يظل به صيفا ، و هذا يعطينا فكرة عن غزارة الثلوج المتساقطة على المدينة ، شتاء
و هو على مقربة فرسخين و ينساب منه ستة و ثلاثون نهرا من فوهات الماء ² و يبلغ ابن الخطيب
في وصف برد هذه المدينة شتاء فهو عنده برد تجمد بسببه الأدهان و المائعات .

و من المظاهر الطبيعية التي اختصت بها غرناطة فحصبها الواسع الأخضر الذي يمتح من
الثلج الذائب في قم شليير ، مع ما يرفده من وادي شنيل و تتوسطه الجداول فهو في الربيع مجلى
الجمال و في الصيف نادي الساهرين و قد ظفر هذا الفحص بغرام الشعراء يصفه ابن سارة
التسنتريني قائلا ³ :

ما شئت من نهر كصدر عقيلة شقت أناملها عليه صدارها
أو جدول كالنصل في يد تائر أمهى صحيفته وهز غرارها
ما بين أشجار تميد كأنها شراب جريال مدير عقارها

و تمادى أهل الأندلس في المباهاة بهذه المدينة فشبها بدمشق على طريقهم في إطلاق
الأسماء المشرقية على مدن الأندلس ، تشبها منهم بعروبتهم و تمجيدا لتاريخهم ، بل ذهبوا إلى تفضيل
غرناطة على مصر و الشام و العراق جميعا في قول أحدهم ⁴ :

غرناطة مالها نظير ما مصر ما الشام ما العراق

ما هي إلا العروس تجلى و تلك من جملة الصداق ⁵

و سبب هذه التسمية أن جند دمشق ، أول الفتح نزلوا بها أو لأن فحصبها الغوطة الدمشقية .

و تميزت هذه المدينة بموقع حجب عنها الأمراض ، فأهلها أمنون من الأسقام ، لصفاء هوائها ،
ذوو صحة جيدة زهر الوجوه رقاق البشرة ⁵ و ذلك آية الرفاه ، إضافة إلى ما كانوا يأخذون به أنفسهم
من العناية بالنظافة و التجميل .

¹ - المصدر نفسه 1 ، ص 117 .

² - ابن الخطيب ، الإحاطة . ج 1 ، ص 96 .

³ - الفتح بن حاقان : فتلاند العيان مطبعة التقدم العلمية . ط 1360 هـ ص 276 ، و انظر كذلك ، ابن حجر العسقلاني ، المغرب في حلي

المغرب تحقيق ضيف . ط 3 ، ج 2 ، ص 102 .

⁴ - المقرئ : نفع الطب ، ج 1 ، ص 148 .

⁵ - ابن الخطيب : معيار الإختبار في ذكر المعاهد و الديار تحقيق د . محمد كمال شبانة ، ص 119 .

أما آثار العمارة فيها فدلِيل على مبلغ ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من جمال في عصر الملوك النصريين فقد توارث هؤلاء الملوك الافتتان بالقصور و المبالغة في تزيينها و الإنفاق عليها ، و أهم تلك الآثار : قلعة الحمراء التي تقع على مقربة من المدينة ، و هي مبنى سلطاني ، أهدافه عسكرية في الأساس ، غير أنه بالإضافة إلى قيمته الحربية ، فهو آية من آيات الجمال ، و لم تصمم تلك القصور كما صممت الآثار الرومانية لتدافع الزمان طويلا ، بل صممت كأنها منتجع سرعان ما يعود منه صاحبه إلى محل إقامته إذ أعمدة تلك القصور رقيقة لا يتصور أن تقام الظروف الطبيعية هذه السنين كلها ! و هذا يدل على أن الفنان الذي بناها كانت غاية الجمال عنده قبل كل غاية أخرى ! و من هذه القصور "جنة التعريف" أين يخلو سلاطين بني الأحمر إلى أنفسهم مع أهليهم في أيام راحتهم ، و قصر جنة العريف سيكون له دور سياسي فيما بعد في عهد السلطان محمد الخامس .

و قد افتنن المؤرخون و الرحالون بجمال تلك القصور و سمحوا لأنسهم في ثايسا كتاباتهم التاريخية بإنشاء قطع أدبية في وصف جمال تلك القصور يصف المستشرق بروكلمان جمال الحمراء التي سميت بهذا الاسم لحمرة ترابها ، فيقول : "و يبلغ الوقع الذي يتركه جمال هذا القصر في النفس حد السحر عندما تتجلى أمام الناظر الصور العديدة الداخلة في غلائل من الذوق الجميل و قد سفحت على غرف القصر كلها أسمى الألوان و أروعها في سخاء بالغ و إسراف عجيب " ¹

و هذا الوصف و إن كان ينطبق على الحمراء المعاصرة للمستشرقين إلا أنها لا تختلف كثيرا عن الحمراء في الدولة النصرية ، و أفاضت الحمراء و غرناطة من السحر على نفوس زائريها ففسجوا حولها قصصا خيالية و نسبوا إلى أهلها القدامى أساطير تعبيراً منهم عن تقديس هذه المدينة ² ما ذكرناه موجزا هو عن غرناطة المدينة ، أما غرناطة المملكة فهي ، بطبيعة الحال أوسع من حدود تلك المدينة ، فبعد سقوط المدن الإسلامية ، ابتداء من شمال شبه جزيرة إيبيريا ، بقسي الجنوب الشرقي للأندلس بيد المسلمين و هو الذي تحول فيما بعد إلى مملكة غرناطة ، أما مدن أو أقاليم هذه المملكة فلم نجد فيما بأيدينا من المصادر ما يذكرها جميعا و بالتفصيل ، فالمقري عند كلامه عن غرناطة يذكر ثلاث أقاليم أو أعمال على حد قوله هي "قطرلوشة" و بها ولد ابن الخطيب و لنا إليها عودة ، و بها معدن للفضة جيد ، و من أعمال غرناطة الكبار "باغة" و هي تشتهر بالزعفران و منها "وادي آش" ³ أما ابن الخطيب ⁴ و هو أفضل من عرف بغرناطة في عهد بني نصر على ما نعلم ،

¹ - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة أمين فارس و منير بعلبكي ، دار العلم للملايين بيروت ، ط 5 ، 1968 ، ص 342-343 و لمريد من التفصيل في وصف قصور غرناطة انظر : [رحلة الأندلس] ، د. حسين مؤنس ، رحلة الأندلس : ص 161 و ما بعدها .

² - انظر واشنطن ايرفينج : قصر الحمراء في الأدب والتاريخ ، ترجمة إسماعيل العربي ، دار الراشد العربي بيروت لبنان ط 1 ، 1404 ، 1984 م ص 216 و 294 .

³ - المقري : فتح الطيب ، ج 1 ، ص 148 ، 149 .

⁴ - ابن الخطيب : الإحاطة ، 94/1

فلا يذكر إلا عددا قليلا من أقاليم المملكة ، مع العلم أن غرناطة كانت تضم عددا كبيرا من الكـوـر و الأقاليم .

تلك هي المدينة التي أصبحت عاصمة لبني الأحمر ، و بعضهم من مخدومي ابن الخطيب و تلك هي ملامحها الطبيعية و العمرانية¹ رأينا أن تقدمها بين يدي البحث لما نظن من أن الشاعر ابن بينته و لا سيما إذا كان هذا الشاعر هو ابن الخطيب الذي اصطبغت حياته بتاريخ تلك المملكة ، و الذي ترك بصماته واضحة في عطاءاتها الحضارية .

2 - بنو نصر (بنو الأحمر)

توافق حياة ابن الخطيب (713هـ-776هـ) : أغلب سنوات القرن الثامن الهجري ، أما ميلاده فيوافق عهد أبي الوليد إسماعيل بن فرج خامس ملوك بني نصر ، و لذلك نقصر الكلام على الفترة التي تولى فيها أبو الوليد إلى وفاة ابن الخطيب في عصر الغني بالله و سوف نخص عهدي "أبي الحجاج يوسف" النصرى و "الغني بالله" بفضل تفصيل لأن عهديهما يمثلان فترة ظهور ابن الخطيب على الساحة السياسية و العملية و لا بأس مع ذلك من التعرّيج على أوله بني نصر و كيفية تصير أمر غرناطة إليهم بعد "ابن هود" .

بعد اضمحلال دولة الموحدين التي حكمت إفريقيا إلى تخوم مصر بالإضافة إلى الأندلس ظهر محمد بن يوسف بن هود بمرسية و استطاع أن يستولى على شرق الأندلس و حاول أن يجاهد النصارى ، و كان يخطب للعباسيين في بغداد ، في محاولة منه لاكتساب نوح من الشرعية الإسلامية باعتبار دعوته امتدادا للخلافة الإسلامية في الشرق ، غير أن النصارى ، (غير أن النصارى) أوقعوا به هزيمة في شريش سنة (628هـ-1231م)² و مما أضعف دعوة ابن هود ظهور أحد أحفاد سعد بن عبادة الخزرجي صاحب رسول الله - صلى الله عليه و سلم - يدعى محمد بن يوسف بن نصر و الذي عرف هو و خلفه فيما بعد ، ببني الأحمر و سلفهم من أرجونة من حصون قرطبة³ و يذكر ابن الخطيب أخلاق هذا الرجل فيقول : " هذا الرجل كان آية من آيات الله في السذاجة و السلامة و الجمهورية ، جنديا ، شهما أيدا عظيم التجلد ، شديد العزم ، مرهوب الإقدام ... الخ" ⁴ و هذه

¹ - لمزيد من التفصيل عن غرناطة و معالمها الأثرية : انظر غرناطة في ظل بني الأجر دراسة حضارية ، د. يوسف شكري فرحات المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ط1 1982 ص201 و ما بعدها .

² - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص 332 .

³ - الإحاطة ، ج1 ، ص93 .

⁴ - ابن الخطيب : الإحاطة ، ج2 ، ص94 .

الصفات تكفي لنعرف عزم هذا الرجل على بناء دولة في ظروف قاهرة ، و دعا أول أمره للخليفة المستنصر العباسي على طريقه ابن هود ، و توريةً بدعوته التي خشي عليها من الفشل ، و استعان بأصهاره بني "أشقيولة" و استطاع بفضل سياسة مرنة أن يستولي على بعض المدن الأندلسية ، فاستولى على "أشبيلية" سنة اثنين و ثلاثين و "غرناطة" سنة خمس و ثلاثين و ستمائة و أول ما قام به فيها بناء قصر الحمراء ثم استولى على مالقة و المرية سنة 643هـ ، ثم بايعه أهل لورقة سنة 663هـ¹ ، و لكي يضمن لدعوته النجاح دخل في صلح مع فرديناند الثالث مقابل جزية ضخمة ، و قد استفاد القشتاليون من ذلك الصلح و استولوا على مدن عديدة منها جيان² .

و ظل ابن الأحمر مسالما للقشتاليين إلى وفاته ، و قد أثر أن يرضخ لشروط القشتاليين المذلة طمعا في استبقاء ملكه الذي يمثل كل ما بقي من الأندلس و كأنه أدرك أن كل التضحيات تهون في سبيل المحافظة على ما تبقى للأندلس و أيا ما كان حكما على هذا الموقف فإنه قد سمح بقيام دولة استطاعت أن تقاوم النصارى و تمد في أنفاس الحضارة الإسلامية في الأندلس ما يقارب قرنين ونصف قرن من الزمان .

و قد كتب لابن الأحمر أن يعيش إلى أن تتوحد أركان دولته و قد أحاطها بكل ما يحفظ لها الأمان ، و تحقق في عهده الرخاء لأهل مملكته كما تحقق الأمن ، و انتشر العلم فقد كان يعقد للناس مجلسا عاما ، يومين من كل أسبوع فتراجع إليه الظلمات ليقتضي فيها ، كما يعقد مجالس للعلم ، يذاكر فيها أهل العلم : الحديث و القرآن كما كانت الشعراء تغد عليه و تنشده و يثيب على ذلك³ و كانت وفاته عام 671هـ عندما كان راجعا إلى قصره في أثر إحدى غزواته⁴ .

و خلفه على عرش غرناطة ابنه محمد الذي عرف بالفقيه لعلمه فقام بالأمر أحمد قيام ، ثم خلفه محمد الثالث المخلوع (ت 701هـ) و خلع عام (708هـ) ، فخلفه نصر بن محمد سنة (713هـ) و كان مؤثرا للعلم ، دمث الأخلاق و سرعان ما خرج عليه أبو الوليد إسماعيل و خلفه من الملك ثم جلس بعده أبو الوليد إسماعيل في السنة المذكورة .

تميز عصر هذا السلطان بتوطيد الملك و إحياء عهد الجهاد ، و وقعت على عهده معارك مع القشتاليين كان النصر في أغلبها حليف المسلمين ، فقد غزا القشتاليون غرناطة و هزموا المسلمين في "وادي فرتون"⁵ سنة 717هـ ثم بدا لهم محاصرة العاصمة فسارع ابن الأحمر إلى طلب المدد من

¹ - المقرئ : فتح الطيب ، ج 1 ، ص 448 .

² - الإحاطة ، ج 9 ، ص 99 .

³ - ابن الخطيب : الإحاطة ، ج 2 ، ص 95 .

⁴ - المصدر نفسه ص 100 .

⁵ - محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس و تاريخ العرب المتصغرين مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر . ط 3 ، 1966 ، ص 117 .

السلطان المغربي أبي سعيد المريني فتردد في مده بالعون ، غير أن المسلمين أحرزوا نصرا على النصارى ، ثم بدا للسلطان المغربي نجدة إخوانه المسلمين فزحف في نخبة من جنده و هزموا النصارى هزيمة ساحقة سنة (718هـ) و تأكيدا لهذا النصر علقت جثة "الدون بيدرو" في تابوت من ذهب على أسوار الحمراء¹ .

ثم واصل أبو الوليد زحفه على المدن التي بيد القشتاليين فاستولى على بياسة سنة (724هـ) و مرتش سنة 725هـ² .

و مات أبو الوليد إسماعيل مغتالا من طرف ابن عمه محمد بن إسماعيل صاحب الجزيرة الخضراء بسبب جارية رائعة الحسن ، و ذلك سنة (725هـ)³ .

وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل و لم يتجاوز سنه تسع سنين⁴ و في عهده حدثت فتن انتهى بعضها بمقتل وزيره محمد بن أحمد بن المحروق ، ثم صفا الجو بين السلطان و الخارجين عليه و على رأسهم شيخ الغزاة عثمان ابن أبي العلاء عندما زحف القشتاليون على المملكة و احتلوا بعض الحصون ، فأجاز السلطان النصرى إلى المغرب مستجدا بالسلطان أبي الحسن المريني فاستجاب له ، و بعث معه جيشا بقيادة ولده أبي مالك ثم هاجم الجيش الإسلامي جيش القشتاليين و هزموهم و استعادوا جبل الفتح ، سنة 733هـ⁵ و لم تكن نهاية السلطان محمد بن إسماعيل أحسن من نهاية أبيه ، إذ قتل بعد هذا الانتصار بتحريض من شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء "و بقي معرى من ثيابه مسلوبا إلا من فضل الله و ثوابه ، ثم عطفوا عليه فاحتملوه و دفنوه بمالقة و ما صلوا عليه و لا غسلوه"⁶ .

و خلفه أخوه "أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل" و كان هذا السلطان شاعرا له ديوان شعر ، فاهتم بالعلم و بنى المدرسة الغرناطية ، فتميز عهده بالازدهار و لا سيما في آخره إلا أن الفتن كثرت في ذلك العهد و أول عمل قام به هو تعقب قتله أخيه ، نفيا ، و تشريدا إذ ففروا إلى تونس⁷ و أهم الأحداث في عصره غزو "ألفونسو الحادي عشر" ملك قشتالة لمملكة غرناطة فاستجد أبو الحجاج بأبي الحسن المريني سلطان المغرب فأنجده بولده أبي مالك قائدا لجيش المغاربة ، إلا أنه انهزم و قتل

¹ - المرجع نفسه ، ص 118 ، وانظر الإحاطة ، ج 1 ، ص 397 .

² - ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق ليفي بروفنصال ، ط 2 ، دار المكشوف ، 1956 ، ص 295 .

³ - محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص 120 .

⁴ - ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص 295 .

⁵ - محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص 124 .

⁶ - ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص 295 .

⁷ - نهاية الأندلس : ص 125 ، أعمال الأعلام ، ص 304 .

سنة (740هـ) فقرر السلطان أبو الحسن العبور بنفسه انتقاماً لولده ، في السنة الموالية ، إلا أن جيوش الإسبان كانت نفذت إلى أراضي المسلمين في أعداد هائلة ، و حاصروا ثغر طريف و نفثى الموت في المسلمين لقلّة المؤن نتيجة للحصار المضروب عليهم ، و في جمادى الأولى سنة 741هـ نشبت معركة بين الفريقين على ضفاف نهر "سالادو" ، أسفرت عن هزيمة المسلمين الذين قتل منهم عدد كبير ، و كان من بين القتلى حريم السلطان أبي الحسن ، و فر السلطان المغربي إلى المغرب ، ورجع أبو الحجاج إلى غرناطة¹ و كان لهذه الواقعة أثر كبير سبى على المسلمين لا يعدله إلا أثر معركة العقاب، و حافظ السلطان أبو الحجاج على العلاقة التي تربط دولته ببني مرين في المغرب بل عمل على توطيدها و حاول بعد هذه المعركة أن يوثق علاقاته الدبلوماسية مع الدول النصرانية ، فساد الأمن في غرناطة ، بضعة أعوام ، و لم يعتم أبو الحجاج أن قتل على يد مرور "في الركعة الأخيرة من صلاة عيد الفطر عام خمسة و خمسين و سبعمائة قطعناه بخنجر ، و قبض عليه و استقهم فتكلم بكلام مخلط .. و احتمل إلى منزله على فوت لم يشعر به إلا و قد قضى ، و أخرج قاتله إلى الناس فقتل لحينه"² .

و بعد وفاة أبي الحجاج خلفه على العرش ابنه "محمد بن يوسف" الملقب "بالغني بالله" و المعروف كذلك "بمحمد الخامس" ، فسار على سنته في إيقاع الهدنة مع النصارى ، و المحافظة على العلاقة الحسنة مع بني مرين ، و قد أوتي حظاً من الدهاء السياسي جعل ابن الخطيب يخلع عليه أنبل الصفات "فقد جمع الله له بين حسن الصورة و استقامة البنية و اعتدال الخلق ، و صحة الفكر و تقوى الإدراك"³ و هو الذي وزر له ابن الخطيب و سافر له عند "أبي عنان المريني" و ظاهره يوم عصفت به الفتنة و سعى من أجل عودته إلى مملكته ، و في عهده بلغ ابن الخطيب قمة مجده السياسي و لنا عود إلى تفصيل ذلك عند كلامنا على حياة ابن الخطيب في الفصل الأول إن شاء الله ، و استمرت إمارة الغني بالله من سنة (555هـ) إلى (760هـ) ثم من (سنة 762هـ) إلى (794هـ) بعد استعادة ملكه و لا ينتهي تاريخ الدولة النصرانية التي أخذنا أنفسنا بإيجاز الحديث عنها ، لا ينتهي في هذا التاريخ بل سيستمر بعد ذلك قرناً آخر من الزمان ، و لكننا نمسك عن الكلام هنا لأن حياة شاعرنا تنتهي في إمارة "الغني بالله" .

و الذي تجدر الإشارة إليه عند تأريخنا لمملكة غرناطة أن بني الأحمر توارثوا سياسة لبقة جداً سواء على المستوى الداخلي أو المستوى الخارجي ، فعلى المستوى الداخلي ، عمل ملوك بني الأحمر على إشاعة العلوم و الصنائع و استجلاب كل ما من شأنه أن يحقق الرخاء للرعية فأصبحت الجبهة

¹ - د. يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص 44 .

² - المقرئ نوح الطيب : ج 5 ، ص 81 .

³ - الإحاطة : ج 1 ، ص 14 .

الداخلية مأمونة الجانب ، أما على المستوى الخارجي فقد استغلت غرناطة التناقس الشديد بين المملكتين النصرانيين "قشتالة" و "أراغون" لصالحها كل الاستغلال فعملت على التفريق بينهما بمصالحة إحداهما على الأخرى و غالبا ما كانت تسالم أراغون و تعقد معها معاهدات الصلح و ذلك ما سمح للمملكة بالحياة في جو خانق ، قرنين و نصف قرن من الزمان ! و آية نجاح هذه السياسة أنه عندما اتحدت مملكتا قشتالة و أراغون كان ذلك عاملا أساسيا من عوامل سقوط آخر دولة إسلامية في الأندلس¹ هذا من جهة و من جهة أخرى فقد حافظ بنو الأحمر على العلاقة الحسنة بينهم و بين بني مرين ملوك المغرب ، و توطيدا لتلك العلاقة اتخذ ملوك بني الأحمر شيخ الغزاة ، و هو منصب عسكري هام ، من بني مرين ، فأصبح رئيس الجند من المغرب و في هذا إشارة إلى أن غرناطة وفاس يمثلان في الواقع جبهة واحدة ذات شقين .

لقد عمل بنو الأحمر على اختلاف فيما بينهم على المحافظة على أرض الإسلام في قارة أوروبا ما استطاعوا ، و لا يمكن أن نحملهم سقوط المسلمين هناك كما يعتقد كثير من المتقنين ، بل إن المسؤولية في الواقع يتحملها المسلمون جميعا في المشرق و المغرب على السواء في القرن التاسع الهجري .

3 - أضواء على الحياة الاجتماعية و الدينية و الفكرية في عصر ابن الخطيب :

أ - الناحية الاجتماعية : يتكون المجتمع النصري من أجناس بشرية مختلفة هي : العرب والبربر و المولدون ، تنتظمهم ثلاث ديانات هي الإسلام و النصرانية و اليهودية ، ومع اختلاف هذه العناصر ، جئسا إلا أنها كانت متوحدة تحت راية الإسلام ، و لا شك أن أكثرها عددا هم العرب حتى إن ابن الخطيب عد من أنساب المملكة الغرناطية عشرات من الأسماء منها العبسي و الباهلي والكلابي و السلولي و التقفي و الأوسي و الخزرجي و الأزدي و الكندي و الهمداني . و الحميري و الجهني و السلماني و هو قليل فيهم² .

و هذا التنوع في الأعراق و الأنساب قد أدى بدهاء إلى ما عرفته الأندلس في العهد النصري من رخاء إذ تنوع الخبرات في المجتمع دليل على غناه بالطاقات ، و قد ألمحنا في ما سبق إلى الفن النصري الذي هو نتيجة لاختصار العبقرية الإسلامية الأندلسية ، و ما كان ليحصل هذا التفرد في الإبداع الفني لولا وجود عوامل منها هذا التنوع في العناصر البشرية .

و قد عرفت مملكة غرناطة في عهد بني الأحمر ، رخاء اقتصاديا كبيرا إذ إن تلك المنطقة زاخرة بالإضافة إلى المنتجات الزراعية من فواكه متنوعة و خضر بالمعادن الثمينة التي ساعدت

¹ - د . اسعد حرمود : محنة العرب في الأندلس ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط 1 ، 1980 ، ص 81 .

² - ابن الخطيب : الإحاطة ، ج 1 ، ص 137 و عدد الأسماء في عهده ابن الخطيب 74 نسبا عربيا .

على قيام صناعات أهمها الصناعة الحربية ، و قد تأنق الغرناطيون في الأسلحة في أشكال مختلفة نتيجة لذلك الرخاء ، و نظرة سريعة على نوعية اللباس الغرناطي يدل على ذلك إذ "لباسهم الغالب على طبقاتهم الفاشي بينهم ، الملف المصبوغ شتاء ، و تتفاضل الجدة و المقدار ، و الكتان و الحرير و القطن و المرعزي و الأردية الأفريقية و المقاطع التونسية و المآزر المتنوعة صيفا فتبصرهم أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة"¹ أما عملاتهم فكانت مستمدة من الفضة الخالصة و الذهب الإبريز² .
و للغرناطيين عادات و أعياد أخذوها عن المشاركة فبالإضافة إلى عيد المولد النبوي الشريف ، هناك عيد النيروز حيث يخرج أهل غرناطة إلى المنتجعات وقت نضوج الغلال ، جماعات جماعات فيخرج الرجل مع أهل بيته إلى الفحوص مصطحبا معه سلاحه و عدته ، لما جبل عليه من الشهامة و تحسبا لما قد يلقاه من قطاع الطرق ، و يدل هذا من ناحية أخرى على شياع الأمن إلى درجة خروج العائلات جميعها أو أغلبها في كامل زينتها !

كما يدل على انتشار اللهو الذي هو نقيض الجد ، و هو ما سيؤدي إلى سقوط المملكة من بعد و مما اشتهر عنهم كثرة الحمامات و أخذهم أنفسهم بأسباب النظافة و اتخاذ العطور و التفتن فيها و كان الغرناطيون يحرصون على استيراد ما لا يصنع في بلادهم من العطور "فالمسك و الكافور و العود و العنبر و الزعفران ، و كلها أرض الهند^{من} إلا الزعفران و العنبر فإنهما موجودان في أرض الأندلس"³ ، و كانت الرعاية في ذلك مقتدية بالحكام الذين اتخذوا حمامات خاصة ، و من المعروف حرص الأندلسي على نظافته و حسن مظهره و لو كلفه ذلك الجوع يقول المقرئ : "و أهل الأندلس أشد خلق الله عناية بنظافة ما يلبسون و ما يفرشون و غير ذلك مما يتعلق بهم ، و فيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائما و يبتاع صابونا يغسل به ثيابه و لا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها"⁴ .

أما المرأة الأندلسية فقد عرفت بالجمال و التفتن في اللباس و العطر ، و كان للنساء أوقات خاصة لدخول الحمامات ، و كانت تتميز بما يعرف في عصرنا بالحرية نسبية و لم يقل شأنها عن أختها في قرطبة أيام الخلافة الأموية أو عنها في إشبيلية في دولة المعتمد بن عباد ، و اشتهر من النساء كثيرات عرفن بالأدب منهن أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجال (ثالثة حمدونة و ولادة)⁵ التي

1 - المصدر نفسه : 135/1 .

2 - المصدر نفسه : 137/1 .

3 - المقرئ : نفع الطيب ، ج 1 ، ص 499 .

4 - المصدر نفسه : ج 1 ، ص 223 .

5 - ابن الخطيب : الإحاطة ، ج 1 ، ص 436 .

ذكر لها ابن الخطيب شعرا في الإحاطة ، و لم يقف دور المرأة عند حدود قرص الشعر ، بل تعداه إلى التأثير في الحياة السياسية على النحو الذي سنعرضه فيما يستقبل من صفحات .

ب - الناحية الدينية : من المعروف أن مذهب أهل الأندلس هو المذهب المالكي ، الذي انتقل إلى الأندلس مع من دخلها من العلماء و التابعين و اتفق أن كان هؤلاء أو أغلبهم على المذهب المالكي فكتب له أن يستمر إلى آخر دول الأندلس و رغم مقاومة ابن حزم له منتصرا للمذهب الظاهري الذي أخذ نفسه به ، فقد كان انتشاره في البلاد بحيث لا يمكن أن يزحزحه مذهب آخر ، و كان للفقهاء و لا سيما في القرن الثامن أثرهم الواضح في توجيه الحياة الاجتماعية و السياسية ، ذلك أن منصب الحسية ينبغي أن يتصدر له من اكتمل علمه بالفقه حتى تسري أحكام الشريعة الإسلامية بشكل عادل على أفراد المجتمع و حتى يؤخذ المحتكرون للأقوات أو العشاشين بما تلزمهم به أحكام الفقه و كان لصاحب الحسية دور النهي عن المنكر و الأمر بالمعروف في الأسواق و الأحياء و ”تطبيق فروض الدين و إقامة أركانه و خاصة الصلاة أيام الجمع و الأعياد و الصوم في رمضان و الزكاة عندما تدعو الحاجة و المحتسب الغيور يراقب عن كثب نظافة المساجد و يهتم بتجهيزها على الوجه اللائق ، ويلحق صاحب السوق المنكرات و يمنع المحرمات و يدعو إلى احترام الآداب و تعزيز الأخلاق و يمنع مثلا الرجال و النساء من الاختلاط في بعض الأماكن“¹ .

و تجدر الإشارة إلى أن الفقيه أصبح في هذا العصر ينظر إليه بعين التجلّة حتى كانوا إذا أرادوا أن يخاطبوا شخصا موقرا أضافوا إلى اسمه الحقيقي لقب الفقيه و إن لم يكن من علماء الشريعة ، و لم يعرف أهل الأندلس تعدد المذاهب الإعتقادية كما هو حاصل في الشرق ذلك أن ”أحوال هذا القطر في الدين و صلاح العقائد أحوال سنّية و النحل فيهم معدومة ... و أخلاقهم في احتمال المعاون معروفة“² .

و من مظاهر التدين في هذا العصر إسراع الناس إلى إجابة داعي الجهاد في سبيل الله و قد كان للخطباء في إذكاء روح الجهاد في قلوب الجماهير دور أيّ دور ! و كانت المملكة تصدر بيانات بإعلان الجهاد و الحث عليه ، و لا يمكن أن ننسى دور الرسائل التي كان يكتبها ابن الخطيب سواء في استمالة قلوب ملوك المسلمين في المغرب أو في حض الناس على الجهاد و قد توارث بنو نصر (خطة) الجهاد أبا عن جد و مما يصلح أن يستشهد به في هذا الميدان كتاب من ابن الخطيب في حض الناس على الجهاد صدعت به الخطباء من فوق المنابر لأهميته و مما جاء فيه ”.. و أردنا أن نهزكم بالموعة التي تكحل البصائر بميل الاستبصار ، و تلهمكم الاستبصار بالله عند عدم الانتصار ، فإن

¹ - د . يوسف شكري فرحات : غرناطة في ظل بني الأحمر ، دراسة حضارية ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع بيروت لبنان ط 1
1981 ، ص 102-109 .

² - الإحاطة : ج 1 ، ص 134 .

هذه المرأة التي حطت خيامها بقباء ، وبرزت في أحسن زينة ، أتراها تعرضت للشاعر أم تهيأت لزيارة الرسول (ص) ؟ و البرق الذي يلوح من نجد ، يزيد من تباريح شوق الشاعر إلى الحبيب :

تألق نجديا فأذكرني نجدا و هاج لي الشوق المبرح و الوجد¹
أما البرق الذي يلوح من مطلع الوحي ، لمن نزحت به الدار وشط به المزار ، فهو يستحث المطايا ، لتغذ السير ، كأنها سفائن أبحرت في بحر من الآل ، رغم ما بها من جهد لما تلقاه في تسيارها و كأن البرق إذا بدت تباشيره من مطلع الوحي ، نداء روعي ، لا يملك معه الشاعر إلا أن يليه .

أثار سرها و الديار نوازع سنا يارق من مطلع الوحي لائح
سفائن تستف الفلا فكأنبها سفائن في بحر السراب لوائح
إليك رسول الله شدت نسوعها و غادرها الإدلاج و هي طلالح²

و بالإضافة إلى المطالع التي يذكر فيها لسان الدين الموضع التي يرتبط ذكرها بشعائر مقدسة فإنه يستهل بعض مدائحه النبوية ، واعظا و تائبا منيبا ، إلى ربه ، من رعونات الشباب ، و ماله لا يفعل ، و قد جاءه النذير ، و وخط الشيب مفرقه و الشيب من أكبر الزواجر ، كما أنه أبعد في نصح عن التهم ، يقول لسان^{الدين} في مقدمة بعض مولدياته بعد أبيات غزلية³ :

وركضت طرف اللهو في شأو الصبا مرحا فجزت مدى النعيم بعيدا
ما لي و تذكار الصباية و الصبا و موافقا عند الهوى و عهدا ؟
و صباح شيب الفود لاح بمفرقي فغدوت من فقد الصبا مفؤدا

ثم يشير لسان الدين إلى فلسفة النفس و علاقتها بالجسد ، أو عالم الروح و عالم المادة : فحقيقة النفس و ماهيتها أنها ذات طبيعة نورانية و هي ترقى بالطاعات و الرياضة الروحية ، و تشرق بنور الرحمان ، كما أنها تظلم بدرن الجسد ، و ذلك إذا تركت عالمها النوراني ، و ولغت في المعاصي و غاصت في لجج الهوى ، و آثرت شبعا مظلما يضاد ماهيتها النورانية ، و ابتعدت عن طبيعتها اللطيفة :

إنا إلى الرحمان متنا أنفسا بُؤِنَ من ظلم الجسد لحودا
نسيت عوالمها الكرام فنورها تَسْتَأْمُه أَيْدِي الهوى بتديدا
و استوثرت شبعا خلاء لم زل لخفي معناها الأثير ضديدا⁴

¹ - المصدر السابق : 347/1 .

² - المصدر نفسه : 224/1 .

³ - المصدر نفسه : 351/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 351/1 .

جبر الله الخواطر بالضراعة إليه ، و الانكسار .. ، و أنجد اليمين بانتهاء اليسار ، و إلا فقد تعين في الدنيا و الآخرة حظ الخسار فإن من ظهر عليه عدو دينه و هو عن الله مصروف .. فقد تله الشيطان للجبين .. و ذلك هو الخسران المبين ... الخ¹ . فإنك ترى ما في هذا الكتاب من التذكير و الموعظة اللذين من شأنهما هز النفوس .

و من مظاهر التدين في هذا العصر انتعاش حركة التصوف ، فقد ظهر كثير من المنقطعين إلى الله و الزهاد ، أشهرهم في المغرب ابن عاشر الذي جاور ابن الخطيب بقبره و هذا و إن كان من حيث المكان خارجا عن الدولة النصرية إلا أن أثره في ابن الخطيب غير خاف ، كما سنرى فيما بعد و منهم أبو عبد الله محمد بن المحروق ... و غيرهما .

و من مظاهر التدين في ذلك العصر احتفالاتهم بالأعياد و المواسم الدينية كعيد الفطر و عيد الأضحى و المولد النبوي الشريف فقد كان اهتمامهم لا سيما بهذا الأخير ، كبيرا ، و هذا الاهتمام سوف يساعد على رواج أحد الأغراض الشعرية في هذا العهد بشكل لافت للنظر و هو شعر المولديات الذي أكثر منه ابن الخطيب ، و مما "ساعد على حركة الزهد قدوم مهاجرين من الهند و سمرقند و تبريز و خراسان و استقرارهم في الأندلس و مساهمتهم في إبراز تيار الزهد"² .

ما سبق ذكره هو على سبيل الإلماع دون الاستقصاء ، لأن ذلك يخرج بنا عن القصد ، و هو كاف ليبرز لنا أن المجتمع النصري لم يكن ذلك المجتمع الذي تخلى عن قيمه و مبادئه و خلع عذار العفة ، و أقبل على اللذات ، كما يعتقد بعض الناس ، فهو مجتمع أشد ما يكون ارتباطا بعقيدته فقد نافح عنها إلى آخر رمق .

ج - الناحية الفكرية : نريد بالناحية الفكرية النشاط العقلي بمختلف مجالاته في عصر ابن الخطيب ، و من الطبيعي أننا لا نريد أن نؤرخ لهذا الجانب ، لأن ذلك يخرج بنا عما نحن فيه من هذا التمهيد بيد أننا سنذكر بعبارة أهم ما يطبع عصر ابن الخطيب في هذه الناحية ، نظرا لصلته ذلك بشخصية ابن الخطيب العلمية و الأدبية .

سبق أن ذكرنا عناية المجتمع الأندلسي في القرن الثامن بالفقهاء و تكريمه للفقهاء و قد نبغ في هذا الجانب قدر لا بأس به من العلماء ، منهم ابن الفخار الإلبيري ، و ابن لب ، أحد أكابر المالكية بالمغرب و "قل من لم يأخذ عنه في الأندلس"³ .

و قد أخذ عنه كثيرون منهم ابن الخطيب ، و إذا كان العلماء قد اكتفوا بالتقيد بمذهب الإمام مالك فإن ذلك لم يمنعهم من بعض الاجتهادات الدالة على قوة الذكاء ، و ممن أبدعوا في ذلك أبو زيد

¹ - ابن الخطيب : الإحاطة ، ج 2 ، ص 55-56 .

² - د . يوسف شكري فرجان : غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص 156 .

³ - المقرئ : نفع الطيب ، ج 5 ، ص 513 .

عبد الرحمان ابن الإمام (ت 741هـ) . فقد بلغ من الاجتهاد أن عده بعض معاصريه خارجا عن مذهب الإمام مالك لمخالفته له في بعض المسائل¹ و كما كانت عنايتهم بالفقه كبيرة فكذلك عنايتهم بالقرآن و علومه، و تكفي الإشارة هنا إلى الأستاذ أبي جعفر ابن زبير الغرناطي (ت 708هـ) الذي له "ملاك التأويل القاطع يدوي الإلحاد و التعطيل في توجيه متشابه اللفظ من آبي التنزيل"² و هو دال على قدرته البارعة في تأويل الآيات المتشابهة من القرآن الكريم .

أما العلوم اللغوية ، فقد غلبت عليها الدراسات اللغوية و لا سيما دراسة كتاب سيبويه و أشهر لغويي هذا العصر أبو حيان الأندلسي الغرناطي (ت 745هـ) و ابن الفخار السابق الذكر الذي عده الرافعي سيبويه عصره³ .

و أما في مجال العلوم التطبيقية فقد اشتهر عدد لا بأس من الأطباء و ألفوا في ذلك الكتب و لا سيما موضوع مرض الطاعون الذي أصاب الأندلس سنة (749 هـ) . و ممن ألف في ذلك ابن هذيل أستاذ ابن الخطيب ، ثم ابن الخطيب نفسه و ابن خاتمه الذي وضع مؤلفا عن الطاعون الجارف عنوانه "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"⁴ .

و في هذا العصر كثيرا ما جمع المؤلفون بين الكتابة الأدبية و التاريخ و الشعر و أشهرهم ابن خاتمة الأنصاري (ت 770هـ) السابق ذكره الذي ألف كتاب عن المريعة ، و القاضي أبي الحسن النباهي صنيعا ابن الخطيب ، ثم ابن الخطيب نفسه صاحب الكتب الذائعة في التاريخ و أشهرها كتابه عن غرناطة .

و في مجال الأدب بشعره و نثره حفل هذا العصر بمبدعين كبار سواء منهم من كانوا يمثلون الجانب الرسمي التابع لسياسة الدولة أم ، من كانوا من طبقات شعبية متواضعة ، و ازدهرت في هذا العصر أغراض أدبية من حيث كثرتها و انتشارها أما الكتاب فمنهم أبو الحسن علي بن الجياب و ابن خاتمة ، و ابن خميس التلمساني المتوفى (سنة 708هـ)⁵ ثم القاضي النباهي و ابن زمرك اللذان سنخسهما بمزيد كلام فيما يأتي ، و أخيرا ابن الخطيب ، و تميز نثر هؤلاء الكتاب بالتزام المحسنات البديعية و الإكثار منها إلى درجة تدعو إلى الملل و هم يمثلون الطراز الأعلى للكتابة الفنية و هم بذلك يشكلون مدرسة أندلسية تعود أصولها إلى رواد الكتابة الفنية في المشرق العربي التي تقوم على التأنق

¹ - المصدر نفسه : ج 5 ، ص 218 .

² - تحقيق سعد الفلاح : دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، 1403هـ - 1983م .

³ - مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، ج 3 ، دار الكتاب العربي ، لبنان 1974 ، ص 324 .

⁴ - ابن خلدون : المقدمة ، دار القلم ، ط 7 ، 1989 ، ص 583 .

⁵ - كتب عن ملوك تلمسان ثم كتب للوزير ابن الحكيم بغرناطة توفي قتلا في التاريخ المذكور أعلاه ، الإحاطة ، ج 2 ، ص 562 .

في الأسلوب و الاهتمام بقوة العبارة و اصطناع الأصباغ البديعية ... أعني بديع الزمان و الحريري صاحبي المقامات ذات التأثير البالغ في الأدب العربي .

و كما ساعدت السياسة على ظهور طبقة من الكتاب يتنافسون على مصب الكتابة لدى السلطان فقد ساعدت البيئة الأندلسية في ذلك العصر على ذبوع الشعر و الغناء و كان من نتيجة ذلك أن ازدهر فن الموشح و هو فن أندلسي أصيل ، و هو مما أجلب به أهل المغرب على أهل المشرق¹ و هو مما ترك المتقدم للمتأخر و هو فن تشمخ به الأندلس على العالم العربي ، و الغربي ، ذلك أن تأثير هذا الفن تعدى حدود الرقعة الإسلامية إلى أوروبا فشعر التروبادور هو نتيجة لاحتكاك شعراء بروفانس الواقعة جنوب فرنسا بالثقافة العربية الإسلامية ، و من هؤلاء الشعراء غليوم التاسع (ت918هـ) و روديل (ت1114م) و ماركابرو (ت1144م)² ، و من أشهر وشاحي هذا العصر ابن زمرك بالإضافة إلى ابن الخطيب ، أما الشعراء فقد أفرد ابن الخطيب أحد كتبه لسرد تراجمهم و عرض نماذج من أشعارهم و التعليق عليها في بعض الأحيان و هو كتاب الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه في الأندلس من شعراء المائة الثامنة ، و "ابن الخطيب وحده و بمؤلفاته وحدها يمكن أن يرسم صورة أقرب إلى الاكتمال عن الأدب الأندلسي شعرا و نثرا في المائة الثامنة للهجرة"³ و ذلك لغزارة ما ألفه ابن الخطيب في هذا المجال .

و أصبح للشعر، كما هو دائما في تاريخ الإسلام ، دور حاسم في بعض القضايا المتعلقة بالحكم و مصير المسلمين ، و لذلك فالشعراء في هذا العصر لم يكونوا في درجة لاعبي الشطرنج أو أقل منهم كما يقرر أحد المستشرقين⁴ و إلا فأين نضع شعراء و كتابا من أمثال أبي الحسن بن الجباب و القاضي النباهي و الكاتب و الوزير الشاعر ابن زمرك و ابن خميس التلمساني و ابن خاتمة الأنصاري؟!- و يمكن أن نجد وجهها آخر لتكريم الشعراء ، و هو أن بني الأحمر أخذوا أنفسهم بتنظيم احتفالات المولد النبوي فكان الشعراء في ذلك اليوم يلقون أشعارهم و لا سيما الشعراء الرسميين في الدولة حتى أصبح لهذا النوع من الشعر و هو المولديات ، و العيديات ، حظ وافر من الكثرة و التسوع

¹ - في أصل الموشحات رايان مشهوران ، الأول و هو رأي المؤرخين المسلمين و هو أنها أندلسية الأصل ، و الثاني رأي المستشرقين و لا سيما المستشرقين الإسبانين حوليان ريبيرا و منديث بيدال و هما يريان أن أصول الموشحات أعجمية حيث قلد الوشاحون الأندلسيون شعرا غنائيا أعجميا و انظر : د . مصطفى عوض الكرم من التوشيح دار الثقافة بيروت ، ط 2 ، 1974 ص 107 .

² - عن شعر هؤلاء الشعراء و تأثير الموشحات فيهم انظر : عبد الإله ميسوم ، تأثير الموشحات في التروبادور ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر ، 1981 الصفحات ، 219-242-244 .

³ - د . مصطفى محمد الشكعة : المغرب و الأندلس آفاق إسلامية و حضارة إنسانية ، و مباحث **أندلسية** ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ط 1 ، 1987 ، ص 529 .

⁴ - هنري بريس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملاحظه العامة و موضوعاته الرئيسية و قيمته الوثائقية ، ترجمة د . طاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، مصر ، ط 1 ، 1988م ص 74 .

و من خصائص الشعر في هذا العصر تنوع أغراضه فهو يتناول الزهد و التصوف و المدح و الغزل و الوصف و وصف المعارك و الحروب و النهائي لولادة أو زواج و الألبان ، و منها كثرة المطولات ، و كأن البراعة الشعرية كما يقتضيها الذوق الفني لهذا العصر ، أصبحت مركزة على طول نفس الشاعر و قدره إتيانه بالغرائب من اللفظ ، و براعته في التحول من موضوع إلى موضوع ، أما قوة الشاعرية فهي تختلف من شاعر إلى آخر فطبقة الكتاب و الشعراء الذين خدموا أبواب الحكام¹ ربما كانت متميزة الإحسان² ، أما القضاة و العلماء ف شعرهم منحط عن درجة الإجابة ، و يكاد يجمع الدارسون المعاصرون على أن أهل الأندلس لم يزد تجديدهم في الشعر على الإكثار من شعر الطبيعة ، لما تميزت به ببيتهم من جمال ، دعاهم إلى استحداث الموشح و الزجل ، أما المعاني و الصور فهي الصور المشرقة نفسها و بذلك فإن "الأدب الأندلسي مدين في نهضته للتراث العربي العام ، و هو تراث كان مشتركاً بين الأقاليم العربية كلها ، لا يختص به إقليم دون إقليم"³ و ربما يكون أهم ما ميز ذلك الشعر ، بعد شعر الطبيعة و فن الموشح هو شعر الاستغاثة الذي "كثر في الأدب الأندلسي حتى صار بكثرة و تنوع صورته فناً جديداً في الشعر الأندلسي بل في الشعر العربي كله"⁴ و قد استمر هذا الفن الشعري غزيراً و متنوعاً في القرن الثامن الهجري .

و يحاول المستشرق الفرنسي هنري بيرس أن يفصل بين الشعر العربي في الأندلس و صنوه في المشرق الإسلامي ، فيرى أن الشعر الأندلسي أدق تعبيراً عن خصائص الشعب الأندلسي و أنه "ينبغي أن لا تفكر دوماً في الأصول السامية لمن يعبر عنهم و أن الناقد الذي لا يود أن يرى في الشعر الإسباني إلا ظلال الأدب العربي في المشرق يخاطر بأنه لا يواجه إلا الجانب الأقل أهمية في هذا الشعر"⁵ ، و هذا التعليل القائم على تمييز الجنس الإسباني عن الجنس العربي ذي الأصول السامية فكرة يلهج بها بعض المستشرقين و ليس لها أساس علمي صحيح ، بل يمكن أن يقال إن الشاعر العربي حين تهيأت له ظروف جديدة و انتقل إلى بيئة تختلف عن بيئته العربية - البدوية في الغالب - استجاب لها و أبدع فناً أندلسياً ولكنه في كل الحالات فن عربي و تدل هذه الحالة أيضاً على حيوية المسلم ، و أنه كالغيث أينما وقع نفع .

و قد برز في هذا القرن شعراء قل أن نجد لهم مثيلاً في المشرق في الوقت نفسه و ذلك أن ابن الأحمر صاحب نثر فرائد الجمان عندما ترجم للشعراء في عصره لم ير من المشاركة من يؤهله

1 - ابن الخطيب : الكعبة الكامنة فيس لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ، يحقق د . إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، ص 158 .

2 - د . شوقي صهيف : الفن و مذاهبه في الشعر العربي ، ط 10 ، دار المعارف ، ص 412 .

3 - د . عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية بيروت 1978 ، ص 413 .

4 - هنري بيرس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملاحظه العامة و موضوعاته الرئيسية و قيمته التوثيقية ، ترجمة د . طاهر أحمد مكى ، دار

المعارف مصر ، ط 1988 ، ص 26 .

شعره ليحتل مكانا في مصنفه فاكتفى بثلاثة شعراء مشاركة و هم صفى الدين الحلبي ، و أنشد له قصيدته التي يعارض فيها قصيدة المبيي و مطلع تلك القصيدة ¹ :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فجعلن حبات القلوب ذوائبا .

و ينم المطلع عن التحلل من القيم الخلقية ، كما يدل على تجاوز مطالع الجاهلية التي كانت تتسم بالوقوف على الطلل .

أما الشاعر الثاني فهو الشريف عبد العالي بن طاوس العراقي ² ، و الثالث هو شهاب الدين بن أبي حجلة ³ .

و عرض ابن الأحمر بعد ذلك للترجمة ثمانية عشر شاعرا من شعراء الأندلس و تسعة من شعراء المغرب و من هؤلاء الشعراء ، في الأندلس أبو الحسن بن الجياب ، و أبو القاسم السبتي (ت758هـ) ، و غيرهما ⁴ . و ابن الجياب بالإضافة إلى اشتهاره بالكتابة فهو شاعر مكثر جمع شعره ابن الخطيب ، و من أبرز الشعراء في هذه المرحلة الشيخ الكاتب أبو إسحاق إبراهيم بن جابر القيسي الذي وصف شعره بأنه "جزل الأسلوب عذب في الأقواء و جليل في القلوب" ⁵ و منهم ابن خاتمة ⁶ الذي اشتهر بروضياته و منهم ابن خميس ⁷ الذي اشتهر بشعر التصوف و قد أورد له ابن الخطيب قدرا لا بأس به في الإحاطة و الكتيبة الكامنة ⁷ و منهم ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب صاحب الموشحات التي خلقتها قصور الحمراء و ارتبطت بها و هو صاحب ديوان شعر حوى كثيرا من الموشحات ⁸ . ثم ابن الخطيب موضوع بحثنا .

و يدل شعر كثير ممن تصدر لفن القريض في هذا العصر على ضعف ملكتهم في هذا الفن إذ أغلبهم إنما هم في الأصل كتاب و في الكتابة فن يغلب عليه العقل و هو ميزة أهل المغرب . و لكن يبدو أن المشاركة في فنون الأدب بمختلف أنواعها أصبحت السمة التي يحرص كل علم من أولئك أن يتصف بها مهما يكلفه ذلك من احتمال ما لا يحسن ، و هذا لا ينفي الشعاعية عن بعضهم فإن ابن

¹ - ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف : نثر فرائد الجمال في نظم قول الزمان ، تحقيق و تقديم و دراسة محمد رضوان الدية ، دار الثقافة بيروت

1967 ، ص 223 و هو يعارض فيها قصيدة المتني التي أوطأ

بأي الشموس الجائحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

انظر : ديوان المتني في دار الجليل ، بيروت ، ص 149

² - المصدر نفسه : ص 227 .

³ - المصدر نفسه : ص 228 - 292 .

⁴ - المصدر نفسه : ص 239 .

⁵ - ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ص 163 .

⁶ - المصدر نفسه : ص 239 ، و الإحاطة ، ج 2 ، ص 529 و ما بعدها .

⁷ - المصدر نفسه : ص 239 ، و الإحاطة ج 2 ، ص 529 و ما بعدها .

⁸ - حقق هذا الديوان و قدم له دراسة ، حمدان حجاجي : ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1989 .

زمرک مثلاً قد أتى في موشحاته بغرائب و دل بذلك على كونه أصيلاً في هذا الفن و ليس مقلداً فحسب.

إن هذه اللمحة الموجزة عن عصر ابن الخطيب ، تكشف للباحث عن مدى التطور الحضاري الذي وصل إليه المجتمع الغرناطي ، من إبداع في الفن المعماري ، و اهتمام بالجوانب الترفيحية و انتشار للعلوم و الفنون ، كما تعكس مدى تشبث الأندلسيين بدينهم و توقيرهم للعلماء ، و الفقهاء خاصة و ميل بعضهم إلى حياة الزهد ، و التجرد ، و الخلوة الصوفية ، مع عدم الإخلاق إلى الزهد السلبي ، لأن المسلمين في تلك المرحلة كانوا محاطين بالأعداء من حدودهم الشمالية و المغربية ، وكان هؤلاء الأعداء يتربصون بهم الدوائر ، و يبغونهم الفتن مما أضعف جبهتهم الخارجية ، ولكنهم مع ذلك و هذا يؤسف له الأسف كله ، كانت تثور بينهم الفتن الداخلية ، فقلما عرفت هذه المملكة النائية في لجج المحيط الأوروبي ، حياة الاستقرار ، و ذلك مما أضعف جبهتهم الداخلية .

الفصل الأول

حياة ابن الخطيب و آثاره

أولا : حياة ابن الخطيب

ثانيا : آثاره

جامعة الأزهر
عبد القادر للعطوم الإسلامية

أولا : حياة ابن الخطيب

1 - عناية الدارسين بابن الخطيب :

ليس ابن الخطيب بالرجل الخامل الذكر ، في عصره ، بل ربما صح فيه ما يقال عن المتبني من أنه ملأ الدنيا و شغل الناس ، فقد نال قسطا وافرا من العناية من قبل الدارسين في عصره و في العصر الحديث ، و سبب تلك العناية هو شخصية ابن الخطيب المميزة من عدة جوانب فقد شارك الرجل في السياسة إدارة و حكما ، و في الكتابة تأليفا و في الأدب إبداعا ، و ممن كتب عنه من القدامى ابن خلدون في تاريخه و ابن الأحرر ، و ابن حجر و السلوي في تاريخه و الشوكاني في تراجمه و المراكشي و غيرهم و يأتي على رأس هؤلاء المقرئ في كتابيه نفع الطيب و أزهار الرياض فأما الكتاب الأول فقد ألفه صاحبه أساسا عن ابن الخطيب و أدبه مع ما حواه من أخبار عن الأندلس من لدن فتحها إلى سقوطها ، و أما الأزهار و إن لم يكن ألف عنه ابتداء إلا أننا نظفر فيه بمادة وافرة عن أدبه ، ثم إن ابن الخطيب حرص على أن يترجم لنفسه في آخر كتابه الإحاطة على عادة المؤلفين في عصره و في غيره من مؤلفاته ، أما من المعاصرين فإن محققي كتبه أفردوا كلاما في مقدماتهم عن حياته لا سيما ما تعلق منها بذلك الكتاب المحقق ، و منهم من وضع كتابا مستقلا عن ابن الخطيب و أهم هذه الكتب كتاب محمد عبد الله عنان "نسان الدين بن الخطيب حياته و تراثه الفكري ، و كتاب محمد بن أبي بكر التطواني : "ابن الخطيب من خلال كتبه " في جزأين ، كما نجد كلاما عن حياته و مؤلفاته باقتضاب في كتب التراجم و معاجم الكتب كالإعلام للزركلي ، و معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة و كشف الظنون لحاجي خليفة ، و أخيرا يأتي المستشرقون و على رأسهم المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال الذي حق الجزء الثاني من كتابه أعمال الإعلام و قدم له بدراسة عن حياته .

و قد أخذنا حياة ابن الخطيب من هذه المصادر معتبرين ما كتبه ابن الخطيب عن نفسه في الإحاطة أساسا ، ثم ما كتبه عنه صديقه ابن خلدون و "مقرئ ، و استفدنا من الدراسات التي وضعت عن حياته و لا سيما ما تعلق بالجانب الأدبي منها ، في كتبه المحققة .

2 - اسمه و نسبه و مولده :

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي¹ بن أحمد السلماني² ، و يرد بدل علي ، عبد الله عند ابن الأحمر ، و لا تذكر بقية المصادر ذلك ، و لعل لهذا الجد اسمين هما علي و عبد الله ، و المشتهر منهما هو علي ، و يكنى بأبي عبد الله³ ، و يلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين و لسان الملة كما يلقب بزدي الوزاريتين أي وزارة القلم و السيف ، و من ألقابه ذو العمرين لأنه كان مصابا في حياته بداء الأرق الذي لازمه إلى آخر حياته فكان لا ينام ليلا فكأن الليل بالنسبة له عمر ثان ، و من ألقابه أيضا ذو الميتتين لأنه قتل بالطريقة التي سنطلع عليها عند كلا منا عن وفاته .

و عرف بيت لسان الدين ببني الوزير ، ثم عرف فيما بعد ببني الخطيب نسبة إلى جده الأعلى سعيد الذي عرف بالخطيب ، و يصفه ابن الأحمر " بالفقيه الصالح ولي الله " ⁴ ، و ينتسب ابن الخطيب إلى سلمان و هو حي من مراد باليمن قال ابن الأثير : " و المحدثون يفتحون اللام (من سلمان) ، و سلمان من مراد من عرب اليمن القحطانيين دخل الأندلس منهم جماعة من الشام " ⁵ و معلوم أن العرب الداخلين إلى الأندلس عند الفتح حافظوا على أنسابهم حتى حصل من ذلك فتن بين اليمنية و القيسية و انتقلت أسرة لسان الدين من قرطبة إثر واقعة الربيض و مؤداها كما ينقلها المقرئ عن ابن حيان ، أن جماعة من أهل ربيض قرطبة ، و فيهم جماعة من العلماء مثل يحي بن يحي الليثي ثاروا على العاصمة الأموية على عهد الحكم ، و انجلت عن فشل الثورة و مقتل بعض الثائرين و جلاء الآخرين منهم إلى جزيرة اقريطش ببحر الإسكندرية ، و كان من المبعدين أهل لسان الدين حيث استقروا بلوشة ، و صارت لهم فيها أموال ، و أول من عرف من أجداد لسان الدين جده سعيد

¹ - انظر المصادر الآتية : الإحاطة 4 / 439 .

المقرئ : نفع الطيب ، 9/5 ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلي ، ج 1 ، ص 789 .

- عباس بن إبراهيم المراكشي ، الإعلام عن حل مراكش و أغمات من الأعلام ، المطبعة الجديدة فاس 1936 ، ج 3 ، ص 352 .
- ابن الأحمر ، تثير فرائض الجمان ، ص 242 .
- محمد بن علي الشوكاي : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ط 1 ، 1348 هـ - ج 2 ، ص 191 . و نسب ابن الخطيب عنده التلمساني و هو هم أو تصحيف .
- خير الدين الزركلي الأعلام ، ط 5 ، دار العلم للملايين بيروت 1980 ، ج 6 ، ص 235 .
- عبد الحفي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من وهب ت ، لجنة أحياء التراث العربي . منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت ، ج 6 ، ص 128 .

² - الإحاطة : 4/439 .

³ - المصدر نفسه : الموضوع نفسه .

⁴ - فرائد الجمان ص 248 .

⁵ - المقرئ : نفع الطيب ، 22/5 .

الذي اشتهر بالعلم و الصلاح ، كما ولي القضاء ، و كان يقرئ دروسا من العلم بلوشة ، إضافة إلى ما أوتيته من خشوع صوت بتلاوة القرآن الكريم ، مقرون بزهد و تقشف و ابتعاد عن مغريات الحياة الدنيا .

أما والد لسان الدين عبد الله فكان مولده بقرنباطة في جمادى الأولى عام اثنين و سبعين و ست مائة¹ ثم سكن لوشة بعد ذلك و له من العلم حظ كالذي كان لجدته لنشأته المترفة إذ "تخلف ، كما يقول ابن الخطيب ، نابيا في الترف نبت العليق يكنفه رعي أيم تجر ذيل نعمة و تحنو منه على واحد تحذر النسيم إذا سرى"² و لكنه مع ذلك اشتهر بالطب و الأدب ، و أخذ عن أبي الحسن البلوطي و المقرئ أبي عبد الله بن مستنور و أبي جعفر بن الزبير ، و هو إلى ذلك يقرض الشعر على قلة .. أورد له ابنه شيئا منه في الإحاطة و هو يدل على عدم تمكنه من هذا الفن و أكثر ذلك الشعر في الوعظ فهو إلى شعر العلماء أميل .

و يصفه بالذكاء و شدة العزم و جلال المنظر و هي صفات أهله لكي ينتدبه ابن الأحمر ليعمل في مخازن الطعام بقرنباطة و بقي في هذه الوظيفة إلى أن توفي في واقعة طريف السابق ذكرها حيث انهزم جيش المسلمين المتكون من المغاربة و الغرناطيين ، و كان عدد القتلى كثيرا و ذلك يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى سنة إحدى و أربعين و سبعمائة³ .

و كان مولد لسان الدين "بلوشة" في الخامس و العشرين من رجب عام ثلاثة عشر و سبعمائة للهجرة⁴ .

و لوشة مدينة تقع "على مرحلة من قرنباطة من البسيط الذي في ساحتها المسمى بالبرج على وادي شنجيل و يقال شنيل المخترق في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال"⁵ .

و يصفها ابن الخطيب ببنت الحضرة⁶ إشارة منه إلى مكانة هذه المدينة التي هي من قرنباطة العاصمة بمقام البنت ، و هي قريبة من أن تكون قطعة منها لتشابهها في الموقع ، إذ تشتركان في مرور وادي شنيل بهما ، و أهلها مسلمون متمسكون بدينهم و لم تزل تلك عاداتهم حتى بعد سقوط

1 - الإحاطة : ج 4 ، ص 441 ، 442 .

2 - المصدر نفسه : ج 4/442 .

3 - الإحاطة : ج 4 ص 442 .

4 - الإحاطة : ج 4 ، ص 634 ، النسخ : 75/4 ، الأزهار 187/1 ، البدر الطالع ، 191/2 ، الإعلام ، 352/3 ، الأعلام للزركلي 112/7 ،

و وهم بعض الباحثين المعاصرين فذكر أن مولده بقرنباطة ، انظر : أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط5 ، 1388 هـ ،

1969 م ، ج 3 ، ص 77

5 - ابن خلدون : كتاب العبر ، دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة ، بيروت لبنان ، 1986 م ، ج 13 ، ص 689 .

6 - ابن الخطيب : الإحاطة ، ج 2 ، ص 343 .

دولة الإسلام في الأندلس كما يصفهم الغزالي¹ في رحلته في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي ، أي بعد قرنين من زوال مملكة غرناطة .

3 - نشأته :

مع أن المصادر و المراجع القديمة و الحديثة أفردت صفحات طوالا عن حياة ابن الخطيب ، إلا أنها لا تكاد تفي بشيء يذكر عن طفولته ، و ذلك لأن عنايتهم بشخصيته ، كاتباً و وزيراً لعب دوراً مهماً في مجرى الأحداث في تلك المرحلة في حياة المملكة النصرية ، فاقت كل عناية أخرى بماله صلة بشأنه و طفولته ، و لسان الدين ذاته الذي عرف باستقصاء الأخبار و التحري في نقلها و بقدرته الفائقة في الوصف لم يحدثنا عن طفولته بما كنا نرجو من كاتب ملك ناصية البيان و عبقرية في الكتابة بواته مكانة في علم التاريخ يداني فيه العلامة ابن خلدون ، فعند كلامه عن والده ، لا يذكر في الإحاطة أنه عمل في مخازن الطعام بل ذكر خبراً فيه تلميح يقول : ” إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد (و الضمير يعود على لوشة) متخطياً إلى الحضرة هاويا إلى ملك البيضة فعضد أمره ، و أدخله أمره لدواع يطول استقصاؤها ”² .

و عبارة ” عضد أمره ” إشارة إلى استخدامه في مخازن الطعام ، فكان ابن الخطيب أنف من التصريح بهذه الحقيقة و هو الوزير .

و يمكن أن نتصور نشأته و طفولته اعتماداً على ما تتمتع به أسرته من يسار ، فلا شك أن ذلك سمح لابن الخطيب بطفولة هي إلى الترف أقرب ، لا سيما بعد انتقال والده إلى العاصمة أين توفرت الأسباب لطلب العلم ، و ينقل المقري عن ابن الأحمر ، أنه نشأ على حال حسنة سالكا سبيل سلفه من طلب العلم و الاهتمام به ، و أول ما بدأ به ، حفظ القرآن الكريم على طريقة الطلبة المبتدئين في عصره ، فأخذ القرآن حفظاً و تجويداً عن أبي عبد الله بن عبد المولى العواد ، و ممن لازمهم في صغره و انتفع بهم أبو زكريا يحيى بن هذيل ، الذي أخذ عنه الطب و الفلسفة و من هنا ندرك سر توجه ابن الخطيب إلى الفلسفة و الأدب ، و لنا عود إلى شيوخ لسان الدين بشكل مفصل ، و حسبنا هنا الإشارة إلى الطور الأول من حياته .

و إذا كانت سنة إحدى و أربعين تمثل بالنسبة إليه فاجعة ، حيث سجلت هذه السنة وفاة والده في معركة طريف ، فإنها من ناحية أخرى تعتبر هي السنة التي انفتحت فيها أمامه كل السبل لينخرط في سلك السياسة و يخوض غمارها ، إذ في هذه المرحلة من حياته انتدبه السلطان أبو الحجاج ليعمل في ديوان الإنشاء تحت رئاسة أبي الحسن ابن الجياب رئيس الديوان ، و يصف ابن الخطيب هذه

¹ - أحمد بن المهدي الغزالي ، نتيجة الاجتهاد في المهادة و الجهاد حقه و قدمه إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1984 ، ص 213 - 212 .

² - ابن الخطيب : الإحاطة ، ج 4 ، ص 442 .

الفترة من حياته قائلا "فخلفني يعني أباه - عالي الدرجة ، شهير الخطبة ، مشمولاً بالقبول ، مكنوفاً بالعبادة"¹ و ذلك أن أبا الحجاج رأى من ثلوفاء لعبد الله الذي ظل وفياً ، حياته لبني الأحمر بل و قدم نفسه فداء ، رأى من الوفاء أن يكافئه فأدرج ابنه في سلك الكتاب ، و في هذه المرحلة من حياته أيضاً استتم ابن الخطيب و سائل العلوم لأنه تتلمذ على كاتب يصفه ابن خلدون بـ "شيخ العدوتين في النثر و سائر العلوم الأدبية و كاتب سلطان بقرناطة من أيام محمد المخلوع"² .

و قد قضى في ديوان الإنشاء ثماني سنين و في هذه الفترة أحكم (صنعة) الكتابة .

4 - الوزارة الأولى :

اعتبرت السنوات الثماني التي قضاها ابن الخطيب في ديوان الإنشاء تمهيداً لتسلم زمام الوزارة ، و قد تحقق له ذلك لتوفر الأسباب ، و ربما كان القول المأثور ، القائل : "مصائب قوم عند قوم فوائد" أحسن تعبيراً عن موقف لسان الدين فبعد وفاة أبي الحسن بن الجياب في الطاعون الجارف الذي أصاب حوض البحر المتوسط سنة تسع و أربعين و سبعمائة ، بعد ذلك استدعاه السلطان أبو الحجاج يوسف النصري لرئاسة الكتاب ثم رقاها إلى منصب الوزارة ، يصف ابن خلدون ذلك قائلاً : "قولى السلطان أبو الحجاج حينئذ (حين وفاة ابن الجياب) محمد بن الخطيب هذا رئاسة الكتاب ببابه مثناه بالوزارة و لقبه بها فاستقل بذلك ، ثم داخله في تولية العمال على يده بالمشارطات ، فجمع له بها أموالاً و بلغ في المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله"³ و بذلك تفرد ابن الخطيب بكثير من الأعمال كرئاسة الكتاب و تولية الولاية ، مع مسؤولية الوزارة ! و هذا التميز الذي اختص به لأنفسه بالفخر و أثقل وزنه السياسي ، فأظهر من المهارة السياسية ما أكسبه ثقة السلطان ، و قد كان الود متبادلاً بين الطرفين ، و أكد ذلك الود ، إخلاص لسان الدين لأبي الحجاج ، و من أسباب هذه العلاقة شخصية أبي الحجاج ذاتها ، فهو ميال بطبعه إلى تذوق الشعر و الأدب عموماً ، بل إنه يقرض الشعر ، و قد وجد في شخصية ابن الخطيب ، النفس التي تتجاوب مع ميوله ، بالإضافة إلى أن السلطان يوسف تولى السلطة و سنه لم تتجاوز الخامسة عشرة ، فقام ابن الخطيب مقام الوالد ، و الحليف القوي بالنسبة له و أصبحت شخصية أبي الحجاج مصدر إلهام لابن الخطيب لإبداع كثير من القصائد في مدحه ، حتى أصبح يقوم مقام لسان جاله ، من ذلك أن لسان الدين أنشأ رسالتين في التوسل بالرسول صلى الله عليه و سلم على لسان أبي الحجاج و هذا الموقف يترجم مدى علاقة الرجلين أحدهما بالآخر و التي جعلت ابن الخطيب يضيف عليه غلائل المدح ، فهو عنده "لباب هذا

¹ - المقرئ : نفع الطيب ، ج 5 ، ص 76

² - ابن خلدون : العمر ، ج 13 ، ص 689 .

³ - المصدر السابق : ص 690 .

البيت (النصري) و واسطة هذا العقد و طراز هذه الحلية¹، و قد سبق أن ذكرنا اطمئنان أبي الحجاج إلى ابن الخطيب و ذلك ما جعله يستفيد من خبرته و ذكائه السياسي فأرسله سفيراً إلى المغرب في أموره المهمة ، و قد نجح ابن الخطيب في أغلب سفاراته بطريقة تدعو إلى الإعجاب على النحو الذي سنراه بعد قليل .

و قضى ابن الخطيب مدة ست سنوات وزيرا للسلطان يوسف ، كان فيها القائم بأمر الدولة نتيجة لتعدد سلطاته ، ذلك أن أبا الحجاج قد اطمأن إلى ابن الخطيب كل الاطمئنان فجعله من أقرب المقربين منه وأسند إليه تدبير شؤون مملكته ، نظرا لتقاربهما في السن واشتراكهما في مهلهما الأدبية والعلمية ، لأن أبا الحجاج كان مؤثرا لأهل العلم والأدب . و في هذه الفترة عمل على ترسيخ قدمه في البلاط و استكثر من الأموال ، لا سيما و قد خلاله الجو و سنحت الأيام التي ستتكر له آخر الأمر . و كانت فترة أبي الحجاج فترة رخاء و أمن و ربما كان أخطر ما فيها بعد حادثة طريف حصار "ألفونسو بن هرانده" جبل الفتح إلى أن أذن الله بهلاكه و هلاك جيشه و قد سجل لسان الدين ذلك في قصيدة رائعة مطلعها:²

ألا حدثاها فهَيَّ أم العجائب و ما حاضر في وصفها مثل غائب

إلا أن هذا الرخاء ، كما هو الحال في عهد بني الأحمر ، أتى عليه ما يكدر صفوه ؛ فلم يلبث أبو الحجاج أن هلك مغتالا كما مر ذلك سنة خمس و خمسين و سبعمئة ، و هنا تبدأ فترة جديدة من حياة ابن الخطيب .

بعد وفاة السلطان أبي الحجاج تولى ابنه محمد الملقب بالغني بالله و هو شاب حديث السن لا يتجاوز السادسة عشرة فأبقى على لسان الدين رئيسا للكتاب ، و وزيرا لا يقطع أمرا دونه و فوضه في أن ينوب عنه في أعمال المملكة و أصبح مطلق السلطان في الدولة بل نافس السلطان في مكانته إذ كان له منتجع منسوب إليه و هو جنة على شاكله جنة العريف مقصف السلطان بالحمراء و سارعت الشعراء إلى التقرب إليه بقصائد المدح و انتالت عليه رسائل المجاملة و هنا بلغ قمة مجده السياسي ، و أصبح ينصب القضاة و الكتاب و من هؤلاء تلميذاه أبو الحسن النباهي و ابن زمرك الكاتب حيث أصدر بشأن الأول ظهيرا بتولية خطة القضاء أورده المقرري في النفع³ و فيه كل أوصاف الكمال و التبجيل و الإطراء ، و ذلك سنة أربع و ستين و سبعمئة ، و محمد بن الحسن هذا ، سيتحول إلى عدو

¹ - ابن الخطيب : الإحاطة ، ج 1 ، ص 143

² - ابن الخطيب : الصيب و الجهام و الماضي و الكهام ، دراسة محمد الشريف قاهر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط 1 ، 1973م ص 238 .

³ - المقرري : النفع ، ج 5 ، ص 131 - 134 .

لدود لسان الدين ، و أصدر ظهيرا ثانيا بتولى ابن زمرك الكتابة أوردته المقرري في النصح¹ كذلك ،
و فيه يبدو إعجاب ابن الخطيب بابن زمرك ، شاعريته و كتابته فهو ”إن نظم أو نثر أتى بالقصائد
المصقولة و المخاطبات المنقولة“ و ابن زمرك سيتولى كبر القضاء على أستاذه فيما بعد .

و كان ابن زمرك في بداية أمره يتقرب إلى الوزير ابن الخطيب و يتودد إليه بالقصائد المطولة
نختار منها الأبيات التالية:²

إلى كم أرى أكني و وجدي مصرح
و أخفي اسم من أهواه و هو شهير
أمنجد أمالي و مخلي كاسد
و مصدر جاهي و الحديث كثير
أنسى ، و لا أنسى ، مجالسك التي
بها تلتقيني نضرة و سرور
فظلك فوقي حيثما كنت وارف
و مورد أمالي لديك نمير
فهو لا يستطيع إخفاء حبه و حاله تفضحه و كيف يستطيع أن يكتب اسم من يحب و هو أشهر
من أن يخفى ؟ بل هو منجده و مبتغى أمله ، فعنايته تلاحظه كالظل الوارف و أماله تمتح من ورده ،
و هذه الأبيات لا تعبر عن صدق مودة ابن زمرك لابن الخطيب بقدر ما تشير إلى علو مكانة هذا
الأخير إلى درجة جعلته محط أماله كثير من الطامحين إلى الجاه العريض و المنصب المرموق و آية
عدم صدق ابن زمرك تحوله إلى عدو عندما يضعف سلطان لسان الدين .

و قد استفاد الغني من كياسة ابن الخطيب كما فعل والده من قبل ، فاستعمله في السفارة إلى
ملوك المغرب بني مرين محافظة على الصلات الحسنة و الوثيقة التي عضدت قوة المسلمين من أهل
العدوتين ، ففي بداية ملك الغني أرسل ابن الخطيب لدى السلطان أبي عنان المريني ، في وفد من
الوزراء و الفقهاء يترأسهم لسان الدين ، منهم القاضي أبو القاسم الشريف، و رأى لسان الدين ، لكي
يضمن لخطته النجاح أن يقدم بين يدي نجواه قصيدة أعدها لهذا الغرض ، لإدراكه أن الشعر يأخذ
بمجامع القلوب ، و أنه رب قول أنفذ من صول ، فاستأذن أبا عنان في الإنشاد فأذن له فأنشد و هو
قائم³ :

خليفة الله ساعد القدر
علاك ما لاح في الدجى قمر
و دافعت عنه كف قدرته
ما ليس يستطيع دفعه البشر
إلى أن يقول عن أهل الأندلس :
و قد أهمتهم نفوسهم
فوجهوني إليك و انتظروا

¹ - المقرري : النصح ، ج 5 ، ص 131 - 134 .

² - المصدر نفسه : ج 6 ، ص 80

³ - القصيدة و الخبر في تاريخ ابن خلدون : ج 13 ص 690-691 ، ديوان ابن الخطيب السلماني ، دراسة و تحقيق د/محمد مفتاح ، دار الثقافة ،
الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ، 1989 ، ج 2 ، ص 403 .

فاهتز السلطان لهذه الأبيات و أذن له في الجلوس ، و قال له قَبِلْ أن يجلس : ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ، و أحسن إلى ذلك الوفد ، و نفذ لهم طلباتهم و هذا النجاح جعل القاضي أبا القاسم الشريف يقول : لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا . و في هذه المهمة الدبلوماسية ركز ابن الخطيب على أمرين هامين هما :

- التركيز على الجانب العاطفي و إظهار حاجة المسلمين إلى المساعدة في وقت تتكالب عليهم فيه الأعداء

- إبراز جانب الولاء من طرف الأندلسيين لملك المغرب ، و في هذا ما يطمئن السلطة هناك ، بعد أن أبرمت غرناطة مع القشتاليين عهد الولاء .

5 - اللجوء إلى المغرب :

استمرت السنوات الخمس الأولى من إمارة الغني بالله ، مستقرة جدت فيها العافية المسحة كما يقول ابن الخطيب ، و لما كانت أيام بني نصر تعج بالمؤامرات و الثورات ، فلم ينبج منها سلطان الغني بالله ذلك أنه سنة ستين و سبعمائة (760هـ) عصفت بالغني ثورة خلعت من ملكه و طبيعي أنها طالت ابن الخطيب و ألحقت بع كثيرا من الأضرار ، و لعلاقة ذلك بحياة ابن الخطيب نورد هنا مبيتين أسبابها بالقدر الذي يسمح به منهجنا في هذا البحث .

تعود أسباب¹ هذه الثورة إلى أيام أبي الحجاج الذي كان له من الولد ثلاثة هم محمد الذي تولى بعده و إسماعيل و قيس ، و هذان الأخيران شقيقان أمهما مريم إحدى جواري أبي الحجاج و أما محمد فأمه بثينة ، و كان أبو الحجاج أوصى أول الأمر ، لإسماعيل ، ثم عدل عنه و أوصى لمحمد ، و بعد وفاته ، ألزم الغني أخاه إسماعيل أحد القصور محجورا عليه ، و كانت أمه ورثت عن زوجها مالا وفيرا ، و كانت تتحين الفرص لتعلن ابنها ملكا على غرناطة مستعينة في ذلك بأحد أصهارها هو الرئيس أبو سعيد المعروف بـ "البرميخو" لحمرة كانت في وجهه و ينضاف إلى ما سبق أن إسماعيل كان ينافس أخاه على ابنة عم لهما في الحب ، إلا أنها كانت من نصيب محمد فاجتمع ذلك كله ليعجل بخلع الغني بعد خمس سنوات من توليه الحكم .

و في ليلة الثامن و العشرين من رمضان سنة ستين و سبعمائة انقض الرئيس أبو سعيد مع جماعة من المرتزقة ، جمعهم لذلك الغرض ، انقضوا على أسوار الحمراء ، و قتلوا أحد الحراس خفية ، و دخلوا إلى مقر السلطان ، و قتلوا حاجبه رضوان في بئنة ، و دقت الطبول و جيء بإسماعيل من قصره و أعلن ملكا على العرش ، و أحدثوا جلبة فسارح الناس إلى مبايعته ، و في تلك الأثناء كان الغني بالله مع أهله و ولده في منتجعه في جنة العريف و أم يجد بدا من النجاة بنفسه و من معه من

¹ - الإحاطة : ج2، ص26 ، و العبر ، ج13 ، ص636 .

أهله ، فامتطى صهوة حصان أعد له و فر من ليلته إلى وادي آش ، و اتصل الخبر بالسلطان المريني أبي سالم فامتعض لذلك ، لحسن علاقته بغرناطة ، و كان الغني ، قد أرسل يستجد به فبعث من قبله الشريف أبا القاسم القاضي ليفاوض الغرناطيين في عبور الغني إلى فاس لاجئاً فسمحوا له بذلك .

أما ابن الخطيب فقد وقع في موقف محرج للغاية فهو بين أن يعلن ولاءه للسلطان الجديد فيخفر ذمة صاحبه الذي حباه بكل فضل ، وبين أن يمرض فيصير إلى الهلاك ، لكنه أثار الملاينة بإدي الرأي ، إيثارا للسلامة غير أنه لحقه من ذلك أذى . يصف حاله في تلك الفتنة قائلاً : ” و كنت عند الحادثة على السلطان بجنتي المنسوبة إلي من الحضرة ... فتخطاني الحنف و نالتي النكبة فأستوصلت النعمة العريضة ، فما أبقت طرفاً و لا تليداً ... و لطف الله بأن تعطف السلطان بالمغرب إلى شفاعة بي بخطه ... و لحقت بالسلطان بوادي آش فذهب البأس ، و اجتمع الشمل ¹

و هذه أول نكبة تلحق بابن الخطيب الوزير ، فرأى كيف تتحول النعمة السابقة إلى إعدام ، و كيف يصير الأمن إلى الفرع و التشرذم .

و انتقل ابن الخطيب مع سلطانه إلى المغرب في المحرم من عام واحد و ستين و استقبلاً بحفوة بالغة ، حيث وطئت لهما المراكب المرفهة و احتفي بهما احتفاء الملوك ، و في هذا الموقف خاطب ابن الخطيب أبا سالم بقصيدة طويلة يستعطفه فيها و يستنصره لسلطانه و أول هذه القصيدة ² :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر و هل أعشب الوادي و نم به الزهر

و كعادته ضرب ابن الخطيب في هذه القصيدة على الوتر الحساس بالنسبة لأبي سالم ، فقد استهل قصيدته بذكر (سلا) و هي مدفن الملوك من بني مرين آل أبي سالم و قد نجح في إلهاب العواطف و تمكن من النفوس كل تمكن .

يقول ابن خلدون ، و قد حضر ذلك المجلس : ” و وقف .. ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائية ، يستنصره لسلطانه و يستحثه لمظاهرتة على أمره ، و استعطف و استرحم بما أبكى الناس شفقة و رحمة ³ .

6 - فترة التأليف و الزهد :

و قد قضى ابن الخطيب في المنفى ثلاث سنوات ، قضاها في التأليف و التأمل ، و الإطلاع على بلاد المغرب و ذلك أنه استأذن السلطان أبا سالم في التجوال فسي ربوع مملكته ، و التفرغ للرياضة الروحية ، و هنا يبدو تحول ابن الخطيب النفسي ، فبعد أن كانت نفسه تواقفة إلى تحقيق مزيد من النجاح السياسي و التمتع بالأبهة التي أضفاها عليه مركزه في الدولة ، فتطامنن نفسه و انكسرت

¹ - ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص 27 - 28 .

² - ابن خلدون : ج 13 ، ص 638 .

³ - المصدر نفسه : ج 13 ، ص 638 .

حدة ذلك الطموح ، يقول الناصري في الاستقصا :¹ كان ابن الخطيب عندما حصلت له هذه النكبة ... قد عن له رأي في التزهّد و الانقطاع إلى الله تعالى ، و رفض السلطان و أسبابه .. فتلطف في استئذان السلطان أبي سالم و طلب منه الإذن في الذهاب إلى جهات مراكز و الوقوف على آثار الأقدمين بها و التطارح على أوليائها² و قد كان غرضه من هذا الانطواء الابتعاد عن السياسة وأخطارها و تشغيها ، و الإخلاق إلى الذكر و السياحة العقلية و الروحية ، و علامة ذلك أنه كان حريصا كل الحرص على لقاء الولي الصالح ابن عاشر و التبرك ببقياه و لم تزل سنة أن يحرص الناس على لقاء الأولياء لما في ذلك من أثر يرجونه في صلاح دينهم ، و نرى أن غرض ابن الخطيب الأساسي من هذه الزيارة هو معرفة (الحال) التي عليها هؤلاء المتصوفة ، و للسان الدين عناية بالتصوف يترجمها كتابة روضة التعريف بالحب الشريف ، فكانه أراد أن يتمثل تلك المعاني الصوفية التي هي حبيسة الإدراك العقلي ، فيراها عيانا و حالا ناطقة في نحو ابن عاشر من الصلحاء ، و الواقع أن ابن الخطيب قد أتحنف بكل كرم ، و بذلت له الأموال و بولغ في الاحتفاء به من قبل أبي سالم و رغم ذلك ، فلم يكن كل ذلك ليصرفه عن توجهه إلى التأليف و التأمل و قد سجل ابن الخطيب هذه المرحلة من حياته في كتابه نفاضة الجراب ، فإذا هي حافلة بالنشاط العلمي ، فمن الكتب التي ألفها في هذه المرحلة الرجز المسمى رقم الحلل في نظم الدول ، و وصف بعض المدن بالأندلس و المغرب في كتابه معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار و غيرها ، و لنا عودة إلى الكلام عن مؤلفاته في المكان المخصص لذلك من هذا الفصل ، كما صدرت عنه رسائل إلى بعض الأعيان كالوزراء و الأدباء و خاطب السلطان أبا سالم في كثير من المناسبات ، و أنشأ قصيدة طويلة يذكر فيها رحلته السلوية ، و يلم بذكر الولي ابن عاشر و منها قوله³ :

بولي الله فابدأ و ابتدر واحد الأحاد في باب الورع

و قد عرج لسان الدين في رحلته تلك على (شالة) مدفن ملوك بني مرين و منهم السلطان أبو الحسن ، لقراءة القرآن و الذكر ، و استنجد حينئذ بالسلطان أبي سالم متشفعا بوالده أبي الحسن ، أن يخاطب الأندلسيين في شأن أمواله ، بقصيدة طويلة أولها³ :

مولاي ها أنا في جوار أبيكا فابدل من البير المقدر فيكا

كما كتب قصيدة أخرى إلى أبي سالم في الغرض نفسه ، غير أنه استهل تلك القصيدة برثاء

السلطان أبي الحسن قائلا⁴ :

¹ - الناصري : الاستقصا ، ج 4 ، ص 13 .

² - ديوان ابن الخطيب السلماي : تحقيق محمد مفتاح ، دار الثقافة الدار البيضاء ، المغرب ط 1989 ، 661/2 .

³ - تاريخ ابن خلدون : ج 6 ، ص 21 .

⁴ - ديوان ابن الخطيب السلماي : 440/1 .

إن بان منزله و شطت داره قامت مقام عيانه أخباره

قسم زمانك عبرة أو عبرة هذي ثراه و هذه آثاره

فاستجاب السلطان لذلك النداء ، فاستعاد أمواله التي صودرت منه في الأندلس و أمضى أيامه هناك في خفض عيش و راحة بال .

و في خلال سياحته تلك مر (بأغمات) و فيها مدفن المعتمد (بالله) بن عباد فتذكر أيامه الخوالي بالأندلس و ذكر وفاته مقتولا منفيا في المغرب ، فحمله ذلك على رثائه بقصيدة تمثلي بالحزن و الشفقة ، و تتطوي على ما تجيش به نفس ابن الخطيب من لوعة الفراق ، فراق الوطن الذي أخلص له و نشأ في كنفه ، و رأى في نهاية المعتمد نائيا عن موطن ملكه ما يدعو إلى البث ، و كأنه بدأ يشعر بأن نهايته لا تكون أبعد من نهاية المعتمد .

و في هذه المرحلة أيضا توثقت صلته بابن خلدون عالم المغرب ، و كاتب السلطان المريني ، و نشأت بين الرجلين صداقة كبيرة يفسرها ثناء ابن خلدون على لسان الدين في القسم الذي خصصه لرحلته غربا و شرقا من تاريخه الكبير ، إذ خص ابن الخطيب بفصل طويل اختار له عنوان "فضل الوزير ابن الخطيب" ،¹ و فيه أورد كتابه عن الغني بالله إلى سلطان تونس المستنصر بالله يشكره فيه على هدايا ثمينة أرسلها إلى الغني ، و هو من الكتب التي تناقلتها المصادر المتعددة² و قد كان الاحترام متبادلا بين الرجلين لمعرفة كل منهما بقيمة الثاني .. كما تشابه ابن خلدون و ابن الخطيب في سعة الاطلاع ، و حب المغامرة ، و غزارة الإنتاج ، و إن كان ابن الخطيب أعرق في فن الشعر من ابن خلدون الذي يغلب عليه وصف العالم و الفيلسوف أكثر من وصف الفنان .

و لهذا الصداقة ثمرة ، بل ثمرات ، فسوف يكون موقف كل واحد منهما من الآخر يعبر عن هذه العلاقة في المستقبل من السنوات ، حين يضطران إلى اللجوء إلى الأندلس أو المغرب ، فعند ورود ابن خلدون على الغني في غرناطة سنة أربع و ستين و سبعمائة³ تلقاه كتاب ابن الخطيب مرحبا و محتفيا به كما هو لائق بقدر الكبرياء ، و كما يقضي خلق الصداقة ، و قضى في الأندلس سنة و نصفًا ، سفر خلال ذلك عن الغني إلى الملك بطره صاحب قشتالة ، و نال من الخطوة عند الغني ما

¹ - التعريف بابن خلدون ضمن الجزء 14 من تاريخ ابن خلدون ، ص 959 .

² - ابن خلدون التعريف : ص 959 . و ما بعدها ، ابن الأحمر : تثير فرائد الجمال ، ص 256 ، و ما بعدها .

³ - التعريف بابن خلدون : ص 877

حرك الغيرة في نفس شاعرنا فانقبض لذلك و أحس ابن خلدون بذلك و كتبه عنه رعاية لحق الصداقة و تلتف في الرحيل بما جعل محمدا الخامس يستجيب له فشيعة لسان الدين و أنشأ ظهيرا بتوذيعة .
و سبب هذا الانقباض سعاية الخصوم و الأعداء ، للإيقاع بالوزير المستبد بالدولة حينئذ ، ذلك أنهم خيلوا له أن ابن الأحمر يريد اصطناع ابن خلدون و الغرض أن يبدر من الوزير ما يصلح أن يكون سببا لثورة السلطان عليه ، إلا أن تلك المساعي فشلت بسبب حكمة ابن خلدون ، و حسن تقديره للموقف .

و خلال فترة إقامته بالمغرب ، جاءه نبأ وفاة زوجته سنة اثنين و ستين و سبعمائة في السادس من ذي القعدة ، فجزع لذلك جزعا شديدا ، لا سيما و أنها توفيت و هي بعيدة عنه إذ هو في مطارح الغربية يغص بالآلام ، و قد وصف ذلك قائلا : ” طرفني ما كدر شربي و نغص عيشي من وفاة أم الولد عن أصاغر زغب الحواصل بين ذكران و إناث في بلد الغربية و تحت سرادق الوحشة ، و أذيال النكبة ، فجات عليها حسرتي و اشتد جزعي و أشفيت لعظم جزعي...“¹ و سبب هذا الجزع إضافة إلى ما ذكر ، ما كانت تتصف به هذه الزوجة من أخلاق عالية اشتهرت عنها كالصبر و الإخلاص لزوجها ، و من وفاء لسان الدين لها أن أوقف الحيس المغل عليها ، و كتب على قبرها من شعره ما أوله² :

روع بالي و هيج بلبالي و سامني التكل بعد إقبال

و القصيدة طافحة بمعاني الأسى و اللوعة ، ناطقة بزفريات رجل قارب الخمسين قد أصيب في أقرب الناس إليه و هو مبعد عن وطنه .

و لكن الغريب أن ابن الخطيب لم يبعد أن نازعته نفسه إلى التسري ، و هو قريب عهد بفقد زوجته ، إذ توسل إلى السلطان المريني أن يهبه إحدى الجوارى الروميات اللواتي يعج بهن قصره ! فهل يفسر ذلك بأن وفاة زوجته لا يمثل بالنسبة إليه أمرا يصرفه عن التفكير في النساء ، و لو لمدة وجيزة ؟ و كيف نفهم كلامه السابق ذكره و القصيدة التي نقشت على ضريحها ؟ الواقع أن ذلك يمكن أن تفسره القصيدة التي قدمها بين يدي سؤاله لصاحب فاس إذ يقول فيها³ :

فَصَلِّتْ إِلَى الْمَوْلَى أَبِي عَمْرِو الرضا
و طوفان همي قد طغى ليجرني
و إني لأرضى بالذي يرتضيه لي
غدت بالذي يرضى المشيئة جارية
و تركبني الآؤه فوق جارية
و لو عبت أبأؤه شنت مارية

¹ - ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، تحقيق د . أحمد مختار العبادي ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر ، القاهرة ص 205 .

² - المصدر نفسه : ص 205 ، و انظر الديوان 505/2 .

³ - ابن الخطيب : الديوان 781 / 2

فالذي يلوح من الأبيات أن الرجل ، لما أصيب بفقد زوجته ، رضي بما يقدر له من أمر النسله و لو كان ذلك متعلقا بجارية نصرانية إذ الغرض الترويح عن النفس الكسيرة مع أن ذلك لا يعوضه عن فقد أم الولد ، فطلب تلك الجارية إذن هو في حكم الضرورة ، بدليل أنه لم يتخذ له زوجة بعد ذلك ، و شتان بين الزوجة و الجارية ! ...

و مما عضد جانب ابن الخطيب في سنوات المنفى ، و خفف عنه بعض الأمه ، العناية التي لقيها من البلاط المريني ، حتى إن تلك العناية ، ربما فاقت مقام الغني بالله ذاته ، و يذكر في النفاضة رحلته في بلاد المغرب ، و القبائل التي نزل عليها ضيفا ، و الاحتفاء الذي قوبل به من رؤوس الأقوام ، و العلاقات الوثيقة التي توطدت بينه و بين ذوي السلطان و العلم ، و منهم بالإضافة إلى ابن خلدون و ابن مرزوق الخطيب ، الوزير عمر بن عبد الله المستبد بالملك و الذي لعب دورا كبيرا في الفتن التي وقعت في المغرب لذلك العهد ، حتى كانت نهايته على يد السلطان عبد العزيز سنة ثمان و ستين و سبعمائة ، و قد وقعت بينهما مكاتبات عديدة أوردها في النفاضة ، و أورد بعضها المقري في النفاضة¹ ، و ربما كانت هذه المرحلة من حياة ابن الخطيب هي المرحلة التي توثقت فيها صلته بدولة بني مرين ، فقد طمحت نفسه إلى أن يستخدمه المرينيون ، و يتضح ذلك من رسالته إلى أبي سالم و هو مقيم بـ (سلا) حيث جاء فيها قوله : ” و أتعوض من ذمتي بالأندلس ذمة عند الرباط المبارك ترثها ذريتي“² .

فهو يأمل أن يكون له مكان في الدولة ، يكون سببا لاستقراره ، و إرثا لأبنائه من بعده ، لأنه أدرك أن مقامه بالأندلس غير مأمون العواقب ، إذ الدولة هناك أخذت في الضعف ، و تكالبت النفوس على الحكم و كثرت الفتن ، و لذلك تأخرت عودته إلى الأندلس بعد عودة الغني بالله إليها ..

7 - الوزارة الثانية :

أثناء مقام الغني بالمغرب و وقع انقلاب لقي فيه أبو سالم مصرعه ، فاستبد بالدولة الوزير عمر بن عبد الله السابق ذكره ، فاستغل هذه الظروف و طلب من الوزير أن يساعده على استرداد ملكه ، لا سيما و أن مغتصب الملك بغرناطة قد دارت عليه دائرة الموت ، و أصبحت قوة الدولة هشة ، و هي الفرصة المناسبة لينقض ابن الأحمر المخلوع على الحكم قبل اشتداد عوده ” فاستجاب إليه الوزير عمر بن عبد الله ، و ما زال محمد يدبر أمره بمعاونته حتى تهيئة الفرصة في غرناطة .. فأجاز إلى الأندلس و نزل بمالقة ثم سار إلى رندة ، و كانت عندئذ من أملاك بني مرين ، و قد نزل له عنها

¹ - انظر : الجزء السادس ، ص 410 و ما بعدها .

² - محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس و تاريخ العرب المنتصرين ، ط 4 ، 1987م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ص 141 ، 142 .

الوزير عمر بن عبد الله و سار منها في صرخة و عصبته إلى غرناطة فاستولى عليها و فر الرئيس أبو سعيد إلى ملك قشتالة ، و استعاد الغني ملكه في جمادى الآخرة سنة 763 هـ .¹

أما ابن الخطيب فقد تراخت عودته قليلا ، بسبب ما قدمنا من تعويله على المكث بالمغرب إلا أنه بطلب من ابن الأحمر عاد إلى الأندلس حياء لا رغبة و أعيد إلى منصب الوزارة و أصبح مطلق السلطة ، بحيث لا يقطع الغني أمرا دونه و استمرت وزارته هذه عشر سنوات ، و كانت الفترة الأكثر خطرا في حياته و اتخذ فيها مواقف سياسية كانت لها أخطر النتائج ..

و يصف ابن الخطيب عودته مع سلطانه في رسالة وجهها عنه إلى المنصور بن قلاوون² ملك الحرمين و مصر و الشام يصف تلك العودة وصفا أحاطها بالجلال ، معتبرا إياها إحقاقا للحقوق ، و إنصافا للمظلومين ، و عفوا عن أخطأ في حق الجناب السلطاني و يصف فترة الرئيس أبي سعيد (البرميخو) بأنها فترة نكد ، بل يصفه هو بالطائش (الحرفوش) ، قد عاث في الأرض فسادا ، و أزرى بالدين لما شاع في عهده من المنكرات و المعاصي .

و يستدل من كلام ابن الخطيب عن عودته إلى الأندلس (شعبان 763هـ) أنه لم يكن به رغبة في الوزارة و إنما تحملها نزولا عند رغبة سلطانه لأنه أزمع التشريق كما عبر عن ذلك³ . إلا أنه كان مع السلطان كموسى مع شعيب عليهما السلام حيث وافقه على المكث عامين و له بعد ذلك أن يحج ، غير أنه عند تمامها طالبه بثمانية أخرى فكان ما أراد الغني .

و يستطرد ابن الخطيب في وصف دولة الغني الثانية و على وجه التحديد ، وزارته الثانية بكل الصفات الإيجابية ، و طالما أصبح مطلق السلطة ، فقد شملت أعماله الجانب السياسي و الديني من إيقاد الهمم بالجهاد في سبيل الله ، و إشاعة العدل ، و رفض الزور و زهد عن البهرج و الإخلاص للإسلام و نكران للذات و يقسم على ذلك قائلا : ” و أيم الله الذي به تستخلص الحقوق ، و تيسر الستور و تستوثق العهود ، و لا تطمئن القلوب، إلا به ، ما كاذبته ، و لا راضيت في الهوادة طوله ، و لا سامحته في نقيض هذه الخلال“⁴ .

و لكن الدارسين لحياة ابن الخطيب السياسية يرون أنه ارتكب أخطاء في هذه الفترة ، نتيجة لما اجتمع له من النفوذ و ما وقعت عليه يده من الأموال ، و الغني مطغ ، فركب الهوى و جار

1 - محمد بن عبد الله عنان : نهاية الأندلس و تاريخ العرب المنتفذين ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط 4 ، 1987 ، ص 141 - 142 .

2 - ابن الخطيب : الإحاطة : 66 / 2

3 - ابن الخطيب : الإحاطة ، ج 2 ، ص 33-34 .

4 - ابن الخطيب : الإحاطة ، ج 2 ، ص 35 .

عن القصد يقول الأستاذ عبد الله عنان "و الظاهر عن جادة الاعتدال و الروية ، فجنح إلى الاستبداد واتباع الهوى¹⁰⁰ .

و من هذه الأخطاء سعائته في القضاء على شيخ الغزاة عثمان بن يحيى بدافع الغيرة يقول ابن خلدون : "قلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان و ولده ، و أعاده السلطان إلى مكانه في الدولة من علو يده و قبول إشارته ، فأدركته الغيرة من عثمان ، و نكر على السلطان الاستكفاء به و التخوف من هؤلاء الأعياص على ملكه ، فحذره السلطان و أخذ في التدبير عليه حتى نكبه و أباه و إخوته في رمضان سنة أربع و ستين و أودعهم المطبق"² و قد كان عثمان شيخ الغزاة مقربا من الغني ، على سنة أسلافه مع شيوخ الغزاة و لمكانة هذا الشيخ من آل مرين الذين أووا المخلوع و ساعدوه في استرجاع ملكه ، فأصبح منافسا لابن الخطيب على المكانة و النفوذ ، فاستغل مودة الغني له ، و تقفاه فيه لينكل بصاحب خطة الغزاة ، و بذلك بدأ مركز لسان الدين السياسي يتزحزح ، لما نقم منه أعداؤه السياسيون من أفعال ، وكانوا يتربصون به و يتحينون الإيقاع به .

و لما كان ابن الخطيب قد أضمر في نفسه الإخلاق إلى بني مرين ، فقد كان صنيعة لهم بالأندلس ، حيث ساعدتهم في القضاء على المشاغيب عليهم بالأندلس ، متخذا ذلك وسيلة بين يديه ، لكسب مركز سياسي في المغرب ، فقد نفذ أمرا من السلطان عبد العزيز بالقبض على عبد الرحمان بن أبي يفلوسن الذي أجاز إلى الأندلس سنة (767هـ) ملتجئا إلى ابن الأحمر ، فنصبه هذا الأخير شيخا للغزاة بعد وفاة علي بن بدر الدين شيخ الغزاة قبله و يلخص ابن خلدون هذه القضية قائلا : (و وقف أي السلطان عبد العزيز) على مخاطبات من عبد الرحمان يسر بها في بني مرين ، فجزع لذلك و داخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن و ابن ماساي (الوزير السابق بالمغرب) و إراحة نفسه من شغبهما ، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه ، فأجابته إلى ذلك ، و كتب له العهد بخطه ، على يد سفيره إلى الأندلس و كاتبه أبي يحيى بن أبي مدين ، و أغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي يفلوسن و ابن ماساي فتقبض عليهما و اعتقلهما"³ و أراد ابن الخطيب بهذا العمل أمرين :

- أن يريح نفسه ممن ينافسه على مخالصته السلطان ابن الأحمر ، فيخلو له الجو و يصبح مطلق اليد في الدولة ، أغراه بذلك مكانه من السلطان و ميله إليه و تقفاه به .
- و أن يستوثق من عزم سلطان المغرب على التمكين له في الساعة التي يترقب اقترابها نظرا لكثرة خصومه و الساعين في تفويض مركزه لا سيما و هو الرجل الخبير بما يحاك في الظلام بين ذوي

¹ - محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص 145 .

² - ابن خلدون : العمر ، ج 13 ، ص 694 .

³ - ابن خلدون : العمر ، ج 13 ، ص 695 .

السلطان و الجاه ، العليم بأن صاحب الدولة إذا طالت مظالمه العامة و الخاصة ، فإن ذلك مؤذن له بالزوال و تغير الأقارب و الأصدقاء عليه و صيرورة النعمة إلى الشقاء و الصيت النابيه إلى الأفول و الخمول .

لقد أحس لسان الدين بإصغاء سلطانه إلى وشايات أعدائه بعد أن تصامم عنها طويلا فقرر أن يبادر بإخلاء مكانه لغيره من حاسديه ، و عليه أن يختار طريقة مناسبة لمقامه و مقام سلطانه ، للإقدام على ذلك .

8 - الاستقرار في المغرب :

استقر رأي ابن الخطيب على استئذان سلطانه في تفقد بعض ثغور الدولة فسار في جماعة من الفرسان و معه ابنه علي حتى وصل إلى جبل الفتح - هو على العادة - تابع لبني مرين فتلقاه قائد الجبل و جهز له أسطولا بأمر من سلطان المغرب ، حمله إلى بر العدو و نزل بسبته سنة ثلاث و سبعين و سبعمائة (773هـ) ، فاستقبله ولاة سبته بالتكريم امتثالا لأمر السلطان ، و منها قصد تلمسان التي استقر بها السلطان بعد فتحها - فقام خاصة السلطان باستقباله في حفاوة و أبهة و حل بتلمسان أمنا مكرما في كنف عبد العزيز .

و قد اعتبر أعداء لسان الدين نزوعه إلى المغرب بهذه الكيفية خيانة لسلطان غرناطة ، و أضافوا هذه التهمة إلى تهم أخرى نسبوها إليه ، كانت في الأخير سببا في وفاته ، أما لسان الدين فيبرر عمله هذا في رسالة بعثها إلى الغني ، تمتلئ بالاحترام و التوقير للسلطان ، و بسط فيها عذره عما أتى ، و نفي عن نفسه تهمة الخيانة التي رمي بها ، بل عد رحيله بتلك الكيفية ، توكيدا لمودته لسلطانه . يقول في تلك الرسالة : "مولاي ، كان الله لكم و تولى أمركم ، أسلم عليكم سلام الوداع ، و أدعو الله في تيسير اللقاء ... و أن التفرق لما لزم كل اثنين بموت أو في حياة و لم يكن منه بد ، كان خير أنواعه ... ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور"¹ .

فالفرق أمر طبيعي سواء أكان بموت أو حياة فإذا كان بحياة كان لا بد من التلطف فيه على وجه لا يتأذى منه الحبيب ، ثم يبين أنه عزم على ذلك من أول ما عاد إلى الأندلس مع سلطانه ، و لكن أثر رغبة السلطان على رغبته فيقول : "و يعلم مولاي حال عبده منذ وصل إليكم من المغرب بولدكم و مقامه لديكم بحال قلق و قلمة لولا تعليلكم ، و وعدكم و ارتقاب اللطائف في تقليب قلبكم"² . ثم يبسط أكبر عذر له و هو أن الهدنة متحققة بين السلطان و أعدائه فيكون رحيل ابن الخطيب غير ذي أثر سلبي في علاقة الدولة بممالك إسبان فيقول : "و أن العبد الآن لما تسبب لكم في الهدنة من

¹ - ابن خلدون : العمر ، ج 14 ، و هو كتاب التعريف بابن خلدون و رحلته غريباً و شرقاً ، ص 950 .

² - المصدر نفسه : ص 950 .

بعد الظهور و العز .. و تأتي لسنين كثيرة الصلح ، و من بعد أن لم يبق لكم بالأندلس مشغب، طرفته الأفكار و تذكر إشراف العمر على التمام ، و عمل بمقتضى قوله : ”موتوا قبل أن تموتوا“¹ فبعد شياع الأمن من عدو غالب أو قريب منافس على الملك ، رأى أن ينسحب لا سيما و قد أحس بتقدم السن و أن ذلك داعية إلى ترك الشهوات و هو الموت المكتوب على كل حي و من أذاره في ذلك ، ما يعتقد من محبة السلطان له و أنه لا يمكن مفارقة بشكل جلي إذ أن نفسه لا تطاوعه على ذلك ، و من تلك الأعدار أن ابن الخطيب عزم على أمر شريف و هو قضاء فريضة الحج ، و متى وجد ما يثنيه من مرض أو عدو عاد إلى سلطانه إذ لم يترك وراءه ”مانعا من الرجوع من قول قبيح أو فعلى ، بل .. الوسائل المرعبة و الآثار الخالدة و السير الجميلة“².

و يستعمل ابن الخطيب ، هنا ذكاءه معتمدا على أدلة المناذقة حين يقول : ”فإن كان تصرفي صوابا و جاريا على السداد ، فلا يلام من أصاب و إن كان عن حمق و فساد عقل فعلا يلام من اختل عقله و فسد مزاجه بل يعذر .. و إن لم يعط مولاي أمري حقه من العدل ، و جلبت الذنوب .. فحيأوه و تناصفه ينكر ذلك و يستحضر الحسنات“³.

و لم يكتف ابن الخطيب بسبب الإعدار ، بل بادره بالنصيحة بتقوى الله و العمل لليوم الآخر . ولم يوصه بحفظ مال لأنه أهون من أن يتواضى به ، و لا بكفالة أهل فهم أهله و خاصته ، ثم ينهي رسالته بنوع من التحذير الممتلئ بالغرور و هو قوله : ”و اعلموا أيضا على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر ، و عند كل ملك ، و اعتقاده ، و بیره و السؤال عنه و ذكره بالجميل نجابة منكم و سعة ذرع و دهاء ، فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة ، نزلت ثم أقشعت ، و تركت الأزاهر تفوح ، و المحاسن تلوح ..“⁴.

و يختم رسالته بالقسم على إخلاصه و أنه ما ترك نصيحة في دين ، و لا دنيا إلا وجهها إليه ، و من ظن به خلاف ذلك فقد ظلمه .

و هذه الرسالة تبين إلى حد ما ، أسباب رحيل لسان الدين عن غرناطة ، و إثاره النفي الذاتي فقد رأى أن زيادة المكث بالأندلس سيؤول به لا محالة ، إلى أن تسوء علاقته بسلطانه ، فمن هذه الناحية شرح تلك الأعدار ، و قدم تلك النصائح و من ناحية أخرى ، نوه بقدر نفسه و فضله و شهرته لكونه قد قدم السوابق لآل مرين بما يتيح له الاطمئنان لديهم و اللجوء إلى ركنهم .

¹ - المصدر السابق : ص : 951 .

² - المصدر نفسه : ص : 952 .

³ - المصدر نفسه : ص : 953 .

⁴ - المصدر نفسه : ص : 954 .

و الواقع أن ابن الخطيب صور حالته النفسية و الدوافع التي تمكن وراء تفكيره في الرحيل بأفصح مما جاء في الرسالة السابقة ، و ذلك في كتابه أعمال الأعلام ، و ربما كان هذا الكتاب محتويًا على أصدق أفكار ابن الخطيب ، ذلك أنه ألفه في آخر سنواته ، و هو آخر ما صدر عنه من كتب ، و لهذا السبب فهو يحمل الأفكار الحقيقية التي يتبناها ابن الخطيب في الحياة ... يصف حالته بعد عودته من المغرب و تسلمه منصب الوزارة للمرة الثانية ، قائلاً : ” و كنت وصلت من المغرب و لي ورد من الليل ، و وظيفة من الذكر ، و حظ من الخير ، ضايقتني في ذلك فضول القول و العمل فهجرت السبحة ، و طلقت الورد ، فلا متعة بالمطعموم لاختلال الصحة ، و لا بالنساء لذهاب الشبيبة و صرت أسهر الليل ، و أتوقع الشر .. و أنزل الله عز وجل علي جبال العجز و الكسل و سقوط الأمل و جمع المطالب كلها في حصول راحة و قطع ما بقي للعمر من برهة في دار أمن و خلو من شغب¹⁰⁰ .

و يصرح في شكل اعتراف ، بأخطائه و اتباعه الهوى ، و يتأسف على نجاح السعاة بينه و بين سلطانه ، فيقول : ” و في كل أونة و ساعة ، و أثناء كل تفرد و خلوة أخاطب نفسي : ” يا مشثومة أما تشعرين لما نزل بك ، حملت هذا كله على ضعفك ، و غمرت بهذه الحظوظ حظ ربك ، و تعرضت لأن تسخطي الطالب الممنوع بخبيته ؛ و تسخطي المعطي بما يرى أنك قد منعتيه من الزيادة في عطيته ... و تسخطي الرعية باستقصاء الجباية و أخذها بالإعداد لعدوها في الشدة و تعادين خاصة السلطان بالانفراد دونهم “ ... إلى أن يقول : ” و صرت أنظر إلى الوجوه فالمح الشرفي نظراتها ، و اعتبر الكلمات فأتين الحسائف في لغاتها ، و الضغينة في كل يوم تتحكم ، و الشر يضاعف ... و شبع الكلاب المطيفة في تهيج حسائف النمر الجائعة .. و الأصحاب الذين تجمعهم المائدة كل يوم و ليلة يفتنون في الإطراء و المديح .. أنظر إليهم يتناقلون الإشارات بالعيون و المغامرة بالجفون ، فإذا انصرفوا ، صرف الله قلوبهم ، قلبوا الأمور و أفسدوا القلوب و تعللوا بالأحلام و قواطع الأحكام²⁰⁰ .

يتبين من هذا الاستطراد أسباب رحيل ابن الخطيب بشكل أفصح ، فالرجل بدأ يحس بتكالب الأعداء عليه ممن أخذ الحسد بمجامع قلوبهم أن يروا ابن الخطيب استأثر بالسلطان و انفرد بالنفوذ فأغراهم ذلك بالحمل عليه و تغيير قلب السلطان ، و من ناحية أخرى بدأ يشعر بوخز ضميره و تأنيب نفسه و رأى من الخير له أن يخذ مقامًا آخر ، و يريح نفسه من هواجسها .

¹ - ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص 316 - 317 .

² - المصدر نفسه : ص 315 ، 316 .

استقر إذن ، ابن الخطيب بتلمسان مع السلطان عبد العزيز الذي وفر له الأمن و الدعة ، و أرسل كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيرا إلى صاحب الأندلس في طلب أهله ف جاء بهم ، وقرت عينه بذلك ، و أجرى عليهم السلطان الجرايات . و أرسل الغني بالله إلى السلطان عبد العزيز في طلب لسان الدين متهما إياه بالزندقة فرفض تسليمه و أنف من ذمته أن تحفز و من إحسانه إلى ابن الخطيب أن يتحول إلى إساءة و قال لمن حضر من قبل أبن الأحمر ”هلا انتقمتم منه و هو عندكم و أنتم عالمون بما كان عليه ؟ و أما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوارى“¹ . و بعد وفاة السلطان عبد العزيز سنة (774هـ) قدم وزيره أبو بكر بن غازي ، ابنه محمد السعيد للبيعة و هو غلام حدث ، و انتقلت السلطة من تلمسان إلى فاس ، و ظل ابن الخطيب في جوار الوزير ابن غازي المستبد يومئذ بالملك ، فأقطع ضياعا و مساكن و أجرى عليه و على أهله الجرايات و عاد إلى سابق عهده من الركون إلى البجوحة ، و أثمرت تلك الراحة عدة مؤلفات منها كتابه عن القاضي النباهي ”خلع الرسن في أمر القاضي أبي الحسن“ يعدد فيه عيوب هذا القاضي بأسلوب ساخر و من هذه الكتب ”الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة“ و لما كان السلطان الجديد حديث السن إذ لا يتجاوز العقد الأول من عمره ، رأى الأندلسيون أن بيعته لا تتعد شرعا ، و يجب خلعهم و مبايعة من هو أكفأ ، و المراد إزالة الوزير ابن غازي مجير ابن الخطيب ، ليتسنى القبض على هذا الأخير و رأى لسان الدين أن يؤيد بيعة الصبي و أن يلتمس الأدلة التاريخية على جواز هذه البيعة ، و أنها مما اشتهر في التاريخ الإسلامي ، و لم يقع فيه النكير فوضع كتابه : ”أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام و ما يجر ذلك من شجون الكلام“ و فيه يرد على أهل الأندلس و يحتج عليهم بمبايعتهم لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل و هو لا يتجاوز تسع سنين ، فمتى رفض الأندلسيون بيعة الصبي في المغرب ، فقد عموا و صموا .

ألا أن أعداء لسان الدين لم يستيئسوا من طلبه ، و الظفر به ، فعملوا على إحلال سلطة جديدة في المغرب لخدمة مصالحهم ، حيث أطلق ابن الأحمر ابن أبي يفلوسن و ابن ماساي السجيين لديه منذ عهد السلطان عبد العزيز و أمدهما بالسلاح و الرجال للانقضاض على الدولة في المغرب ، و نزل ابن أبي يفلوسن بساحل (بطوية) سنة (774هـ) فبايعته قبائلها على مساندة و الموت دونه و حاصر ابن الأحمر جبل الفتح ، و هزم ابن غازي قوات المغاربة التي اعترضته بقيادة محمد بن عثمان ابن عم الوزير عبد الرحمان ، و قد استطاع ابن الأحمر أن يساومه في الأمر على أن يقدم للبيعة أحد أبناء السلطان أبي سالم ، و كان معتقلا بطنجة ، و أن ينزلوا له عن جبل الفتح و أن يبعثوا إليه بابن الخطيب إذا تمكنوا منه ، فاتصل محمد بن عثمان بأبي العباس أحمد بن السلطان أبي سالم ،

¹ - ابن خلدون : العمر ، ج 13 ، ص 697 .

فبايعه ، وحمل الناس على بيعته ، و أزم أهل جبل الفتح ، ذلك فزال سلطنة بني مرين عليه بعد أن استمرت مدة طويلة ، ثم أمد ابن الأحمر السلطان الجديد بالعساكر و الأموال ، و استولى على فاس سنة (776هـ) و وقع مع الوزير أبي بكر بن غازي صلحا بعد أن حاول هذا الأخير المقاومة و اعتقل الملك السعيد في طنجة ، و في تلك الأثناء هدم جنود الأندلس ضياع ابن الخطيب ، و خربوها ، و فقد الناصر بزوال دولة الملك السعيد و وزيره ابن غازي و أصبح يعد أيامه الأخيرة لأن محمد بن عثمان الوزير الجديد خضع لشروط ابن الأحمر و منها تسليم ابن الخطيب متى قدروا عليه ..

9 - محنة ابن الخطيب و نهايته :

بعد فشل الوزير ابن غازي ، مجير ابن الخطيب ، في المقاومة ، أصبح لسان الدين لقمة سائغة بين يدي أعدائه الذين يتربصون به الدوائر ، و من أكبر أعدائه ، سليمان ابن داود المعاون الرئيسي لمحمد بن عثمان في الوزارة ، بسبب معارضة لسان الدين له في تولي مشيخة الغزاة ، و قد كان أغرى ابن الأحمر بنكبة شيخ الغزاة على عهده ، على الرغم من أن ابن الأحمر ، وعد سليمان بتوليته هذا المنصب متى عاد إلى وطنه من المنفى "فكانت بينه و بين ابن الخطيب مكاتبات يتنافس كل واحد منهما بما يحفظه لما كمن في صدورهما " ¹ .

و لذلك أغرى السلطان الجديد أبا العباس بالقبض على لسان الدين ، ققبض عليه و أودع السجن ، و راسلوا ابن الأحمر بذلك فأرسل وزيره و كاتبه ابن زمرك ، يحمل عريضة الاتهام التي سجلها عليه القاضي أبو الحسن ، وهذه الوثيقة ترميه باتباع الهوى و مخالفة الشريعة الإسلامية دون أن تحدد مواضع الخطأ فيها ، بشكل دقيق و يحسن بنا الوقوف على فترات من تلك العريضة التي هي في الواقع رسالة بعثها القاضي النباهي إلى لسان الدين حين فراره إلى المغرب ، يقول ابن الحسن في تلك الرسالة : "فشرعتم في الشراء و تشييد البناء ، و تركتم الاستعداد لهادم اللذات ... و قد قلت لكم غير مرة عن أطراسكم المسودة بما دعوتم إليه من البدعة و التلاعب بالشرعية ، إن حقها التخريق و التحريق ... على أن تأسفكم لما وقعتم فيه من الغدر لسطانكم و الخروج ، لا لضرورة غالبية عن أوطانكم من الواجب بكل اعتبار عايكم ..." ² ، و الرسالة كلها على هذا النمط من كيل التهم المتعلقة بفترة ابن الخطيب في الوزارة ، كالاستكثار من الأموال أو الشفاعة في حق من حقوق القضاء أو السخرية اللاذعة أو التفاخر بالأباء ، و لا شك أن التهم التي قدمها ابن زمرك في مجلس السلطان أبي العباس لا تختلف عن هذه التهم .

و يمكن أن نصنف هذه التهم إلى صنفين :

1 - المصدر السابق ج 3 ص 708 .

2 - المقرئ : نفع الطيب ، ج 5 ، ص 122 و ما بعدها .

- ما يتعلق بالخيانة و هي تهمة سياسية .

- ما يتعلق بالشرع و هي تهمة دينية .

أما تهمة الخيانة فهي بفعل سعاية خصوم ابن الخطيب السياسيين الذين يجدون فيه حجرة عثرة في طريقهم إلى تحقيق مآربهم و أطماعهم ، و ذلك لأنه استأثر بهوى السلطان فأباحه التصرف باسمه بحرية كاملة ، مع المودة التي تقتضيها صحبة استمرت سنوات طوالا ، و لم تغيرها المحن ، فما كان ابن الأحمر ليتغير على وزيره كل هذا التغير لولا أن أعداء لسان الدين صوروا فراره إلى المغرب على أنه محاولة لتقويض سلطانه ، و عندئذ امحت الصورة التي انطبعت في نفسه عن وزيره في أيام التواصل ، و حلت محلها صورة بشعة قائمة جعلته لا يتوانى في القبض عليه و عدم الرضا إلا بقتله ! .

و أما نسبته إلى الزندقة ، فإنها مأخوذة من كتابه روضة التعريف بالحب الشريف و ذلك أنه أورد فيه فكرة الحلول و الاتحاد التي يقول بها المتصوفة المخالفون للسنة و الجماعة و عن التهمة يقول المقرئ : ” و نسبوه إلى الزندقة و الانحلال من ربة الإسلام ، ينتقص النبي عليه أفضل الصلاة و السلام و القول بالحلول و الاتحاد و الانخراط في سلك الإلحاد ، و سلوك مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد ، و غير ذلك ، مما أثاره الحقد و العداوة و الانتقاد ، مقالات نسيوها إليه خارجة عن السنن السوي ، و كلمات كدروا بها منهل علمه الروي ، و لا يدين بها و يفوه إلا الضال الغوي ، و الظن أن مقامه رحمه الله تعالى من لبسها بري و جنايه سامحه الله تعالى عن لبسها عري“¹ .

و غير خاف أن المقرئ حسن الاطلاع على آراء ابن الخطيب و مؤلفاته ، كيف لا و قد حفظ منها الكثير مما أودعه كتابه النفع ، أما روضة التعريف الذي كان سبب مقتل ابن الخطيب فإنه ”لا ينطوي على شيء مما رماه به خصومه من قول بالحلول أو الاتحاد أو الوحدة المطلقة و لا ينم عن ذلك من قريب أو بعيد ... نعم تكلم ابن الخطيب عن جميع المذاهب و الآراء المتصلة بهذا الموضوع و أورد رأي أهل الوحدة المطلقة و رأي مذهب وحدة الوجود و وقف عندها و قفات يدفع آراءهم و يكشف عما فيها من ضلال و انحراف ، بل يحق لنا أن نؤكد أن ابن الخطيب كان في هذا الكتاب سنيا أشعريا دون لبس أو خفاء و أحيل القارئ إلى فصول روضة التعريف نفسها ليتأكد من ذلك و لا سيما الفصل المعنون ”الاختيار الخامس في تنظيم الأرض المعتمرة من الأصول الخبيثة و الحجارة المعترضة“ حيث يتضح له الوجه الصريح لاعتقادات ابن الخطيب البعيدة عما رماه به خصومه السياسيون“² .

¹ - المقرئ المصدر السابق: ص 118 .

² - ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، تحقيق د/ محمد الكناي ، دار الثقافة ، الدار البيضاء المغرب ، ط 1 ، 1970 م ، مقدمة التحقيق ص 60 .

و الظاهر أن آراء ابن الخطيب الجريئة التي خالف فيها (أذواق) بعض الفقهاء و هو يميل في كتاباته إلى الإغراب و الإبداع ، الظاهر أن ذلك هو سبب منشأ هذه الأحكام ، و عند سبر آرائه لا نرى فيها ما يخالف المتعارف عليه من عموم الشريعة و لا سيما ما تعلق بالأصول و الاعتقاد ، و المعلوم في هذه الفترة من تاريخ الأندلس خاصة و التاريخ الإسلامي عامة أن علماء البلاط يلتزمون في فتاواهم بالخط السياسي الذي تنتهجه السلطة ، و من المواقف المؤيدة لهذا الرأي إفتاء قاضي غرناطة بزواج إسماعيل من زوجة الغني و مسحة طلاقها منه بعد فراره من المغرب ، و يصف ابن الخطيب ذلك القاضي "بالمترأخي الدين و الفك المنحل العصب و العقيدة ، و المعرق العمومية المشهور بالرشوة"¹ .

و لا تذكر المصادر² التي روت واقعة محاكمة ابن الخطيب ، الحكم الذي صدر ضده بصراحة ، و لا تذكر الفقهاء الذين تولوا ذلك و أول هذه المصادر تاريخ ابن خلدون الذي نقلت عنه بقية المصادر ، و يذكر ابن خلدون ذلك على النحو الآتي : "فقدم على السلطان أبي العباس (أي ابن زمرك) ، و أحضر ابن الخطيب بالشورى في مجلس الخاصة و أهل الشورى و عرض عليه بعض الكلمات وقعت له في كتابه ، فعظم عليه التكبير فيها ، فوبخ و نكل ، و امتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ من الناس ، ثم نقل إلى محبسه و اشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، و أفتى بعض الفقهاء فيه ، و دس سليمان ابن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله فطرقوا السجن ليلا و معهم زعانفة جاعوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر ، و قتلوه خنقا في محبسه ، و أخرج شلوه من الغد على شافة قبره طريحا ، و قد جمعت له أعواد و أبرمت عليه نارا فاحترق شعره و اسود بشره ، فأعيد إلى حفرتة و كان في ذلك انتهاء محنته"³ .

لقد كان قتل ابن الخطيب بغير مقتضى الشرع ، و ذلك لأنه وقع ليلا و غدرا من طرف مجرمين مرتزقة لدى ابن داود و لم يقع عيانا كما كان ينبغي في مثل هذه المحاكمات ، و لا تذكر المصادر كذلك إن كان قد أعطي الفرصة ليدافع عن آرائه فقد كانت الأهواء هي التي تحاكم و ليس الشرع ، و قد بلغ الحقد بأعدائه أن قتلوه مرتين تشفيا و تجسيدا لأحقادهم و ضغائنهم : "و قتلته على الصفة المذكورة ، هو من تلك المجازفات التي صار يرتكبها قضاة المالكية و يريقون بها دماء المسلمين بلا قرآن و لا برهان"⁴ .

¹ - ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، ص 114 .

² - تلا ابن زمرك في القصر المريني عريضة الاتهام ، و أفتى أحد العلماء بقتله دون أن يعدد اسمه ، انظر : عبد الهادي أبو طالب وزير غرناطة لسان الدين ابن الخطيب ، دار الثقافة ، الدار البيضاء المغرب ، ط 2 ، 1960 م ، ص 315 .

³ - ابن خلدون : العبر ، ج 13 ، ص 709 .

⁴ - البدر الطالع : الشوكاني ، ج 2 ، ص 194 .

و قد كان ابن الخطيب يتوقع هذه النهاية المؤلمة و هو يكابد أغلال السجن و غياباته ، فقال ،
و هو يجتر الحشرات ، و ينفث الزفرات ¹ .

و جئنا بوعظ و نحن صموت
و أنفاسنا سكنت دفعة
و كنا عظاما فصرنا عظاما
و قات فمن ذا الذي لا يفوت

و كانت وفاة ابن الخطيب بفاس سنة ست و سبعين و سبعمائة ² في المحرم منه ، و بعد أيام
من تولي السلطان ملك المغرب ³ .

و بذلك تتطوي صفحة من صفحات العلم و الأدب في الأندلس و المغرب و يذهب أحد الأعلام
العلماء ، ضحية الحقد و الأهواء و النزوات الشخصية ، و يروي المقرئ عن ابن حجر أن أحد
الأعيان عند زيارته لأحد ملوك الإفرنج و بعد قضاء سفارته و أراد الرجوع أخرج له رسالة لابن
الخطيب تشتمل على نظم و نثر فلما قرأها قال له : ” مثل هذا كان ينبغي ألا يقتل فم بكى حتى بل
ثيابه...“ ⁴ ! .

و سوف يلقي ابن زمرك متولي قتل ابن الخطيب عاقبة أشأم من هذه النهاية لأن هذا قتل بين
عِياله و أهله و قتل معه أبناءه و من وجد من خدمه ، و لسان الدين رحمة الله تعالى خنق بمفرده ،
و عند الله تجتمع الخصوم و هو العفو الغفور ⁵ .
و موت ابن الخطيب بتلك الطريقة كان سببا في تسميته بذئ الميتين و ذي القبرين ...

ثانيا : آثار ابن الخطيب :

تراث ابن الخطيب حافل و متنوع ، فالرجل لم يقصر اهتمامه على جانب واحد من المعرفة بل
تشعبت به اهتماماته ليكتب في مجالات متعددة من العلم ، فقد جمع بين عقلية العالم المدقق المتحري
لمسائل العلم ، و نفسية الفنان المبدع المتأنق في فنه إلى أبعد مدى ، و حاول أن يكون له مكان متميز
في التاريخ الأندلسي بل و الإسلامي عموما فكتب في التاريخ و السياسة و الأدب ، شعرا و نثرا
و التصوف و الطب و الموسيقى و البيطرة ، إلى جانب الفقه . و الشيء اللافت للنظر و المهم في

¹ - ابن خلدون : العبر ج 13 ، ص 709 .

² - ابن قنفذ القسطنطيني أحمد بن الحسين : كتاب الوفيات ، تحقيق عادل نويهض ، مؤسسة نويهض للثقافة للتأليف و الترجمة و النشر لبنان
1982 ص 370 .

³ - ابن خلدون العبر : ج 13 ، ص 708 .

⁴ - المقرئ : نفح الطيب ، ج 5 ، ص 112 .

⁵ - المقرئ : النفح ، تحقيق محمد عي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، 1967 - 1969 ج 7 ، ص 170 .

الوقت نفسه أن ابن الخطيب كان شديد العناية بمؤلفاته ، و كان كثيرا ما ينوه بها و يفاخر بكثرتها و تميزها ، كما كان كثير النقل من بعضها إلى بعض و هذا ما ساعد على الكشف عن أماكن وجودها و تواريخها ، و الأمر المهم كذلك أنه قام بجمع تراثه الأدبي الأمر الذي حفظه من الضياع أو الالتباس كما يحصل عادة لكثير من الأدباء الذين يتركون أشعارهم عرضة للضياع و الانتحال .

لقد كانت عناية الباحثين بتراث ابن الخطيب كبيرة في مجال النشر و التحقيق أو مجال الدراسة و البحث ، أو مجال الترجمة و الاقتباس و الاختصار ، نظرا لما كان يمثل هذا الرجل على المستوى الفكري و السياسي في غرناطة في القرن العن الهجري ، فاعتبارا لوظائفه السياسية تعتبر مؤلفاته التاريخية أشبه ما تكون بوثائق رسمية تعد شاهدا صادقا على ذلك العصر . و من هنا اتجهت عناية المؤرخين إلى تحقيق هذه المؤلفات و نشرها .

و هناك ظاهرة مهمة في مؤلفات ابن الخطيب هي أنه كان ينقل فيها كثيرا من أشعاره و مراسلاته الشخصية أو السياسية ، و لذلك فقد جمعت تلك المؤلفات بين الجانب العلمي و الجانب الأدبي لاحتوائها ذلك الكم المعتبر من الإبداع شعرا و نثرا و من هنا كانت بعض كتبه التي هي في الأصل ذات موضوعات تاريخية مصدرا لشعره و نثره اعتمد عليه من عنوا بجمع تراثه الأدبي .

و مهما تكن عناية الباحثين و المحققين بتراث ابن الخطيب فإنها لا تخلو من عثار و نقائص ، فإن تلك الجهود ليست ذات مستوى واحد من حيث الدقة و الأخذ بأسباب التحقيق العلمية نظرا لاختلاف الدارسين من حيث قدراتهم العلمية ، و "نستطيع أن نميز في ما أنجز من تحقیقات لتراث ابن التاريخي و الأدبي و الفكري مستويين اثنين .. أولاها استوفى من التدقيق و الضبط و التصحيح و التدقيق ما جعل الأثر المحقق على الصورة التي وضعها بها مؤلفه أو أقرب ما يكون منها... و ثاني المستويين لم يستوف ما استوفاه الأول من شروط التحقيق العلمي الدقيق مما جعل النص المحقق عرضة للتصحيح ، و الخطأ و الاضطراب " ¹ .

و لا يخفى على الدارسين لتراث ابن الخطيب ، بطبيعة الحال أن بعضا منه قد ضاع بسبب المؤامرة التي حيكته ضده . حيث أمر بإحراق كتبه بغرناطة بينما كان هو منفيًا بالمغرب فنحن لا ندري بالضبط ما هي الكتب التي أحرقت و التي نجت من الهلاك ، إلا أن المصادر التاريخية و الأدبية قد أوردت فهارس متنوعة من حيث الاستيعاب و الدقة لتلك المؤلفات ، وبعضها حقق مرات متعددة ، و البعض الآخر ما زال ينتظر التحقيق ، أما القسم الثالث فيعد مفقودا .

¹ - د . حسن الوراكلي : لسان الدين ابن الخطيب في آثار الدارسين ، دراسة و بيلوجرافية منشورات عكاظ ، الرباط ، المغرب 1990 ص

و من هذه المصادر التي أوردت فهارس مؤلفاته الإحاطة في أخبار غرناطة ، و نفاضة الجراب في علامة الاغتراب لابن الخطيب ، و نفع الطيب و أزهار الرياض للمقري بالإضافة إلى بعض المراجع الحديثة أوردت تفصيلات مهمة عن حياة و آثار ابن الخطيب منها "الأعلام" للزركلي و "لسان الدين بن الخطيب . حياته و تراثه الفكري" لمحمد عبد الله عنان ، و غيرها . و سيأتي تفصيل ذلك على النحو التالي :

أ / التاريخ و التراجم :

1 - الإحاطة في أخبار غرناطة : هو أهم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية و فيه تاريخ مملكة غرناطة ، القديم و المعاصر للمؤلف مع وصف جغرافي لطبيعة تلك المنطقة و تراجم أعلامها من أهلها أو الوافدين عليها من العلماء و الأدباء و الملوك و الأمراء و الوزراء و فيه قسط وافر من المادة الأدبية كالشعر و الرسائل و في آخره عرض المؤلف سيرته الذاتية و قد طبع هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان في أربعة مجلدات و صدر عن مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ألف و تسعمائة و أربع و سبعين (1974م) .

2 - أعمال الأعلام في من بويح قبل الاحتلال من ملوك الإسلام و ما يجر ذلك من شجون الكلام : و هو آخر مؤلفات الكاتب ، ألفه في المغرب ليعرض سياسي ، مؤيدا به أحد الصبيان من بني مرين و فيه معلومات مهمة عن حياته في آخر أيامها .. حقق الجزء الأول منه - و هو المتعلق بالأندلس - المستشرق ليفي بروفنسال سنة 1934م و حقق الجزء الثاني - و هو المتعلق بالمغرب - الدكتور مختار العبادي و الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني و صدر عن دار الكتاب بالمغرب . سنة 1964م .

3 - الإكليل الزاهر في ما فضل عند نظم التاج من الجواهر : تناول فيه ابن الخطيب تراجم بعض الأعلام المعاصرين له ، و هو تكملة للتاج المحلي الذي سنعرض له بعد قليل، توجد مخطوطة منه بمكتبة الإسكوريال رقم 1554 الغزيري¹ .

4 - أوصاف الناس في التواريخ و الصلوات : هو كتاب تراجم أدبية و تاريخية ، عده الحسن محمد السائح في كتابه "منوعات ابن الخطيب"² من الكتب المنسوبة لابن الخطيب و الكتاب من مؤلفاته و قد قام بتحقيقه الدكتور محمد كمال شبانة و صدر عن منشورات صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية و الإمارات العربية المتحدة ، مطبعة فضالة المحمدية (المغرب) د . ت³ .

¹ - محمد عبد الله عنان : لسان الدين بن الخطيب حياته و تراثه الفكري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 1 ، 1388هـ ، 1968م ، ص 251 .

² - الحسن بن محمد السائح ، منوعات ابن الخطيب ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المغرب 1978 ، ص 89 .

³ - د . حسن الوراكلي : لسان الدين بن الخطيب في الآثار الدارسين ، ص 78 .

- 5 - التاج المحلى في مساجلة القذح المعلى : هو تراجم لأعيان الأندلس في عصر المؤلف . ذكره ابن الخطيب في كتابه الضخم "ريحانة الكتاب" الذي سنذكره بعد قليل .
- 6 - رقم الحلل في نظم الدول : تاريخ منظوم للدول الإسلامية منذ الخلافة الراشدة إلى عهد بني الأحمر ، و عليه شرح بقلم المؤلف ، نشر جزء منه بتونس سنة 1316هـ¹ .
- 7 - ريحانة الكتاب و نجعة المنتاب : مؤلف ضخّم جمع فيه ابن الخطيب مختصرات من بعض كتبه ، مع بعض الرسائل ، و موضوعاته متعددة ، إلا أن جانب التاريخ فيه أوضح ، توجد مخطوطات لهذا الكتاب في بعض الدول العربية ، منها المغرب و الجزائر ، ومصر² ، و نشرت بعض أجزائه في شكل رسائل و كتب مستقلة .
- 8 - كناسة الدكان بعد انتقال السكان : هو مجموعة من الرسائل بعث بها ابن الخطيب على لسان يوسف الأول إلى أبي عنان المريني ، حقق هذا الكتاب الدكتور محمد كمال شبانة و نشرته دار الكتاب العربي بالقاهرة سنة 1968 م .
- 9 - الكئيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة : تراجم طائفة كبيرة من شعراء عصره و لا سيما أساتذته ، و جعلهم طبقات تبعا لاهتماماتهم العلمية ، حقق الكتاب ، الدكتور إحسان عباس ، و نشرته دار الثقافة ببيروت سنة 1963 م .
- 10 - اللوحة البدرية في الدولة النصرية³ : كتاب تاريخ تناول فيه المؤلف تاريخ ملوك بني نصر إلى عهد المؤلف ، و هو مطبوع بالقاهرة سنة 1947 م .
- 11 - طرفة العمر في تاريخ دولة بني نصر : في ثلاثة أسفار ، تاريخ للدولة النصرية⁴ .
- 12 - مساجلة البيان : تراجم أدبية⁵ .
- 13 - عائد الصلة : كتاب وصل به "صلة الصلة" لابن الزبير الغرناطي (ت708هـ) و هو مجموعة تراجم . و الكتاب المفقود⁶ .

¹ - محمد عبد الله عنان : لسان الدين بن الخطيب ، حياته و تراثه الفكري ، ص 242 .

² - المرجع نفسه ، ص 253 .

³ - ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، ص 3-4 .

⁴ - محمد عبد الله عنان : لسان الدين بن الخطيب ، حياته و تراثه الفكري ، ص 250 .

⁵ - معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار : تحقيق د/ محمد كمال شبانة اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية و دولة

الإمارات العربية المتحدة 1976 ، مقدمة المحقق ص 34 .

⁶ - محمد عبد الله عنان : لسان الدين بن الخطيب ، حياته و تراثه الفكري ، ص 251 .

ب / الرملة و البلدان :

- 14 - خطرة الطيف في رحلة الشتاء و الصيف : رسالة وصف فيها المؤلف رحلة قام بها السلطان يوسف الأول ، نشرها الدكتور مختار العبادي ضمن "مشاهدات ابن الخطيب" ص 25-53¹
- 15 - معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار :² وصف فيه المؤلف بعض المدن الأندلسية و المغربية ، اعتمد فيه أسلوب المقامات ، حققه و نشره الدكتور محمد كمال شبانة ، تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية و دولة الإمارات العربية المتحدة سنة 1976 م .

- 16 - مفاضلة أو مفاخرة بين مآلقة رسلا:³ رسالة مسجوعة في المقارنة بين هاتين المدينتين نشرها الدكتور مختار العبادي ضمن مشاهدات ابن الخطيب (ص 57 - 66) .
- 17 - نفاضة الجراب في علالة الاغتراب⁴ : كتاب في ثلاثة أجزاء فقد الأول منها و الثاني حققه الدكتور أحمد مختار العبادي عن دار الكتاب العربي بالقاهرة .

ج / السياسة :

- 18 - الإشارة إلى أدب الوزارة⁵؛ تكلم فيه المؤلف عن واجبات الوزير و شروطه ، حققه الدكتور محمد كمال شبانة .
- 19 - بستان الدول⁶ : كتاب سياسي شامل تكلم فيه المؤلف عن القضاء و الحرب و الصناعة و أهلها و طبقات الشعب .
- 20 - تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة⁷ : كتاب منظوم .
- 21 - قطع السلوك في دول الملوك : أورده المقرئ في ثبوت مؤلفات ابن الخطيب⁸ في الإحاطة
- 22 - مقامة السياسة : رسالة في السياسة ، حققه الدكتور محمد كمال شبانة مع كتاب الإشارة السابق ذكره⁹ .

1 - د . حسن الوراكلي : لسان الدين ، ص 19 .

2 - ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، تحقيق مختار العبادي ، ص 121 .

3 - محمد عبد الله عنان : لسان الدين بن الخطيب ، حياته و تراثه الفكري ، ص 261 .

4 - نفسه : ص 242 .

5 - المقرئ : نفع الطيب ، 97/7 .

6 - المقرئ : نفع الطيب ، 97/7 و عنان ابن الخطيب حياته و تراثه ص 268 .

7 - ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، ص 188 .

8 - المقرئ : نفع الطيب ، 97/7 .

9 - د . حسن الوراكلي : لسان الدين في آثار الدارسين ، ص 78 .

د / الفقه و التصوف :

- 23 - تقرير الشبه و تحرير الشبه : أورده المقرري في النفح¹ ضمن مؤلفات ابن الخطيب .
- 24 - حمل الجمهور على السنن المشهور رسالة في الجهاد و الحث عليه² .
- 25 - الحلل المرقومة في اللمع المنظومة : رسالة في أصول الفقه ، في ألف بيت و هي تلخيص لكتاب أصول الفقه لأبي إسحاق الشيرازي المتوفى سنة (476هـ) ذكرها في نفاضة الجراب³
- 26 - الرد على أهل الإهابة : رسالة ، ذكرها المقرري في النفح⁴ .
- 27 - رسالة روضة التعريف بالحب الشريف :⁵ رسالة مشهورة في التصوف عارض بها "ديوان الصباية" لابن أبي حجلة التلمساني .
- 28 - الزبدة المخوضة : أوردها المقرري في النفح .
- 29 - الزواجر و العظات : حققه الدكتور محمد كمال شبانة مع كتاب أوصاف الناس في التواريخ و الصلوات السابق ذكره صدر عن منشأة "صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية و الإمارات العربية المتحدة ، مطبعة فضالة المحمدية (د.ت.)⁶ .
- 30 - سد الذريعة في تفضيل الشريعة⁷ .
- 31 - الغيرة على أهل الحيرة : رسالة في الحث على الجهاد : أوردها المقرري⁸ في مؤلفات ابن الخطيب .
- 32 - استئزال اللطف الموجود في سر الوجود : رسالة في التصوف ، و هي من الإنتاج المفقود لابن الخطيب ، أوردها المقرري⁹ كذلك .
- هـ / الطب :
- 33 - أرجوزة في الطب : في ألف و ستمائة بيت¹⁰ .

¹ - المقرري : النفح 97/7 .

² - المصدر نفسه : 99/7 .

³ ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، ت، أحمد عنار العبادي ، من دار الكتاب العربي ، القاهرة ص 178

⁴ - المقرري : نفح الطيب 97/7 .

⁵ - ابن الأخر : نثر فرائد الجمال ، ص 244 ، و المقرري : نفح الطيب ، 97/7 .

⁶ - د . حسن الوراكلي : لسان الدين ، ص 78 .

⁷ - الحسن بن السايح : منوعات ص 85 .

⁸ - المقرري : النفح 97/7 .

⁹ - المقرري : النفح 97/7 .

¹⁰ - ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، ص 178 - 188 .

- 34 - الأرجوزة المعلومة :¹ في مقابلة الأرجوزة المجهولة لابن سينا .
- 35 - البيزرة و البيطرة : في مجلدين² .
- 36 - رجز في الأغذية³ على حروف المعجم .
- 37 - رسالة في تكوين الجنين⁴ .
- 38 - عمل من طب لمن حب :⁵ مؤلف ضخّم تناول فيه المؤلف مختلف الأمراض .
- 39 - المسائل الطبية⁶ .
- 40 - المعتمدة في الأغذية المفردة⁷ .
- 41 - مقنعة السائل عن المرض الهائل⁸ : في وصف الوباء الذي حل بالأندلس سنة 749هـ
- 42 - الوصول في حفظ الصحة في الفصول : ترجم الكتاب إلى الألمانية⁹ .
- 43 - اليوسفي في صناعة الطب :¹⁰ في سفرين ، ألفه باسم السلطان يوسف الأول .
- و / رسائل متنوعة :
- 44 - خلع الرسن في أمر القاضي أبي الحسن¹¹ : رسالة في هجاء القاضي و الكاتب أبي الحسن النباهي الذي وقعت بينه و بين ابن الخطيب الخصومة المشهورة .
- 45 - رسالة الموسيقى¹² ذكرتها فهارس المحدثين .
- 46 - المباخر الطيبيّة في المفاخر الخطيبية : يذكر فيها نباهة سلفه أودها صاحب النفع¹³ .
- 47 - مثلى الطريقة في ذم الوثيقة¹ : رسالة لطيفة ، يتناول فيها المؤلف ، ظاهرة التوثيق والموتقين ، عرض فيها مسائل أخلاقية ، و اجتماعية ، نشرت هذه الرسالة و حققت أكثر من مرة ، من ذلك تحقيق الدكتور عبد المجيد تركي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1983م .

1 - المصدر نفسه : ص 178 - 188 .

2 - المقرئ : النفع ، 97/7 .

3 - المقرئ : النفع ، 97/7 .

4 - المقرئ : النفع ، 97/7 .

5 - ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، ص 367 .

6 - المقرئ : النفع ، 97/7 .

7 - المقرئ : النفع ، 97/7 .

8 - المقرئ : النفع ، 97/7 .

9 - معيار الاختيار : نفاضة الجراب ، ص 368 .

10 - ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، ص 368 .

11 - المقرئ : النفع ، 97/7 .

12 - الحسن بن السايح : منوعات ابن الخطيب ، ص 87 .

13 - النفع 97/7 .

ز / الأدب و الاختيارات الأدبية :

48 - أبيات الأبيات² اختيارات شعرية .

- تافه من جم و نقطة من يم³ مختارات نثرية لأستاذه أبي الحسن بن الجياب .

- تلخيص الذهب في اختيار عيون الكتب الأدبية الثلاثة⁴

- الدرر الفاخرة و اللجج الزاخرة : مختارات من شعر أستاذه أبي جعفر بن صفوان المالقي ، ذكره في الإحاطة⁵ عند ترجمة هذا الأستاذ .

- جيش التوشيح⁶ : اختار فيه المؤلف مجموعة من موشحات أشهر الوشاحين في الأندلس ، كما بقي ، و الأعمى التطيلي ، حققه هلال حاجي تونس 1967 .

- السحر و الشعر⁷ : مختارات شعرية قدمه لابنه عبد الله .

- فتات الخوان و لقط الصوان :⁸ رسالة شعرية .

- كناش منظوم في عروض الرجز⁹ :

ح / ديوان ابن الخطيب :

لابن الخطيب ديوان شعر ، ورد ذكره في أغلب مصادر حياة الشاعر ، و أول هذه المصادر كتبه هو كالإحاطة و النفاضة و غيرها ، أو النفع و الأزهار للمقري أو غير ذلك من المصادر ، و عنوان الديوان "الصيب و الجهام و الماضي و الكهام" و يرى محمد عبد الله عنان أن الديوان لم تصلنا منه نسخة كاملة بناء على اطلاعه على نسخة بها خروم بخزانة جامع القرويين بفاس بمجموعة أوراق تحت (رقم 71)¹⁰ ، و هو من اختيار ابن الخطيب نفسه أو اختيار بعض تلاميذه¹¹ ، والمرجح أنه من اختيار ابن الخطيب نفسه و ذلك أن من عاداته اختصار الكتب الأدبية ، و انتقاء الأشعار على طريقة الحماسات المعروفة في الأدب العربي ، كما فعل في جيش التوشيح ، و السحر

1 - النفع 97/7 .

2 - النفع 97/7 .

3 - النفع 445/5 .

4 - النفع 97/7 .

5 - الخطيب : الإحاطة 1/1 لا 22

6 - المقري : النفع 97/7 و ما بعدها .

7 - ابن الخطيب : النفاضة ص 189 .

8 - المقري : النفع 97/7 و ما بعدها .

9 - محمد عبد الله عنان : لسان الدين بن الخطيب ، حياته و تراثه الفكري ص 274 .

10 - المرجع نفسه : ص 269 .

11 - المرجع نفسه ، الموضوع نفسه .

و الشعر ، و أبيات الأبيات و قد اختصر ديوان الصيب أيضا ، و عنوان هذا المختصر هو : "طل الغمام المقتضب من الصيب و الجهام" و هو مفقود . و ديوان الصيب مطبوع ، و له إلى يومنا هذا طبعتان تعرض لهما فيما يلي :

طبعتا الديوان :

أ / طبعة الجزائر : نشر الديوان عن الشركة الوطنية للنشر و التوزيع بالجزائر من تحقيق و دراسة محمد الشريف قاهر ، و اعتمد المحقق على خمس نسخ مخطوطة :

- نسخة الأستاذ محمد الفاسي : تقع في "157 صفحة" و تبتدئ بحرف الألف و تنتهي بحرف الدال و سقط منها حرف الخاء ، و تاريخ نسخها هو سنة (1181هـ) ، و قد جعلها المحقق أصلا .
- نسخة الشيخ العربي الحريشي (من أعيان فاس) : تبدأ قصائدها بحرف الألف و تنتهي بحرف الراء و سقط منها حرف الخاء ، و عدد قصائدها 263 قطعة و قصيدة .
- نسخة الأستاذ محمد المنوني (من اهل فاس) : ترتيب القصائد فيها مضطرب ، تبدأ بحرف الألف و تنتهي بحرف الراء و مجموع قصائدها 257 قصيدة .
- نسخة القرويين و هي في مجموعتين ، و يرى المحقق أنها أقدم ديوان لابن الخطيب¹ و يعود تاريخ هذه النسخة إلى عام "957هـ" ، عدد قصائدها 97 .
- نسخة الأستاذ محمد الشاذلي النيفر (تونس) : و تمتاز بانفرادها بأشعار لا توجد في النسخ الأخرى ، و عدد قصائدها 21 .

و بالإضافة إلى النسخ السابقة ، اعتمد المحقق على مصادر أخرى من مؤلفات ابن الخطيب المخطوطة و المطبوعة لتصحيح بعض الأخطاء و ملء بعض الخروم ، و من مصادره أيضا مؤلفات ابن الأحممر كثير فرائد الجمان ، و ابن خلدون و ابن حجر و ابن غازي المكناسي (الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون) .

عمل المحقق : لخص المحقق عمله بقوله : "و عمدت إلى تخريج القصائد و المقطوعات في الهوامش مشيرا إلى مظانها في الكتب المطبوعة و المخطوطة و إلى مواضع الاختلاف بين كافة النسخ و المصادر ... و لم أتصرف في النص الأصلي للديوان إلا فيما يستحيل على عالم كابن الخطيب أن يقع فيه كالخطأ اللغوي الذي لا ضرورة فيه : كنقص حرف في كلمة .. أو زيادة حوف أو عبارة يختل بها الوزن الشعري .."² .

¹ - الصيب و الجهام : مقدمة المحقق ، ص 207 .

² - الصيب و الجهام : مقدمة المحقق ، ص 213 .

و إذا كان هذا العمل توثيقيا بحثًا ، فإن للمحقق عملا علميا آخر هو دراسة أدبية تتناول فيها عرضا لتاريخ غرناطة منذ الفتح الإسلامي إلى القرن الثامن الهجري ، ثم تناول في فصل آخر حياة ابن الخطيب في الأندلس و المغرب و تلسان ، و بعد ذلك تناول الباحث إنتاج ابن الخطيب الفكري فعرف بأثاره المطبوعة و المخطوطة .

و في فصل أخير ، و هم أهم ما في هذه الدراسة حاول المحقق أن يلقي نظرة على شعر ابن الخطيب "إن لم تكن دقيقة و شاملة فقريبة من الدقة و الشمول" ¹ . و بعد تعريفه الموجز بالأغراض الشعرية في ديوان الصيب و الجهام أشار المحقق إلى ظواهر في شعر لسان الدين ، و هي في نظره شعر المناسبات و الأوزان الطويلة و المبالغة و التكرار و التقليد و الثقافة التاريخية و الدينية والتصنيع و الاقتباس و التكلف ² .

و قد ألحق المحقق بالديوان فهارس للموضوعات ، و القوافي ، و الأعلام و المصادر

والمراجع .

و نشير هنا إلى أن ديوان الصيب و الجهام لا يضم شعر ابن الخطيب كله ، فلا أثر للموشحات في هذا الديوان ، و هذا يعني أن هناك شعرا آخر متفرقا في مصادر متفرقة ، و قد اكتفى المحقق بقصائد الديوان دون أن يضم إليه إنتاجا آخر لابن الخطيب مما نجده في مؤلفات الشاعر كالإحاطة بنفاضة الجراب و غيرهما ، أو في كتابي المقرري نفع الطيب و أزهار الرياض ، و عدد القصائد في الديوان 350 قصيدة و مقطوعة .

و قد اعتمدنا في هذا البحث على هذا التحقيق ، و استفدنا من شروح الباحث لبعض الغريب الوارد في شعر لسان الدين كما استفدنا من تراجم الأعلام و إن كانت موجزة و نلاحظ في هذا التحقيق بعض التصحيقات التي أشار إليها المحقق في الهوامش ، و بعضها لم يشر إليه مما يرجح أنه راجع إلى الأخطاء المطبعية .

ب / طبعة المغرب : و نشرالديوان مرة ثانية عن دار الثقافة بالدار البيضاء بالمغرب سنة 1989 م في مجلدين ، تحت عنوان "ديوان لسان الدين بن الخطيب السلمي" من تحقيق و تقديم محمد مفتاح لنيل شهادة جامعية هي شهادة الدراسات العليا في الآداب من جامعة فاس سنة 1972 م ³ .

اعتمد المحقق لهذا الديوان على نوعين من المصادر :

1 - مصادر أصول و هي أربعة مصادر مخطوطة : هي النسخ المخطوطة التي اعتمد عليها محقق ديوان الصيب و الجهام .

¹ - الصيب و الجهام : مقدمة المحقق ، ص 196 .

² - الصيب و الجهام : مقدمة المحقق ، ص 185 .

³ - د . حسن الوراكلي : لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين ، ص 19 ، و انظر مقدمة المحقق ، ص 8

2 - مصادر غير أصول و هي باقي آثار ابن الخطيب :

مختصر الإحاطة في أخبار غرناطة بالخزانة العامة رقم 1582 د ، و انفردت هذه المخطوطة بعشر قصائد و مقطوعات .

- السفر الثالث من نفاضة الجراب المخطوط ، و به سبع وسبعون قصيدة 77 بعضها انفردت به هذه المخطوطة

- السحر و الشعر ، و ربحانة الكتاب و نجعة المنتاب و مصادر أخرى مثل عمل من طب لمن حب و قابل المحقق المادة الشعرية بما اختاره المقرئ في النفع و الأزهار - مجموعة أشعار للأستاذ الشاذلي (تونس) .

عمل المحقق :

اجتهد المحقق في قراءة بعض الكلمات المطموسة أو التي فيها خروم و حاول تقدير بعضها وإلا تركه كما هو مع الإشارة إلى ذلك ، كما اجتهد في إيضاح النص بشرح بعض الكلمات و تفسير بعض التوريات و التعريف بالضروري من الأعلام ، و بيان عروض كل مقطوعة أو قصيدة .

قدم المحقق بدراسة موجزة لحياة ابن الخطيب من خلال شعره معتبرا أن فترة شباب الشاعر تتميز بالتقليد و الضعف ، و تبدئ من قوله الشعر إلى سنة 760هـ في نظره ، أما فترة السلطة المطلقة و القلق و الحيرة فتتسم من الناحية الفنية بالصدق و الشكوى ، و تقع هذه الفترة بين سنتي (760هـ و 772هـ) أما الفترة الثالثة فتتسم بالنقمة و الحزن و اليأس من الحياة¹ .

و عرض المحقق الأغراض الشعرية في ديوان لسان الدين عرضا مختصرا ، و هي عنده : (الوصف ، المدح ، الغزل ، الرثاء ، الهجاء ، التهكم و المداعبة ، الخمر ، الشعر الديني ، و أغراض أخرى كالإخوانيات و بكاء الأثار و الشكوى و الحكمة)² .

و في هذه الدراسة حاول الباحث أن يقدم صورة عن الخصائص الفنية لشعر ابن الخطيب و هي : ظهور الأثر المشرقي من خلال معارضاته لشعراء المشرق بالإضافة إلى بعض الخصائص المعنوية كالمبالغة و التكرار ، و بعض الخصائص اللفظية كالتورية و التضمين و التجمل بمصطلحات العلوم و الفنون و الجناس و الطباق و الألغاز³ .

و حاول الباحث المحقق أن يربط بين حياة ابن الخطيب و عصره من خلال شعره ، و اعتبره فنه صورة لبيئته بمختلف مظاهرها السياسية و الاجتماعية⁴ .

¹ - ديوان لسان الدين بن الخطيب السلمي : مقدمة المحقق من ص 17 إلى 27 .

² - المصدر نفسه : من ص 29 إلى ص 45 .

³ - المصدر نفسه : من ص 47 إلى ص 51 .

⁴ - ديوان ابن الخطيب : مقدمة المحقق ، ص 53 .

و يتميز هذا التحقيق عن سابقه بأنه استقصى شعر ابن الخطيب كله أو جله لأن ابن الخطيب ترك بعض الدواوين التي تعتبر في حكم المفقود ، وهي بالإضافة إلى الصيب و الجهام ”أبيات الأبيات“ و ”فتات الخوّان و لقط الصوان“ و ”الحالي و العاقل و المسعف و الماقل“¹ . و ”طلّ الغمام المقتضب من الصيت و الجهام“ .

و نحن نعلم أن إنتاج ابن الخطيب قد تعرض للإتلاف و التحريق ، فلا بد أن يكون قد ضاع من ضمنه بعض الإنتاج الشعري ، لا سيما أننا لا نجد في الديوان - مثلا- إلا بضعة عشر قصيدة عيدية ، و هي أقل بكثير مما يتوقع من شاعر عاش فترة معتبرة في السلطة ، و يفترض أن ينظم قصيدة في كل عيد ، فيكون ما ضاع من شعره شيئا معتبرا و مع ذلك فإن تحقيق ”محمد مفتاح“ قد جمع شعر ابن الخطيب من مصادره المخطوطة الموجودة بدور المخطوطات بالمغرب .

لقد ضم هذا التحقيق بالإضافة إلى قصائد الصيت و الجهام ملحقات من مصادر مختلفة و موشحات عددها تسع (9) ، و عدد القصائد و المقطوعات هو 733 ، و هو ضعف قصائد الصيب و الجهام .

و قد ألحق بالديوان فهارس متنوعة استفدنا منها أيما إفادة ، و لا سيما فهارس الأشعار التي تصنف البحور و القوافي .

و قد رمزنا للطبعة الجزائرية بالصيب و الجهام ، و رمزنا للطبعة المغربية بديوان ابن الخطيب في دراستنا هذه .

¹ - المصدر نفسه : مقدمة المحقق ، ص 9 .

الفصل الثاني

شاعرية ابن الخطيب

- أولاً : مفهوم الشاعرية بين النقد العربي القديم و النقد العربي الحديث
- ثانياً : مصادر شاعرية ابن الخطيب
- ثالثاً : شاعرية ابن الخطيب في نظر النقاد و الدارسين
- رابعاً : سمات شاعرية ابن الخطيب

عبد القادر للعوم الإسلامية

أولاً : مفهوم الشاعرية بيني النقد العربي القديم و النقد العربي الحديث :

لا جرم أن الشاعرية هي الوصف الذي إذا صدق على الشاعر كان شاعراً معدوداً ، إذ لا بد للشاعر من ميزات تحله من فنه مكانة خاصة ، و تميزه عن غيره من الفنانين و المبدعين سواء تعلقت تلك الميزات بخصائص صناعته الفنية ، أم بخصائصه الذاتية باعتباره فناناً ، و هذه القضية ، احتلت مكاناً معلوماً في النقد القديم و النقد الحديث على السواء .

و في هذه الفقرة ، من هذا الفصل سنتكلم عن سمات الشاعرية كما فهمها نقادنا القدامى ثم نعرض لمفهوم الشاعرية كما دعا إليها نقادنا المعاصرون ، مكتفين من ذلك بالخطوط العريضة التي يسمح بها المقام ، فما هي مقاييس الشاعرية في النقد القديم ؟

1 - الشاعرية في النقد العربي القديم :

أظهر مقياس من مقاييس الشاعرية في التقدّر العربي القديم ، ما يعرف بالطبع و التكلف فالشاعر المطبوع هو الشاعر الموهوب أما الشاعر المتكلف فحظه من الموهبة قليل و لذلك يوصي بشر بن المعتمد من ابتلي من الشعراء بالتكلف بقوله : ” فإن ابتليت بتكلف القول ، و تعاطي الصناعة و لم تسمح لك الطبيعة في أول وهلة ، و تعصبي عليك بعد إجابة الفكرة ، فلا تعجل ، و دعه سبحانه يومك ... و عاوده عند نشاطه ، فإنك لا تعدم الإجابة و المواتاة إن كانت هناك طبيعة و جريبت من الصناعة على عرق ... فإن تمنع عليك بعد ذلك مع ترويح خاطر و الإمهال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك و أخفها عليك“¹ .

في هذا النص إشارة واضحة إلى ضرورة الموهبة أو (الطبيعة الشعرية) ، للشاعر فإذا عديمها فليس هو من أهل هذه الصناعة ، و ما عليه إلا أن يدعها ، إلى غيرها من الصناعات التي تستجيب له ، لأنه مهما يتكلف مع عدم مواتاة الطبيعة فإنه ينتج شعراً أميل إلى التعقيد و أبعد من الطبع .

أما ابن قتيبة فيجعل للشاعر المطبوع علامات تدل على قوة شاعريته ، فيقول : ” و الشاعر المطبوع من الشعراء من سمح بالشعر و اقتدر على القوافي و أراك في صدر بيته عجزه ، و في فاتحته قافيته و تبينت على شعره رونق الطبع و وشي العزيزة“² فهذا شاعر قد نهضت فيه غريزة الإبداع الشعري ، و ظهر في شعره الاقتدار .

و أما الجرجاني فيربط الموهبة الشعرية بالبداءة و الحضارة ، فلكل من الأسلوب الحضري ، و الأسلوب البدوي شخصيته المستقلة ” فالأسلوب الحضري الذي ترفده البيئة و الطبع و الرواية

¹ - كتاب الصنائع : الكتابة و الشعر ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق علي محمد الجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصر ، بيروت 1986 ، ص 135 .

² - ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ، دار صادر بيروت ، طبعة مصورة عن طبعة لندن 1902 ، ص 26 .

و الدربة يصبح ذا شخصية مستقلة عن الأسلوب البدوي الذي ترفده البيئة و الطبع و الرواية و الذكاء و الدرية أيضا ، يصبح لهذا شخصية في كل فنون الشعر ، و يصبح لذلك شخصية أخرى في كل فنون الشعر¹⁰⁰ .

فالشاعر البدوي مهما يكن حظه من الدربة ، و العلم بالأشعار ، و حدة الذكاء ، فإن أسلوبه الشعري يظل محافظا على طابعه البدوي ، أما الشاعر الناشئ في بيئته حضارية ، فلا شك أيضا ، أن تحمل طريقتة الشعرية ملامح الحضارة ، و هذا يقودنا إلى أن نستنتج أن مما يخصب شاعرية الشاعر و يثري تجربته الفنية ، أن يقيم بين الحضريين ، و أن يقبس من ثقافتهم ، و يهذب ذوقه على طريقتهم في التذوق ، و بذلك فالحضارة أو التمدن من عناصر الشاعرية و مثال ذلك أنك تجد "شعر عدي و هو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق و رجز روبة و هما أهلان لملازمة عدي الحضارة و إيطانه الريف و بعده عن جلافة البدو و جفاء الأعراب"² .

و إذا كان الطبع ، و هو الموهبة ، أمرا جوهريا في العملية الشعرية ، فإن صاحبه في حاجة إلى (صناعة) و ثقافة أدبية ، فلا بد له من رواية أشعار السابقين ، و من ذلك ما يعرف عن أبي نواس أنه عمد إلى أشعار الفحول من الشعراء الجاهليين ، فحفظها ، ثم تعمد أن ينسى أو تناسى تلك الأشعار ليستقيم له ذوق شعري ، و أذن موسيقية ، دون أن يقع أسيرا لمن سبقه ، تابعا له و عند أبي هلال أن "من لم يكن راوية لأشعار العرب تبين النقص في صناعته"³ .

إن جانب الصناعة أو الثقافة الأدبية لا يتناقض مع الطبع أو ينافيه ، وإنما يكمله و يغنيه ، و لذلك فهم بعض النقاد القدامى الطبع فهما متطورا و لم يقف به عند العفوية ، و السذاجة التي تعرف بها عادة الثقافة الشعرية القائمة على رواية الأشعار ، و تتمثل الذوق العام للفن الشعري ، هذا هو فهم المرزوقي لهذه المسألة "و نستطيع أن نستلخص من حديث المرزوقي نقله نقدية متطورة في مفهوم الطبع و التكلف ... فكلاهما روح شاعرية ... و كلاهما يمثل موهبة فنية ، و لكنهما يختلفان فيما تهيأ لهما من تدخل الجانب التنظيمي لإبراز هذه الموهبة فإن خلي بينها لتصب بعفوية و تلقائية في قالبها اللغوي فهنا يمكن أن نسمي صاحبها المطبوع و إن حل الجانب الواعي و الفكر اليقظ ليقتبل و يرفض و يستجيب و لا يستجيب ... فهنا يمكن أن نسمي صاحب هذا الذهن بالشاعر الصانع

¹ - د/فتحي أحمد عامر : من قضايا التراث العربي ، الشعر و الشاعر ، نشأه المعارف ، ص 104 .

² - القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي و خصومه ، تحقيق و شرح محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد الجاوي ، منشورات المكتبة العصرية صيدا ، بيروت ، (د.ت) ، ص 18 .

³ - أبو هلال العسكري : كتاب الصنائع ص 138 .

و يكون شعره مصنوعاً¹ فالطبع هو الجانب غير الواعي ، أما التكلّف فهو الجانب الواعي التنظيمي ، و العقلي و الثقافي ، و هما في الأخير يكونان الشاعر الذي استكمل أدوات الشعر .

لقد لهج بمسألة الطبع و التكلّف كثير من النقاد القدامى ، و مرادنا أن نقف على هذه الفكرة في شكلها العام دون تفصيل ، لنتحول إلى مقياس آخر من مقاييس الشاعرية في النقد القديم ... و نعني به المقياس الكمي ، و يقوم هذا المقياس على عنصرين :

- غزارة البديهة ، و الفرادة و هي الإبداع على غير مثال سابق .
- و يمكن تفسير "غزارة البديهة بتعدد الأغراض التي يطرقها الشاعر ، و نذكر هنا أن الجرجاني قد فرغ من إثبات غزارة البديهة لدى المتنبي حين أورد له في المختارات سبعين و ستمائة بيت من قصائد متعددة في مراحل متعددة من حياة الشاعر"² . و غزارة البديهة لا تقوم على كثرة الأغراض ، و طول القصائد فحسب ، إنما تقوم كذلك على الإجادة فيها ، و قلة السيئات ، لأنه لا بد لكل شاعر من هنات و مأخذ ، فمن كثرت حسناته ، و قلت سقطاته كان أكثر شاعرية من غيره من الشعراء .

أما الفرادة في نظر الجرجاني فهي قسمان : فرادة جزئية ، و ذلك إذا أخذ الشاعر معنى سبقه إليه غيره ، ثم استطاع أن يطوره ، و يضيف إليه مما يدل على قوة شاعرية ، و فرادة مطلقة ، و هي تلك القدرة التي تسمح للشاعر بافتضاض أبحار المعاني التي لم يسبقه إليها غيره³ و تعرف الفرادة الجزئية أيضاً في النقد القديم بما يسمى السرقة الشعرية ، و معلوم أن الصاحب بن عباد جرد كتاباً كاملاً لحصر سرقات المتنبي و هو يعني لا شك تلك المعاني التي سبق إليها المتنبي ، فأخذها مغيراً عليها ، أو محوراً فيها بعض التحوير .

و نلاحظ أن هذا المقياس نسبي من ناحية و شكلي من ناحية أخرى ، فهو نسبي لأن الموضوعات و الأغراض متشابهة متداولة بين الشعراء ، فالإكثار من طرق بعضها دون بعض لا يحدد بوضوح قدرة الشاعر لأن ذلك أمر نسبي فليس كل من كثرت فيه شعره أغراض المدح فهو أمدح الناس أو العكس فمن قلت في أشعاره هذه الأغراض ، فليس هو أقل الشعراء موهبة فيها .

و هو شكلي ، لأن الشعر لا يقاس ، في العموم ، بالكثرة و القلة ... هذه في نظري هي أهم مقاييس الشاعرية في التراث النقدي ، و إن تركت بعض المقاييس ، فهي مما يدخل في عموم ما ذكر سابقاً .

2 - الشاعرية في النقد العربي الحديث :

¹ - د/رجاء عيد : التراث النقدي نصوص و دراسة منشأة المعارف الإسكندرية ، ص 132 .

² - محي الدين صبحي : نظرية الشعر العربي من خلال نقد المتنبي في القرن الرابع الهجري ، الدراسة العربية للكتاب ، ص 226 .

³ - المرجع نفسه ص 226 .

أما مقاييس الشاعرية في النقد العربي الحديث ، فلا سبيل إلى الإحاطة بها في هذا المقام ، و حسبنا الإشارة إلى أبرزها ، و ذلك أن وجهتنا في هذا الفصل هو كشف عن سمات شاعرية ابن الخطيب ، و استجلاؤها في ضوء النقد القديم ، ثم النظر إليها في ضوء المعايير النقدية المعاصرة إيماننا بأن الأدب و الشعر خصوصا ، تيار متدفق يتبع أوله آخره ، و إذا كان من الموضوعية أن نحاكم شعر ابن الخطيب إلى معايير عصره ، فإن من الموضوعية أيضا ، ألا ننسلخ من مقاييسنا الحديثة التي هي امتداد لتراثنا النقدي ، و إضافة إليه و إثراء له ، و إن داخلتها معايير أجنبية ، بفعل عملية تأثير الآداب و الفنون بعضها في بعض ، و واضح تأثير النقد الغربي ، في مناهج النقد العربي الحديث و نظرياته .

ينظر إلى الشاعرية في النقد الحديث ، من حيث إنها سمات يتصف بها الشاعر ، و من حيث إنها شروط في الشعر نفسه ، فظهر الكلام عن الموهبة الشعرية ، و العبقرية و التقليد و التجديد ، و شعر الشخصية و اللغة الشعرية ، و غيرها من القضايا . و سوف نعرض على هذه المسائل بإيجاز تقتضيه طبيعة البحث :

جاء في المعجم الأدبي ، مادة (شعر) : "إن الموهبة الشعرية ملكة ذاتية ، بذرة تنمو داخل الشخصية المتميزة عاطفيا أو عقليا فتتمكنها من فهم العالم المنظور و غير المنظور و تأويل أسرارهما ، و التعبير عن الواقع و الممكن و هي لا تكتفي بالتأثير و تلقي الالتماع الفكرية و الانفعالات من الخارج و الداخل ، بل هي تنقل إلى الآخرين ، بالمفردات الصنّاء ، بالأفكار و الأخيلة و الأنغام كل ما تتوصل إليه"¹ . فالموهبة من خلال هذا التعريف قدرة عقلية و عاطفية خلاقة معطاء لها تأثير في الواقع ، و تأثر به ، و يمكنها أن تجسد هذا الواقع أو ذلك الممكن في عمل فني يعرف بالعملية الشعرية و هذه القدرة و إن كانت فطرية ، فهي قابلة للنمو ، و التطور ، و ما دامت كذلك فهي تتجلى في آثار الموهوبين من الكتاب و الشعراء و تكاد تنعدم في آثار الناظمين الذين ليس لهم من الشعر إلا رسمه .

"إن ما يميز الموهبة بالتفوق أهاب بكثير من المفكرين إلى القول منذ أقدم العصور بأن هذه الموهبة ، هي من مصدر غير إنساني ، من شيطان كما ذهب قدامى العرب أو من إله كما قال الإغريق"² . ، و تتجلى هذه النظرية في النقد العربي القديم عند ابن شهيد الأندلسي ، في كتابه التوابع و الزوابع³ ، حيث خصص الفصل الأول من ذلك الكتاب لتوابع الشعراء ، فجعل لكل شاعر شيطانا

¹ - جبور عبد النور : المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 2 ، يناير 1984 ، ص 149 .

² - المرجع السابق : ص 149 .

³ - ابن شهيد : رسالة التوابع و الزوابع ، تحقيق بطرس البستاني ، دار صادر بيروت 1980 م . ص 91 - 114

تمده بقوة الشعر ، وهذه النظرية تفسير أسطوري ، و في بعض الأحيان و تتي للموهبة الشعرية ، و هذا التفسير يتعارض مع المفهوم الإسلامي للشاعر ، الذي لنا إليه عودة فيما يأتي من الفصول .

و قريبا من مفهوم الموهبة الشعرية يأتي مفهوم العبقرية ، يرى العقاد أن العبقرى رجل أريد به أن ينسى نفسه ليخلص نفعه لنفسه¹، فهو يضحي من أجل الإنسانية و يضيف العقاد سمة أخرى ملازمة له ، و هي المرض الجسماني للعبقري ، و ذلك أن المرض يصرفه عن الاهتمام بنفسه إلى الاهتمام بشؤون نوعه الإنساني ، و لعل ما صرف العقاد إلى هذا الرأي ما نعلمه من ملازمة العليل لعدد غير قليل من العباقرة في التاريخ الإنساني ، و شبيه بهذا الرأي ما ذهب إليه (بنج) من أن "حياة الفنان بصفة عامة غير مرضية لحد بعيد إن لم نقل أنها غير مؤسفة و ذلك ما فيهم من نقص من الناحية البشرية و الشخصية و ليس هناك استثناء من القاعدة التي تقول أن الشخص يجب أن يدفع غاليل ثمن ما تهبه السماء من النار المبدعة"² ، و إذا كانت هذه النظرية تذهب في تفسير العبقرية مذهباً نفسياً سيكولوجياً ، فهناك آراء تذهب إلى تفسيرها مذهباً موضوعياً أعني أن هذه الآراء تقدر جانب العبقرية بالآثار الفنية ذاتها ، فالعبقري بناء على تلك الآراء هو من يكون له أرفع إنتاج و سمة إنتاجه أنه عالمي و عميق"³ .

و مهما تكن الواجهة في تفسير العبقرى فلا بد من سمات تصبغ نفسية العبقرى نفسه و تتجلى في إنتاجه الفنى أيضا ، تجعل لهما نوعاً من الفرادة و التميز .

و من شروط الشاعر ، التي لهج بها جماعة الديوان - و لا سيما العقاد- التجديد ، فهو يريد بالشعر الحديث "هذا الشعر المعبر عن الوجدان ... و بالقديم شعر التقليد الذي كان يسوده التعملى و التكلف ، فالقدم و الحدائث لا ينبغي أن يرجع فيهما إلى الزمان بل إلى الطابع و المنهج"⁴ فالشاعر المقلد هو ذلك الذي يترسم خطى الشعراء القدامى لا يحيد عنها قيد أنملة ، و أما المجدد فهو ذلك الذي يتخذ له منهاجاً و أسلوباً جديداً يتماشى مع الأساليب المستحدثة في عصره ، و الشاعر الحق هو من يرى في الحياة بكامل تفاصيلها و دقائقها موضوعاً للشعر "و لقد حاول العقاد أن يطبق هذه النظرة فأصدر ديوان "عابر سبيل" مشيراً بهذا العنوان إلى أن الشاعر الحق هو الذي يجد موضوعه في كل موضوع يقع تحت بصره ، و أن الشرط الوحيد في هذه الشعاعية هو أن يضيفي الحياة على موضوعه"⁵ .

1 - د / محمد مصايف : جماعة الديوان في النقد ، الشركة ج . ن.وت ، ط2 ، 1982 ، ص 205 .

2 - د / عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، دار العودة بيروت ، ط4 ، 1981 ، ص 46-47 .

3 - د / محمد مصايف : جماعة الديوان في النقد ، ص 157 .

4 - د / محمد ، مصايف ، جماعة الديوان في النقد ، ص 157 .

5 - المرجع نفسه ، ص 178 .

و يضيف العقاد سمة أخرى من سمات الشاعر العظيم في رأيه ، و هي أن يكون شعره عنوانا لشخصيته ، أي أن يكون شعره شعر شخصية ، لا مجرد نقل شأنه للطبيعة كما هي ، بل كما تسترأى له ، و كما يجدها في نفسه ، و حد الشاعر العظيم عنده هو أن يخط فلسفة خاصة به في الحياة و مثال الشاعر العظيم في نظره ، المتبني ، ذلك أنه استوفى ، في شعره الشرطين الآتيين :

- تصوير الطبيعة في شمولها .

- بعث فلسفة خاصة و فكرة شاملة عن الكون و الحياة .

يقول العقاد في هذين الشرطين : ” و حظ الشاعر العظيم عندي هو أن تتجلى في شعره صورة كاملة للطبيعة بجمالها و جلالها و علانيتها و أسرارها و أن يستخلص من مجموعة كلامه فلسفة للحياة و مذهب في حقائقها و فروضها“¹ و الشاعر الذي لا تعرفه من شعره لا يستحق أن يكون شاعرا في نظر العقاد لأنه حينئذ لا يعدو أن يكون نسخة مكررة من غيره من الشعراء و لا حاجة إلى معرفته .

يتلخص لنا مما سبق أن للشاعرية سمات و علامات إذا افتقر إليها المبدع لا يستحق وصف الشاعر و هي عند القدامي تستند إلى الطبع ، و الدربة على أساليب السابقين و احتذائهم دون السقوط في التقليد المميت ، و علامة الطبع ، تتجلى في إنتاج الشاعر ، أما المتكلف ، فيدل عليه شعره أيضا ، و مما يصقل الطبع و يغذي الموهبة البيئة إذ الحضارة ترقق الطبع ، و البداوة تجعله جاسيا ، غير مطواع للفن الشعري ، و من سمات الشاعر كذلك الفرد بالمعاني المبتكرة ، و الإطالة في القصائد دليلا على الاقتدار على التصرف في فنون القول .

أما في النقد المعاصر فيقاس الشاعر بمدى ظهور ملكة الإبداع عنده ، و نصيبه من العبقرية و كون شعره دليلا على شخصيته ، و ابتعاده عن التقليد .

هذه صورة عامة عن الشاعر ”النموذج“ في النقد العربي ، فما هو حظ ابن الخطيب من هذه المقاييس ؟ ذلك ما سنعرض له في الفقرة التالية من هذا الفصل

ثانيا : مصادر شاعرية ابن الخطيب :

رأينا فيما سبق أن الأدب لا يمكن أن يكون نبتة في الفراغ ، فلا بد أن ينمو في بيئة مناسبة و مساعدة على النبوغ و التفوق ، و تتداخل عناصر متشابهة في تكوين شاعرية الشاعر ، منها ما يعود إلى قابليته لهذا الفن ، و منها ما يعود إلى ثقافته ، و ظروف بيئته و لعننا واجدون في هذه العناصر مصادر لشاعرية لسان الدين ، أهله أيكون أبرز شاعر في الدولة النصرية و خاتمة المبدعين الكبار في الأندلس ، و يمكننا حصر هذه المصادر في ثقافته التي تلقاها عن شيوخه ، و بيئته الأندلسية

¹ - عباس محمود العقاد : مطالبات في الكتب و الحياة ، دار الفكر القاهرة ، 1978 ، ص 139 .

الغرناطية المساعدة على شيوع الفنون و ازدهارها بما في ذلك الشعر و الموسيقى ، و العمارة ... و منبع آخر لهذه الشاعرية نلمسه في عبقريته و طبيعته الفنية التي تتجلى ، واضحة من بين المواهب العديدة التي تحفل بها شخصيته .

١ / ثقافته :

ثقافة ابن الخطيب ، واسعة ، و متنوعة ، و تتجلى لنا هذه السعة و ذلك التنوع في مظهرين :
- الأول : كثرة إنتاجه و تنوعه بين عدة أنواع من المعرفة على النحو الذي رأينا عند الكلام عن مؤلفاته .

- الثاني : كثرة من أخذ عنهم من الشيوخ و الأساتذة مع اختلاف أقدارهم في العلم ، و تنوع مذاهبهم ، و تعدد ثقافتهم ، و قد أثر ذلك كله في شعره ، لا سيما و أن جل هؤلاء الأساتذة ذوو حظ من الشعر ، على اختلاف بينهم في الاقتدار عليه أو الإبداع فيه ، و لكنهم عموما تركوا أثرا شعريه ، و إن كان الغالب عليه شعرا دينيا ، و قد نجد عندهم بعض المقطوعات في الصداقة أو المواضيع الإخوانية و قد حرص ابن الخطيب أن يترجم لبعضهم في كتابه : الكنتية الكامنة ، و ذكر طرفا من أشعارهم كما أورد ، المقرئ في النسخ طائفة كبيرة منهم ، و اختار لهم مقاطع ، و قصائد في أغراض متنوعة ، و لذلك سنعرض لبعض هؤلاء الشيوخ محاولين التركيز على الصلة الأدبية التي تربطهم بشاعرنا .

شيوخ ابن الخطيب :

- أبو عبد الله محمد بن بكر¹ (674 هـ - 741 هـ) :
أصله من مالقة ، قدم غرناطة و تولى بها القضاء سنة (737 هـ) ، و عرف بشدته في الحق ، لم يعرف له شعر ما عدا بيتين أوردهما له لسان الدين في الإحاطة² في وصف قوس عربي .
- أبو القاسم محمد بن جزري (693 هـ - 741 هـ) :

قال عنه لسان الدين "من أهل غرناطة ، و ذوي النباهة و الأصالة فيها ، شيخنا ابن جزري أصل سلفه من ولبة"³ ، و هو مكثر من التأليف و لا سيما الفقه ، ذكر له المقرئ أبياتا يذهب فيها مذهب أبي العلاء المعري ، في تكلف القوافي الصعبة ، من ذلك قطعة أولها⁴
لكل بني الدنيا مراد و مذهب
و إن مرادي صحة و فراغ

¹ - ترجمته في الإحاطة : 176/2 ، النسخ 385/5 .

² - الإحاطة : 178/2 .

³ - النسخ : 514/5 .

⁴ - المصدر نفسه : 514/5 .

و هو يذهب في هذا البيت إلى الحديث المشهور "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة و الفراغ".

- أبو بكر بن شبيرين (664 هـ - 747 هـ) :

أصله من إسبيلة ، انتقل منها أبوه بعد تغلب العدو عليها ، و مكث مدة بسببة حيث ولد ابنه أبو بكر ، ثم انتقل إلى غرناطة و تولى الكتابة عند بني الأحمر ، و تولى القضاء كذلك ، و صنفه ابن الخطيب في الإحاطة بقوله : "كان ... فكها مع وقاره غزلا ، لودعيا ، على شأن الكتابة جميل العشرة أشد الناس على الشعر ... تفردت أشعاره بما أبر على المكثرين" ¹ و هذا الوصف يدل على أن مشايخ لسان الدين كانوا يجمعون مع الورع و الوقار و التقدم في العلوم الشرعية ، الظرف و الغزل الذي لا يخرج العالم عن وقاره ، و قد ساعد ذلك بيئة متسامحة غير متحرجة من حياة الانطلاق المشمول بالفضيلة و الشرع فمن شعره الذي ينحو فيه منحى الصوفية قوله : ²

أخذت لكظم الروح يا ساعة النوى و أضرمت في طي الحشى لا عج الجوى
فمن مخبري يا ليت شعري متى اللقا و هل تحسن الدنيا و هل يرجع الهوى
... و لي نية ما عشت في حفظ عهدهم إلى يوم ألقاهم و للمرء ما نوى

فهو يذكر فيها قلق الروح و استيقاقها إلى يوم اللقاء و من قوله في الغزل ³

يا أيها المعرض اللاهي يسوء ني هجرك و الله
من يرد الله فيه فتنة يشغله في الدنيا بتياه
يا غصن البان ألا عطفة على معنى جسمه واه

و هو غزل كما ترى عفيف ، يتعاطاه الفقهاء في الأندلس ، خاصة ، و قد مر بنا نماذج لشعر اللهو الذي ينشده الشيوخ و يتملحون به في مجالسهم ، يقصدون الترويح عن النفس ما لم يكن في ذلك نشر للرديلة أو استباحة للحرمات و ربما فسر لنا هذا كثرة شعر اللهو في ديوان لسان الدين ، على النحو الذي سنفصله في فصل تال بإذن الله .

- أبو الحسن علي بن الجياب (673 هـ - 749 هـ)

سبقت الإشارة إليه عند كلامنا عن عصر ابن الخطيب ، و هو أستاذ ابن الخطيب في الكتابة و الشعر ، و قد جمع ابن الخطيب نثره في كتاب سماه "تافه من جم و نقطة من يم" و شعره كثير

¹ - الإحاطة : 240/2 .

² - المصدر نفسه : 243/2 .

³ - المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

أغراضه متنوعة ، و أكثره في التصوف ، و الإلغاز و في النفع مقاطع ، و مطولات منه ، من ذلك قصيدة في غرض صوفي يقول فيها¹ :

هات اسقني صرفا بغير مزاج راحي التي هي راحتي و علاجي
إن صب منها في الزجاج قطرة شف الزجاج عن السنا الوهاج
و إذا الجليس أصاب منها شربة حاجاه بالسر المصون محاجي

و القصيدة فيما يعرف عند الشعراء الصوفيين خمرة المعرفة الإلهية و قد رثاه ابن الخطيب بقافية أولها² :

ما لليراع خواضع الأعناق طرق النعي فهن في إطراق

و أنشد الشعراء يوم وفاته قصائد كثيرة و كان ذلك التأبين ”غريبا لم يتقدم به عهد بالحضرة لكونها دار ملك ، و التجلة في مثل هذا مقصورة على أولى الأمر“³ ،

و عن أثر هذا الأستاذ الأدبي ، في لسان الدين يقول : هذا الأخير ”و كل ما ظهر علينا ، معشر بنيه - من شارة تحلى بها العين أو إشارة كما سكب اللجين ، فهي إليه منسوبة و في حسناته محسوبة“⁴ .

و قد يكون في هذا الاعتراف ، نوع من البر من تلميذ بأستاذه ، إلا أنه يدل من ناحية أخرى على أثر هذا الأستاذ في تلميذه ، و إذا عرفنا أن لسان الدين فلما يوجد بمدح من هذا الصنف ، و علمنا مدى اعتداده بنفسه ، أدركنا أثر هذا الأستاذ حقا على شاعرية لسان الدين ! .

- أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي أشي (673هـ - 749هـ) :

قال عنه ابن مرزوق : ”كتب بخطه كثيرا و له معرفة بالحديث و النحو و اللغة و الشعر و له نظم حسن“⁵ .

- ابن العواد (ت 749 هـ) :

قال عنه لسان الدين: ”قرأت كتاب الله عز و جل على المكتب نسيح وحده .. تقوى و صلاحا و خصوصية و إتقان و نعمة و عناية و حفظا و تبجرا في هذا الفن“⁶ ،
- أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي (676هـ - 749هـ) :

¹ - النفع : 434/6 - 435 .

² - ديوان ابن الخطيب : 708/2 ، و النفع : 445/5 .

³ - النفع : 450 /5 .

⁴ - الكنية ص 184 .

⁵ - النفع : 383/5 .

⁶ - المصدر نفسه : 383/5 .

ولد بسبته و بها نشأ ، كان كما يقول ابن الخطيب : "صاحب القلم الأعلى بالمغرب"¹ و ذلك أنه كان كاتب السلطان أبي سعيد عثمان المريني² ، وصفه ابن الخطيب بأن له في الآداب الرأية الخافقة و العقود المتناسقة ، و شعره منحط عن محله من العلم و الشهرة ، و إن كان داخلا تحت طور الإجابة³ ، و قد عرف بعلمه ، و علو همته ، و عدم احتمال له للضم و سرعة الجواب كما يقول المقرئ⁴ و شعره يميل إلى الحكمة ، و هو فيه جار على أسلوب معاصريه ، من الاعتماد على المحسنات ، و محاكاة قدامى الشعراء (المشاركة) كقوله :⁵

بريق بأعلى الرقمتين كأنه طلائع شهب في السماء تجول
فمزق ساجي الليل منه شراره و خرق ستر الغيم منه نصول
إلى أن يقول :

و عاذلة باتت تلوم على السرى و تكثر من تعذالها و تطول
تقول إلى كم ذا فراق و غربة و نأي على ما خيلات و رحيل
ذريني أسعى للتي تكسب العلا سنا و تبقي الذكر و هو جميل
و لولا السرى لم يجتل البدر كاملا و لا بات منه للسعود نزيل
و لولا اغتراب المرء في طلب العلا لما كان نحو المجد منه وصول

و واضح ما في البين الأولين من النسج على طريقة ابن خفاجة في وصف الليل أما الأبيات الأخيرة ففيها دعوة إلى طلب المعالي ، و إشادة بالاعتراب في طلب المجد ، و هي حكم مستهلكة ماثورة في ثنايا قصائد الجاهلين و العباسيين .

- أبو بكر محمد بن الحكيم الرندي (665 هـ - 750 هـ) :

ترجم له ابن الخطيب في الإحاطة ، و أصله من رندة ، تولى الكتابة عن بني الأحمر ، قال عنه لسان الدين : "يقرض الشعر ، و يفك المعنى ، و يقوم على جمل الكتاب العزيز حفظا و تجويدا و إتقاناً"⁶ ، كانت صلته بلسان الدين وثيقة ، و يتضح لنا ذلك من الرسائل المتبادلة بينهما⁷ أورد له لسان الدين أبياتا في النسك و اللجوء إلى الله ، منها قوله :⁸

1 - المقرئ : النسخ ، 465/5 .

2 - نفسه ، 240/5 .

3 - نفسه : 465/5 .

4 - نفسه : 465-468/5 .

5 - نفسه : 465/5 ، 466 .

6 - الإحاطة : 272/2 .

7 - الإحاطة : 275/2 و ما بعدها .

8 - نفسه : 280/2 .

أيا من له الحكم في خلقه و من بكربي له أشتكي
تول أموري و لا تسلمني و إن أنت أسلمتني أهلك
تعاليت من مفضل منعّم و نزهت من طالب مدرك

و من شعره قوله :¹

تصبر إذا ما أدركتك ملمة فصنع إله العالمين عجيب
و ما يدرك الإنسان عار بنكبة ينكب فيها صاحب و حبيب
و يوشك أن تهمني سحائب نعدة فيخصب من ربع الشرور جديب

و هي أبيات يبدو عليها الضعف ، و لا سيما القطعة الأولى ، و تلك سمة الشعر في القرن الثامن في الأندلس حيث تحول القصيد إلى مجال لإظهار التفوق العلمي و الإطلاع على أدب الأقدمين أكثر منه قصيدا معبرا عن شاعرية صادقة و ربما كانت قيمة ذلك الشعر تاريخية أكثر منها قيمة فنية .

- أبو عثمان بن ليون التجيبي : (681 هـ - 750 هـ) :

و صفه المقرئ بأنه "من أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهودهم في الزهد و العلم و النصح"² برع ابن ليون في علوم متنوعة كالطب و الهندسة و الفقه و كان مولعا بالاختصارات ، و له عناية بالشعر ، من ذلك أنه اختصر "روح الشحر و روح الشعر" لابن الجلاب الفهري³ و له مجموعة شعرية في الآداب و الحكم و المواعظ ، كأنه انتخبها من مجموع شعره ، أورد فيها مائتي قطعة من شعره ، عنوانها "نصائح الأحباب و صحائح الآداب" و في نفع الطيب نماذج كثيرة من هذا الديوان على شكل مقطوعات ، منها قوله⁴ :

إنما الدنيا خيال و أمانها خيال
حبها سكر و لكن وصلها ما إن ينال
فتنزه عن هواها فهوى الدنيا ضلال

و منها في التحذير من ادعاء الإحاطة بالعلم :

حفظت شيئا و غابت عنك أشياء فانظر و حقق فما للعلم إحصاء
للعلم قسمان : ما تدري و قولك لا أدري ، و من يدعي الإحصاء هذاء

و في البيت الأول اقتباس من بيت أبي نواس :

¹ - الإحاطة : 250/2 ، النفع : 497/5 .

² - النفع : 543/5 .

³ - المصدر نفسه : 544/5 .

⁴ - المصدر نفسه : 573/5 .

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئا و غابت عنك أشياء¹

و أغلب مقطعات هذا الديوان في هذا الاتجاه من الوعظ و التأديب ، و شعر العلماء في الغالب هذه سمتة ، و هو أقرب إلى أن يكون نظما للأدب و المعارف و العلوم ، من أن يكون فنا أدبيا .

- أبو عبد الله بن بيبش (680هـ - 753هـ) :

أخذ عنه ابن الخطيب العربية ، و وصفه بطول الباع فيها أما شعره فقال عنه ” و له شعر لم يقصر فيه عن المدى ، و أدب توشح بالإجادة و ارتدى“² و في شعره كثير من الألغاز و التورية و قول ابن الخطيب السابق يدل على قلة ما في شعره من جمال من ذلك قوله يخاطب الشريف أبا العباس ، و قد أهدى إليه أقلاما³ :

أنامك الغر التي سيب جودها	يفيض كفيض المزن بالصيب القطر
أنتني منها تحفة مثل جدها	إذا انتضيت كانت كمرهفة السمر
هي الصفر لكن تعلم البيض أنها	محكمة فيها على النفع و الضر
فقبلتها عشرا و مثلت أننى	ظفرت بلثم في أنامك العشر

و بمناسبة إيرادنا لهذه الأبيات ، نذكر أن الشعر في غرناطة ، على عهد بني الأحمر أصبح من الفنون التي يتعاطاها العلماء و الأدباء ، و إن كان العناء يقرضونه ، مشاركة و إظهارا للبراعة ، و لذلك تظهر في أشعارهم سمات التعقل ، و آثار العلوم التي تخصصوا فيها .

- أبو زكريا يحيى بن هذيل (ت 753هـ)

كان هذا الشيخ عارفا بالفلسفة ، و الطب ، و التعاليم كما كان بارعا في الأدب ، و الشعر خاصة، وصفه المقري قائلًا : ” و من أشياخ لسان الدين رحمه الله ، الحكيم العلامة التعاليمي الشاعر البليغ ، أعجوبة الزمان في الاطلاع على علوم الأوائل ، أبو زكريا يحيى بن هذيل“⁴ كان ميالا إلى الفلسفة و العقل غير معتمد على العلوم النقلية ، و لذلك اتهم في دينه ، و طعن فيه كما يقول ابن الأحمر حتى غمزت ”به الأندية و أجريت الأودية ... و لاستغراقه في العقليات و اطراحه النجاة بالنقليات ، قيل بما شأنه لما عمل في الشيء الذي شأنه“⁵ و قد كانت علاقته بابن الخطيب وثيقة ، حتى إنه توفي في بيته و أوصاه بأن يدفنه جانب زوجته قال لسان الدين : ” و فلج المذكور ، فلزم

¹ - ديوان أبي نواس : دار بيروت للطباعة و النشر ص 8 (1398هـ - 1978م) .

² - المقري : النفع ، 244/6 .

³ - نفسه : 245/6 .

⁴ - النفع : 487/5 .

⁵ - ابن الأحمر : تثير فرائد الجمان ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ص 322 .

منزلي لمكان فضله و وجوب حقه ، و قد كانت زوجته توفيت ، و صحبه عليها وجد فلما ثقل و قربت وفاته استدعاني ، و كان لسانه لا يبين ، فأوصاني و قال :

إذا مت فادفني حذاء حليلتي يخالط عظمي في التراب عظامها

و لا تدفني بالبقيع فإنسني أريد إلى يوم الحساب التزامها

نلاحظ أن ابن هذيل شريح على منوال البيهقي المنسوبين إلى أبي محجن الثقفي معبرا عن محبته للخمر¹ :

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقتها

و لا تدفني بالفلاة فإنسني أخاف إذا ما مت أ لا أدوقها

”و مات في الخامس و العشرين لذي القعدة عام ثلاثة و خمسين و سبعمائة و دفن بحذاء زوجته كما عهد رحم الله“² و له شعر فيه معاني فلسفية و صوفية و لهو على طريقة أبي نواس ، و قد أشاد بشعره لسان الدين و اختار له قصائد ، و مقاطع من ديوانه المسمى ”السليمانيات العزفيات“³

و من شعره الذي ينهج فيه سبيل المتصوفة قوله⁴ :

إذا علقت نفسي بليت و ربما تكاد تفيض أو تكاد تذوب

دعوتك ربي و الدعاء ضراعة و أنت تتاجي بالدعا فتجيب

لئن كان عقبي الصبر فوزا و غبطة فإني على الصبر الجميل دروب !

و هذا الشيخ الذي أحاط بالتعاليم من حساب و منطق و هندسة ، و فلسفة ، و له في شعره نفحات صوفية ، هو نفسه الشاعر المكثّر من الغزل الماجن و من الأغراض الخمرية (النواسية) و قد اختار له المقري نقلا عن ابن الخطيب قصيدة خمرية يقول فيها⁵

و طاف بها رطب البنان مزنر فأبصرت عبدا صير الحر مرؤوسا

سلافا حواها القار لبسا فخلتها مثلا من الياقوت في الحبر مغموسا

فبتنا يرانا الله شر عصابة نطيع بعصيان الشريعة إبليسنا

¹ - البيتان أوردهما القرطبي في تفسير قوله تعالى : ”يسألونك عن الخمر و النيسر .. الآية“ الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتاب العربي

للطباعة و النشر 387هـ - 1967م ، مج 3 ، ص 56 .

² - النفح : 497/5 .

³ - النفح : 488/5 . المكتبة الكامنة ص 77 .

⁴ - النفح : 494 .

⁵ - النفح : 496/5 .

و هذه الأبيات ، و لا سيما البيت الأخير منها يُبين عن مستوى الأخلاق في المجتمع الغرناطي ، بحيث أصبح الخاصة يعالنون بالمعاصي دون تحرج ، وهذه القطعة و غيرها من الشعر الذي ينحو هذا النحو ، تدل على انتشار الخمر في البيئة الغرناطية و أصبح اقتراف الخطايا لا حبوب فيه لأن سلطان الدين بدأ يضعف على المستوى الرسمي على الأقل و الطريف في هذه القصيدة أن ابن الخطيب عارضها بقصيدة على هذا الروي و في هذا الغرض - و قد أورد ابن الخطيب قصيدة أستاذه في ديوانه بعد قصيدته - التي أولها ¹ :

و دير أنخنا في قرارته العيسا بحلة رهبان إلهام عيسى

و هذه العلاقة بين لسان الدين و أستاذه ابن هذيل دفعت أحد الباحثين المعاصرين إلى الشعور "بأن النزعة الصوفية الفلسفية عند لسان الدين إنما ترجع في أصولها أو جذورها إلى الحكيم ابن هذيل" ² ، و الواقع أنه إذا كان لابن هذيل أثر في توجيه ابن الخطيب إلى الجو الصوفي أو الحياة الصوفية في بعض فترات عمره و لا سيما المتأخرة منها .. فإننا واجدون مصادر أخرى ربما كانت أعمق أثرا في نفس لسان الدين ، بل إن أساتذة آخرين ذكرناهم أو سنذكر بعضهم كان لهم أثر لا محالة في حياة ابن الخطيب و على الخصوص الجانب الروحي منها و قد ذكرنا في هذه الفقرة مصاديق ذلك أبياتاً شعرية زهدية و صوفية لأولئك الشيوخ .

- أبو عبد الله محمد الفخار الإلبيري (أو البيري) : (630هـ - 754هـ)

كان هذا الشيخ "شيخ النجاة في الأندلس ، وصفه ابن الخطيب بقوله "و لازمت قراءة العربية و الفقه و التفسير و المعتمد عليه العربية على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله بن الفخار الإلبيري ، الإمام المجمع على إمامته في فن العربية ، المفتوح عليه من الله تعالى فيها حفظا و إطلاعا و اضطلاعا و نقلا و توجيها ، بما لا مطمع فيه لسواه" ³ .

و مما يدل على تفوقه في العربية ، ما رواه المقرئ ⁴ عن تلميذه أبي إسحاق الشاطبي من فوائد لغوية كثيرة و قد أورد له الدكتور عمر فروخ شعرا في تاريخه ، و وصفه بشعر العلماء من ذلك قوله: ⁵

انظر إلى ورد الرياض كأنه ديباج خد في بنان زبرجد
قد فتحته نضارة قبا له في القلب رونق صفرة كالعسجد

¹ - القصيدتان : في الصيب و الجهام ، لابن الخطيب 648 - 649 .

² - د / عصام قصيحي : لسان الدين ابن الخطيب ، حياته فكره و شعره منشورات جامعة حلب ، 1403هـ - 1982م .

³ - المقرئ : النفع ، 355/5 .

⁴ - نفسه : 355/5 و ما بعدها .

⁵ - د / عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ط 1 ، 1983 ، ج 6 ، ص 40 .

حكمت الجوانب خد حب ناعسم و القلب يحكي قلب صب مكمد

و في إشادة ابن الخطيب ، السابقة بأستاذه اللغوي ، ما يفسر تعلقه بهذا العلم و هو ما يبدو واضحا في شعره كما سنين بعد قليل

- أبو عبد الله المقرئ : (ت 759 هـ) :

و من شيوخ لسان الدين أبو عبد الله محمد بن محمد المقرئ ، أصله من تلمسان ، و دخل غرناطة و أقام بها ، ذكره لسان الدين في الإحاطة ، و وصف حاله قائلا : ” هذا الرجل مشار إليه بالعدوة المغربية اجتهدا و دؤوبا ... حريص على العبادة .. يقوم أتم القيام على العربية و الفقه و التفسير ، و يحفظ الحديث ، و يتجهر بحفظ الأخبار و التاريخ و الآداب ، و يشارك مشاركة فاضلة في الأصليين و الجدل و المنطق ، و يكتب و يشعر و يصيب في ذلك غرض الإجابة ، و يتكلم في طريقة الصوفية ، كلام أرباب المقال “¹ و ذكر بعد ذلك تصانيفه و بعض شعره فمن مؤلفاته² كتاب يشمل على أزيد من مائة مسألة فقهية ، و في التصوف ، إقامة المرید ، و رحلة المتبتل ، و كتاب الحقائق و الرقائق ، أما شعره فالظاهر مما روى لسان الدين أن أغلبه في التصوف من ذلك معارضة تائية ابن الفارض بتائية سماها ” لمحة العارض لتكملة ألفيه ابن الفارض “ و نقل منها ابن الخطيب أربع قصائد ” من فصل الإقبال ، و فصل الاتصال ، و فصل الإدلال ، و فصل الاحتفال “³ ثم أورد مقطوعة أنشدها إياه ، و قيدها عنه منها قوله :⁴

إليك بسطت الكف أستنزل الفضلا و منك قبضت الطرف أستشعر الذلا

و هاأنذا أقدمت يقدمني الرجلا و يحجمني الخوف الذي خامر العقلا

و المقطوعة في حال من أحوال التصوف تسمى ” القبض “ و فيها من المطابقة على طريقة ابن الفارض ما هو واضح ، و هذا الاختيار يدل على ذوق ابن الخطيب ، الذي هو في الواقع ذوق أهل عصره ، و يبدو ذلك في عناية الشعراء بالأغراض الصوفية خاصة ، و الصناعة اللفظية كذلك ، و هذا ما سنراه في هذا الفصل مما يتعلق بالسلمات العامة لشعر ابن الخطيب من حيث عنايته الكبيرة بالمحسنات ...

- أبو القاسم محمد بن أحمد السبتي : (697-760 هـ)

¹ - ابن الخطيب : الإحاطة ، 194/2 - 195 .

² - المصدر نفسه : ص 203 .

³ - المصدر نفسه : ص من 204 إلى 209 .

⁴ - المصدر نفسه : ص 242 .

قاض شريف و صفه المقرئ بأنه "آية الله الباهرة في العربية و البيان و الأدب و يكفيه فضلا أنه شرح الخرجية"¹. و هي في علم العروض و شرح مقصورة أبي حازم القرطاجي ، و كان هذا الشيخ شاعرا كذلك ، له ديوان شعر سماه "جهد المقل"² و لا ندري إن كان هذا الديوان مطبوعا أو مخطوطا فلا نستطيع أن تحكم على أشعار هذا الأستاذ لذلك ، و قد أورد له المقرئ أبياتا في الغزل تدل على ظرفه ، من جهة و على الجو الثقافي الذي عاش فيه ، فهو جو متسامح ، لا يجد حرجا في أن يطرق قاضي القضاة ، شعر الغزل ، و لا شك أن ابن الخطيب ، كما أخذ عنه الفقه ، و العلوم الشرعية ، أخذ عنه هذا الذوق الفني الرقيق ، و الأبيات التي أودها المقرئ هي قوله :³

و أحور زان خديه عذار سبي الألياب منظره العجائب
أقول لهم و قد عابوا غرامي به إذ لاح للدفع انسكاب
أبعد كتاب عارضه يرجي خلاص لي و قد سبق الكتاب !

و ظاهر ما في البيت الأخير من أثر لتقافة القاضي الإسلامية ، فهو يعتبر وقوعه في الحب قدرا ، سبق به الكتاب ، فلا ينفع معه اجتهاد ، و لا معنى للوم و العذل فيه !

- أبو محمد عبد الحق بن سعيد :

لقيه لسان الدين في مكناسة الزيتون سنة (761هـ) و قرأ عليه طرفا من كتابه المسمى "الخادمة على الرسالة الحاكمة" الذي شرح فيه فتوى لابن العربي تعرف بـ "الحاكمة" و أجازته بتحملة⁴.

- أبو العباس أحمد بن عاشر : (ت765)

هذا الشيخ من العلماء الأولياء ، له كرامات مشهورة⁵ و قد حرص لسان الدين على زيارته عند إقامته بسلا ، مع أنه كان منقبضا عن الناس ، زاهدا في الولايات ، حتى أن السلطان أبسا عنان المريني ارتحل إليه "و وقف ببابه ، طويلا فلم يأذن له و انصرف و قد امتلأ قلبه من حبه ، ثم عاود الوقوف ببابه مرارا فما وصل إليه"⁶ و قد ذكره ابن الخطيب في قصيدته السلوية التي يذكر فيها أيامه بسلا و يتشوق إلى عارفيها و صالحيها و يذكر وفاة زوجته ، و من هؤلاء العارفين ، بل أكبرهم ابن عاشر ، و هو المقصود بقوله⁷ :

¹ - المقرئ : النسخ 189/5 .

² - المصدر نفسه : الموضع نفسه .

³ - المصدر نفسه ، 191 /5 .

⁴ - المقرئ : النسخ ، 351 /5 .

⁵ - المقرئ : النسخ ، 492/6 .

⁶ - المصدر نفسه : 492/6 .

⁷ - ديوان ابن الخطيب : تحقيق د / محمد مفتاح ، ج2 ، ص 661 .

بولي الله فابدأ و اقتصد واحد الأحاد في باب الورع

و لا يذكر ابن الخطيب أنه أخذ عن هذا الصالح فنا معينا ، و الظاهر أنه زاره تبركا ، و استتباطا من أحواله و أخلاقه ، فالمريدون كما يأخذون عن أشياخهم العلوم الظاهرة من فقه و غيره ، يأخذون عنهم ”طريقة السلوك“ و هي تتصل بعلم الباطن و هو المقصود عند المتصوفة ، و حسب ابن عاشر أنه ألهمه هذه القصيدة الطافحة بالصدق و الشوق ، و حسبه أن شخصيته كان لها تأثير كبير في تحول ابن الخطيب الروحي بحيث أصبح متعلقا بأهداب التصوف ، و متطارحا على العارفين ، و كاد أن يصرفه ذلك عن السلطان .

- أبو البركات محمد بن الحاج البلبيقي : (680هـ - 773هـ)

يتصل نسبه بحارثة بن العباس بن مرداس الصحابي الشاعر¹ ”نشأ ببلده المريية ... لا يرى إلا في منزل من سألته ، و في حلق الأسانيد ، أو في مسجد من المساجد خارج المدينة المعدة للتعبد ... فجاس خلال القطر الغربي إلى بجاية ... ثم صرف عنانه إلى الأندلس ، فتصرف في الإقراء ، و القضاء و الخطابة“² عرف هذا الرجل بالصلاح ، و غزارة العلم ، تدل على ذلك مؤلفاته في الفقه و الحديث و التاريخ و الأدب ، منها (الإفصاح فيمن عرف بالأندلس بالصلاح) ، و منها كتاب (قد يكبو الجواد في أربعين غلطة عن أربعين من النقاد) في رجال الحديث .. و منها (المؤتمن على أنباء الزمن) و غيرها³ و له ديوان شعر عنوانه ”العذب الأجاج في شعر أبي البركات بن الحاج“ و قد أورد له لسان الدين مقطوعات ، و قصائد شعرية أغلبها في الحكم و الآداب و الزهد ، من ذلك قوله يصف حاله⁴ :

تأسفت لكن حين عز التأسف	و كفكفت دمعاً حين لا عين تذر
و رام سكوتا و هو في رجل طائر	و نادى بأنس و المنازل تعنف
أراقب قلبي مرة بعد مرة	فألفيه ذاك الذي أنا أعرف
سقيم و لكن لا يحس بدائه	سوى من له في مآزق الموت موقف
فما أنا من قوم قصارى همومهم	بنوهم و أهلوهم و ثوب و أرغف

و هي قصيدة طويلة في الزهد ، و الإنابة إلى الله ، و الاعتبار ، و هي تدل على مذهب أبي البركات في العزوف عن الدنيا و شهواتها ، و إقباله على تأديب نفسه و ترويضها على الزهد ،

1 - ابن الخطيب : الإحاطة ، 143/2 .

2 - المصدر نفسه : 144/2 .

3 - المصدر نفسه : 148/2 .

4 - المصدر نفسه : 151/2-152 .

و الطمع فيما أعد للموقف في الآخرة ، و أغلب ما ذكر لسان الدين يندرج في سلك الزهد و التصوف و لعل أغلب ديوانه كذلك .

- أبو عبد الله بن مرزوق : (711-781هـ)

هو محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي التلمساني ، عالم أديب ولد و نشأ بتلمسان ثم انتقل إلى المشرق حاجا ، و أخذ عن كثير من علماء المشرق ، ثم عاد إلى المغرب فقلده أبو الحسن المريني الخطابة و الكتابة ، و له عنه سفارات إلى الأندلس ، و بعد مقتل أبي الحسن استقر في غرناطة عام 752هـ¹ و تقلد منصب الخطابة بجامعة ، كما تصدر للتدريس بمدرستها ، ثم عاد سنة 754هـ إلى المغرب ، جرت بينه و بين ابن الخطيب مراسلات تدل على متانة الصلة التي تجمعها ، و قد قرظ ابن الخطيب كتاب أستاذه الذي شرح فيه كتاب الشفاء للقاضي عياض بقوله :²

أزاهير رياض أم شفاء لعياض
جدل الباطل للحد ق بأسياض مواض

و اختار له ابن الخطيب مقطوعات تدل على مشاركة في فن الشعر ، منها قوله :³

قل لنسيم السحر لله بلغ خبري
إن أنت يوما بالحمى جررت فضل المنزر

و هي قصيدة طويلة ، مولدية من الشعر المشتهر في ذلك العصر .

- أبو سعيد فرج بن لب (ت 782 هـ) :

أحد أكابر الفقه المالكي في المغرب و الأندلس ، وصفه المقري بقوله 'و بالجملة فهو من أكابر علماء المالكية بالمغرب حتى قال المواق فيه : شيخ الشيوخ أبو سعيد بن لب الذي نحن على فتاويه في الحلال و الحرام' ⁴ أورد له المقري مقاطع من قصيدة في المدائح النبوية مطلعها :⁵

إذا القلب ثار آثار اذكارا
لقبني فأذكي عليه أوارا

و لسان الدين في المدائح النبوية قصائد ، سنعرض لها أثناء كلامنا عن أغراض شعره ، و هذا النوع من الشعر ، أنشأ كثيرا في الأندلس و المغرب في القرن الثامن الهجري و لا ريب أن لسان الدين يقتبس معانيه من معاصريه ، و لا سيما أساتذته .

- أبو إسحاق بن أبي يحيى التسولي⁶ :

1 - المقري : النفع 392/5 .

2 - المصدر نفسه : 409/5 . (3) - النفع : 397/5

3 - المصدر نفسه : 513/5 .

4 - المصدر نفسه : 510/5 .

5 - انظر ترجمته في النفع : 387/5 .

فقيه تصدر لإقراء الفقه بالمغرب (فاس) له شرح على رسالة أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي ، حضر لسان الدين مجالسه بالمغرب .

- أبو جعفر أحمد بن محمد الخباز :

لقيه لسان الدين في مكناسة الزيتون بالمغرب ، أشار المقرئ إلى محاوره علمية دارت بينهما ، ونقل عن لسان الدين أن هذا الأستاذ ناوله تأليفه المسمى ”المنهل المورود في شرح المقصد المحمود الذي شرح فيه ”وثائق الحريري“ كما أنشده كثيرا من شعره !¹ .

- أبو الحسن علي القيحاوي :

ترجم لسان الدين في الكتيبة الكامنة² وجعله ضمن الشعراء الصوفية لأنه قسم الشعراء في هذا الكتاب إلى أربعة أصناف ، الخطباء و الصوفية و المقرئين و المدرسين ، و النحاة ، و طبقة الكتاب و الشعراء .

و قال عنه : ”و هو أول أستاذ قرأت عليه القرآن و العربية إثر قراءة المكتب ، و له تأليف في فنون و شعر و نثر ، فمن شعره قوله³ :

روض المشيب تفتحت أزهاره حتى استبان ثغامه و بهاره
و دجى الشباب قد استبان صباحه و ظلامه قد لاح فيه نهاره
فأتى حمام لا يعاف وقوعه و مضى غراب لا يخاف مطاره
و العمر مثل البدر يبدو حسنه حيناً و يعقب بعد ذلك سراره“

إلى آخر القصيدة التي تضمنت الكلام عن الشيب و الشباب ، و ما يجره ذلك من كلام عن الاتعاض بتقدم السن - و لسان عناية بشعر الزهد و التصوف ، و نلمس ذلك في اختياراته الشعرية في كتبه المختلفة و لا سيما ”الكتبة الكامنة“ و هذه العناية ربما وجدنا لها صدى في ديوانه الذي لا يخلو جزء كبير منه من الإشارة إلى المعاني الصوفية ، بل من القصائد المطولة التي خصصها لهذا الغرض .

- أبو عبد الله بن أبي رمانة :

لقيه لسان الدين بمكناسة و وقعت بينهما مداعبة⁴

- أبو عبد الله محمد بن أبي عفيف :

¹ - المقرئ : النفع 352/5 .

² - الكتيبة الكامنة : ص 37 ، و انظر ترجمة النفع 507/5 .

³ - انظر الأبيات في الكتيبة الكامنة ص 38 ، و انظر النفع 507/5 - 508 .

⁴ - المقرئ : النفع 352/5 .

تصدر لقراءة كتاب الشفا للقاضي عياض بالمغرب¹ .

- أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي :

ممن لقيهم لسان الدين في المغرب عند إقامته هناك بعد زوال دولة الغني بالله الأولى ، حضر
دراسته لمسألة من مسائل النحو² .

- محمد بن أحمد الطنجالي :

عرف به المقرئ نقلا عن لسان الدين في عائد الصلة و ذكر من صفاته العدل و الأمانة ،
تولى القضاء ثم استقال منه ، مدحه القاضي النباهي بقصيدة طويلة ، ذكر منها المقرئ³ سبعة عشر
بيتا ، و لم يورد له شعرا .

- و هناك مجموعة من الشيوخ لقيهم لسان الدين في المغرب و لم يكن أخذه عنهم أخذ التلميذ عن
أستاذه ، و إنما كان اجتماعه بهم نوعا من اللقاء العلمي كما يكون بين فقيه و فقيه أو بين أديب
و أديب ، و لذلك لم يكن تأثيرهم ، كبيرا في تكوينه الأدبي ، وقد ذكرهم المقرئ مكتفيا بتراجم موجزة
و أخبار قليلة عنهم و هؤلاء هم :

- أبو علي الحسن بن عثمان الونشريسي :

فقيه يقرض الشعر و يرجح المقرئ أنه ربما وقعت بينه و بين لسان الدين مكاتبات⁴ .

- يونس بن عطية الونشريسي :

ممن لقيهم لسان الدين بالمغرب ذكر المقرئ⁵ أنه كان ذا عناية بفروع الفقه ، و أنه تولى
القضاء بالمغرب .

هؤلاء هم شيوخ ابن الخطيب الذين أورد ذكرهم المقرئ ، و هم على تنوع اهتماماتهم العلمية
نرى أن كثيرا منهم ممن يتعاطى قرض الشعر ، و بعضهم ممن برع فيه كما أن منهم من أشتهر بفن
الكتابة و الترسل ، وقد استطاع ابن الخطيب أن يستفيد من هذه الحصيلة الثقافية المتنوعة في مجال
الإبداع الشعري ، ولذلك نجد صدى هذه الثقافة المتنوعة الألوان في ديوانه ، و أكثر ما يستوقفنا هو
كثرة استخدامه لمصطلحات العلوم التي تلقاها عن أساتذته كمصطلحات علوم اللغة من نحو و صرف
أو التصوف ، و التاريخ ، و السياسة ، و الطب ، و الفلك ، أو علوم القرآن و الحديث

¹ - المقرئ : النسخ ، 351/5 .

² - النسخ : 351/5 .

³ - النسخ : 390/5 .

⁴ - المصدر نفسه : 352/5 و 354 .

⁵ - المصدر نفسه : 351/5 .

و بعض هذه المصطلحات يرد في ديوان الشاعر تبججا و تملحا ، و إظهارا لسعة الاطلاع ، و بعضها يأتي موظفا توظيفا فنيا و رمزيا ، وكلا الأمرين يدل على أثر شيوخ لسان الدين في تكوين شاعريته .

ب / بيئته و وظائفه :

سبق أن ألمحنا في التمهيد و الفصل الأول من هذه الدراسة إلى البيئة الأندلسية في القرن الثامن كما ألمحنا بحياة ابن الخطيب ، و تعرضنا في ثنايا ذلك إلى مظاهر الاجتماع و السياسة و الحضارة ، و أشرنا إلى الوظائف السياسية التي تقلب فيها الشاعر ، و قد كان لهذا و ذلك أثر بارز في تشكيل شاعريته ، على مستوى المضمون و الرؤية و على مستوى الصياغة الشعرية .

فمن مظاهر البيئة التي نسج الشعر منها الشعرية :

- مظاهر الأعياد الرسمية ، كعيد الأضحى و العيد الفطر ، و الاحتفال بيوم المولد النبوي الشريف و الاحتفال بيوم النيروز ، و قد حاولنا إحصاء القصائد العيدية فوجدناها اثنتي عشرة قصيدة (12) ، أما المولديات و هي : المدائح النبوية فعددها في نسختي الديوان المحققتين عشر مدائح نبوية (10) منها قصيدة نبوية كتبها إلى الضريح النبوي الكريم على لسان الغني بالله¹ ، و قد جرت عادة حكام المسلمين في المغرب و الأندلس في تلك الفترة أن يبعثوا بالرسائل الشعرية من نظم شعرائهم المقربين ، و أن يتوجهوا بها في مواسم الحج إلى مقام النبي صلى الله عليه و سلم تعبيراً منهم عن مدى تمسكهم بسنة الرسول الكريم ، أو محاولة منهم اكسب قلوب جماهير المسلمين ، و قد كانت تلك الفترة فترة صراع من أجل العقيدة بين المسلمين الذين انحصرت دولتهم في جزء ضئيل في شبه جزيرة إيبيريا من جهة و بين القشتاليين الذين اكتسحوا بجيوشهم أراضي شاسعة من الرقعة الإسلامية من جهة أخرى .

و في الديوان عدد كبير من المقطوعات في وصف ساعة المكنانة التي تنصب ليلة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف احتفاء بهذه الذكرى ، و قد بلغ عدد تلك المقطوعات ثلاث عشرة مقطوعة من ذلك مقطوعة من خمس أبيات أنشدها أبا سالم المريني أيام إقامته في المغرب مع سلطانه و هي قوله²:

مولاي ست من الظلام مضت

كالمسك في صبيغة و في أرج .

فليلة المولد الكريم على

تقواك لله أصدق الحجج .

الأبيات .

¹ - الديوان : 157/1 ، وقد أنشدها إياه عام 761هـ .

² - المصدر نفسه : 208/1 .

إن ابن الخطيب شاعر رسمي يتقلد منصب الكتابة مرة ، و الوزارة مرة أخرى ، و لذلك كان عليه أن ينظم قصيدة في كل مناسبة تمر بمملكته كانتصار الغرناطيين أو انهزامهم أو عقدهم الصلح مع أعدائهم ، و لما كان الرجل الثاني في الدولة فقد كان عليه أن يخلو بالسلطان من حين لآخر لتدبير شؤون المملكة ، أو الخروج معه في بعض الأحيان لتفقد المدن و الثغور ، و كانت تلك المناسبات مدعاة لنظم القصائد المطولة أو المقطوعات بحسب ما يقتضيه المقام ، و عند دراستنا لتلك القصائد التي دبجها الشاعر في مدح ملوك بني الأحمر أو المرينيين أو ملوك تلمسان الزيانيين أو مدح وزرائهم و كتابهم ، وجدناها ذات عدد معتبر ، و أنها تشكل مادة شعرية واسعة ، و قد بلغت تلك المدائح مائة و ثماني و أربعين قصيدة مدحية (148) كان نصيب السلطان أبي الحجاج منها عريضا .

و قد كان أصدقاء الشاعر بحكم وظيفته و مكانته السياسية كثيرين ، و كان الشاعر يتبادل معهم الرسائل¹ و التهنئات بتأليف كتاب أو إنجاب ولد أو قدوم من سفر أو شكر على هدية من ذلك رسائله الشعرية إلى ابن مرزوق² و صديقه ابن خلدون³ ، و قد حاولنا إحصاء الإخوانيات في ديوان الشاعر فوجدناها بلغت ستا و تسعين إخوانية (96) ، و إذا علمنا أن شاعرنا يطيل قصائده في بعض الأحيان حتى تتجاوز المائة بيت ، و قفنا على وفرة المادة الشعرية التي تتضمنها هذه القصائد .

و مما يجلب انتباه الباحث عند الكلام عن مصادر شاعرية ابن الخطيب ، كثرة القصائد و لآسيما المقطوعات التي تتضمن وصفا للمظاهر السلطانية ، كحماله السيف ، و طيقان الماء و القباب و السكاكين ذات القيمة الجمالية و المباني⁴ و الأضرحة و سترة الطعام ، مما يأمر الخليفة بكتابتها ، احتفاء بتلك المظاهر و تنويها بها و إبرازا لمكانتها و تعبيراً عن أبهة السلطان و قوة الدولة و مستواها الحضاري ، فأصبح لشعر ابن الخطيب بالإضافة إلى قيمته الفنية رمز سياسي و حضاري ، و لنا وقفة متأنية مع المضامين السياسية و الحضارية لهذا الشعر .

و لم يكن شاعرنا بدعا من الشعراء في هذا الشأن فنحن عندما نتصفح ديوان الشعر العربي نتف على مادة خصبة منه لا تقف عند مستوى التجويد و المعاني الفلسفية و العقلية ، وإنما تتعدى ذلك إلى مستوى التعبير عن الواقع و عن الحياة الاجتماعية و السياسية و تعالج أدنى الموضوعات و أرقاها في سلم الحياة الإنسانية ، و لا ينبغي أن تجرنا هذه الفكرة إلى القول بأن الشعر العربي مادي في

¹ - انظر في رسائل ابن الخطيب الثرية التي يصدرها بقطع شعرية : الطاهر محمد توات ، أدب الرسائل في المغرب العربي القرنين السابع و الثامن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1993 ، ص 111 .

² - الديوان : 99/1-232-237-422-601/2-643 .

³ - المصدر نفسه : 1/359-427-506/2-599/2-683 .

⁴ - المصدر نفسه : 1/159-173-174-179-191 ، 214 ، 235 ، 333 ، 334 ، 342 ، 363 ، 409 ، 518/2 ، 563/2 ، 570/2 ، 681 ، 750 .

نزعته العامة و أن الشاعر الشرقي يتناول الأشياء تناولا مباشرا و سطحيا و ذلك لجفاف في ملكة التخيل ، بل نريد أن نؤكد تبعا لما تفودنا إليه المادة الشعرية التي بين أيدينا أن شعر ابن الخطيب لم يكن بمعزل عن مظاهر الحياة في سكونها و حركتها ، في رتابتها و صراعها و اصطخابها ، و قد كان متناغما في ذلك مع واقعه التاريخي و دوره السياسي و فهمه لطبيعة الشعر و وظيفته ، فكان يستمد مادته الشعرية من واقعه و كان ذلك الواقع قادرا على رفده بمادة غزيرة تشكل منها جزء هام من ديوانه ، و هذا ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب قد استحق لقب شاعر الحمراء ”لمختارات شعرية من قصائده كست الجدران و أحاطت فسقيات نوافر المياه“¹ بـحمراء غرناطة ، و إن كان ابن الخطيب حسب المستشرق غارثيه غوماث قد سبق ابن زمرك بهذا الامتياز² .

و من مظاهر البيئة الثقافية التي استمد منها ابن الخطيب جانبا من مادته الشعرية مظاهر الألعاب التي كانت سائدة في المغرب في القرن الثامن ، من ذلك مصارعة الأسد و الثور ، ”فقد كان لهذه اللعبة ميدان خاص أسماه ابن الخطيب ملاعب الليث المقترس ، فكان الأسد يتصارع مع ثور قوي يقدمه قطيع من الجواميس ، و يدير المعركة أبطال محترفون يختفي أحدهم داخل كرة خشبية مستديرة يحركها و يمشي بها فيهجم عليها الأسد و يعالجها بالنطح فلا يستطيع كسرها ثم يحمي و طيس المعركة بينه و بين الثور فيظهر الثور ثم يناله المصارعون قصعا بالرماح فينجدل بين يدي السلطان مضرجا بالدماء“³ .

و من القصائد التي وصف فيها ابن الخطيب اللعبة قصيدته في مدح ابن عنان و قد تجاول بين يديه الأسد و الثور ، و منها قوله⁴:

أنعام أرضك تقهر الأسادا طبع كسا الأرواح و الأجسادا

... ..

كان الهزبر محاربا فجزيته بجزاء من في الأرض رام فسادا

يسقط الشاعر خلق الشجاعة المتصف بها أبو عنان على الأنعام التي يتخذها للخدمة و يعطي بذلك صفة الشجاعة في الممدوح عمقا مندمجا مع مظهر الحياة في بيئته ، و تحولت تلك الشجاعة في نظر الشاعر سجية و طبعا لا تكلفا و ممارسة ، لقد التقط الشاعر هذه الصورة مستعيرا إياها من بيئته.

¹ - حمدان حجاجي : حياة و آثار ابن زمرك ، ص 58 .

² - الموجع نفسه : الموضع نفسه .

³ - ديوان الخطيب : مقدمة المحقق ، ص 79 ، نقلا عن الإحاطة ، 19 / 2 ، ص 10 .

⁴ - ديوان ابن الخطيب : ص 336 / 2 .

إن مظاهر البيئـة على اختلافها مطردة في ديوان شاعرنا حتى أصبح شعره كأنه صورة لتلك البيئـة¹ ، ونعتقد أن ابن الخطيب كان يحرص من حيث أدرك ذلك أم لم يدركه على تقديم صورة شاملة لعصره ، و تلك سمة بارزة في إنتاجه الشعري و غير الشعري ، و تلك الظاهرة دفعت بعض الدارسين المعاصرين إلى القول ”إن ابن الخطيب وحده و بمؤلفاته وحدها يمكن أن ترسم صورة أقرب إلى الاكتمال عن الأدب الأندلسي شعرا و نثرا في المائة الثامنة من الهجرة“² .

جـ / المنابع الذاتية لشاعرية ابن الخطيب :

لا تقتصر روافد شاعرية ابن الخطيب على المنابع الخارجية من بيئـة مساعدة على القول الشعري و ظروف مواتية للإبداع ، من ثقافة واسعة و متنوعة و كثرة الأساتذة ، و النشأة الأدبية ، لأن هذه العوامل إذا اجتمعت لا تنتج شاعرا ، و إنما قصاراها إذا فعلت أن تخرج لنا ناظما لا غير . و إن أهم مصدر لشاعرية ابن الخطيب فيما نظن هو مواهبه الذاتية التي تتجلى في القدرة على الإنتاج و الإبداع ، و التي تتلخص في الطبيعة الشعرية التي جبل عليها ، تلك الطبيعة التي ورثها عن سلفه ، و التي عبر عنها والده معتبرا إياها (نجابة) و هي ما ندعوه اليوم العبقرية ؛ تكلم ابن الخطيب في طفولته بين يدي والده في شيء من الشعر و الطب و الإنشاء فأدرك والده علامات العبقرية تلوح على ولده و هو لا يزال في إهابه الغض فارتجل³ :

الطب و الشعر و الكتابة سماتنا في بني النجاية

هن ثلاث مبلغات مراتبا بعضها الحجابة

و إن كنا لا نغتر بهذه الرواية التي يوردها المقرئ فنجعل منها حجة في الحكم على موهبة ابن الخطيب الشعرية و لكنها تدل على ملاحظة هامة هي تأصل القدرة الشعرية في شخصية ابن الخطيب و ظهورها بشكل لافت للانتباه في مرحلة باكرة من حياته .

و قد كان لسان الدين نفسه يدرك هذه الحقيقة ، و يعبر عنها في مباهاة و إعجاب بشعره في خواتيم قصائده المدحية خاصة من ذلك قواه في ختام قصيدة مدح بها الوزير أبا بكر بن الحكيم⁴ :

و ما الشعر إلا من قواف نظمتمها و ما خلصت إبريزه شعلة اللب

فهو يرى أن الشعر هو ما صاغته قريحته ذهبا خالصا ، و أن مصدر هذا الشعر هو القلب

المتقد إبداعا ، و ما ذلك إلا ما وسمناه بالطبيعة الشعرية أو العبقرية .

¹ - ديوان ابن الخطيب : مقدمة المحقق ، ص 53 .

² - د / مصطفى الشكعة : المغرب و الأندلس آفاق إسلامية ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، ط 1 ، 1987 ، ص 329 .

³ - المقرئ : نفع الطيب ، 16/5 .

⁴ - الديوان : 118/1 .

و في مدح أبي الحجاج يقول¹ :

و على احتكامي في القريض و إنني يرويه عني الدهر إن رويته
فلقد هممت أن أقوم بواجبي من حق مدحك ثم ما وفيتيه

فلقد جعل نفسه من ملوك الشعر الذين يأتيهم عن طبع و اقتدار ، لا من عبيده الذين يتصنعون فيه فهو على حد المصطلح النقدي القديم شاعر مطبوع تنقاد له القوافي و تتأثر عليه من غير أن يجهد نفسه في اقتناص غريبها و شعره إلى ذلك مذكور متناقل على ألسنة الرواة مدى الدهر ! و الشواهد على إعجاب ابن الخطيب بموهبته الشعرية كثيرة في ديوانه اكتفينا منها بالمثاليين السابقين للتمثيل لا للاستقصاء .

و قد أدرك شيوخ ابن الخطيب مواهبه الشعرية في شبابه الباكر أيضا إذ ينقل لنا رواية في الكتيبة الكامنة عن إعجاب أحد أساتذته بشاعريته في فترة تلمذة ابن الخطيب له يقول ابن الخطيب "و من غريب ما خاطبني به و أنا صبي بين يديه"² :

أقسم بالقيسين و النابغتين و شاعري طيئ المولدين
و بابن حجر و زهير بعده و الأعشيين بعده و الأعميين
إلى أن يقول :

أن الخطيب بن الخطيب سابق بنثره و نظمه للحلبتين
يا أحوذيا يا نسيج و حده شهادة تزهرت عن قول مين

فهو يبلغ بتلميذه إلى أن يكون سابقا لفحول الشعراء في المشرق و المغرب ، و يقدمه على النابغة الذبياني ، و النابغة الجعدي ، و قيس بن الملوح ، و قيس بن ذريح ، و أبي تمام ، و البحري و امرئ القيس ، و زهير ، و أعشى قيس راعشى همدان ، و بشار ، و أبي العلاء ، و هذه مبالغة واضحة لا يقصدها الأستاذ لنفسها ، و يمكن أن نحملها على شدة إعجابه بتلميذه الذي نبغ في الأدب و هو صبي مما يؤكد ظهور موهبته الشعرية في وقت مبكر من حياته العلمية و الأدبية .

و إذا تبيننا نظرة العقاد في تعريف الشاعر العظيم بأنه من يستطيع أن يخط لنفسه فلسفة خاصة في الحياة ، و أن يعبر عن ذاته ، فنعرف شخصيته من خلال شعره إذا تبيننا تلك النظرة ، وجدنا حظ ابن الخطيب من الموهبة الشعرية موفورا ، و ذلك أنه يسيطر على شعره جانبان : "الوجدانيات الخاصة به من شعر ذاتي ، كالتأمل ، و الغزل ، و وصف الطبيعة الأندلسية (غرناطة و ما حولها)

¹ - الديوان : 185/1

² - الكتيبة الكامنة: ص 188، 189.

و التعبير بالشعر عن جوانب الحياة من وجهة نظر الشاعر المتأمل ... و الجانب الآخر استخدم الشعر وسيلة للاتصال بالعالم الخارجي¹ .

و في الديوان مقطوعات كثيرة و قصائد عبر فيها الشاعر عن تأملاته و آرائه في الحياة ، و في بعض القضايا الفلسفية ، و أشواقه الروحية بما يدل على تأصل الجانب الشعري في شخصيته الغنية بمواهبها ، و حسبنا في هذا المقام أن نعرض لجانب واحد من شخصية ابن الخطيب ذي دلالة بينة على جانب العبقرية فيه ، ألا و هو موضوع الأرق ، فهو يتكرر بشكل لافت للنظر في ثنايا القصائد ، و نحن نعتقد أن ذلك الأرق لا يفسر بكونه حالة مرضية عصبية فحسب ، بل ربما دل على قلق إبداعي ، ذلك أن الإبداع إن هو إلا معاناة و قلق و شوق و تطلع إلى المثال و عصف بالواقع المتبدل الذي تكون فيه الأشياء مظاهر جامدة لا أثر فيها للحياة و لا شكل من أشكال الحكمة ، أرق يضع لبننة من لبنات الحضارة التي تكاد أركانها تتداعى أمام عيني الشاعر الأرق ، و قلق يقف عينا ساهرة مرابطة في ثغر يتربص به العدو في أي لحظة ، و خوف على هذا العالم المليء بالجمال و الفن أن تدوسه أقدام (الروم) .

هذا هو أرق لسان الدين فيما نظن ، و هذه نماذج لذلك الأرق ، يقول ابن الخطيب² :

عبس الليل فلا صبح يرى و هوى النجم و غاب الفرقد

و ضحكنا و جلبنا طرفا أنلا يضحك هذا الأسود ؟

لجوء المسهد إلى التسلي بالضحك و جلب أطراف الحديث إن هو إلا هروب من هذا الليل العابس ، و هذا السهاد الذي عبر عنه الشاعر بعبوس الليل و غياب الفرقد هو تعبير عن حزن عميق ، و هذا الحزن وهو ما اعتبرناه أنفا قلقا إبداعيا ، لا يسلم منه شاعر أو فنان ، و يلح لسان الدين على هذه الفكرة في بيتين آخرين ، و يعيد إخراج المعنى نفسه ، تقريبا في ثوب جديد ، و ذلك في قوله³ :

أرقت فجنح الليل قيد خطوه فلهفي على الجفن القريح المسهد

و ما بليت نفس امرئ متطرق⁴ بأوحش من عبد عبوس مقيد

في هذه الصورة يصبح الليل عبدا عبوسا مكرها على الإقامة يبعث في نفس الشاعر الوحشة . و إن شاعرا يجد في الليل الطويل معنى من المعاني الإنسانية ، و يضع يده على نبض الحياة في صور شتى من البيئة على النحو الذي سنبينه في المبحث المتعلق بغرض الوصف ، لهو الشاعر المفطور على الشاعرية الحقة المتدفقة بالعباء و المطاوعة لأي حالة من حالات الإبداع .

1 - د . محمد رضوان الداية : الأدب الأندلسي و المغربي ، مطبعة خالد بن الوليد ، 1980 ، ص 258 .

2 - الديوان : 323 / 1 .

3 - ديوان الصيب و الجهم : ص 456 .

4 - في الديوان : متطرف (بالفاء) و قد أخذنا برواية الصيب .

إن سوقنا لموضوع الأرق في شعر لسان الدين ، ليس إلا مثالا على بروز جانب الموهبة في شاعريته ، و بوسعنا أن نجد أمثلة أخرى لتحقيق هذا الجانب ، و هو غنائية لسان الدين المعبرة عن ذاتيته ، حقا إن هذه السمة تتجلى بوضوح أكبر في قصائده الغزلية و موشحاته و قصائده الصوفية ، ولكننا لا نعدمها في القصائد التي تناول فيها العالم الموضوعي و نعني به ما ليس له اتصال وثيق بالنفس كموضوعات المدح و الشعر السياسي ، و أظهر مثال نستأنس به في هذا المقام قصيدته العينية التي مزج فيها بين الحنين و الشكوى و الحزن و الرثاء و التصوف ، وهي قصيدة تعبر بكل صدق عن نفس لسان الدين المعذبة في منفاه ، و قد جرد من وظائفه ، و صودرت أمواله ، و نكب بأمر ولده ، و بدا عليه نزوع إلى الحياة الروحية فتطرح على مقامات الأولياء بسلا ... يقول ابن الخطيب في هذه القصيدة:¹

خدع الشوق فؤادي فانخدع	أفلا أقصر شيئا و ارتدع
ثم لما حل في فخ الهوى	طيره بعد حذار و وقع
قيض الله له يوم النوى	أشعل النار به حتى انصدع
..أخلق الصبر فما في ثوبه	أبدا و الله لي من منتفع
..و على الملحد من شرقية	رحمة الله فكم فضل جمع !
فيه أودعت فؤادي في الثرى	و لبست الحزن ثوبا لو نفع
..و إذا جئت ربوعا بعدها	فعل الله بقلبي و صنع

و بإمكاننا أن نعرض نماذج أخرى تتجلى فيها ذاتية ابن الخطيب ، من أغراض و مواضيع شتى إلا أنه بوسعنا أن نترك ذلك لأراء الدارسين و الناقدين في مواهب ابن الخطيب الشعرية التي يكاد ينعقد الإجماع فيها على وضع لسان الدين في مقام سام بين شعراء الأندلس في القرن الثامن خاصة .

ثالثا : شاعرية لسان الدين في نظر النقاد و الدارسين :

إن الدراسات حول ابن الخطيب و إنتاجه العلمي و الأدبي متنوعة ، بعضها تناول الجانب التاريخي منه ، وهو أكثرها فيما نظن ، و بعضها تناول الجانب العلمي و الفكري ، و هو أقل ، و بعضها تناول الجانب الأدبي بشعره و نثره و هو ملاحظات و إشارات متناثرة هنا و هناك في ثنايا كتب التاريخ الأدبي التي تناولت الشعر الأندلسي .

- لعل أقدم الآراء النقدية في شعر ابن الخطيب ، رأي ابن خلدون الذي أشار إلى براعة لسان الدين في الشعر و الترسل و إكثاره فيهما ، يقول عن وزارة ابن الخطيب للغني بالله : " و امتلا

¹ - الديوان : 659/2 و ما بعدها .

حوض السلطان من نظمه و نثره ، مع انتقاء الجيد معه ، ونبغ في الشعر و الترسل بحيث لا يجارى فيهما¹ .

و هي إشارة عابرة تدل على غزارة إنتاج لسان الدين و أنه ينتقي الجيد من أدبه ، و ينشره و نرى الجانب العملي من هذه الإشارة في ديوان ابن الخطيب الذي جمعه صاحبه ، بعد حذف و تشذيب وذلك حيث يقول : -مثلا- و منها بعد كثير ... في إشارة إلى أبيات كثيرة محذوفة .

و لابن خلدون التفاته أخرى إلى شعر ابن الخطيب أثناء كلامه عن الموشحات التي انفرد بها المغاربة و أجبوا بها على المشاركة حيث يعد ابن الخطيب من أئمة فن التوشيح و يورد موشحه الشهيرة التي أولها :²

جارك الغيث إذا الغيث همي يا زمان الوصل بالأندلس

و يشير إلى أنه عارض بها موشحه ابن سهل التي أولها :³

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكس

و هذه الإشارة تدل على معارضة ابن الخطيب لكبار شعراء المشرق و الأندلس ، ولكنها لا تنفي عنه سمه الإبداع في نظر ابن خلدون لأنه سبق أن بين غزارة إنتاج شاعرنا و وفرة الجيد منه .

- و من الدارسين المعاصرين لابن الخطيب الذين عنوا بشعره إسماعيل بن الأحمر الذي وصف شعره و أتى عليه إذ هو عنده : "شاعر الدنيا ، و عالم المفرد و الثنيا ، و كاتب الأرض إلى يوم العرض لا يدافع مدحه في الكتب ، و لا يجنح فيه إلى العتب آخر من تقدم في الماضي ، و سيف مقوله ليس بالكهام إذ هو الماضي ... و هو نفيس العدوتين و رئيس الدولتين"⁴ . و بعد هذا الإطار يختار ابن الأحمر سينيته التي أولها⁵ .

عسى خطوة بالركب يا حادي العيس على الهضبة السماء من قصر باديس

كما يختار له المقطوعات المليئة بالتوريات و أصباغ البديع المختلفة ، كما أعجب ببراعة لسان

الدين في الهجاء الساخر خاصة أهاجيه في القاضي النباهي كقوله :⁶

تفهقه عند رؤيته التكالى و يضحك منه معتاد العبوس

فقرن من نضار العاج سلم و وجه من لباب الأبنوس

1 - ابن خلدون : العبر ، 691/13 .

2 - ابن خلدون : المقدمة ، دار الجليل ، ص 642 ، و انظر الديوان : 792/2 .

3 - ابن خلدون : المقدمة ، دار الجليل ، بيروت ، ص 649 .

4 - ابن الأحمر : نثر فرائد الجمال ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ص 243 .

5 - المصدر نفسه : ص 245 ، و انظر الديوان 729 / 2 .

6 - ابن الأحمر : نثر فرائد الجمال ، ص 252 ، و انظر الديوان : 732/2 .

و قد أعجب ابن الأحمر ببراعة لسان الدين في التقاط الصور المثيرة للسخرية ، و لاسيما في وصف عمامة القاضي النباهي ، وابن الأحمر محق في هذا الإعجاب ، و لعله لم يطلع على رسالة ابن الخطيب المعروفة بمثلى الطريقة في ذم الوثيقة التي تعد من آيات الأدب الساخر الأندلسي ، فلو أنه كان قد اطلع عليها لاختيار منها نماذج في القدح و الاستهزاء في كتابته .

- و أكثر المتقدمين عناية بابن الخطيب و أدبه المقرري ، في كتابه ”نفع الطيب“ و ”أزهار الرياض“ ، و قد جعل القسم الأوفى من أولها خاصا بحياة لسان الدين و شيوخه و آثاره ، شعره و نثره ، و كل ما يتعلق بسيرته ، و قد كان شديد الإعجاب بشعره و أدبه عاممة ، و لذلك أورد منه قسما وافرا في كتابه خاصة نفع الطيب ، يقول المقرري : ”و أما شعر لسان الدين رحمه الله فهو من النهاية في الحسن ، و قد قدمنا في هذا الكتاب منه نبذة في أثناء نثره و كلامه الذي جلبناه ، و في مواضع غيرهما جملة مفيدة من شعره رحمه الله تعالى“¹ و أورد بعد ذلك قصائد مطولة و مقطوعات من شعره² .

و في أثناء عرض آراء الدارسين في أدب ابن الخطيب ، يقوم المقرري مقام المدافع و المنافع عنه ، من ذلك أنه نقل عن أحد أكابر علماء المشرق قوله عن لسان الدين : ”و كيف لا و هو شاعر مفلق و خطيب مصقع ، و كاتب مترسل بليغ ، لولا ما في إنشائه من الإكثار ، الذي لا يكاد يخلو من عثار“³ . يعلق المقرري بعد ذلك بقوله : ”و هذا الانتقاد غير مسلم ، فإن لسان الدين و إن أظنبت و أسهب ، فقد سلك من البلاغة أحسن مذهب“⁴ .

و يورد في الأزهار قول بعض الأعلام دون أن يذكر اسمه : ”شعر ابن الخطيب ما بعده مطمع لطامع و لا معرج على شاعر بعده للأذان و المسامح“⁵ ، و هذه الأحكام لا تعدو أن تكون ثناء و مدحا و إعجابا بشعر ابن الخطيب ، نظرا لشهرته في المشرق و المغرب ، و هي آراء لا تستند إلى تعليل ، و لا تصدر عن وعي نقدي واضح ، نعم هناك بعض الآراء التي تستند إلى نظرة نقدية معللة من ذلك ما نقله المقرري عن الحافظ التنسي من رأيه في سينية ابن الخطيب التي أولها :

أطلعن في سدف الفروع شموسا ضحك الظلام لها و كان عبوسا

و يرى الحافظ أن لسان الدين حذا في هذه السينية حذو أبي تمام في قصيدته التي أولها :

أقشيب ربعهم أراك دريسا تقري ضيوفك لوعة و رسيسا

¹ - المقرري : النفع ، 449/6 .

² - المصدر نفسه : 449/6 . و ما بعدها .

³ - المصدر نفسه : 26/6 .

⁴ - المصدر نفسه : 27 /6 .

⁵ - المقرري : أزهار الرياض ص 250 .

و اختلس كثيرا من ألفاظها و معانيها¹ ، و الحافظ التنسي يستند في هذا الرأي إلى مفهوم السرقة الشعرية في النقد العربي القديم أو ما يعرف بمفهوم التناص في النقد المعاصر حيث يعمد الشاعر إلى معنى أو صورة شعرية لشاعر سابق له فيوظفها توظيفاً جديداً ، أو ينقل الصورة إلى موضوع آخر مع المحافظة على الجانب الفني منها ، و لا شك أن الحافظ يؤول إلى سقوط الشاعر في معارضة غير موفقة ، معتبرا إياها اختلاسا و نسخا ثنائيا لألفاظها و معانيها ، و هو ما يعني اختفاء الأصالة الفنية لدى الشاعر ، و هذا رأي لا شبيه له بين المعاصرين لابن الخطيب إذ كلهم يعلي من شاعريته أو على الأقل لا يرميه بالاختلاس و السطو على إنتاج الآخرين ... و مهما يكن هذا الرأي فهو يتعلق بقصيدة واحدة من قصائد الشاعر ، و لا يمكن اعتباره حكما مطلقا على شعره جميعا

و قد أعجب القدامى بالصناعة البديعية في شعر ابن الخطيب ، من ذلك براعة الاستهلال ، فقد نقل المقرئ في الأزهار رأي ابن حجة الحموي في شرح بديعته الذي يشيد فيه بقصيدة لسان الدين في تهنئة الغني بالله قائلا : ” و مما يسفر بالتهنئة و النصر على الأعداء ، براعة الاستهلال للعلامة إمام المغرب ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب و هي² “

الحق يعلو و الأباطل تسفل و الله عن أحكامه لا يسأل

و هي القصيدة التي أخبرنا المقرئ أن الغني بالله أمر بكتبتها على قصوره بالحمراء³ إعجابا بهامو للمقرئ إشارات عابرة في ثنايا كتابيه إلى شاعرية ابن الخطيب ، كتحقيق نسبة أبيات إليه أو تخميس أبيات له أو كلمة إطراء على النحو السابق .

و في تراجم المتأخرين إشارات عابرة إلى شعر ابن الخطيب من ذلك ما نجده لدى المؤرخ عباس بن إبراهيم المراكشي في كتابه (الإعلام) حيث أورد بيتين في وصف كلام ابن الخطيب و تشبيهه بزمان الشباب اللاهي و وصل الحبيب بعد الهجر ، دون نسبة البيتين إلى قائل معين ، وهما⁴

و ما زمن الشباب و أنت تجري مع الأحباب في لهو و طيب

و وصل من حبيب بعد هجر بأحلى من كلام ابن الخطيب

و إذا كان القدامى قد أعجبوا بأدب لسان الدين ، و أنتوا عليه ، إلا أقلهم فإن الدارسين المحدثين لم تكن مواقفهم من أدبه عامة ، و شعره خاصة محل إجماع و سبب ذلك فيما نعتقد كونهم

¹ - المقرئ : أزهار الرياض ، 257/1 ، و بيت أبي ممام في ، ديوان أبي ممام ، شرح إليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني بيروت ، ط 1 ، 1981 ، ص 319 .

² - المقرئ : الأزهار ، 262/1 ، و انظر : أبو بكر علي بن حجة الحموي ، خزنة الأدب و غاية الأرب ، شرح عصام شعير ، ط 1 ، 1987 ، دار و مكتبة الهلال ، بيروت لبنان ، 33/1 .

³ - المقرئ : النفع ، 478/6 .

⁴ - عباس بن إبراهيم المراكشي : الإعلام بمن حل مراكش و أغمت من الإعلام ، ص 354 ، 355 .

تناولوا أجزاء متفرقة من شعره ، أو التبس لسان الدين الشاعر ، في نظرهم بلسان الدين المورخ و الكاتب ، و لذلك كانت أحكامهم ، في أغلبها عجلى .

فالمستشرق ”بروكلمان“ و هو يضع تاريخا للشعوب الإسلامية يرى أن ”الأسلوب كان يعني بالنسبة إليه -أي ابن الخطيب- كل شيء تقريبا ، و الجدير بالذكر أن ابن الخطيب لم ينكشف عن هذا الاحتفال البالغ بالزخرف في رسائله النموذجية فحسب ، بل في مصنفاته التاريخية الكبرى حيث ينزع في كثير من الأحيان إلى التضحية بصحة الرواية على مذبح الصناعة اللفظية“¹ ، يشير المستشرق إلى ظاهرة الصناعة البديعية في أسلوب ابن الخطيب ، و لا سيما في رسائله الرسمية ، و يفهم من كلمة الأسلوب أن المستشرق يريد الشعر و النثر معا لا الرسائل وحدها ، و إذا صح هذا الفهم فإنه يمكن اعتبار هذا الرأي مجحفا إذ يقع الدارس على قصائد في ديوان الشاعر ، المعاني و الصور و الأخيلة ، و العواطف ، هي أول ما يسترعى النظر فيها و ربما يكون الرأي السابق مقبولا إذا عني به الرسائل الديوانية لابن الخطيب ، دون شعره .

أما النقاد و الدارسون العرب الذين تناولوا الأدب الأندلسي بالدراسة ، فمنهم ”إبراهيم أبو الخشب“ الذي يميز بين مواهب ابن الخطيب التي أكسبته إياها التربية العلمية و الأدبية التي نشأ عليها ، فصار بذلك من المؤلفين المشهورين ، ويرى أن ”الكتابة و الشعر ألصق به من غيرهما ، فأجدر به أن يسمى أديبا لا عالما“².

و يتعرض لشعره بعد ذلك فيرى أن شعره كثير ”و أكثره يدل على أنه شعر رجل عالم من عشاق الأدب ، لا من رجاله الفنيين ، و له قصائد طويلة تدل على سعة خياله أفضلها في ذلك موشحته الشهيرة التي أبدع فيها ، و هي من أرق الشعر و أجمله و قد طرق في شعره كثيرا من الموضوعات المختلفة ، و الأساليب المتعددة ، فنجد الشعر الغزلي الرقيق ، و الأسلوب الدقيق ، و ... شعر الفقهاء و كلام الأتقياء ، و أسلوب العلماء و جفاف اللفظ و المعنى ، على أن له كثيرا من القصائد الجميلة و المقطوعات الرقيقة“³ ، فابن الخطيب في نظر هذا الباحث عالم شاعر ، لا شاعر عالم ، فكأنه اتخذ الشعر وسيلة ليطل بها على العالم الخارجي ، و يضاهي أرباب القريض ، و هو بذلك يفتقر إلى الموهبة الشعرية الأصلية على أنه لا يخلو من ومضات إبداعية ، و لا سيما موضوعات الغزل ، و أما أسلوبه فهو أسلوب العلماء المتصف بالجفاف ، و تعقبنا على هذا الرأي أن الباحث لم يقف على ديوان لسان الدين الذي ظل مخطوطا في خزانة القرويين إلى فترة متأخرة ، و لم يكن الاطلاع عليه متيسرا إلا لقلّة من الدارسين ، و جل اعتماد الباحثين قبل تحقيقه كان على نفع الطيب للمقري ، و من

¹ - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس و منير بعلبكي ، دار العلم للملايين بيروت ط5 ، 1968 ، ص 337 .

² - إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي في الأندلس ، دار الفكر العربي ، دت ، ص 104 .

³ - نفسه : الصفحة نفسها

المعلوم أن المقرئ لم ينشر الديوان كاملاً ، و إنما اختار منه بعض المقطوعات و القصائد ، و الحكم النقدي الصائب ، و القريب من الموضوعية هو المرتكز على تحر دقيق و إحاطة شاملة بالمادة الشعرية ، و هو ما لم يتوفر لصاحب تاريخ الأدب العربي في الأندلس ، فيما يُرجَّح .

و يفهم من كلام الباحث تداخل المستويات الفنية في شعر ابن الخطيب ، و هذا لا مرأ فيه ، لأن ابن الخطيب نفسه قد صرح بوجود مستويين في شعره ، مستوى فني رفيع و هو ما عبر عنه بالصيب ، و مستوى ضعيف و هو ما عبر عنه بالجهم ، و وجود هذين المستويين في شعره ، لا ينحدر به إلى طبقة شعر العلماء المتمسم بالجفاف ، و الأمر لا يعدو أن يكون قد حصل تطور في التجربة الشعرية لسان الدين حيث يمكن التمييز بين مرحلتين من مراحل تطور فن ابن الخطيب : مرحلة التكوين ، و فيها تتجلى ملامح التقليد و النسخ على منوال كبار الشعراء في فترة ازدهار الشعرية العربية ، و مرحلة النضج ، حيث استوت شخصيته الشعرية و أصبح له فنه الخاص .

و من هؤلاء الدارسين "محمد رضوان الداية" في كتابه : "الأدب الأندلسي و المغربي" و فيه عرض لآراء مجملة اهتدى إليها المؤلف من خلال دراسته التاريخية للأدب في مملكة غرناطة ، منها إشارته إلى الجانب الأدبي من شخصية لسان الدين فهو : "شاعر ، وشاح ، مترسل ، كاتب ، و هو يمثل على أكثر من وجه حركة الأدب في القرن الثامن الهجري ، و إن لم يكن المقدم على شعراء عصره" ¹ .

و في نظر الباحث ، فإن لسان الدين من الشعراء الذين سخروا الشعر لتدوين التاريخ ، من ذلك كتابه "رقم الحلل في نظم الدول" ، لأنه تاريخ منظوم لمملكة بني الأحمر ، و يستنتج الباحث من ذلك أن شعر لسان الدين اتخذ سمات ، هي : البديهة و السرعة و الارتجال ² ، إلا أنه ينبغي الفصل بين نوعين من الشعر : الشعر التعليمي الذي يراد به جمع العلوم و حفظها كما نجده في رقم الحلل أو في أراجيز لسان الدين في الطب و السياسة ، و الشعر الغنائي المقصود منه الفن لا العلم ، و لذلك لا نخضع هذين الشعرين لمقياس واحد ، أما ظاهرة الارتجال و البديهة فعلياً أن نبحت لها عن تفسير آخر .

و من الملاحظات التي أبداها الباحث طول النفس الشعري عند لسان الدين ، وسعة ثقافته الأدبية ³ . أما ما يمتاز به شعر لسان الدين من الناحية الفنية فهو : "التمكن اللغوي و تراسر البناء الشعري ، و سيطرة الفكرة أحياناً على حساب العاطفة ، و محاولة الشاعر باستمرار أن يعتمد أسلوب

¹ - د . محمد رضوان الداية : الأدب الأندلسي و المغربي ، ص 258 .

² - المرجع نفسه : الموضع نفسه .

³ - المرجع نفسه : الموضع نفسه .

التصوير و التخيل ، و أن يشحن القصيدة أو القطعة بما يستطيع من طاقة غنائية موسيقية¹ ، و هي سمات سنفصل فيها في فقرة تالية من هذا البحث مع عرض نماذج من شعر لسان الدين .
و في ثنايا الأبحاث المتعلقة بفن الموشحات نجد إشارات عابرة إلى ابن الخطيب باعتباره أحد أعلام هذا الفن ، فتكتفي هذه الأبحاث بعرض نماذج قليلة من موشحاته ، اكتفاء بشهرتها ، كما نجد في كتاب (تأثير الموشحات في التروبادور) ، حيث يدرج صاحبه لسان الدين ضمن عباقرة الوشاحين أمثال عبادة بن ماء السماء و الأعمى التطيلي ، و ابن ماجة ، و ابن زهر ، و ابن سهل و غيرهم² .

و في موازنة عابرة بين بعض شعراء الأندلس ، يسلك "الطاهر أحمد مكي" ابن الخطيب في زمرة من الشعراء المجيدين و هم جيل جاء بعد أبي البقاء الرندي و كان لهم طابعه في الموسيقى ، و يلتقون معه في عدد من الموضوعات ، و في الصور "و الآخرون سبقوه ... و يجيء في مقدمتهم ابن خاتمة شاعر المرية ... و ابن زمرك و ابن الخطيب أخيرا ، و بعد هؤلاء الثلاثة بدأت شمس الشعر الأندلسي ، مع دولة الإسلام نفسها تتحدر نحو الغروب"³ .

و في دراسة لفلسفة ابن الخطيب ، يعقد الباحث المغربي عبد العزيز بن عبد الله موازنة بين ابن الخطيب و أبي العلاء المعري فـ "كلاهما مفخرة للأدب و خزانة فياضة بفنون من العلم قلما ظفر به غيرهما ... غمرتهما شاعرية مهذبة و جلال هادئ وديع : نقاء في المبنى و جمال في المعنى و انتجاع للقيم الحسنى ! ... كلاهما فيلسوف، و لكن فلسفة المعري عريقة .. في التشاؤم ، و فلسفة لسان الدين رغم نقده اللاذع و غمزاته العابرة موعظة في الرجاء"⁴ .

إن الموازنة بين لسان الدين و المعري تستقيم من حيث أنهما صدرا عن آراء في الفلسفة و الزهد ، و من حيث قوة شاعريتهما ، و من جانب ميل كل منهما إلى التعقيد في التصنع مع تفوق للمعري ظاهر لا يخفى في لزوم ما لا يلزم ، و كلاهما حقا عبر عن عصره و ما يعتلج فيه من مذاهب و أفكار إلى حد كبير ، و لكن لسان الدين رجل دولة يريد لها الاستمرار و القوة و رجل الطبقة الأرستقراطية التي ترفل في الحرير ، و تنتجع القصور فلا بد أن تمتلئ نفسه بالأمل و حب الحياة التي وهبته كل شيء : النفوذ ، و الثروة ، و الشهرة ، أما المعري فقد سلبته الحياة كل مباحجها فتنع أن يكون خدن كتاب و جليس محراب و زهد في الحياة زهد اليأس منها ، و قهر حب الدنيا من نفسه

1 - المرجع نفسه : الموضع نفسه .

2 - د . عبد الإله ميسوم : تأثير الموشحات في التروبادور ، ص 80 .

3 - د . الطاهر أحمد مكي : دراسات أندلسية في الأدب و التاريخ و الفلسفة ، ط 3 ، 1987 ، دار المعارف القاهرة ص 280-181 .

4 - عبد العزيز بن عبد الله : الفلسفة و الأخلاق عند ابن الخطيب ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ص 140 .

و "استطاع أن يمضي في مجاهدته لها بإرادة عجيبة فذة ... على قسوة ما كابد من أشواق بشريته المكبوتة ، و ما لقي من عنت خصومه و جدل مناظريه " ¹ .

رابعا : سمات شاعرية ابن الخطيب :

تضافت عوامل التاريخ ، و الحضارة ، و العقيدة ، في تكوين شاعرية لسان الدين و شخصيته الأدبية ، على النحو الذي سبقت الإشارة إليه ، و أضفت على فنه الشعري ألوانا من طبيعة الأندلس و فنها و ارتسمت فيه صورة الإبداع الشعري في القرن الثامن الهجري فقد جمع شعره بين سمات الأندلس و المغرب و تأثيرات المشرق و إحياءاته ، و جهد الفنان الذي يولي إبداعه كل عناية و صقل ، و مراس دائب ، و بصر بلغة الوحي ، و الحديث ، و سعة اطلاع على أيام العسرب و أمثالها ، بل و أيام العجم و مآثوراتها و قد تتجلى تلك السمات عند أول مكاشفة أو تخفى خفاء ينبغي معه التأمل و البحث و التققيب .

و قد هدانا تقصي إنتاجه الشعري إلى استخلاص السمات الآتية :

* أندلسية لسان الدين :

لا نعني بالأندلسية هنا النزعة الإقليمية الضيقة أو القومية التي تصنف المجتمعات على أساس العرق و الجنس ، و لكننا نريد تلك المحاولات التي قام بها الأندلسيون لإبراز مكانتهم الأدبية مفاضلين بين آدابهم و علومهم و آداب و علوم المشاركة . "و لئن حصلت منافسة بين الأندلسيين و المشاركة فلإثبات الوجود كما نقول- أو بينهم و بين المغاربة في بعض الأحيان فللاختلاف بين البداوة و الحضارة بكل معاني الكلمتين في الأكثر الغالب" ² فقد ألف ابن الخطيب رسالة في المفاضلة بين "مألقة و سلا" و قبله وضع ابن حزم رسالة في فضل الأندلس ، و ذكر رجالها .

كتب لسان الدين الموشحات مبدعا ، و معارضا أكبر و شاحي الأندلس كما نسب إليه ابن خلدون بعض الأزجال ، و هي فن أندلسي برع فيه ابن قزمان ، كما وضع فيه السشتري أكثر شعره الصوفي ، مع العلم أن نسختي الديوان لا تضمنان بالإضافة إلى القصائد ، و الموشحات ، زجلا ، وإنما هو رأي انفرد به ابن خلدون ، و تابعه على ذلك المقري ³ ، و نقل عنهما الدارسون المتأخرون يقول ، مثلا ، محمد رضوان الداية : "و قد شارك في فن الزجل فهو إذن شاعر و وشاح ، و زجال" ⁴ .

¹ - د . عائشة عبد الرحمن مع أبي العلاء في رحلة حياته : ط 1 ، 1983 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص 236 .

² - محمد رضوان الداية : الأدب الأندلسي ، و المغربي ، ص 34 - 35 .

³ - المقري : النفع الطيب ، ج 7 ، ص 17 .

⁴ - محمد رضوان الداية : الأدب الأندلسي ، و المغربي ، ص 327 .

و لا نملك هنا أن نأخذ بهذا الرأي أو نرده لا سيما و أن لسان الدين عند ما جمع ديوان "الصيب" لم يشر فيه إلى موشحة واحدة ، و لعله فعل مثل ذلك مع الزجل ، و يؤخذ من هذا الصنيع رأي ابن الخطيب في الزجل فهو عنده دون مستوى الشعر ، فلهذا لذلك السبب أعرض عنه في أثناء جمع الديوان المسمى "الصيب و الجهام" .

و في ديوانه تسع (9) موشحات بعضها منسوب إليه كالموشحة الثامنة التي أولها :¹

يا ليت شعري هل لها من إياب يوما و عند الله علم الغيوب

و بعضها يعارض فيها أشهر الوشاحين كالموشحة الأولى التي مطلعها :

رب ليل ظفرت بالبدر و نجوم السماء لم تدر

و التي عارض فيها موشحة ابن الصابوني الملقب بالحمار ، و مطلعها²

فسما بالهوى لذي حجر ما لليل المشوق من فجر .

و في الديوان تخميس أبيات للمستعين سليمان بن الحكم ، من ملوك الدولة الأموية ، استجابة

لأمر السلطان أبي الحجاج ، و أول هذا التخميس³

مالي على شرفي و رفعة شأني و عظيم أمصاري و عز مكاني

لعب الغرام بمهجتي و جناني (عجبا يهاب حد سنناني)

(و أهاب لحظ فواتر الأجفان)

و الأبيات في الغزل يصف فيها المسعنين حالة ضعفه أمام الحسان مع المعلوم من شدة بأسه ، و أنه سليل بني مروان ، و هو لا يضار في ذلك لأن ذل الهوى عز و ملك ثان ، و أعجب أبو الحجاج بهذه ، القصيدة لأنها ، ملوكية تصف أخلاق الملوك ، يريد أن يتشبه بالسلف من ملوك الأندلس .

و نلمس أندلسية لسان الدين ، في وجه آخر ، و نعني به تضمينه لمعاني الأمثال السائرة في

المجتمع الأندلسي ، كالذي نجده في قوله⁴ :

تضيعت قلبي ثم أصبحت ناشدا . و قد قيل "أولى بالخسار المضيع" .

فقد ضمنه معنى المثل الشعبي الأندلسي "المضيع أولى بالخسارة"⁵ .

1 - ديوان ابن الخطيب : 794/2 .

2 - د . مصطفى عوض الكريم : فن التوشيح ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1974 ، ص 112 .

3 - ديوان لسان الدين: 583/2 ، وفي أبيات المسعنين : انظر ، ابن أبي حجلة التلمساني ، ديوان الصباية ، تحقيق ، د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف الإسكندرية ، ص 70 .

4 - ديوان ابن الخطيب : 665/2 .

5 - انظر هامس رقم (100) : ج2 ، ص 665 ، نقلا عن أمثال العوام في الأندلسية ، ج2 ، ص 73 ، تحقيق د. بشريفة .

و الواقع أن شعر لسان الدين كله ما هو إلا صورة صادقة و صدى واضح لحياة الأندلس بكل ما تزخر به من طبيعة ، و فلسفة ، و تصوف و اضطراب و فتن ، بل إن الأندلسية هي أبرز سماته الشعرية ، و نحن هنا في معرض التمثيل لسمات شاعريته أما تحليل فنونه الشعرية فتأتي في موضعها المناسب من هذا البحث .

* الأصداء المشرقية :

أما السمة الثانية في شعر لسان الدين فهي ، دون ريب ، أنه صدى لتقافته العربية ، و اطلاعه على شعر المشاركة ، و يتجلى ذلك واضحا في معارضاته لفحول شعراء المشرق ، ونقل كثير من صورهم ، و معانيهم في قصائده ، و لا تكاد تخلو قصيدة من تلك الأصداء ، إلا أن هذا الحكم ، لا ينبغي أن يفهم منه خلو شعره من الأصالة و الإبداع ، بل هو دليل على أصالة من نوع آخر ، لأنه يجسد تلك الصلة الوثيقة التي تربط بين الأجيال العربية المسلمة التي تعاقبت في مشرق الوطن الإسلامي و مغربه ، و لا نعجب من ذلك لأنها صلة طبيعية بين شعوب أمة واحدة ، بل إن المغربي أو الأندلسي لا يرى غضاضة في أن يتكنى بكنى المشرقي ، أو التلقب بلقبه ، بل المدن نفسها تستعير أسماء حواضر المشرق فغرناطة مثلا هي (دمشق) الأندلسي ، و ابن هانئ هو متبني المغرب والأندلس ، و ابن خفاجة هو صنوبري الأندلس ، و أمثال هذين كثيرون ، و لذلك نرى لسان الدين يتكئ على معاني امرئ القيس و أبي نواس و أبي تمام و المتبني ، أو يعارضهم ، بل و يرى نفسه صنوا لهم ، و يجاريهم في الإعتدا بنفسه ، و شعره .

فمن صور الاعتداد بشاعريته التي يوردها في خواتم قصائده ، فخره ببعض قصائده في مدح السلطان أبي حمو الزياني ملك تلمسان و ذلك في قوله¹ :

فلو زمن ابن الجهم أشرق بشره لما سر (بابن الجهم) والده الجهم
و لو نشر الطائي يوم اجتلائها لجلله من أجل إيثارها هم

فهو يباهي بقصيدته شاعرين عباسيين هما علي بن الجهم و أبو تمام الطائي ، موظفا أساليب الجنس المكتف على طريقتهم، فهذه القصيدة يتجهج لسماعها والد ابن الجهم لو بعث من جديد ، أما أبو تمام فإنه يمتلئ غما لما يرى من حفاوة الممدوح بهذه المدحة و كأنها عروس يوم اجتلائها .
و هو في مقام آخر يعارض كبار الشعراء المشاركة ، من ذلك قوله يعارض أبا تمام² :

¹ - ديوان لسان الدين بن الخطيب : 547/2 .

² - نفسه : 722/2 .

أطلعن في سدف الفروع شموسا ضحك الظلام بها و كان عبوسا
و قصيدة أبيها¹ أولها :

أقشيب ربعهم أراك دريسا و قرى ضيوفك لوعة و رسيسا
كما عارض لامية مهيار الديلمي الغزلية التي مطلعها² :

ذكر العيش بالحمى فبكى له و رأى العذل حظه فاشتتاله
بلامية في الغزل أولها³ :

جز على أجرع الحمى لا محالة و تعرض لرائد الرحالة
و في أحيان كثيرة يضمن قصائده معاني شعراء مشاركة على طريقة التشطير ، كتشطير بيت
امرئ القيس في قوله⁴ :

كان ابن حجر قد عناه بقوله (كجلمود هبخر حطه السيل من عل)
فراه ضمن الشطر بلفظه و معناه

كما فعل ببيت للمتنبى ، في قوله ، من قصيدة يستشفع فيها بأستاذه ابن مرزوق الخطيب⁵
ألمت بالعتب لم أحذر مواعه (أنا الغريق فما خوفي من البكل)
و أشباه هذين البيتين كثيرة .

و قد يكتفي بالمعنى دون اللفظ كصنيعه بأحد المعاني الصوفية لابن الفارض ، حيث لا يزيد
على تقديم لفظ على آخر ، محافظا على الوزن و المعنى و ذلك في قوله ، من قصيدة تعود إلى زمن
الحدائثة الذي حاول فيه لسان الدين أن يشارك في أغلب الفنون الشعرية التي ذاعت في عصره ،
و منها فن التصوف ، و البيت هو قوله⁶ :

يا ملبسي ثوب السقام و تاركي بين الأوام و بين حر ضلوعي
و أصل هذا البيت في قصيدة ابن الفارض هو قوله⁷ :

يا مانعي طيب المنام و ما نحي ثوب السقام به و وجدي المتلف

1 - إيليا اخاوي : شرح ديوان أبي تمام ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1981 ، ص 319 .

2 - ديوان مهيار الديلمي : دار الكتب المصرية ط1 ، ج3 ، ص 161 .

3 - ديوان لسان الدين : 526/2 .

4 - ديوان لسان الدين : 515/2 : و في بيت امرئ القيس انظر : ديوان امرئ القيس تحقيق حنا الفاخوري ، ط1 ، 1989 ، دار الجليل بيروت
ص 45 .

5 - ديوان لسان الدين : 520/2 . و في بيت المتنبى انظر : ديوان المتنبى ، دار الجليل ، ص 336 .

6 - ديوان لسان الدين : 653/2 .

7 - و في بيت ابن الفارض انظر : ديوان ابن الفارض ، شرح كرم البستاني ، دار بيروت للطباعة و النشر 1983 ، ص 151 .

و رغم أن ابن الخطيب حاول الاستفادة من براعة الترصيع المتأتي من تناغم الفاصلتين المختومتين بالميم المكسورة و هما "ثوب السقام" و "بين الأوام" فقد ظل المعنى يفتقر إلى الحيوية و الطرافة لحرص ابن الخطيب على مجازاة ابن الفارض في فنه الذي برع فيه و هو الغلو في التصنع للبدع ، جريا على الأسلوب أو الطريقة الشعرية التي آل إليها نمط القصيدة في القرن السابع الهجري .
و قد يعتمد ابن الخطيب إلى التوزيع في الصورة الشعرية ، و الإيقاع معا ، ففي مدحه لابن مرزوق الخطيب ، بمناسبة شرحه لكتاب "الشفاء" للقاضي عياض يقول :¹

يا من له الفخر على غيره و الشهب تخفى عند إشراق يوح

فقد ضمن هذا البيت معنى بيت النابغة المشهور في مدح النجمان بن المنذر :

فإنك شمس و الملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب²

إلا أن لسان الدين نوّع في صورة التشبيه ، فعوض المعنى في صورة عقلية قائمة على افتراض دعوى ثم البرهان على صدقها معتمدا على نموذج التشبيه الضمني ، فمن حق الممدوح أن يتيه على غيره من العلماء ، إلى درجة لا يعدون ، فيها شيئا مذكورا إلى جانبه ، و أية صدق ذلك أن النجوم لا يبقاء لها عند طلوع الشمس ، و الفرق بين الصورتين أن المشبه به في بيت النابغة ورد في لفظ مألوف و هو الشمس أما المستعار للممدوح في بيت ابن الخطيب فهو لفظ غريب مستكره ، و ذلك قوله "يوح" الذي هو من معاني الشمس ، إلا أنه كان ، مدفوعا إليه بحكم قافية الحاء .

و ظاهرة التضمين بارزة و مطردة في شعر ابن الخطيب ، و لا سيما في بداية تجربته الشعرية أو في مطولاته التي يضطر فيها أن يستعين بذاكرته الشعرية ، و هنا يقودنا البحث إلى الإشارة إلى سمة أخرى من سمات شاعرية ابن الخطيب و هي ظاهرة التطويل في القصائد أو ما يمكن أن نصلح عليه بالمعيار الكمي .

* المعيار الكمي لشعر ابن الخطيب : (الإطالة)

يعتد ابن الخطيب بهذا المعيار كثيرا و يعده دليلا على قوة الشاعرية يقول في "نفاضة الجراب" عند ذكر قصيدته الطويلة التي أنشدها الغني بالله بعد استعادة دولته للمرة الثانية "و نظمت القصيدة المعدة لإنشاده إياها ... فتعددت منها الأغراض ، و أخذها الطول و تفننت منها "المقاصد"³ و هي القصيدة التي سماها "المنح الغريب في الفتح القريب" و عدد أبياتها مائتان ، و مطلعها⁴ :

¹ - ديوان لسان الدين بن الخطيب : 239/2 .

² - ديوان النابغة الديباني : تحقيق و شرح ، كرم البستان ، دار بيروت للطباعة و النشر 1982 ، ص 18 .

³ - ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، تحقيق ، أحمد مختار العيادي ، ص 287 .

⁴ - ديوان لسان الدين بن الخطيب : 495/2 .

الحق يعلو و الأباطل تسفل و الله عن أحكامه لا يسأل

و يمكن اعتبار هذه القصيدة منظومة تاريخية عرض فيها الشاعر لجزء من تاريخ البيت النصرى ، فجسد صور الصراع بين أفراد هذا البيت و لا سيما ما يتعلق بخيانة إسماعيل لأخيه الغنى بالله ثم خروج هذا الأخير إلى العدو مستصرخا أبا سالم المريني ، و بهذه المناسبة أورد لسان الدين طرفا من تاريخ الدولة المرينية في المغرب . و بهذا تتحول هذه القصيدة إلى عمل ملحى ، يستدعي الاستطراد ، و الوقوف على تفاصيل الوقائع التاريخية ، و في هذا (العمل الشعري) يمتزج ابن الخطيب المؤرخ ، بابن الخطيب السياسي ، وابن الخطيب الشاعر ، و ربما طغى جهد السياسي البار على عبقرية الفنان . و ذلك لأن الشاعر يمثل الجهات الرسمية في المجتمع ، و قد ترسخت في مملكة غرناطة تقاليد لا تحيد عنها الأسرة النصرية كاحتفالها بالأعياد الإسلامية و المناسبات الدينية ، و بعض التقاليد الاجتماعية الأندلسية ، و كان لسان الدين ، باعتباره شاعر البلاط أول الشعراء استجابة لتلك المناسبات إذ عليه أن (يعد) قصيدة في كل مناسبة من ذلك، القوائد "المولديات" التي تحتل جزءا معتبرا في ديوان ابن الخطيب و في هذه المولديات يستعرض الشاعر جانبا من سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم : فيصف جانبا من شمائله و يورد بعض معجزاته التي أيده الله بها ضد المشركين مع الإشادة بما آتاه الله فيها من نصر مؤزر ، ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك من التاريخ إلى الحاضر ، و يربط نسب النصر بين بأحد الصحابة الأنصاريين و هو سعد بن عبادة و ينوه بما عرف عن الأنصار من تصديقهم للرسول صلى الله عليه و سلم ، و إيوائهم له بعد أن تخلى عنه قومه . ثم يصف صدقهم في الولاء لله ، و رسوله ، و جهاده في سبيل الإسلام ، و يجعل ذلك كله مناسبة للإشادة بفضائل بني الأحمر و حمايتهم لبيضة الإسلام و يخص الممدوح بكل صفات المجد و العظمة . و هذه هي الصورة العامة للمولدية عند ابن الخطيب ، و نظرا لما تجمع بينه من موضوعات فهي تميل إلى الطول و التفصيل .

و قصائد المدائح النبوية بصفة عامة ، في الشعر العربي ، تعرف بكثرة عدد أبياتها لأنها تستن بقصيدة "البردة" التي سن فيها البوصري سنة التطويل ، إذ يبلغ عدد أبياتها مائة و اثنين و ثمانين بيتا ، و من المولديات التي يطول عدد أبياتها في شعر ابن الخطيب قصيدية الميلادية لعام (764هـ) ، و هي حائية أبياتها (96) بيتا ، و قصيدته التي أرسلها إلى سلطانه و هو منتبذ بفاس و هي دالية ذات أربعة و ثمانين بيتا .

إلا أن الإطالة هي السمة البارزة في قصائد الشاعر لا في المدائح النبوية فحسب ، بل في أغلب الأغراض كالرثاء و الاستصراخ و المدح فالرائية التي رثى فيها السلطان أبا سالم المريني يبلغ عدد أبياتها خمسة و تسعين بيتا ، أما القصيدة التي استصرخ فيها السلطان أبا حمو الزياني ملك

تلمسان فأبياتها مائة و اثنا عشر بيتا ، و في مدح أبي سالم و تهنئته بفتح تلمسان ، أشد قصيدته النونية ذات الأبيات المائة و الثلاثة ، وهكذا نرى أن التطويل في شعر لسان الدين لا يخص جانبا من شعره ، بل يشمل أغلب الديوان ، مما يدل على حرصه على ذلك ، و ولعه به لأنه مجلى مقدرته اللغوية و ثقافته التاريخية و العلمية ، و الصوفية ، و لأنه علامة الشاعر الصانع .

و ابن الخطيب ليس بدعا في هذا الأمر ، فقد رأينا أنه يسير على طريق مرسومة سنها البوصري قبله ، و هو كذلك يجاري شعراء عصره الذين أصبحوا يتبارون في ميدان البلاغة ، كل يريد أن يثبت قدرته على تطويع اللغة ، و إبداع المعاني و الإتيان بضروب متنوعة منها ، مما يستدعي اتساعا في القول ، و تفصيلا فيه ، و ارتكاب كل صعب و ذلول .

”و قد سئل أبو عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ فقال : نعم لسمع منها ، قيل :

فهل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها ، و قال الخليل أحمد : و تستحب الإطالة عند الإعذار و الإنذار ، و الترهيب ، و الترغيب ، و الإصلاح بين القبائل كما فعل زهير و الحارث بن حلزة و من شاكلهما“¹ فالطول يناسب الموضوعات الملحمية و السياسية التي تحتاج إلى بسط المسائل و الاحتجاج لها أو عليها ، و هذا ما نلمس في القصائد المدحية ذات المعاني السياسية أو القصائد العيدية التي يتعرض فيها لسان الدين للمعاني الجهادية فيصف الجيوش و صفا مفصلا ، و يعلل أسباب النصر أو الهزيمة ، و يعود بذاكرته إلى الماضي الإسلامي المجيد فيستوحي صور البطولات الإسلامية التي سطرها الرسول صلى الله عليه و سلم و صحابته ، ثم بعض مشاهد الاحتفال بالعيد ، و ما يتميز به من أبهة السلطان و حاشيته ، و احتشاد المسلمين وراء موكبه و غيرها من المشاهد و الصور ، بحيث تتحول القصيدة إلى لوحة زاهية الألوان طافحة بالحياة و الحركة تجسد التاريخ تجسيدا حيا .

فالإطالة في شعر لسان الدين ترد في القصائد (الرسمية) كالمولديات و العيديات ، و المدائح ، و هي أغلب قصائد الديوان ، و هي ظاهرة تعبر عن سعة معارفه في التاريخ و السياسة خاصة ، كما أنها تنبئ عن شاعر بارع في الاستعانة بضروب البديع .

*البديهة و الارتجال :

و مما يلفت انتباه الدارس لشعر ابن الخطيب كثرة المقطعات أو النثف التي يقولها على البديهة و في مواقف ارتجالية ، و النثفة ”حدها القدماء بثلاثة أبيات أو بيتين يورد فيها الشاعر خاطرا أورده أو شعورا حادا في لحظة من اللحظات ، أو معنى جال في نفسه فاقترضه دون أن يتوسع فيه“² .

¹ - ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، تحقيق مجي الدين عبد الحميد ، ط2 1963 ، مطبعة السعادة - ج 1 ، ص 186

² - د. نور الدين السد : الشعرية العربية ، دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية في العصر العباسي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1995

و في حياة ابن الخطيب ما يفسر هذه الظاهرة ، إذ عرفت حياته بكثرة تقلباتها ، و تعدد مواقفها ، و تعدد الوظائف ، و المهمات و عاش أيام المجد و السلطة ، و أيام الفزع و التشرذ ، و في شخصيته ميل إلى التصوف و الاعتبار ، و في كل موقف أو حادث جل أو صغر ، تجود قريحته بالبيت اليتيم أو البيتين أو الأبيات القليلة التي تناسب ذلك الموقف ، و لسان الدين يمزح بين فنه وحياته فيتحول الفن إلى جزء من كيانه لا يفارقه لحظة ففي كل مشهد يرى معنى شعريا ، و من هنا كثرت هذه القطع القصيرة في ديوانه .

فمن مواقف الاعتبار التي يرتجل فيها لسان الدين ما رواه المقرئ عن المقرئ الجيد أستاذ الشاعر أنه كان مع لسان الدين في جامع البيرة من الأندلس إذ مريهما الاعتبار في تلك الديار ، فأنشد ابن الخطيب ارتجالاً¹ :

أقمنا برهة ثم ارتحلنا كذاك الدهر حال بعد حال
و هي ثلاثة أبيات .

و من مواقف الاعتبار كذلك ، ما قاله في دار "عبو" في مدينة "أنفا" عند إقامته بالمغرب²

قد مررنا بدار عبو الوالي و هي ثكلى تشكو صروف الليالي
أقصدت ربها الحوادث لما رشقته بصائبات زوال
كان بالأمس واليا مستطيلا و هو اليوم ما لـه من والي

و من المواقف التي يقول فيها على البديهة ما يكون مجاملة لصديق ، مثلما وصف (باب الرخاء) بمدينة سلا بالمغرب عند تعذر فتحه ، مخاطبا الزقندري أبا محمد ، قاضي مراكش³ :

يا محلا لختي و انتخائي لم يبيح لي الخروج باب الرخاء
دل أن الرخاء مغتبط بي فبحق تبجحي و انتخائي

و منها حالات طارئة ، لا هية ، تستدعي أبياتا على البديهة مثل مجالس الطرب . قال يصف روضة و هو في مجلس غناء ، و غناها في الحين منشد مجيد⁴ :

أدرها فوجه الصبح قد كان أن يبدو
و في كل غصن ساجع غرد يشدو
و خذها على أس الرياض و ورده

فهذا عذار للرياض و ذا خـد

¹ - المقرئ : نفع الطيب ، 166/5 و ديوان لسان الدين ، 508/2 و فيه : (حالا بعد حال) .

² - ديوان لسان الدين : 509/2 ، 510 .

³ - المصدر نفسه : 97/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 281/2 .

و هكذا في كل مناسبة عابرة يشد الشاعر أبياتا قليلة مرتجلا ، و تتميز تلك القطع بضالة المعنى ، و احتفالها بصور البديع ، و التكلف مما يبعد بها عن مجال الشعر ، و يحلها في مجال النظم في الغالب .

* الأثر القرآني :

لا يمكن للدارس لشعر لسان الدين إلا أن يؤخذ بقوة التأثير القرآني فيه ، لا أعني أثره من حيث تكوينه الفكري و الاعتقادي فذلك أمر لا مرأى فيه ، و لنا إليه عودة و تفصيل في المكان المناسب له من هذا البحث ، و لكن من حيث كثرة التضمنين و الاقتباس من آياته الكريمة فلا تكاد تخلو قصيدة مطولة واحدة من قصائد الشاعر ، و ما أكثرها ! من تضمنين معنى آية كريمة ، مما يؤكد انبهار الشاعر بروعة الأسلوب القرآني و ذوبان شخصيته الفكرية في روحه و معانيه و قوة نظمه و لا غرابة في ذلك لأن أول ما أخذ الشاعر من معرفة كان هو القرآن الكريم حفظا ، و تجويدا ، و هو يعد الأساس في التكوين البياني للشاعر ، و لا نريد أن ندرس في هذا البحث لغة الشاعر ذات الإحياءات القرآنية و الإسلامية عموما و لكننا نشير إلى طابع عام يغلب على ديوان الشاعر كما تكلمنا عن السمات و الطوابع العامة لشاعرية لسان الدين .

يعرف الرازي الاقتباس من القرآن الكريم بقوله ” هو أن تدرج كلمة من القرآن أو آية منه في الكلام تزيينا لنظامه و تفخيما لشأنه“¹ و الاقتباس عند الشاعر يكون بالكلمة الواحدة من القرآن الكريم أو الآية كاملة ، أو يضمن معناها دون لفظها أو يسوق كلمات الآية على نظام الوزن المراد في القصيدة ، ملمحا إلى معنى الآية ، و في بعض الأحيان يؤول معنى الآية بما يوافق غرضه ، و إن كان يخالف معناها في القرآن الكريم ، و هذا قليل ، ثم إنه يلجأ إلى الاقتباس و التضمنين في مختلف الأغراض لا يخصص واحدا دون غيره فنجده يفعل ذلك في المدح و الهجاء و التهكم ، و الغزل ، و المجون ! و نحن نعرض نماذج من ذلك كله .

فمن نماذج اقتباسه لكلمة واحدة من الآية قوله في مدح أبي الحجاج²

و غدا بأسباب العلا متمسكا فيها فحفظ الله ليس يؤوده

فهو يشير إلى قوله تعالى ” و لا يؤوده حفظهما و هو العلي العظيم“ (البقرة/255) مكتفيا

بالفعل ”يؤوده“ .

و مما جاء فيه بآية كاملة قوله في وصف جبل ” زرهون “ من مكناسة الزيتون بالمغرب³

¹ - فخر الدين الرازي : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تحقيق ، د . إبراهيم السامرائي و د . محمد بركات حمدي أبو علي ، دار الفكر للنشر و

الترزيق ، عمان ، 1985 ، ص 147 .

² - ديوان لسان الدين : 291/1 .

³ - نفسه : 597/2 .

و كأنما هو بربري وافد في لوحه "و التين و الزيتون" يصف هذا الجبل بكثرة أشجار التين و الزيتون به ، و قد أشار المحقق في الهامش إلى أن وجه التشبيه أن البربري يحرص على لوحه و لا تفارقه فكذلك لا تفارق أشجار التين و الزيتون زرهون . و قد اقتبس الشاعر في البيت الآية الأولى من سورة التين .

و قد يورد بعض آية دون أن يغير في نظمها على طريقة الاكتفاء ، من ذلك قوله في توديع صديقه ابن خلدون عند رحيله من الأندلس!

تحيا النفوس إذا بعثت تحية و إذا عزمت اقرأ "و من أحيائها"
يشير إلى قوله تعالى " ... و من أحيائها فكأنما أحيانا الناس جميعا" (المائدة / 03) إلا أنه اكتفى بقوله تعالى "و من أحيائها" يطلب من صديقه أن يتذكر الآية الكريمة إذا عزم على الرحيل ، لكي يتراجع عن ذلك ، لأن فيه حياة الشاعر ، أما الرحيل فهو موته و هي مجاملة على طريقة المبالغة من الشاعر لصديقه .

و من ذلك أيضا قوله في مدح أبي الحجاج²
و نادى لسان الفتح في عرصاتهم "كذلك مكننا ليوسف في الأرض"
فقد أورد بعضا من آية سورة يوسف : و هي قوله تعالى "و قال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا و كذلك مكننا ليوسف في الأرض و لنعمه من تلويل الأحاديث و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون" (يوسف / 21) .

و مما يأتي فيه بالآية على غير نظمها ، محافظا على معناها ، قوله من قصيدة إخوانية ، في مداعبة صديق له ، من كتاب المغرب ، في أثر مسامرة لهما!³

يمينا بنور الفجر يوما إذا بدا و بالنجم في جو السماء إذا هوى
ففي هذا القسم ، إشارة إلى آية (النجم) التي يقسم فيها الله تعالى ، بالنجم "إذا غرب أو انتثر يوم القيامة ، أو النجم الذي يرجم به إذا هوى . إذا انقض "،⁴ على أنه آية عظيمة من آيات الله ، و قد أقسم الشاعر هذا القسم تعظيما لشأن ذلك الكاتب بأنه آية في النظم و النثر ، و نلاحظ أن الشاعر لم يورد ألفاظ الآية متصلة ، و إنما فصل بينها بأجنبي ، و لفظ الآية "و النجم إذا هوى" (النجم / 1).

¹ - نفسه : 759/2 .

² - المصدر السابق : 637/2 .

³ - ديوان لسان الدين : 758/2 .

⁴ - أبو القاسم جار الله الزمخشري : الكشف عن حقائق التزويل و عيون الأفاويل في وجوه التأويل دار بيروت للمعرفة ، بيروت ، لبنان ، ج 4 ،

وابن الخطيب قد يلمح إلى الآية دون أن يورد لفظا منها ، ونماذج هذا النوع من التضمين كثيرة منها قوله في تهنئة أبي سالم المريني بفتح تلمسان معتبرا ذلك فتحا في الإسلام يعدل ما فتح الله به على رسوله يوم الحديبية حيث ، بايع المسلمون الرسول صلى الله عليه و سلم على الجهاد في سبيل الله مخلصين ، قوله في ذلك :¹

لقد كست الإسلام بيعتك الرضا و كان على أهليه بيعة الرضوان

فهو ينظر إلى قوله تعالى : ”لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم و أثابهم فتحا قريبا “ (الفتح/18) .

و هو في اقتباساته يستضيء بإيحاءات الآية أو يتخذ منها دليلا على ما يذهب إليه من آراء ، و ما يفقه من مواقف سياسية كما هو واضح في البيت الآنف الذكر ، إلا أنه ، أحيانا يؤول الآية ، و يبتعد بها عن الروح القرآني و هداياته و لا سيما في قصائد اللهو بحيث ينحرف عن قداسة الآية و يذهب بمعناها إلى غرض لا يتفق مع حرمتها ، و ذلك في فترة لهوه و إعجابه بمقامه و مكانته السياسية حيث كانت تعقد مجالس الأئس و الطرب فيستدعي ذلك قول الشعر ، فيلقى بالبيت و البيتين فيهما إشارة قرآنية تبجحا و إظهارا للبراعة ، يصدر بيتين بقوله : ”و قلت في التضمين على طريقة المشاركة“² .

أنا كافر و سواي فيه بعاذل لا يستبين الصدق في آياته
و مصدق بصحيفة الخد الذي قد أعجب الكفار حسن نباته

فقد أخذ ذلك من قوله تعالى ”كمثل غيث أعجب الكفار نباته“ الآية (الحديد /20) و ذلك مثل ضربه القرآن لزهرة الحياة الدنيا و بهجتها و اغترار الناس بها مع أنها إلى فناء و زوال ، و الشاعر يصف خد من يحب بالحسن و يشبهه في نضرتة بطراوة النبات ، و ذلك خروج بالآية عن الجو الملائم لها و لكن المبالغة في طلب البديع هي التي حملت الشاعر على ذلك . إلا أن هذا النوع من التضمين قليل في شعره كما أشرنا .

و قد سبقت الإشارة إلى أن لسان ^{الدين} يُكثر من التضمين لا في القضايا الدينية كالأغراض الصوفية و الزهدية و الجهادية ، وحدها ، و إنما يفعل ذلك في الأغراض التي يطرقها جميعا ، بما فيها الأشعار اللاهية كالغزل الماجن ، و وصف الخمر ، و مجالس الطرب على درجات من الإجادة ، أو الإسفاف و التكلف و ذلك يعكس جانبيين متناقضين من شخصية لسان الدين : يعكس صورة الشاعر المؤمن

¹ - ديوان لسان الدين : 179/1 .

² - المصدر نفسه : 588/2 .

برسالة عظيمة ، حضارية مقدسة ، و صورة الشاعر الذي ينحرف مع التيار اللاهني في حضارة
توشك على الذبول و الأفول إنه تناقض الأندلس في القرن الثامن الهجري .

* أثر الحديث الشريف :

و يأتي الحديث الشريف ، بعد القرآن الكريم ، مظهرًا ثانيًا من مظاهر ثقافة ابن الخطيب
الإسلامية ، فهو يضمن أشعاره طائفة معتبرة من أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم ، و كثرة هذه
التضمينات و الاقتباسات في قصائده يكشف عن ظاهرة التكلف للأنواع البديعية و التبجح بتنوع الثقافة
و سعتها ، من جهة كما يكشف عن التكوين الإسلامي المتين لشخصية ابن الخطيب الأدبية و العلمية ،
من جهة أخرى .

و هو يورد هذه التضمينات للبرهنة و الاستشهاد كما يفعل الفقيه ، لأن لسان الدين في بعض
قصائده ، و لا سيما المطولات يقف موقف السياسي أو القاضي أو الفقيه حيث يغلب عليه طبع العالم
فيعتمد منهج العالم في الدقة و البرهنة و الاحتجاج ، مثلما يستهل قصيدته التي وجهها إلى الغني بالله
حين عودته من المغرب لاستعادة دولته بالأندلس ، حيث يقول ضمن ذلك الاستهلال¹ .

و المستعد لما يؤمل ظافر و كفاك شاهد "قيدوا و توكلوا"

فهو يشير إلى الحديث الشريف " اعقلها و توكل² " الذي يأمر المسلم بتقديم الأسباب ،
و التوكل على الله تعالى ، الذي يتولى أمر النتائج ، و ينصح الغني بالله بالاستعداد و التوكل على الله
تعالى مع عقد الآمال عليه لأن بذلك يتحقق الظفر ، و هو استعادة الملك السليب ، وهذا صنيع الواعظ
و الفقيه ، في عرضه و أسلوبه إذ تدور على لسانه ألفاظ (كالشاهد) و نحوها .

و قد يومي إلى معنى الحديث دون تصريح بلفظه ، و دون أن يكون واردا على سبيل
الاحتجاج الفقهي ، المباشر إنما يكون رمزا و تلويحا مثلما ورد في بعض قصائده الصوفية التي
أكثر من الاستشهاد بها في كتابه " روضة التعريف بالحب الشريف " حيث يصور أنواع المريدين
و السالكين فبعضهم ، و هو الدؤوب ، على مقربة من الوصول ، أما الذي يجعل (عمله) متقطعا فهو
منبت عن الجادة ، و أولى به أن يتيه ، و هيهات أن يصل و ذلك في قوله³ :

سلني عن المنبت حين تقطعت أسبابه تيتها و لا من يسأل

¹ - ديوان لسان الدين : 495/2 .

² - الحديث في إحياء علوم الدين للغزالي ، الجليل بيروت ، المجلد الخامس ، ص 161 .

³ - ديوان لسان الدين بن الخطيب : 511/2 .

و فيه يضمن معنى الحديث الشريف الذي ورد فيه "إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى" ¹.

و لا يتوقف التجاؤه إلى تضمين الحديث الشريف عند الأغراض الإسلامية الصوفية ،
و الزهدية و الجهادية ، و إنما يجعل للأغراض التقليدية الأخرى نصيبا و اقرا من ذلك ، و تقتصر
على مثالين من شعره الغزلي :

يقول من قطعة ذات بيتين ²:

ما فيك لي جدوى و لا أرعوي "شح مطاع و هوى متبع"

و هو معنى من معاني الحب الذي يملك على المحب أقطار نفسه ، فلا يملك لنفسه أمرا ، و لا
ينزجر عن اتباع هواه ، و قد تضمن حديثا شريفا هو قول الرسول صلى الله عليه و سلم "ثلاث
مهلكات : شح مطاع و هوى متبع ، و إعجاب كل ذي رأي برأيه" ³

و الجدير بالملاحظة أن معنى البيت يكاد يخرج عن غرض الغزل ليدخل في معنى الزهد ،
و الوعظ ، فكان الشاعر يلوم نفسه على اتباعه أمر نفسه و هواه ، لأن الحديث الشريف وارد في مقام
التحذير من أمور مهلكات تؤدي بصاحبها في المعاطب .

أما المثال الثاني فهو قوله من الغزل كذلك ⁴:

ظللتها من الجفون سيوف "جنة الخلد تحت ظل السيوف"

و هو صورة شعرية تقليدية إذ يشبه الشاعر العيون بالسيوف و أجفان العيون بأعمدة السيوف ،
فكان فعل هذه و تلك هو القتل ، و اقتبس الشاعر المعنى من الحديث الشريف : "الجنة تحت ظلال
السيوف" ⁵ إلا أن توظيف الشاعر لهذا الحديث يختلف عن توظيفه الحديث السابق ، إذ نقل الحديث من
معنى الاستشهاد في سبيل الله إلى معنى ما تؤثره العيون في نفس المحب ، على سبيل تجريد لفظ
الحديث الشريف من معناه أو تأويله تأويلا غير مستساغ دينيا ، و هذا من تضمينات لسان الدين التي
لم يلتزم فيها توقيير النصوص ، و التوقر على جانب الأدب مع السنة النبوية الشريفة .

و لكن مثلما سبقت الإشارة إنما دفع الشاعر إلى ذلك بما عرف عنه من تتبع أنواع البديع ،
و التباهي بوفرة محصوله من الثقافة الإسلامية خاصة ، على ما جرت به ، طبيعة الشعر و وظيفته

¹ - انظر الهامش رقم (209) من الجزء الثاني من الديوان ، ص : 511 .

² - ديوان لسان الدين : 657/2 .

³ - ابن تيمية : علم الحديث ، تحقيق موسى محمد علي ، ط3 ، دار الفكر الجزائر 1993 ، ص 455 .

⁴ - ديوان لسان الدين : 681/2 .

⁵ - صحيح البخاري : أبي عبد الله محمد بن إسماعيل ، وضع فهرسه د . محمد ديب البغا ، كتاب الجهاد رقم 2663 ، المؤسسة الوطنية للفنون

المطبعة الجزائر ، 1992 ، ج3 ، ص 1037 .

في عصره ، و لو كان ذلك على حساب حرمة النصوص الإسلامية ، على أن هذا المنحى يكاد يكون قصرا على شعره الذي يرجع إلى فترة الشباب ، و لذلك نقرأ تقديما لإحدى مقطوعاته الغزلية يعتذر فيه عن هذا الصنيع و يعود به إلى سن الفتوة ، و يتبرأ منه في اكتهاله و يتوب إلى الله تعالى منه ، و ذلك عند تصديره القطعة الشعرية الفاصلة التي منها أخذنا البيت السابق ، بقوله : ” و قلت في التغزل ، و ما أبعد عني في الوقت و الحمد لله¹ و هو لا يفعل ذلك في كل قصيدة غزلية و هي كثيرة مما يدل على أنه يعتذر عن هذا التضمين الذي يسيء إلى قداسة النص الديني .

* أثر الثقافة الأدبية (تضمين الأمثال) :

و من مظاهر التضمين ، بالإضافة إلى الاقتباس من القرآن الكريم و الحديث الشريف : التصنع للأمثال العربية ، فلشعره منها حظ وافر أيضا و هو إما يقتبس المثل بلفظه و معناه أو يومئ إليه دون إيراد نصه ، و ذلك بمبالغة في المدح حتى أنه يورد مثلين اثنين في قصيدة مدحية ذات أبيات معدودة ، مدح بها ”محمد بن قيس الثغري“ كاتب السلطان أبي حمو الزباني ملك تلمسان يقول في مطلع هذه المدحية²:

قلت الوغى ليس من رأيي و لا عملي لا ناقة لي في هذا و لا جمل
و بعد بيتين منه يعود لقوله³
قالت ألسنت شهاب الدين تضرمها حاشا العلا أن يقال ، استتوق الجملة

فقد ضمن الشاعر مثلين من أمثال العرب السائرة لأنه توجه بهذه القصيدة إلى مدح كاتب أديب فقدم بين يدي مدحه بضاعة نافقة في سوق هذا الأديب ، إنها بضاعة الأدب ، و في البيت الأول يتبرأ الشاعر من تدبير شأن الحرب ، لأنه ممن تصدروا لشأن القلم ، أما الحروب و بأساؤها فهي موكلة إلى أمثال الممدوح ، و ذلك على سبيل المبالغة في المدح .

و في مواضع أخرى يستدعي صورة فيها كثير من الهول ، و ذلك حين يبلغ الأمر من الخطورة مبلغه ، كأن يحيط العدو بأرض المسلمين و يتأهب للإتيان عليها من أقطارها ، ثم يجوس خلال الديار سلبا و فسادا ، وهي صورة يعرضها الشاعر في مقام الاستغاثة حين ينادي مسلمي المغرب لنجدة الأندلس بقوله⁴ :

أ إخواننا لا تتسوا الفضل و العظفا فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفأ

¹ - ديوان لسان الدين : 681/2 .

² - المصدر السابق : 517/2 .

³ - نفسه : 518/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 677/2 .

و إذ بلغ الماء الزبي فتداركوا فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا

فقد استدعى الشاعر هنا المثل العربي القائل " قد بلغ السيل الزبي " ¹ و يضرب لتفاقم الأمر و تجاوز الحد المعقول ، و هو يناسب مقام الاستغاثة زيادة في الإهابة بإخوة الدين أن يسارعوا لتدارك أرض الإسلام .

و قد يستمد مادته الشعرية من الأمثال العربية عندما يعرض للهجاء ، فحين يهجو "ابن كماشة" أحد وزراء الغني بالله يجعله مثلاً في الغدر و الشؤم ، فإذا كان الملك ناقه ، فهو لا يبد "قدار" الذي عقرها فشقيت به ثمود .

إنما الملك ناقه و هو و الله إذا لم يعاجلوه قدار ²

و واضح أن الشاعر يشير إلى المثل السائر في الشقاوة و الشؤم و هو "قدار أحمر ثمود ، و تقول له العرب : أحمر عاد" ³ ،
* أثر الثقافة العلمية :

و مما يلفت انتباه الدارس ، تداخل الجوانب العلمية لشخصية ابن الخطيب مع شاعريته ، ففي شعره صدى واضح لتلك الجوانب ، حتى لتتحول تصائده في بعض الأحيان إلى معرض تمتزج فيه أنماط من (صناعته) ، و ذلك لكثرة ما يرد في شعره من مصطلحات العلوم التي حصلها و ألف فيها فحن نقف على حشد وافر منها : كمصطلحات علم الفلك و الفقه و أصوله و الحديث و علومه ، و المنطق و الفلسفة ، و التصوف ، و اللغة و علومها كالنحو و الصرف و البلاغة ، و هي في الواقع مظهر من مظاهر تصنعه ، و تكلفه لأنها لا ترد عفوا و تلقائية ، و إنما يقصد الشاعر إليها قصدا ، يجعل جو القصيدة ثقيلاً على النفس ، و ذلك قصد إظهار براعته و سعة اطلاعه خاصة عندما يعرض بضاعته التاريخية فهو يكثر من ارتياد أسماء الأماكن و الأعلام التاريخية ، عن طريق التورية بأسماء الأماكن و الأعلام ، و الكتب .

فمن مصطلحات أصول الفقه ، و الحديث ، و الفقه ، نجد الرواية و الإسناد و الصحيح ، و الحسن ، و السنة ، و الترجيح ، و الاجتهاد ، و التقيد ، و الإطلاق ، و الإباحة ، و الفرض ، و الواجب و الحظ ، و التعصيب و الكتاب الكريم ، و الشرط ، و الترتيب ، و الفور ، و غيرها ...
يقول من قصيدة ، إخوانية مخاطباً أستاذه أبا الحسن بن الجياب ⁴ :

¹ - أبو فيد مؤرخ السدوسي : كتاب الأمثال ، تحقيق عن النواب ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1982 ، ص 40 .

² - لسان الدين : 437/1 .

³ - أبو فيد مؤرخ السدوسي : مرجع سابق ، ص 44 .

⁴ - ديوان لسان الدين : 111/1 .

خيرتني بين المقام أو السرى و الأمر يفصح بالمسير و يعرب
فترجح العزم الحثيث و ساقط حكم الإباحة ما استبان الأوجب

فهو يعبر عن اعتذاره لشيخه في الرحيل لأن الحال يقتضيه ، مستغلا ثقافته الفقهية إذ يستعمل الترجيح ، و الحكم و الإباحة .

و من مصطلحات الحديث ، قوله في تهنئة السلطان أبي حمو¹ :

و رويت غر مآثر أسندتها لعلاك بين صحائح و حسان

و من مصطلحات أصول الفقه قوله في مدح أبي زيان أحد السلاطين المرينيين² :

و دونكها من ذائع الحمد مخلص له فيك تقييد يروق و إطلاق .

حيث يذكر مصطلحي : التقييد و الإطلاق ، وهما من مصطلحات الأصوليين .

و من مصطلحات الفلسفة و المنطق التي يكثر ورودها في شعره : الجوهر الفرد ، و الحس ،

و المعاني الأولية ، و الوجوب ، و الإمكان و القضايا ، و المقدمة ، و المركب ، غيرها ...

ففي "الجوهر الفرد" الذي يعبر به عن الله تعالى لأنه الذات المقدسة المتصفة بالوحدانية ،

غير القابلة للتجزؤ و التعدد ، في هذا المصطلح يقول من قصيدة ميلادية كتبها بالمغرب أيام انتبأه

هناك مع سلطانه الغني بالله³ :

تتاثر في إثر الهمول فريده فله عينا من رأى الجوهر الفردا

وذلك في وصف الدموع التي ينثرها المحب لدى رحلة الحبيب ، ثم تعجب مما (يرى) المحب

بعين بصيرته و ما يلوح له من أثر (المشاهدة) التي يكشف بها . و هو معنى صوفي شائع بين

الشعراء الصوفيين إلا أن لسان الدين يوري عنه باستخدام المصطلحات الفلسفية .

و في مطولته المسماة بالمنح الغريب ، في الفتح القريب ، التي يمدح فيها الغني بالله ، يشير

إلى ما أصاب الأندلس من فتنة انقلبت معها الموازين و جهلت البديهيات ، و كاد الحس أن يتعطل

متصنعا لمصطلحات : الأعيان ، و الحس ، و الأوليات ، و هي البديهيات ، يقول في ذلك⁴ :

قد كادت الأعيان يكذب حسها و الأوليات السوابق تجهل

أما المصطلحات الصوفية ، فهي لا تقتصر على قصائده الصوفية و المولديات التي سنخصصها

بالدراسة في الفصل الآتي و إنما تقع عليها في مختلف القصائد ذات الأغراض المتنوعة ، و لعل ذلك

راجع إلى تزعمه الصوفية التي تتجسد على الأقل في مصنفه المعروف ، (روضة التعريف بالحس

¹ - المصدر نفسه : 607/2 .

² - المصدر نفسه : 701/2 .

³ - المصدر السابق : 347/1 .

⁴ - ديوان ابن الخطيب : 496/2 .

الشريف) أو لولعه بتوظيف تلك المصطلحات مجازة للعصر الذي كثرت فيه نزعات التصوف و مدارسه ، أو مجازة لكبار شعراء المشرق و لا سيما المتبني الذي يتصنع لعبارات الصوفية حتى عدّه أحد الدارسين مصدرا لكثير من شعراء التصوف الذين أتوا بعده¹ و من تلك المصطلحات و العبارات : القبض و البسط ، و التجلي و الشهود ، و الحضرة ، و القطب ، و الغوث ، و غيرها² . يقول في مخاطبة أحمد بن يوسف "حفيد الولي الصالح" سيدي أبي محمد صالح النائم " مسبغا عليه صفات الولاية التي نالها بعد الترقّي في المقامات و الأحوال³ :

يا حفيد الولي و يا وارث الفخر الذي نال في مقام و حال
و في وصفه لمجلس أنس يصف جارية تعزف على العود و يوري بمصطلحات الصوفية بقوله⁴:

و تدني إليه السمع تصغي كأنه يدقق قدر البسط فيه من القبض
و من أبيات أوردها عقب رسالة بعثها إلى الغني بالله يستأذنه في الرحلة إلى بيت الله ، نراه يتشفع لديه "بالغوث" و "القطب" الذي إذا عدم اختل نظام الكون ، و في ذلك يقول⁵ :

و بالقطب و الغوث الذي لوجوده وجود نظام الكون إن عدم اختلا .
و من مصطلحات العلوم الأخرى التي برع فيها لسان الدين و التي ظهر أثرها في تكوينه الشعري ، مصطلحات علوم اللغة العربية من بلاغة و نحو و صرف ... و رسم ، كالنقط و الشكل ، و الخفض و الرفع و العوامل ، و (باب) نعم و بنس و الممنوع من الصرف ، و المجاز و الحقيقة و غيرها .

ففي معرض وصف جيش الغني بالله من قصيدته المطولة اللامية يستعير مصطلحات النحو والإملاء لوصف أنواع الأسلحة ، و يقول في ذلك⁶ :

و الخيل خط و المجال صحيفة و السمر تنقط و الصوارم تشكل
و البيض قد كسرت حروف جفونها و عوامل الأسل المتقف تعمل
فتراه قد جمع تسعة مصطلحات لغوية في بيتين اثنين مع ما في ذلك من العمل حرصا على التصنع و إظهارها لغزارة علمه رغم أن ذلك يذهب بجمال الصورة ورونقها .

1 - د . شرقي ضيف : الفن و مذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف مصر ، ط10 ، د . ت ، ص 321 .

2 - في هذه المصطلحات و غيرها انظر : أبو القاسم عبد الكريم القشيري ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت لبنان د.ت. ص 32 و ما بعدها .

3 - ديوان لسان الدين بن الخطيب : 511/2 .

4 - المصدر السابق : 639/2 .

5 - المصدر نفسه : 772/2 .

6 - ديوان لسان الدين : 501/2 .

ومن القصيدة التي نظمها يوم بيعة أبي الحجاج قوله يمدحه بأنه يكفي من جأه طالبا رفته
بحيث لا يحتاج إلى غيره ولكنه يتوصل إلى هذا المعنى موريا بمصطلحات النحو¹:

وكم صرف التأميل نحوك أمل فصيرته بالعدل ممتنع الصرف

و بالإضافة إلى ما تقدم ، تقع في شعره على مصطلحات علم الفلك الذي تعلمه دون أن يبلغنا
كتاب ألفه فيه ، كما ألف في الطب البيطرة . من ذلك قوله يمدح أبا الحجاج بما أوقعه في أعدائه
من الهزائم ، و يضيف على أسلحة جيشه صورة هائلة من القوة² :

و كذا السيوف ملثة أنواعها و الشمس في جدي و في سرطان

فيربط بين بريق السيوف و جودة ثرندها و بين الشمس و الأنواء و عندما يهنئ أبا سالم
المريني بفتح تلمسان ، يرى أن ذلك من اختيار الله تعالى و لم يكن ذلك بتنجيم المنجمين الذين يربطون
بين نزول بعض الكواكب في منازلها و بين الأحداث الجسام ، و في ذلك يقول³ :

تولى اختيار الله حسن اختيارها فلم يحتج (الفرغان) فيها لفرغاني

و الفرغان من منازل القمر و الفرغاني لقب لبعض العلماء⁴

و لا يكفي لسان الدين بالتورية لمصطلحات العلوم و الفنون حتى يذكر أسماء العلماء و الأدباء
و عناوين مؤلفاتهم ، فمن علماء الأدب و اللغة يوري باسم "الثعالبي" صاحب "يتيمة الدهر" ففي
هجاء أبي الحسن النباهي يقول⁵ :

"ثعالبي" انتماء مخلف "ليتيمه"

فيصفه بالثعلب في المكر و الخبث ، و يتبأ له بالموت مخلفا بنتا يتيمة ، أما دموع المرأة التي
يتغزل بها فهي جوهرية النسب :

أتت "بصاح الجوهري" دموعها فعارضت من دمعي "بمختصر العين"⁶

و الجوهري مؤلف معجم الصحاح أما مختصر كتاب "العين" للخليل ابن أحمد فهو
"للزبيدي" اللغوي الأندلسي المعروف

و في مداعبة لشيخ الكتاب ابن الحياض يوري بالمبرد عن اللحم المعروف بهذا الاسم ،

قائلا:

¹ - المصدر نفسه : 776/2 .

² - المصدر نفسه : 578/2 .

³ - المصدر نفسه : 589/2 .

⁴ - الفرغاني : لعله محمد بن إسماعيل شيخ الصوفيين كان من المتجهدين في السادة و هو لقب لعلماء آخرين ، انظر : تهذيب سير أعلام النبلاء

للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، هذب أحمد فايز الحمصي ، ط 2 ، 1992 مؤسسة الرسالة بيروت ، ج 3 ، ص 89 .

⁵ - ديوان لسان الدين : 572/2 .

⁶ - المصدر نفسه : 585/2 .

يا واحد الدنيا بلا إلياس ابعت بسهم من أبي العباس⁽¹⁾

و أبو العباس ، كنية المبرد صاحب الكامل .

و من التورية بأسماء الفقهاء و المحدثين و القراء ، يخاطب السلطان أبا سالم ، معبرا له عن إجهاد نفسه في تجويد مدحته حتى بلغ بها درجة الإتقان ، موريا بكتاب "الحمد" الذي نسبه "لعاصم" . و هو أحد القراء السبعة ، و في ذلك يقول:²

قرأت كتاب "الحمد" فيك "عاصم" فصح أدائي و اقتدائي و إقتاني

كما يوري باسم نوع من الكتب معروفة بأنها مضمون بها على غير أهلها كبعض كتب أبي حامد الغزالي التي حظر على العامة قراءتها مخافة أن يؤدي ذلك إلى فساد عقيدتهم ، و ذلك في وصف "ختم الكتاب" السلطاني الذي لا يليق أن يطبع على مضمونه ، يقول في ذلك³ :

الختم يحفظ مضمون الكتاب به و هو الدليل على مضمون عزته .

فنحن نرى كيف يوظف ابن الخطيب ثقافته في رقد شعره بمادة غزيرة ، بما يتيح للمعنى ثراء و حيوية فيشبهه الكتاب السلطاني المختوم بالكتاب المتعمق في بابه بحيث يكون قصرا على الراسخين من العلماء في ذلك العلم ، و يمنع من تداوله العامة ، كما يمتزج المعنى السياسي بالمعنى الثقافي العام.

و من سمات تصنعه لعباءات العلوم و الفنون اشتمامه بأسماء الأماكن و المعالم الحضارية و التاريخية ، ففي مرثية له ، و عند ذكر الاعتبار بالأسلاف من عظماء الملوك ، و الأمم ، و الممالك البائدة ، يلتفت إلى حضارات قديمة عرفت بثرائها و فخامة مبانيها و عظم مآثرها ، فما كان إلا أن طوتهم يد الردى و في ذلك يقول:

و مد إلى "سيف" أكف اعتدائه فأخرجه بالرغم من غمد "غمدان"

يشير إلى سيف بن ذي يزن أحد مشرك اليمن القدامى ، وقصره "غمدان" المضروب به

المثل .

و يقول أيضا:⁵

أما تركت كسرى كسيرا صروفه و لان على صولاته ملك "اللان"⁶

1 - ديوان لسان الدين : 721/2 .

2 - نفس المصدر : 594/2 .

3 - المصدر السابق : 173/1 .

4 - المصدر نفسه : 626/2 .

5 - ديوان لسان الدين : 626/2 .

6 - اللان : بلاد واسعة تقع في طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للحزر انظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز

الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1410، 1990، 5، ج9 .

ويستطرد في إيراد هذه الأسماء حتى تكاد المرثية أن تتحول إلى عرض تاريخي لمصائر الأمم البائدة و الحضارات القديمة ، و ذلك من أثر ثقافته التاريخية الواسعة .
و الواقع أن شعر ابن الخطيب حافل بمادة علمية غزيرة فلم يترك الشاعر مناسبة سانحة إلا اغتمها ليعرض علينا من بضاعته ما يطيب له .

* التصنع البديعي :

هذه هي أوضح سمة في شاعرية ابن الخطيب ، بحيث يعد مثالا للشاعر الصانع المتأنق في أسلوبه إلى أقصى غاية ممكنة و يصل بفته البديعي إلى أبعد ما يمكن أن يتحملة الفن الشعري ، و لا غرابة في ذلك فقد فتح عينيه على تاريخ من الشعر يزخر بفنون القول ، و أوابد اللغة كما فتح عينيه على حضارة بلغت من البذخ ما صار مثلا ، فكان نتاج ذلك التاريخ و تلك الحضارة ، و جاء شعره رافلا في تلك الحلل الموشاة من جناس و طباق و مقابلة ، و تورية و تصريح و ترصيع و غيرها ...
و لا نريد في هذا المقام أن ندرس هذا الجانب الأسلوبى في شعر لسان الدين ، و لكننا نكتفي بالإشارة إلى ثلاثة مواضع تغني في الدلالة على تصنع الشاعر .

الموضع الأول قطعة من سبعة أبيات في جواب "ابن زمرك" الشاعر و كان كاتب الدولة

وقتئذ و ولديه "علي" و "عبد الله" و هي قوله :¹

أكرم بها من بناء باني	أرسخ في الفخر من أبان
أجنى إليها الرضى جناني	من المعاني جنى جناني
أي جنى للأكف داني	ما للمباري به يدان
أقسم بالذكر و المثاني	مالك فيما سمعت ثاني
مدامة برة الأواني	تنشط للقون كل واني
تقول أوضاعها للغواني	فالعلم عن زينة الغواني
يا رب بارك لمن بناني	في الشكر و القلب و البيان

فكل بيت من الأبيات السابقة يشتمل على جناس .

و الموضع الثاني قطعة يمدح فيها السلطان "أبا عنان فارس" لدى عودته من سفارته ، و في

كل كلمة منها حرف "سين" يقول في ذلك :²

سقت ساريات السحب ساحة فاس	سواكب تكسو السرح حسن لباس
و سار بتسليمي لسدة "فارس"	نسيم سرى للسلسيل بكاس

¹ - ديوان لسان الدين بن الخطيب : 629/2 .

² - المصدر نفسه : 735/2 .

سراج السرى شمس سما قيس السنا
أنست بمسرى سيبه و تأنست
و يسرت لليسرى و يسر مرسلي
كسا ساطيات الأسد لبسة باس
بساحته نفسي و أسعد ناسي
و سدد سهمي و استقام قياسي

و الموضوع الثالث : القصيدة التائية التي رثى بها نفسه حين شعر باقتراب أجله و هو في السجن بالمغرب ، ففي تلك الحال لا يتردد لسان الدين في التصنع لبعض ضروب البديع كالجناس و الطباق ، و من تلك الأبيات قوله¹ :

بعدنا و إن جاورتنا البيوت و جننا "بوعظ" و نحن صموت
و أنفاسنا "سكتت" لحظة "كجهر" الصلاة تلاه القنوت
و كنا عظاما فصرنا عظاما و كنا "نقوت" فما نحن "قوت"

فهي كل بيت من هذه الأبيات محسن ، و لاسيما البيت الثالث حيث يأتي الشاعر بضربين من الجنس التام "عظاما" و "عظاما" و المركب "نقوت" و "نحن قوت" و حرص الشاعر على البديع و هو يعد ساعاته الأخيرة يدل على أن التصنع كأنه تحول إلى (طبع) راسخ فيه إذا صحت العبارة .

و هكذا رأينا أن شاعرية ابن الخطيب تعود في تكوينها إلى عوامل موضوعية و نعني بها الظروف التي أحاطت به من ثقافة متعددة النواحي تلقاها عن شيوخ متعددي الاختصاصات العلمية ، و المواهب ، و ظروف سياسية كالمناصب التي ترقى فيها الشاعر ، و الأدوار و الوظائف السياسية التي قام بها ، أو ظروف حضارية و اجتماعية من عادات و طقوس أو ما أحاط به من عمران و فنون و لهو و بذخ و ترف .

كما تعود شاعريته في تكوينها ، إلى عوامل ذاتية ، و نعني بذلك مواهب لسان الدين و عبقريته و رأينا كذلك كيف استجاب لسان الدين لتلك الظروف و العوامل ، فاصطبغت شاعريته بلامح محلية أندلسية ، و مظاهر مشرقية ، و تأثيرات قرآنية ، أو حديثة ، أو ثقافة لغوية و أدبية أصيلة ، كما تميزت بمظهر شكلي يعتمد على الإطالة ، و الاستطراد ، أو مظهر الفنان الصانع .

¹ - لسان الدين بن الخطيب : المصدر السابق ، 185/1 .

الفصل الثالث

شعر ابن الخطيب الإسلامي

- أولاً : شعر التمسيد
- ثانياً : شعر المدائح النبوية
- ثالثاً : شعر الزهد و التصوف

جامعة الأمير سعود
القادر للعلوم الإسلامية

إن الدارس لشعر ابن الخطيب ليقف مشدوهاً أمام تنوع مادته و سعة أغراضه و بعد مراميه ، فالرجل قد حلق بشاعر يته في عالم فسيح من الموضوعات و القضايا . و نحن إذا عدنا بتلك الموضوعات إلى التقسيم المألوف للشعر ، نراها لا تخرج عن الأغراض التي حددها النقاد العرب القدامى و التي تعارف عليها الدارسون إلى اليوم ، إلا أن التعامل مع ذلك التقسيم المألوف و كأنه القاعدة التي لا تقبل الاستثناء ، من شأنه أن يوقع الدارس في بعض المحاذير لأنه مبني على أساس الغرض الأساسي للقصيدة ، فموضوعها يحدّد ” غالباً بالغرض الأخير فيها ، فهي تارة مديح ، وتارة هجاء ، أو رثاء أو سوى ... ذلك “¹ ، على ذلك تكون القصيدة مدحا ، و هي مع ذلك لا تخلو من مضامين يطوّعها الشاعر لخدمة الغرض العام للقصيدة . حتى إن بعض القدامى عدّوا للقصيدة أربعة أصناف أو أغراض ، تتفرع عنها فنون جزئية ، يقول ابن رشيّق القيرواني : ” و قال عبد الكريم : يجمع أصناف الشعر أربعة : المدح و الهجاء ، و الحكمة و اللهو ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون : فيكون من المديح المراثي و الافتخار و الشكر ، و يكون من الهجاء : الذم و العتاب و الاستبطاء و يكون من الحكمة الأمثال و التزهيد و المواعظ ، و يكون من اللهو : الغزل و الطرد ، و صفة الخمر و المخمور “² ، و هذا النص يوحي بأن النقاد القدامى لم ينعقد بينهم إجماع حول هذه الأغراض على الأقل من حيث العدد ، و التفرعات ، و لذلك يتعامل النقد المعاصر معها بحذر حتى إن بعض الدارسين المعاصرين اعتبر مفهوم الأغراض مفهوماً بائساً و ضريراً ” بل لعله أبعد مفهومات نقدنا القديم عن الصواب ، و أشدها إيغالاً في المغالطة ، و أقواها تعبيراً عن النظرة الجزئية الضيقة “³ و سواء أكان في تلك النظرة تضيق أم لم يكن ، فلا يسعنا أن نأتي عليها من قواعدها ، و ليس علينا حرج بعد ذلك ، و نحن ندرس إنتاجاً يعود تاريخياً إلى مرحلة قديمة ، أن ننظر فيما يتيح ذلك الإنتاج من مضامين و قضايا عامة في إطار ما تهدينا إليه رؤيتنا المعاصرة الإسلامية للشعر و الأدب عامة .

و ضمن الأغراض الشعرية المألوفة ، نظم ابن الخطيب ، شعره مستلهماً رؤاه من منبعين : الأول : عقيدته الإسلامية ، و تكوينه الديني المتين ، و الثاني : المحيط الذي عاش فيه ، و تفاعل معه و انفعّل به ، فالرؤى التي ألهمته بها عقيدته الإسلامية تمخّض عنها ” شعر إسلامي “ ، مبنوث فسي

¹ - د . نور الدين السد ، الشعرية العربية ، ص 408 .

² - ابن رشيّق العمدة ، 121/1 .

³ - د . وهب أحمد رومية ، شعراً القدم و النقد الجديد . سلسلة عالم المعرفة الكويت . عدد شوال 1416 هـ . مارس 1996 ص 141

مختلف الأغراض كالمدح و الرثاء أو الإخوانيات و غيرها ، أو مستقل بغرض خاص كشعر التصوف و الزهد أو شعر المدائح النبوية .

أما الرؤى التي ألهمته بها بيئته ، فقد انبثق عنها شعر تقليدي كالغزل ، و اللهو ، و الهجاء والمدح و غيرها ، دون أن يكون ذلك داعية إلى اتهام الشاعر بازواج الشخصية أو ادعاء وجود تناقض صارخ في اتجاهه الشعري إذ لاحظنا في الفصل السابق ذلك المنحى الإسلامي العام في شعره حتى في ذلك النوع من القصائد اللاهية التي لا تخلو من بعض القيم الإسلامية ، و كل ما نريد تأكيده في هذا الشأن أن هذه المثل الإسلامية تتجلى واضحة قوية الحضور في بعض القصائد ، و التي أعطيناها و صف ” الإسلامية “ بينما لا تطفو تلك القيم في قصائد أخرى ، أو أن القيم التي توحى بها لا تتفق مع المبادئ الدينية الكبرى بحيث كان مصدرها بشريا لا يخلو من ضعف ، و هذه هي القصائد أو الأشعار التي وصفناها ” بالتقليدية “ .

و في هذا الفصل نتناول شعر ابن الخطيب الإسلامي ، و قد وجدنا هذا الشعر متمحورا حول الجهاد الذي خاضه مسلمو الأندلس و المغرب ضد القشاليين ، و شعر المدائح النبوية التي ذاعت في القرن الثامن الهجري ، في الأندلس ذيوعا كبيرا ، بالإضافة إلى المعاني الزهدية التي تعود في منشئها إلى وعي الشاعر و ثقافته العربية الإسلامية ، أو إلى منبع ذاتي يعبر عن تجارب الشاعر و مواقفه الشخصية ، و أخيرا الشعر الروحي الخالص الذي يدل على وجود نزوع صوفي في نفسية ابن الخطيب التي عرفت حلو الأيام و مرّها ، و ذاق حلاوة المناجاة الليلية كما طعمت مرارة الحرمان و التشرّد .

و هذا الشعر (الإسلامي) يتوزع على مختلف الأغراض التي نظم فيها الشاعر ، ففي أغلب تلك الأغراض نلمس حسا إسلاميا متميزا يعكس الحضور القوي للجانب الديني ، في إنتاجه الشعري ، ذلك الحضور الذي دفعنا إلى البحث عن المضامين الإسلامية ملتصقين إياها في الأغراض المتفرقة ففي قصائد المدح يلتفت الشاعر إلى المعاني الجهادية و ربما وجدنا في قصائد الغزل و اللهو معاني صوفية أو لمسات زهدية أو مواقف للاعتبار .

و في المولديات و هي القصائد التي نظمها الشاعر في مناسبات ليلة ميلاد النبي صلى الله عليه و سلم ، يمزج بين المدح الذي يفتخِرُ به السلطان النصري ، و بين مدح النبي صلى الله عليه و سلم .

أولاً : شعر الجهاد :

و شعر الجهاد هو شعر المعارك ، و قد أثرنا هذا الوصف للتفريق بينه و بين شعر الحرب ، و في كل منهما وصف للمعارك ، و قفعة السلاح ، و صور البطولات و الانتصارات . إلا أن الملحمة في النوع الأول : ملحمة العقيدة ضد العقيدة و صراع المبادئ إنه صراع حول الوجود الديني و ليس على الوجود المادي فقد خاض المسلمون في الأندلس و المغرب نوعين من الصراع ، صراع الوجود الإسلامي بكافة مقوماته المادية و الأدبية ضد الاكتمال القشتالي ، و صراع الأندلسيين فيما بينهم أو تطاحن الأسر المالكة في المغرب كالمريبيين و الزيانيين ، و في كل ذلك نظم ابن الخطيب شعرا خلد به تلك الوقائع التاريخية ، فما كان منه متعلقا بالضرب الأول ، هو الذي نعتبره شعرا جهاديا لأنه استمرار للمعركة التي خاضها الشعر إلى جانب العقيدة الإسلامية منذ المراحل الأولى للدعوة الإسلامية فقد "انتصر المسلمون في معركة بدر فأثارت شاعرية الشعراء ، و جاء شعراء الإسلام يتمدحون بانتصار الإسلام و الإشادة ببطولات المسلمين و الافتخار بالأخوة الإسلامية التي جمعت بين الأعداء يمثل ذلك حسان في قصيدة رائعة في معركة بدر ... متأثرا بالقرآن في ألفاظه مصورا أهدافه و رسالة الإسلام" ¹

و قد تناول ابن الخطيب المعارك التي دارت رحاها بين بني الأحمر و الروم (القشتاليين) من خلال قصائد المدح التي ترتبط بالمناسبات الإسلامية كالأعياد و هي القصائد (العيدية) أو التي ترتبط بالمولد النبوي الشريف أو التي ينظمها في مناسبة التهئة بانتصار ، أو المواساة عن اندحار ، مصورا جهود السلاطين النصريين في المحافظة على أرض الإسلام بالأندلس أو مستغنيا بالمريين لنجدة أهل غرناطة من عدو متربص أو يصف الأسلحة المقاتلة كرمز من رموز القوة التي تحفظ للغرناطيين كيانه المادي و الديني أو يعرض صورة قبيحة للكفار من القشتاليين ، فإذا هم مثل في الخداع و اللؤم ، كما يحاول أن يستمد أسباب النصر و التمكين للمسلمين في أرض الأندلس . و نحن نعرض لهذه المعاني بنحو من التفصيل فيما يلي :

1 / دور بني نصر في المحافظة على الأندلس :

ردد ابن الخطيب هذا المعنى كثيرا في قصائد المدح ، فقد بؤا سلاطين بني نصر مكانة عالية في جهادهم ضد النصاري و حمايتهم لبيضة الإسلام في الرقة الجغرافية التي امتدت إليها أيديهم و يتجلى ذلك في حروبهم ضد القشتاليين أو معاهدات الهدنة التي وقعوها معهم ، معتبرا تلك

¹ - عبد الرحمان . خليل إبراهيم . دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول (ص) : الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ط 2 1971 ، ص 273 .

و القصيدة أولها : عرفت ديار زينب بالكيب كخط الوحي في الورق التشيب

انظر عبد الرحمان البرقوقي ، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، المطبعة التجارية الكبرى ، مصر ، 1347 هـ ، 1929 م ، ص 14

المعاهدات علامة قوة للمسلمين . ففي الهدنة التي عقدها أبو الحجاج يوسف مع ملك أرجونة ألفونسو الرابع¹ سنة (735 هـ) يقول ابن الخطيب في وصف رسل الوفد الموقع لمعاهدة السلم ، عندما وصلوا إلى دار الخلافة² :

حتى إذا سيّمت نفوسهم الردى و اعتاص مصطبر و عز عزاء
وافوا و قد جعلوا الدروع ضراعة إذ لم يكن غير الخضوع وفاء
و تبوأوا دار الخلافة ملجأ فلهم بعقوة بابها استجداء

فإن (الروم) حين عز عليهم الصبر ، لم يجدوا من وسيلة لتأمين أنفسهم من بأس أبي الحجاج سوى الإذعان و الخضوع ، فلجأوا إلى أرض الخلافة الإسلامية مستجدين صاغرين ... فإذا هم شاخصة أبصارهم ، لا يتكلمون إلا همسا ، و لا يرجع بعضهم إلى بعض القول إلا إشارة و إيماء و إذا سعيهم إلى السلم كأنه طلب للعفو من أبي الحجاج الذي عرّف إحسانه و عفوه عن المذنبين :

فعيونهم صور و وقع حديثهم همس و رجع كلامهم إيماء
رهباً فعاف شاقه بذل الندى راج و طاغ ساقه استعفاء
علموا مواقع ذنبهم من عفوه فاستشعروا الإحسان حين أساءوا³

و ليس لجوء أبي الحجاج إلى السلم عن ضعف ، و إنما هي فترة ، و للحرب عودة حين تحين آجال الكفرة :

لا يحسبن الروم سلمك رهبة فالزند للنيران فيه ثواء
لم تغمد الأسياف من وهن بها لكن نفوس أجلت و دماء⁴

فإن الخطيب يعتبر فترات السلم بين المسلمين و القشتاليين فرصة لاستعادة المسلمين لقوتهم ، استعدادا لمناجزات أخرى و ذلك لأن المسيحيين كانوا لا يفون بمواثيقهم .

و قد خلد لسان الدين انتصارات ملوك بني الأحمر مبررا أنها تعود إلى توفيق الله لهم ، و إنجاز و عده للمسلمين بالتمكين في الأرض و النصر على الأعداء . فقد نظم قصيدة في مدح أبي الحجاج مهنتاً له بانتصاره على المسيحيين في معركة بحرية سنة (740 هـ) : و هذه القصيدة مليئة بالبشرى و الابتهاج ، لأن ذلك الانتصار جاء ثأراً لهزيمة حلت بالمسلمين قبله ، فكان انتصاراً ترك أثراً جسيمة في ديار الكفر .

¹ - محمد عبد الله عنان ، حماية الأندلس : ص 130 .

² - ديوان لسان الدين 94/1

³ - المصدر نفسه ، 94/1 .

⁴ - المصدر نفسه ، 94/1 .

و يستهل لسان الدين هذه القصيدة استهلالا سعيدا بقوله ¹ :

فتحت سعودك كل باب مبهم و جلا يقينك كل خطب مظلم
و جنيت غض الفتوح من ورق الطبا و النصر من غرس القنا المتحطم

ثم ينتقل إلى عرض صورة بارعة الجمال لذلك الانتصار يجمع فيها بين شجاعة أبي الحجاج و شدة بأسه ، و بين المعاني الإسلامية ، فقد أقر هذا الملك المسلم بلاد الكفر من أهلها ، و امتلأت بهم جهنم جزاء ما صدوا عن سبيل الله بحربهم للمسلمين ، و أضرم على الكفرة نارا تلتظي و سفح دماءهم فامتزجت بماء البحر ، و هدم بنيان الكفر بتأييد من الله تعالى ، و قد حقق نصرا بشرت به آيات الكتاب العزيز التي تتلى في بيت الله الحرام إذ وعد الله سبحانه عباده المؤمنين المجاهدين أن تكون لهم العاقبة و التمكين ، في آيات عديدة من القرآن الكريم ، يقول لسان الدين في الإشادة بهذا النصر المبين ² :

أفقرت ربع الكفر من سكانه بهلاككم و عمرت ربع جهنم

... ..

و قدحت فوق الماء نارا تلتظي و سفحت فوق البحر بحرا من دم

... ..

بنيان كفر ووطدت أساسه لولا دفاع الله لم يتهدم

... ..

نعش الجزيرة بعد شد وثاقها و أجار من حفت به من مسلم

يكره الفتوح نضت لديك نقابها من بعد طول تقنع و تلتهم

و غريبة الزمن التي آثارها متلوة بين الحطيم و زمزم

و من تهنة أبي الحجاج بفتح " كركبول " سنة (740 هـ) و هي من ثغور قرطبة ، يستهل لسان ^{الدين} مدحته معبرا عن ابتهاجه بهذا الفتح الأغر ، و يعده من الأعمال الجليلة التي بدأ بها أبو الحجاج إمارته كيف لا ؟ و قد نصر به الإسلام الحنيف ، و قهر الصليب رمز النصرانية بجيش قد ملأ قلوب الكفار فزعا :

بشرى يقوم لها الزمان خطيبا و تأرجح الآفاق منها طيبا

هذا طلوع فتوحك الغر التي ما كان طالع سعدا ليغيبا

أظهرت دين الله في ثغر العدى و قهرت تمثالا به و صليبا

¹ - المصدر السابق : 537/2 .

² - المصدر نفسه 539/2 .

و ذعرت بالجيش اللهم بلادها ملء الفضاء مَلَا القلوب وجيبا¹

ثم بين أن هذا الانتصار لم يكن ليتحقق بيسر لأن هذا الحصن - حصن كركبول - طالما تمنع على جيوش المسلمين من قبل ، حتى أعزل داؤه ، فكان أبو الحجاج طيبه و أبا عذرته ، و كان له الفضل في ذلك :

شركت ثغور الدين منه بغصاة و لقين منه حوادثا و خطوبا
حتى إذا استشرى و أعزل داؤه شكت الثغور به فكنت طيبا²

و أبو الحجاج أحد ملوك هذا البيت النصري الذي يتصل نسبه بقبيلة يمنية هي الخزرج ، و بذلك حق لهذا البيت أن يفخر لهذا النصر :

بعصابة يمنية مهما انتمت في العرب كان الحسام نسيبا³

و لا يخلو هذا المعنى من نزعة سياسية ، و هي نزعة يتكرر صداها كثيرا في مختلف قصائده ، و لنا إليها عودة في المكان المناسب لها من هذا البحث ، ذلك أن لسان الدين شاعر بلاط ، بل هو في الحقيقة أحد صناع القرار السياسي في المملكة النُصْرِيَّة باعتباره كان يتسهم مكان الوزارتين : وزارة السيف ، و وزارة القلم ، و لذلك نراه يلح على أن الأسرة النصرية جديرة بلقب الإمارة الإسلامية ، إذ أن السلطان من بني الأحمر ، كان يلقب بأمر المسلمين للتمييز بينه و بين لقب أمير المؤمنين الذي يختص به الخلفاء في المشرق الإسلامي ، و هي جديرة بهذه المكانة لأنها لا تتفك تقوم بالأعمال الجهادية و لأنها الوريثة الشرعية للدول الإسلامية المتعاقبة منذ الفتح الإسلامي للأندلس إلى قيام هذه الإمارة في الأندلس في القرن السابع الهجري على يد ابن الأحمر الغالب بالله .

و قد خاض الأندلسيون أكثر من معركة جنباً إلى جنب مع المرينيين ، و لكن ابن الخطيب عندما يعرض لأمثال تلك المعارك ، لا يشير في كثير من الأحيان إلى فضل المغاربة ، و إنما يرجع بالفضل كله لأهل الأندلس ، و هذا تحيز سياسي أملاه عليه منصبه في المملكة النصرية ، كما سلف ذكره ، فقد حاول أبو الحجاج ، و أبو الحسن المريني استعادة " الجزيرة الخضراء " من المسيحيين سنة (742هـ) ، و كانوا قد استولوا عليها في معركة طريف* التي انهزم فيها المسلمون ، و التي توفي فيها والد لسان الدين و أخوه ، فجهز أبو الحجاج و أبو الحس أسطولا ، و سجل ابن الخطيب ذلك في

¹ - ابن الخطيب المصدر السابق 103/1 .

² - المصدر نفسه الصفحة نفسها .

³ - المصدر نفسه : 104/1 .

* - طريف (جزيرة طريف) أول بقعة ووطنها أقدام المسلمين في إسبانيا ، نزها القائد " طريف بن مالك " من قبل موسى بن نصير سنة 91 هـ ، و تقع مدينة طريف في لسان منبسط أخضر في جنوب غربي إسبانيا : محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا و البرتغال نشر : مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ط 2 ، 1381 هـ ، 1961 م ، ص 278 .

قصيدة عيدية أنشدتها السلطان يوسف بمالقة من السنة المذكورة . فبيداً قصيدته بمقدمة يتعرض فيها للرحلة على طريقة الجاهلية ، لأنها تناسب مقام الممدوح في تأهبه للقاء العدو ، و يتخلص من المقدمة إلى المدح فإذا أبو الحجاج مثليفة لا تعرف الدنيا نظيراً له ، لأنه ذو عزيمة نافذة في الحرب ، و مختطف الأبطال عند النزال ، و حامي دمار الدين و ناشر لواء الإسلام في كل أرض غزاها فنشر فيها الأمن من الأعداء ، ثم يتناول وصف الأسطول الذي جهزه أبو الحجاج بقوله ¹ :

و لما أرحت السير في قصر "رية" بعزم تضيق الأرض دون مجاله
رأى منك بحر الماء بحرا من الندى فواصل منه الموج لثم نعاله
زجرت بها الأسطول يبتدر العدى و يمضي إلى ما اعتاده من فعاله

فعزم أبي الحجاج أوسع من أن تسعه الأرض بما رحبت ، و نداءه يخجل البحر فيقدم على تقبيل نعله ، و هو إذا جهز جيشاً أو أسطولاً ، فإنما يسير إلى تحقيق النصر ، الذي تعود أن يحزره دائماً ، و قد تفاعل لسان الدين بالنصر قبل وقوع المعركة مطمئناً إلى شجاعة أبي الحجاج ، و هو قد حقق في الواقع انتصارات مجيدة على أعدائه و لكنه انهزم في بعض معاركه غير أن الشاعر لا يلتفت إلى تلك النكسات ، و يحاول ، دائماً ، أن يجد لها التبرير ، لأن عمل الشاعر ليس هو عمل المؤرخ ، الذي يقرر الحقائق في تجرد ، و حياد ، فهزيمة جيش المسلمين تعني بالنسبة لسان الدين التقام العدو المتكالب لقطعة من أرض الإسلام المقدسة . و صورة الجندي الذي يخر مخرجاً بدمائه ، صورة تبعث الفرع في قلب الشاعر ، لا يملك إلا أن يغمض عينيه نونها ، و الشاعر الذي يؤمن بأنه على ثغر من ثغور الإسلام لا يسمح لنفسه أن تحمله على الانهزام و الضعف .

و قد سجل ابن الخطيب المعركة التي خرب فيها أبو الحجاج حصن "أستبة" و فتح معقل بني بشير (سنة 743 هـ) مبتهجا بهذا النصر ، و معتبراً أبا الحجاج مثلاً للملك المؤمن التقى الذي سلك سبيل أبيائه في التقوى ، و الجهاد في سبيل الله ، و الانتقام لدماء الإسلام أن تهدر ، يقول في ذلك ² :

أزمنت في الله الجهاد و طالما
وأنفت للدين الحنيف و أهله
وقدحت زند عزيمة نصرية
و سلكت للتقوى سبيلا سنها
أرضى إلا له جهادك المقبول
من أن يطيح نجيعه المطلق
تركت ديار الكفر و هي طول
علم الملوك أبوك "إسماعيل"

¹ - ابن الخطيب : المصدر السابق : 484/2 ، 485 .

² - ابن الخطيب ، المصدر السابق 487/2 .

ثم يرسم صورة بديعة لأبي الحجاج تدل على شجاعته و سمو همته ، في الجهاد و يتجلى في تلك الصورة بدرا أحاطت به هالة من الجنود ، و أسدا في لبدة من الرماح :

من مثل "يوسف" في الملوك إذا غدت
تزهى بفضل قديمها و تصول
بدر و لا غير الكتبية ، هالسة
ليث ، و لا غير الأسنة غيل¹

و في هذه الغزوة بدأ أبو الحجاج بافتتاح حصن " بني بشير " أولا ، ثم انتهى إلى " حصن أستبة " ، و تدل أبيات لسان الدين أن هذين الفتحين تطلبا جهودا جبارة ، تجشم جيش المسلمين في ذلك مشقة و عسرا و ذلك لان حصن " أستبة " كان على قمة جبل شامخ و قد شبهه لسان الدين بامرأة متزينة بتاج مرصع ، قد تمنعت و تأبت أيما إباء ، لكن أبا الحجاج بما عرف عنه من قوة عزيمة و علو همة أصاب منها مقتلا حين أصابها بسهامه فارتدت ذليلة خاضعة ، و إن النصر عزيز تحطمت فيه الأسنة ، و فلت الرماح ، و هو بعد ذلك نصر متصل الأسباب و قد أصبح سنة عرف بها " بنو نصر " في الأندلس ، يقول لسان الدين في ذلك² :

كان افتتاح " بني بشير " مبدأ
سبب البشارة بعده موصول
... ثم ارتقيت ثنية الثغر التي
هي للضلال معرس و مقيل
... خود تجلت في منصة شاهق
مختالة إكليلها الإكليل
... أصميت ثغرتها بسهم عزيمة
تذر الأبي الصعب و هو ذليل
... ثم أشببت و للرماح تقصُّد
مما غزوت و للسيوف فلول
... فاهناً بموصول الفتوح فإنما
هي سنة ما إن لها تبديل

و من المعاني الجهادية التي يكررها لسان الدين في كل مناسبة سانحة ، أن بني الأحمر ، أهل لنصر الله تعالى ، و قد استحقوا هذا النصر ، بما أوتوا من تقوى و جهاد في سبيل الله ، ففي تهنئة أبي الحجاج بهلاك (طاغية الروم) " ألفونسو الحادي عشر " يقول :³

و دونك فافتح كل ما أبهم العدى
ورد حقوق الدين من كل غاضب
و بادر عدو الله عند اضطرابه
و عاجله بالبيض الرقاق القواضب
إذا قيل أرض الله إرث عباده
بموجب تقوى أنت أقرب عاصب

و في الأبيات إشارة إلى استرداد أبي الحجاج " للجزيرة الخضراء " و " جبل طارق " بعد حصار دام من سنة (750 هـ) إلى سنة (751 هـ) و في نهاية الحصار هلك " ألفونسو الحادي

¹ - المصدر السابق : 488/2 .

² - المصدر نفسه : 488/2 .

³ - لسان الدين بن الخطيب : المصدر المقتضب ، 114/1 .

عشر¹ و كثير من أفراد جيشه بسبب وباء انتشر في الجيش المحاصر¹ و قد اعتبر لسان الدين هذا النصر المبين من الله تعالى ردا لحقوق الإسلام المغتصبة ، و يتوجه إلى الممدوح ، كعادته ، بالنصيحة ، أن يغتنم حالات ضعف العدو ، و توجيه الضربات الموجعة إليه ، ثم يأتي إلى بيت القصيد ، في ذلك ، و هو أن أبا الحجاج من عباد الله الأتقياء الموعودين بأن يرثوا الأرض ، والذين شملهم قوله تعالى : ” و لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون “ ، (الأنبياء/105) ، و لم يكن هذا النصر نتيجة لأسباب بشرية ، و إنما هو من عجائب صنع الله إذ ينصر عباده المؤمنين إذا تعطلت أسبابهم ، وفاء بوعده لهم ، و لذلك عده لسان الدين (أم العجائب) و ذلك في قوله² :

ألا حدثا فهي أم العجائب و ما حاضر في وصفها مثل غائب

لأن المسلمين كانوا من الضعف بحيث كانوا يتوجسون و قبيحة القشتاليين بهم في أية لحظة ، فإذا بالأحداث تسير في وجهة معاكسة لمنطق الأسباب البشرية ، فكانت المفاجأة السارة التي يكاد الغائب عن ساحة الأحداث فيها ، يكذب ما يسمعه ، و في ذلك نوع من التكريم من الله تعالى لأبي الحجاج ، و علامة الكرامة أن تكون خرقا للمألوف .

و أبو الحجاج دائما منتصر مهما كانت القوة التي تعاديه لأنه مؤيد بتمكين الله له ، كما مكن الله تعالى ليوسف عليه السلام في الأرض بعد ما ظن إخوانه أنه هلك ، فقد كان لسان الحال ينادي في ديار الكافرين مقرا بهذه الحقيقة القرآنية :

و نادى لسان الحال في عرصاتهم كذلك مكننا ليوسف في الأرض³

و إذا حدث أن أحرز (الروم) غلبة ، فما ذلك إلا إملاء من الله لهم فإذا أخذهم لا يفلتهم ، لأن

الحرب سجال و الأيام دول ” و تلك الأيام نداولها بين الناس “ (ال عمران/144)

لا يغرن الروم في إملائهم قدر جرى ، فالجرب هات و هاكا

و لملك العقبي و حسبك ناصر أن الإله عدو من عاداك⁴

و قد كان جهاد أبي الحجاج موصولا إلى إن أذعن الكافر ، و خضع المعاند :

و بددت شمل الكفر ^{تعتد} أنتلاقه فأضحى عميدا في الرغام عميده

و جاهدت في الله حق جهاده فأذعن عاصية و ذل عبيده⁵

¹ - محمد عبد الله عنان : هامة الأندلس ، ص 131

² - ابن الخطيب : المصدر السابق ، 112/1 .

³ - ابن الخطيب : المصدر السابق 638/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 470/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 270/1 .

و هو الأمير الذي قد تمرس بأسلحة القتال ، و الذي يعمل جاهدا لحماية الإسلام في بلد بعيد
ناء ، عن مركز ديار الإسلام لأنه محاذ لأرض الكافرين حتى ، اعترز الإسلام ، و ذل الصليب :

أمير الطوال السمر و القضب البتر و حافظ دين الله في نازح الثغر
فله ما أعزرت من ملة الهدي و لله ما أذلت من ملة الكفر¹

و تأتي أهمية المعارك التي خاضها ابو الحجاج من كونها وقعت بعد ضياع الكثير من أرض
الأندلس ، و بعد تكالب الصليبيين عليها ، فكانت تجديدا لخطة الجهاد التي رسمها المسلمون الفلتحون ،
و التي ضيعها ملوك الطوائف فتحمل بنو نصر ، ميراثا ضخما ، و مسؤولية عظمى في المحافظة
على ما بقي للإسلام في جزيرة الأندلس ، ولسان الدين يولي هذا المعنى عناية كبيرة في شعره
الجهادي ، الذي لا تكاد قصيدة مدحية واحدة تخلو من إشارة إليه ، يقول من قصيدة عيدية يخاطب أبا
الحجاج² :

و لما استشاط الكفر بين بلادها و قاداته لإشتتصالهن المطامع
أعدك فيها الله تنصر دينه و تصدع بالحق الذي هو صادع
... و كتبت من أسد الحفاظ كتائباً إذا ثوب الداعي أته تسارع

فلما نشط الكفر لاستئصال سبل الهدى و كبرت مطامعه في ذلك ، أعد الله عبده لنصر دينه ،
و الجهر بالحق فجهز الجيوش لذلك . و آل نصر ، و على رأسهم ، أبو الحجاج ، هم باعثو فريضة
الجهاد بعدما تعطلت ، في أرض الأندلس ، و هم منجبو الملوك الذين استشهد بعضهم في سبيل الإسلام :

و لما عرت هذى الجزيرة نبوة و عطل من فرض الجهاد أكيد
و أصبح ثغر الثغر بعد ابتسامه ، و لولا دفاع الله ، فُضت عقوده
تبارك آل النصر حفظ ذمائه فأعقب صديق الجلال شهيد³

و أبو الحجاج لا يألو جهدا في الاستعداد للجهاد و الحث عليه ، مؤمنا بأنه فريضة قائمة ،
و أمانة استرعاه الله إياها بما استرعاه من إمارة المسلمين .

و لما أبى الأعداء إلا لجاجة نهضت بأمر الله أحسن ما نهض
مقيما بما استرعاك فرض جهادهم و لم تأل في نذب إليه و في حض⁴

و هو متيقظ لأمر الأعداء محافظ على الثغور ، لا يستكين للذات الملك و السلطان إلا ريثما
يهزه إيمانه ، و يناديه تقواه عادلا به إلى الجادة :

¹ - المصدر السابق : 376/1 .

² - المصدر نفسه : 649/2 .

³ - ديوان ابن الخطيب : 268/1 .

⁴ - نفسه : 237/2 .

يقظان لا حفظ الثغور يؤوده كلا و لا صعب الأمور يهوله
و إذا دعاه الملك منه للذة ناجاه من تقوى الإله عدوله¹

و لما كان الله تعالى قد كفل النصر لأبي الحجاج ، فقد جعله سنة باقية في نسله ، ففي تهنئة لسان الدين للسلطان يوسف بميلاد ابنه الأمير (أبي عبد الله) ، يدعو له بأن يحرس الله ولده إلى أن يحمل راية الجهاد ، مؤيدا بنصر الله ، من ذلك قوله² :

و دام نجلك لا تتفك تحرسه عين من الله لم تهجع و لم تتم
حق ترى الجيش يغزو تحت رايته مؤيد العزم منصورا على الأمم

و في عهد الغني بالله ، مالت مملكة غر ناطة إلى الضعف ، و أهم عامل في ذلك كثرة الاضطرابات و الفتن الداخلية ، و لذلك أثرت المملكة أن توثق عهود السلم و الأمن بينها و بين مملكة قشتالة ، فبعد عودة الغني بالله من المغرب ، طالبا ملكه استعان بملك قشتالة على أعدائه الذين استولوا على ملكه ، ففضي ملك قشتالة على رأس الفتية ”و فاء بعهد المخلوع“³ كما يقول ابن خلدون .

و في سنة (768 هـ) ، تمت الهدنة بين الغني بالله و ”يدو الرابع“ ملك أرجونة تبيح لكلا الفريقين حق التجوال و المتاجرة بأرض الفريق الآخر و المرور في البر و البحر دون اعتراض أو مغارم غير عادية⁴ ، و نظرا لهذا الوضع السياسي ، لا نجد في مدائح الغني بالله ، مثلما نجد في مدائح أبي الحجاج ، كثيرا من المعاني الجهادية ، إلا ما كان تذكيرا بجهود الملوك السابقين من بني نصر ، في مجاهدة (الروم) ، أو ما نسب إلى الغني بالله ، على سبيل التوسع ، أو على اعتبار السلم و الأمن في أرض الإسلام من الأعمال الجليلة⁵ ، لأن تأمين الثغور ، و حماية الوطن ، و نشر السلم و الطمأنينة فيه من مقاصد الإسلام العظيمة . فصورة الغني بالله ، و قد ارتدى ببيضة السلاح ، تشبه الرمح المعتدل القوام الفارع الطول ، إلى قوته :

يا إماما أطال ربي عـلاه و هماما بالفخر ما أولاه
أنت كالرمح في اعتدال و طول و انتخاب الحديد في أعلاه⁵

و لأن الغني قد جعل رسول الله قدوته ، في جهاد الكفر ، فقد أيده الله حتى خضد شوكة الروم و لولا الرسول (ص) قدوة الغني بالله لظل عود الصليب متينا :

¹ - ديوان لسان الدين : 479/2 .

² - نفسه : 355/2 .

³ - المقرئ ، نفع الطيب ، 104/5 .

⁴ - عماد عبد الله عنان . نهاية الأندلس . ص 148

⁵ - من تلك الأعمال التي يعتبرها لسان الدين من الجهاد الأكبر : بناء البيمارستان ، و إمداده لجبل الفتح ، بالمال و بناء الثغور ، انظر الإحاطة :

48/2 و ما بعدها .

⁵ - ديوان ابن الخطيب . 750/2 .

و لولاك لم يعجم من الروم عودها
 و الغني بالله من أسرة نابئة في المجد ، إذ ينحدر من الخزرج القبييلة التي أوت رسول الله ،
 و نصرته ، و بنو نصر ، أحفادهم ، قد ساروا على نهجهم في شدة بأسهم على أعداء الإسلام ،
 و اهتدائهم بهدى القرآن الكريم :

و أسد نزال من ذؤابة خـزرج
 جلاد هم مثى إذا اشتجر الوغى
 بهاليل لا روم القديم و لا قبـط
 كأن رعاة بالعضاة لها خبـط
 كتائب أمثال الكتاب تتالـيا
 فمـن بيضها شكل و من سمرها نقط
 دليلهم القرآن يا حبذا الهـدى
 ورهطهم الأنصار يا حبذا الرهـط²

و يشير ابن الخطيب إلى انتصار الغني بالله ، بما هيا الله له من التمكين ، ذلك لأنه نصر سنة
 رسول الله - صلى الله عليه و سلم - بإحياء مناسبة الاحتفال بمولده - ص -

محمد قد عظمت دين "محمد" و مثلك من يبيدي الجميل و يضمـر
 لقد شد أزر الملك منك خليفة له تحت ستر الغيب نصر مؤزر³

و في القصيدة الميلادية التي نظمها سنة (764 هـ) أربع و ستين و سبعمائة ، يذكر أن
 الغني بالله قد غزا أرض الأعداء ، و نحن نعلم أن الفترة التي أعقبت استعادة الغني بالله لدولته
 بمساعدة الملك القشتالي ، لم يقم فيها جيش النصرين بغزو مملكة قشتالية (*) مما يعني أن ابن
 الخطيب في ذكره للوقائع و الحروب في مدائحه للغني بالله - خاصة - لا يلتزم الواقع التاريخي ،
 و إنما ينساق مع خياله الشعري ، ليعرض الممدوح في صورة البطل المظفر الذي يستبيح أرض
 الأعداء بخيله التي تثير النقع كأنها سحب كثيف ، جذلانة لا تعرف الكلل و ذلك في قوله من القصيدة
 المشار إليها⁴ :

ناصر الحق مرسل النقع سحبا بين سمر القنا و بيض الصفاح
 و مزير الجياد أرض الأعادي و هي مختالة لفرط المراح

و رغم مبالغة ابن الخطيب في بعض الأحيان في الاعتداد بدور بني الأحمر في أعمالهم
 الجهادية ضد القشتاليين و الأراجونيين ، إلا أنه لا يعدو تسجيل وقائع تاريخية تمثل فترة من المراحل

¹ - المصدر السابق : 159/1 .

² - المصدر نفسه : 461/2 .

³ - المصدر نفسه 383/1 .

* - نعم قد غزا الغني بالله قشتالة و لكن بعد سنة 764 هـ و كان ذلك ابتداء من شعبان 767 هـ حيث فتح ثغر (برغة) سنة 767 هـ ، و
 حصن (أشتر) و (أطريه) سنة 768 هـ و ما بعدها ، و لا نجد في الديوان قصائد مدحية في الغني بالله تعود إلى هذا التاريخ .

⁴ - ديوان ابن الخطيب : 255/1 .

الحرجة التي مر بها الإسلام في الأندلس بل هي أخرجها على الإطلاق ، و بذلك تعد غزوات بني الأحمر مهما كانت نتائجها من أجل الأدوار التي قام بها المسلمون في الأندلس . إن شعراء¹ بني الأحمر ”يجعلون القارئ لقصائدهم و مقطوعاتهم يصدق ذلك منهم ، رغم مبالغاتهم و إيجازهم ... فشعراء الفترة النصرية يصورون واقعا ما ، فنبو نصر عند هؤلاء الشعراء أحيوا الدين بعد أن أوشك أن يلفظ أنفاسه ، و هكذا نصرروا الجزيرة بعد أن حفت بها الأعداد من كل مكان فجاهدوهم حق الجهاد“² و ابن الخطيب ، بطبيعة الحال هو أحد هؤلاء الشعراء بل أبرزهم، و في هذه الأشعار تبرز القيمة التوثيقية التاريخية لشعر ابن الخطيب ، فهو يعد وثيقة تاريخية ، تعرض صورة الصراع الديني بين المسلمين ممثلين في الغرناطيين ، و أهل العدو من جهة و مملكتي قشتالية و أرجونة من جهة أخرى .

2 / الاستغاثة بمسلمي العدو :

الاستغاثة أو الاستصراخ فن شعري أندلسي أصيل ، ظهر في الأدب الأندلسي استجابة لعوامل تاريخية معروفة لدى دارسي التطور التاريخي والأدوار الحضارية لدولة الإسلام بجزيرة الأندلس و يلخص أحد الدارسين تلك العوامل في المأساة التي أنمت بأندلس الإسلام، مأساة التشرد و الانهيار ، و الاضمحلال أخيرا : ”و قد كثر شعر الاستغاثة هذا في الأدب الأندلسي حتى صار بكثرته و تنوع صورته فنا جديدا في الشعر الأندلسي بل في الشعر العربي كله ، لأنه نابع من صميم مأساة الأندلس التي لم يكن لها نظير من قبل في تاريخ الإسلام“³ .

و قد رأينا ، عند الكلام عن حياة ابن الخطيب أنه كان سفيرا لمملكة غر ناطة إلى المرينيين ، كما أنه كتب إلى بعض ملوك الإسلام رسائل على لسان السلطان النصري ، يطلب فيها مساعدة مسلمي العدو لمسلمي الأندلس و صدر بعض تلك الرسائل بمقطوعات شعرية ، و لابن الخطيب ثلاث قصائد يستجد فيها بأبي عنان المريني ، في تصدتين : بائية ، ورائية ، و يستتجد بمسلمي العدو عموما بقصيدة فائية ، وله بعد ذلك مقطوعات رائيتان في الإشادة بموقف أبي حمو موسى الزياتي ملك تلمسان و مساعدته لأهل الأندلس بالمال و الغذاء و إعانتته لهم على عدوهم .

¹ - من شعراء البلاط النصري الذين أشادوا بانتصارات ملوك بني الأحمر على المسيحيين و جهادهم للكفرة : الشريف علي بن أحمد الحسيني المعروف بالأحمر الملقب و ترجمته في الكتيبة الكامنة : ص 62 ، و تثير فراند الجمان لابن الأحمر ، ص 235 ، و انظر قصيدته في مدح السلطان إسماعيل بن فرج (713 - 725 هـ) في تثير فراند الجمان ، ص 236 و أولها :

الآن تطلب ودها وصالها من بعد ما شغلت بمحرك بالها

² - محمد مفتاح : مفهوم الجهاد و الاتحاد في الأدب الأندلسي ، مقال بدورية عالم الفكر وزارة الإعلام ، الكويت ، أبريل - ماي ، 1981 مجلد 12 ، ص 171 .

³ - د / عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس . دار النهضة العربية بيروت ، ط 2 ، 1976 ، ص 414 .

و قبل تحليل ماورد في ديوان لسان الدين من أبيات يستغيث فيها أهل المغرب ويستتصرهم على جهاد عدو أهل الأندلس من القشتاليين أو الأراجونيين الصليبيين، نورد ملاحظة بعض الدارسين حول شعر الاستغاثة في الشعر الأندلسي عامة و عند ابن الخطيب خاصة ، ذلك أن أشعار المقاومة و الاستغاثة بعد سقوط اشبيلية في القرن السابع الهجري استمرت تلك الأشعار " في أنفاس ضعيفة و في نبرات حزينة لأنها فقدت بعض عناصرها و خصائصها التي كانت تبدو فيها قبل هذا الوقت من حماس و قوة ، إن أغلب القصائد التي نظمها الشعراء بعد هذا التاريخ يغلب عليها عنصر البكاء على عنصر الحماسة و القوة " ¹ و أبرز مثال لتلك القصائد : سينية ابن الأبار البلبني (595 - 658 هـ) التي وجهها إلى أبي زكريا الحفصي عند ما أوفده ابن مردنيش إلى تونس للاستجداد بالملك الحفصي عند حصار بلنسية من طرف الأراجونيين (سنة 635 هـ) ، و التي مطلعها : ²

السَّبِيل
أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن الطريق إلى منجاتها درسا

و هذا المطلع يشع بالفزع الماحق ، و الخطر المحدق بالأندلس ، و انسداد أبواب الأمل في النجاة أو النجدة منذ البداية لأن الطريق إلى (منجاتها درسا) رغم ما توحى به (خيل الله) من طاقة إيمانية لم تسعف الشاعر في الوثوق بنصر الله .. و لهذه القصيدة نظائر في القرن السابع الهجري ، و من أشهرها قصيدة أبي البقاء صالح بن يزيد الرندي (601 - 684 هـ) النونية الروي ، في رثاء مدن الأندلس التي وقعت في أيدي الأعداء .

و في القرن الثامن " كان ابن الخطيب أكبر شاعر حمل لواء ذلك الشعر فقد كان يستجد بملوك العدو ... و شعر ابن الخطيب كانت تملؤه الثقة و الأمل في المستقبل حتى في الوقت الذي يشتد فيه السواد في الأفق و تدلهم الخطوب " ³

و هذه الملاحظة على درجة من الأهمية لأنها تكشف عما كان يؤديه الشعر من دور في المقاومة و الذب عن بيضة الإسلام و منجزات تاريخ حافل بالأمجاد ، في مرحلة شديدة الحرج ، و تكشف عن إيمان شاعرنا برسالة الشعر الحضارية ، و ثقته الكبيرة بقوة الإسلام الذي يحض على التعاون بين المسلمين و لا سيما في أحلك الفترات ، ففوة الأخوة الإسلامية كفيلة بصد أعنف التيارات المتدفقة على أرض الإسلام ، و هي قوة فعالة حقا ، و لكنها للأسف لم تبق عنصرا أساسيا يشد أو اصر

¹ - الطرابسي أحمد أعرب . الأصوات النضالية و الاهزمية في الشعر الأندلسي ، دورية عالم الفكر وزارة الإعلام الكويت : أفريل مايو ، 1981

المجلد 12 ص 150

² - أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاي البلبني : ديوان ابن الأبار : قراءة و تعليق : د/ عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر و ديوان

المطبوعات الجامعية الجزائر ط 2 1406 هـ ، 1986 م ص 395

³ - الطرابسي أحمد أعرب للمع السابق الصفحة نفسها .

المجتمع الأندلسي ، و المغربي في نهاية القرن الثامن و بداية القرن التاسع الهجري إذ ذر قرن الصراع على السلطة بين رجال المملكة النصرية كما هو مبسوط في كتب التاريخ^{الأندلسي}، بمّا مكن آخر الأمر للقشتاليين ، و الأراجونيين من دكّ آخر معاقل الإسلام في الأندلس (غرناطة) ، و أقل نجم ذلك الفردوس المفقود . فما هي المعاني الجهادية التي اعتمد عليها لسان الدين في الاستصراخ بملوك المغرب و مسلميه ؟

ينطلق ابن الخطيب في استجداده بأهل المغرب ، من حقائق إيمانية ، و معطيات واقعية ، مع نبرة فيها كثير من الثقة و الأمل ، يضيف إلى ذلك حنكة سياسية تسمح له باقتناص سجايا السلطان المستغاث به و التتويه بها ، بحيث يكون كعبة يلوذ بها أهل الأندلس الذين تربطهم بأهل المغرب صلات و وثيقة .

أ - من الحقائق الواقعية التي ينطلق منها لسان الدين ، الولاء الذي يكنه الأندلسيون لملوك بني مرين ، و هو ولاء ديني أولا ، و سياسي ثانيا . فقد تكررت النجدات المرينية لأهل غرناطة مرات متعاقبة من ذلك السفارة التي قام بها لسان الدين عن الغني بالله بعد وفاة أبي الحجاج سنة (755 هـ) و التي أراد بها تجديد الولاء لأبي عنان في ظروف تبعث على الظنون ، فرغم أن السلم مع صاحب قشتالة منعقد إلا أنه ينبغي الاحتياط ، و طلب العون من إخوة الدين و في القصيدة التي قدمها لسان الدين بين يدي سفارته ، تلك ، يؤكد حاجة الناس بالأندلس إلى أبي عنان ، فلولا و لولا أباه لخربت غرناطة ، و لما كانت وطننا عامرا ، مطمئنا ، بأهله الذين لم يجدوا أيادي أبي عنان عليهم :

و الناس طرا بأرض أندلس	لولاك ما أوطنوا و لا عمروا
و جملة الأمر أنه وطن	في غير عليك ما له و طر
و من به مذ وصلت حبلهم	ما جحدوا نعمة و لا كفروا ¹

ب - و من الحائق الإيمانية التي يتكى عليها : أن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده ، و أن (خلائف التقوى) هم أهل وراثتها ، لأن سنة الله قد جرت بدفع الناس بعضهم ببعض ، فكل فريق منهم يسعى إلى أن يكون أوفر حظا من غيره في تلك الأرض و التمكن فيها ، يقول لسان الدين من قصيدة يخاطب فيها أبا عنان عند منصرفه من سفارته السابق ذكرها² :

و الأرض إرث و المطامع جمّة	كل يهش إلى التماس نصيب
و خلائف التقوى هم وراثتها	فإليها بالحظ و التعصيب

¹ - ديوان ابن الخطيب : 404/1

² - المصدر نفسه 132/1

ج - و أخوة الإسلام تقتضي مسلمي العدو ، التفضل و العطف على إخوانهم و قد بسطوا لهم باسم الإسلام كف الاستصراخ ، بعد أن بلغ السيل الزبي . و كاد نور الله أن تطفئه الفئة الباغية من الصليبيين الذين ضيقوا على المسلمين كل سبيل و تحكّموا في سكان الأندلس و في هذا المعنى يستهل لسان الدين رسالته إلى أهل المغرب عامة ، بقوله ¹ :

أخواننا لا تنسوا الفضل و العظفا
و قد بلغ السيل الزبي فتداركوا...
فقد كاد نور الله بالكفر أن يُطفا
فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا
تحكم في سكان أندلس العدى
فلهفا على الإسلام ما بينهم لهفا

د- و قد كان لسان الدين مرهف الإحساس بالخطر القادم من أنحاء الجزيرة و حدودها ، فقد كانت ثغرا نازحا غريبا عن إخوة الدين ، يتوجس خوفا من الأعداء في كل حين ، و جهود الغرناطيين وحدها لا تفي بصد الخطر ، و لذلك يتوجه لسان الدين إلى ملوك العدو لِجَدَّةِ هذا الثغر : يقول مخاطبا أبا عنان المريني ² :

يا ناصر الثغر الغريب و أهله
... فانظر بعين العز من ثغر غدا
أنضاء مسغبة وقل خطوب
حذر العدى يرنو بطرف مريب
نادتك أندلس و مجدك ضامن
ألا تخيب لديك في مطلبوب
غصب العدو بلادها و حسامك الماضي الشبا مسترجع المغصوب

هـ - و الأندلس ، كما هي بحاجة إلى المساندة الروحية ، فهي في أمس الحاجة إلى القوة المادية ، قوة السلاح التي تثير في قلوب الأعداء الفزع و الروح ، فالخيول السريعة العدو حتى كأنها سابعة كالطير ، و الرماح المقومة التي تميد في أيدي الفرسان ، كل ذلك مما يخيف الروم و يقلل حدها ؛ يقول مخاطب أبا عنان ، من القصيدة السابقة ³ :

أرها السوابح في المجاز حقيقية
يتأود الأسل المتقف فوقها
من كل قعدة محرب و جنيب
و تجيب صاهلة رغاء نجيب

و - و الأمل بالنصر معقود حتى كأنه واقع لا محالة ، و هنا تبرز النبوة النضالية في استغاثات ابن الخطيب ، فهو لا يحذر من هزيمة منتظرة ، و لا يطيل البكاء و الحزن أمام تكالب الأعداء على الجزيرة ، ولكنه ينفث من روحه المؤمنة الشاعرة في قلوب المسلمين لهيب المرابطة و اليقين بنصر الله المرتقب رغم كل المحاذير ، والمخاوف ، فهو يخاطب أبا عنان في القصيدة نفسها ⁴ :

¹ - المصدر السابق : 677/2

² - المصدر نفسه : 131/1 .

³ - المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

⁴ - المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

و النصر يضحك كل مبسم غرة و الفتح معقود بكل سيب

بل إن قوة اليقين بالنصر لتدفع الشاعر إلى تخيل الروم و قد دب فيهم الوهن حتى صاروا
مأتما بعد عرس ، و حتى رفعت النوادب أصواتها بالعويل وسط أشلاء الروم ، و قد نقلت الخطى وئيدة
مرتميات بين أجساد ممزقة و صلبان ممرغة بالتراب ، و حتى أضحت تلك الأشلاء جزرا للسباع في
ربوع مقفرة ، يقول مخاطبا أبا عنان من القصيدة عينها¹ :

لأكنني بك قد أقت ربوعها قفرا بكر الغزو و التعقيب
و أقت فيها مأتما لكنسه عرس لنسر بالفلاة و ذيب
.... تبكي نوادبها و ينقلن الخطى من شلو طاغية لشلو صليب

ز- و لكن هذه الروح النضالية المؤمنة بالظفر ، لا تتسامى على الواقع و إن كان مؤلما في بعض
الأحيان : فالروح الإيمانية تعترف بالحقائق على أرض الواقع ، و تنطلق منها إلى التغيير بل ربما
كان الواقع بمأساته دافعا قويا إلى المثابرة و الجهاد ، و البذل ، و لذلك يورد ابن الخطيب صورا من
جرائم الصليبيين التي طالت المقدسات كتدنيس المساجد التي هي مواضع التوحيد ، و عبادة الله عند
المسلمين ، أو انتهاك الحرمات كسبي النساء ، و تيتيم لأطفال ، بل تزداد الصورة سواداً عندما تسيل
دماء المسلمين أنهارا ، فتمتزج الدماء بالمياه فلا يشرب المسلمون عندئذ إلا موتا ، يقول لسان الدين
من قصيدته الفائية التي وجهها صدر رسالة إلى كافة المسلمين من المغرب في الاستنفار للجهاد² :

و قد مزجت أمواهما بدمائهن فإن ظمئت لا ري إلا الردى صرفا
فمن معقل حل العدو عقالسه و من مسجد صار الضلال به وقفا
و من غادة بكر جلته يد الجسلا و لم تدر إلا داية قط أو سجفا
و من صبية حمر الحواصل أصبحت تقلب ذعرا بين أعدائها الطرفا

ح - و قد تبلغ نبرة الاستغاثة عند الشاعر درجة من الحدة تتحول معها إلى لوم و تقرير إذ كيف يجوز
لمسلمي المغرب أن ينعموا بالأمن و الاطمئنان و يركنوا إلى النوم في الوقت الذي حرم فيه مسلمو
الأندلس لذة الكرى ! و هل تدنى إيمان أهل المغرب إلى درجة من الضعف أصبحوا معها يستريبون
بوعد الله بالنصر بعدما أضحي ذلك الأمر جليا كأنه ضوء الصبح إذا لاح في الأفق ؟ ! و كيف يعيثر
الكفار في أرض المسلمين فسادا ، و أعداد المسلمين لا حصر لها ؟ ! يقول لسان الدين مخاطبا أهل
المغرب³ :

أنوما و إغفاء على سنة الكرى و ما نام طرف في حماها و لا أغفى .

¹ - ابن الخطيب ، المصدر السابق : 132/1 ، 133 .

² - ابن الخطيب ، المصدر السابق : 677/2 ، 678 .

³ - المصدر نفسه : 678/2 .

... أفي الله شك بعدما وضح الهدى و كيف لضوء الصبح في الأفق أن يخفى
و كيف يعيث الكفر فينا و دوننا قبائل منكم تعجز الحصر و الوصفا

و كما أشاد لسان الدين بدور مملكة بني مرين في مساعدة مسلمي الأندلس فقد نوه من خلال بعض مدائحه بجهود مملكة تلمسان الزيانية في إغاثة مملكة غرناطة الإسلامية من خطر الروم الصليبيين .

و قد عاصر لسان الدين السلطان أبا حمو موسى الزياني ملك تلمسان الذي اشتهر بالكرم ، و كان يتبرع في كل سنة على أهل الأندلس بالمال و الخيل و الزرع و يرى ذلك من الجهاد في سبيل الله تحريراً لأرض الأندلس مستقط رأسه ، من أزمة الأسبان من ذلك المساعدة التي وجهها إلى الأندلس سنة (763 هـ) حيث وجه إليها خمسين ألف قذح من الزرع ، و ثلاثة آلاف من الذهب للكراء عليه من البحر¹ . و قد أشاد لسان الدين بهذا الموقف الجهادي فوجه إليه بشكره ، مشيراً إلى التقاء موسى عليه السلام بالخضر عند مجمع البحرين ، بطنجة كما يذكر بعض المفسرين² ، يقول لسان الدين في ذلك³ :

و قالوا الجزيرة قد صوّحت فقلت غمام الندى ننتظر

إذا و كفت كف "موسى" بها غماما يعود الجناح "الخضر"

و لسان الدين ، هنا ، يورّي على عادته باسم موسى عليه السلام ، و الخضر ، فوجود السلطان أبي حمو موسى ، من شأنه أن يبعث الحياة في الجزيرة التي اصابها القحط ، و المسغبة ، حتى تعود الأرض خضراء ، فعودة الحياة ، و وجوده مقترنان كما أن وجود موسى عليه السلام في رحلته التي يذكرها القرآن الكريم ، في سورة " الكهف " مقترن بوجود الخضر عليه السلام .
و يشيد لسان الدين بهذا الموقف في أبيات أخرى مستوحياً تلك الصورة القرآنية ، مرة أخرى ، و ذلك في قوله⁴ :

لقد زار الجزيرة منك بحر يمد فليس نعرف منه جزرا

أعدت لها بعهدك عهد موسى سميك فهي تثلو منه ذكرا

أقمت جدارها و أفدت كنزا و لو شئت اتخذت عليه أجرا

¹ - عبد الرحمن الجليلي : تاريخ الجزائر العام ، ط 4 ، دار الثقافة بيروت ، 1400هـ ، 1980 م ، ج 2 ، ص 181 - 182 .

² - أنظر في ذلك مثلاً : الكشف للزمخشري 395/2 ، و التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الغرناطي ، الدار العربية الكتاب ، ص 385 .

³ - ديوان ابن الخطيب : 405/1 .

⁴ - المصدر نفسه : الصفحة نفسها ، و الآية الملمح إليها : هي قوله تعالى " ... فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لانتفخت عليه أجراً " (الكهف / 77) .

فأبو حمو تارة بحر لا ينحسر مده ، و تارة يشبه موسى عليه السلام الذي وجد ، في رحلته مع العبد الصالح ، جدارا يريد أن ينقض فأقامه ، و قد أفاد أبو حمو بنجدته للأندلس التي جبر كسرهما ، و أقام بناءها ، أجرا جزيلا عند الله .

3 / صورة الروم :

إذا كان لسان الدين قد أشاء بالدور الجهادي للمسلمين سواء كانوا من أهل الأندلس أم كانوا من أهل العدو ، باعتبارهم يحملون في ذلك الدور ، راية الحق ، و يعلنون كلمة الله تعالى ، فإنه في المقابل لذلك قد خصص جانتبا من شعر المعارك لأوصاف الروم و أخلاقهم باعتبارهم القوة المعادية التي تحمل الصليب و تتهاوض الحق ، و صورة الروم في شعر لسان الدين سوداء قاتمة السواد ، سلبية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، فهم رمز الخيانة و الغدر فقد حاول ” الأدفنش ” ” الفونسو ” نقص العهد الذي بينه و بين السلطان أبي الحجاج ، فقام بعمل ، يأنف منه كبار الملوك ، و لما افتضح أمره ، حاول أن يتصل من هذه القطعة الشنيعة ، ناسيا أن الله يعلم ما تخفي الصدور و أنه لا يخفى عليه شيء :

وفيت و خانوا و الوفاء غريرة و ما يستوي في الدهر واف و غادر
.. لقد لبس ” الأدفنش ” منها ملاءة من اللؤم تأباها الملوك الأكابر
و أسرع ينضو ثوبها متصلا و ريك يدري ما تكن الضمائر¹

و الشيطان هو الذي يملئ ” لطاغية ” الروم ، و يزين له الخيانة ، و يحرم و عليه الوفاء ، و تلك سياسة فيها كثير من ضلال الرأي ، لأن الغدر مرتعه وخيم و اللانذ به خائب :

نكث العهود و غره شيطانه و رأي الوفاء بما وفيت حراما
و إذا تكبت الوفاء سياسة فأضلت الآراء و الأحلاما
فالغدر مرتعه وخيم كلما لاذا امرؤ بحماه خاب و خاما²

و من الصفات التي ترتبط بالخيانة و الغدر ، العجب ، و سوء الظن بالله تعالى :
جرى في مجاري الخزي غير مقصر و هل نهض العجب المخل براكب ؟
و غالب أمر الله جل جلاله و لم يدرك أن الله أغلب غالب³

و هم دائما متربصون بالإسلام و أهله ساعون في النيل منه و الانتقام من أهله الذين لم يكن ذنبهم إلا أنهم نشروا في العالم الحضارة و المبادئ العليا ، و لكن خارت قواهم دون تحقيق أطماعهم :

¹ - ديوان ابن الخطيب 391/1

² - المصدر نفسه 536/2

³ - المصدر نفسه 113/2

و هنت بدين الكفر أطماع قضت أن تقتضى أوتاره و ذحوله¹
و هم رمز لمعدن الشر و الفساد في الكون ألا و هو الشيطان الذي يزين للكافرين أعمالهم ،
ويسعى بينهم بالغرور :

و جاشوا إلى رأي من الكفر فائل و غرهم الشيطان بالله فاغثروا .²
و إذا حاولت شياطين الكفر الاقتراب من أرض الجزيرة ، أرض الإسلام ، صدها عند ذلك
شهاب من الإيمان و العمل الصالح ، و طردتها نفحات صلاة المسلمين و صدقاتهم كأنهم مرده
السماء ، كلما أقترب أحدهم من الملا الأعلى ، وجد له شهابا من الله رسدا :
إن طاف شيطان العدى بسمائها رجمته شهب صلاتها و زكاتها³
و ربما ظهر الروم بمظهر القوة ، بكثرة عددهم ، و قوة عددهم ، إلا أنها كثرة زائفة ، لأنهم
الفئة التي تحارب الله تعالى و تنصر الصليب رمز الشرك ، و لا تنفع القوة العددية الكافرة أمام قوة
المؤمنين المستمدة من إيمانهم بالله ، و ربما أملى الله لهم ليزدادوا إثما ، حتى إذا أخذهم لا يخطئهم ،
لأن الأيام دول :

لا يغررن الروم في إملائهم قدر فأيام الحروب تدول
... و لو انهم ملأوا البسيطة كثرة إن الكثير مع الضلال قليل .
و إذا امرؤ جعل الصليب نصيره دون الإله فإنه مخذول⁴
و إذا كان المسلمون يصدرن عن عقيدة التوحيد و الاعتماد على الله ، فإن الروم عقيدتهم
فاسدة لأنها قائمة على الشرك بالله ، و الوثنية
فإذا استعنت الله و استجدته استجدوا الصليان و الأصناما⁵
و من آثار فساد عقيدتهم اتصافهم بالخوف و الهلع في القتال ، حيث يزلزلون زلزالا شديدا ،
تطيش معه عقولهم ، و تخفق أفئدتهم ، فإذا هموا بنكث عهد المسلمين عاقهم الفرع ، فلم يجدوا كبير
فائدة في انتضاء السيوف ، و إعداد القوى :

قد أدهش الذعر المخيف قلوبهم ودها العقول و زلزل الأقداما
هموا و أفرط رعبهم فتوقفوا فعلام لا تنضى السيوف علاما؟⁶

¹ - المصدر السابق : 477/2 .

² - ديوان لسان الدين : 401/1 .

³ - المصدر نفسه : 172/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 536/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 536/2 .

⁶ - المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

و من المعلوم في سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم أنه انتصر على أعدائه بالرعب و تلك سنة جارية في المؤمنين المقتدين بالرسول صلى الله عليه و سلم ، الذين يحملون لواء الجهاد في سبيل الله ، و منهم أمير المسلمين بالأندلس أبو عبد الله بن أبي الوليد الذي انتصر على القشتاليين سنة (732 هـ) و استعاد منهم ”جبل طارق“ ، و هو ملك مهيب بلغت الروم مهايته ، فحاصر الرعب قلوبهم ، و هم في ديارهم فنصروا عليهم بهيبته قبل سيفه ، و في ذلك يخاطب لسان الدين هذا السلطان قائلا :

بلغت ملوك الروم عنك مهابة فغدت تمج الريق من لهواتها .
لا غرو أن الرعب خامر قلبها فالأسد تخشى و هي في أجماتها .

و نظرا لتلاحق هزائمهم أمام المسلمين ، فإنهم يسارعون إلى طلب الأمان ، و يذعنون إلى إبرام عهود السلم ، راغمة أنوفهم ، خاضعة أعناقهم ، لكثرة ما استحر فيهم من القتل ، وليضيق أنفسهم بالصبر :

حتى إذا سئمت نفوسهم الردى و اعتاص مصطبر و عز عزاء .
وافوا و قد جعلوا الدروع ضراعة إذ لم يكن غير الخضوع و فناء ²

و المسلمون أسرع الناس إلى سلم تحقن فيه الدماء و يرتفع فيه لواء العدل و لذلك ترى ملوك الأندلس لا يمانعون في الاستجابة إلى إبرام عقود السلم إذا ما دعوا إلى ذلك كما فعل أبو الحجاج مع قائد حصن ”كركيول“ حين انهزم أمام جيش المسلمين ، فجعل طلب الأمان دون الموت فمن عليه أبو الحجاج بذلك :

و رأى المنية ربه فهفا إلى طلب الأمان فقيل لا تثربيا ³

و لا تكمل ملامح صورة الروم ، عند لسان الدين إلا بوصمة الهزيمة فهم ، دائما منهزمون أمام جيوش الأندلسيين ، و لصورة الهزيمة جوانب متعددة ، و علامات تدل عليها فمن الآثار المادية لهزائمهم كثرة القتلى ، و الجرحى الذين تدمى كلومهم كأنها أنهار جارية :

تركت أبيات المفارق منهم ترايا و أنهار السيوف بها تجري ⁴

و منها وقوعهم في أيدي المسلمين أسرى لا يرجى لهم سراح:

فبين صريع بالفلاة مجدل طريح و عان لا يرجى سراحه ⁵

¹ - دبران لسان الدين : 171/1 .

² - المصدر نفسه : 94/1 .

³ - المصدر نفسه : 104/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 376/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 220/1 .

و قد تجتمع كثرة عدد القتلى مع الحزن و البكاء في أرض الكفر :
غادرتهم صرعى على عفر الثرى و ملأت أرضهم بكاءً و نحيباً¹
و يستعيد لسان الدين صورة شائعة في الشعر العربي القديم للهزيمة ، و هي سقوط الضحايا
في الثرى أو في البحر لتكون جزرا للسباع و الحيتان و هي أنكر صور الهزيمة :
فتركن أحزاب الصليب كأنما ثملوا بمختوم الرحيق مقدم
تفلي مفارقها المياه كأنها في البحر نائمة و ليس بنوم
صرعى على عفر الرمال وليمة للحوت أو للطير أو للضيغم²
و للهزيمة مظاهر معنوية ، فكم تركت في نفوس الروم من الأسف و الحسرة و كم خلفت من
الأرامل و الأيتام :

و قد تركت في الروم من فتكاتها عداد التيامى و الأيامى الحواسر³
و هي وصمة و خزي لا يمحوه الدهر جعلت ملك الروم يمتلئ غما :
ألبيت ملك الروم عارا باقيا و كسوت غما و جهة و قطوبا⁴
و قد تتخذ بعدا دينيا ، و هو أوقع في النفس ، لأن الحروب بين المسلمين و الإسبان ، كانت
دينية البواعث ، بغض النظر عن العوامل الثانوية كالعوامل السياسية و الاقتصادية التي تكون ذرائع
مباشرة لها . و لذلك يتخذ التعبير عن الحزن بسبب الهزائم التي يلحقها المسلمون بهم ، طقوسا دينية ،
إذ تفرع النواقيس في الكنائس تنبئها للنصارى ، على فداحة الخطب :
و طالت لها الرنات في أرض رومة كما زحفت عند الغناء المزاهر⁵

4 / عوامل النصر :

رأينا في شعر الجهاد عند ابن الخطيب أن جيوش المسلمين ، غالبا ظافرة ، منتصرة ، ففيم
يكن سر تلك القوة التي تحقق النصر ؟ السر في ذلك عند لسان الدين أن المؤمنين ، فوق إعدادهم
للقوة المادية المتمثلة في الأسلحة المختلفة ، فهم يعدون أسلحة معنوية ، إيمانية ، كانت سببا لانتصار
المسلمين في كل تاريخهم ، وفي كل المعارك التي ظفروا بها ... و أول تلك العوامل الروحية :
الدعاء ، هذا العامل الذي ينطوي على قوة ضاربة أشد فتكا من حد السيوف ، لأن الله تعالى قد وعد

¹ - المصدر نفسه 104/1

² - ديوان لسان الدين 536/2 .

³ - المصدر نفسه 390/1 .

⁴ - المصدر نفسه 104/1

⁵ - المصدر نفسه 390/1

المؤمنين بالاستجابة ، بعدما أمرهم بدعائه و التضرع إليه في حال الشدة يقول تعالى : ” أمن يجيب المضطر إذا دعاه و يكشف سوء ... “ (النمل / 62) :

دعاؤك أمضى من مهنده الظبي و سعدك أفضى من سعود الكواكب ¹ .
و ربما كانت عدة الجيش الإسلامي قليلة إذا ما قورنت بقوة جيش الأعداء ، فيكون الدعاء عوضا من المفقود من السلاح :

و إن لم يصب منه السلاح فإنما أصيب بسهم من دعائك صائب ² .
و من تلك العوامل : عناية الله بالمؤمنين ذلك أن قوة المؤمنين مستمدة من قوة إمداد الله لهم ، يقول تعالى مخاطبا نبيه صلى عليه و سلم : ” و ما رميت إذ رميت و لكن الله رمى “ (الأنفال / 17) و لذلك فعلى المؤمنين ألا يستكثروا إلى الأسباب المادية ، و يعلقوا عليها كل آمالهم في الفوز ، و لكنهم مع ذلك أمروا بتوفيرها و الأخذ بها ، مع الاعتماد أولا ، على رفق الله لهم ، و قد تناول لسان الدين هذا المعنى القرآني ، و هو يخاطب أبا الحجاج قائلا ³ :

سيوفك في أغمادها مطمئنة و لكن : سيف ^{الله} دامي المضارب
فتق بالذي أروعك أمر عباده و سل فضله فانه أكرم و اهب
و منها قوة اليقين و الثقة الكاملة بتأييد الله :

فما ضل من كان الإله دليله و ما ذل من حسن اليقين سلاحه ⁴
و منها تأييد الله للمسلمين بالملائكة ، يقول الله تعالى : ” إذ يوحى ريك إلى الملائكة أنني معكم فثبتوا الذين آمنوا ... “ (الأنفال / 12) . و قد كرر لسان الدين هذا المعنى أكثر من مرة في قصائده التي صور فيها معارك المسلمين مع الإسبانين يقول لسان الدين مخاطبا أبا الحجاج ⁵ :

و قدت إليه الجرد و النصر خافق يرف عليها و الملائك أعداد
و يقول كذلك مخاطبا له ، بمناسبة فتحه معقل بني بشير : ⁶
و سلكت للتقوى سبيلا سنهـا علم الملوك أبوك إسماعيل
و رجعت و النصر العزيز مصاحب لك و الملائكة الكرام قبيل

¹ - المصدر السابق : 113/1 .

² - المصدر نفسه : 113/1 .

³ - المصدر نفسه : 221/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 272/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 487/1 .

⁶ - المصدر نفسه : 113/1 .

و منها تسخير الله تعالى جنوده لتأييد المؤمنين ، و هي جنود تأخذ على جيش الأعداء كل السبل ، و هي كتائب لا تدركها الأبصار ، سنطها الله على أعدائه فتهلكهم كما فتك الله تعالى بجيش ألفونسو الحادي عشر ، و هو محاصر لجبل طارق ، و ذلك بانتشار الوباء بين جنوده فهزموا شر هزيمة و هلك الملك ألفونسو فيمن هلك ، و يشير لسان الدين إلى أن سبب انتشار الوباء هو تلوث المياه التي يتخذها ذلك الجيش للشرب ، و في ذلك، يقول¹ :

و لله في طي الوجود كتائب	تدق و تخفى عن عيون الكتائب
تغير على الأنفاس في كل ساعة	و تكمن حتى في مياه المشارب
أخذن عليه الطرق في دار طارق	فما كف عنه الجيش من كف ناهب

5 / وصف الأسلحة :

وصف أسلحة القتال من الموضوعات التي تناولها الشعراء في قصائدهم الحماسية و الحربية ، لأن عدة الحرب أحد أهم عوامل قوة الجيوش ، و لذلك يعنى الشعراء بإبراز هذا الجانب لأنه يمثل مشهدا مليئا بالقوة من مشاهد الصورة العامة للمعركة ، و لأنه يمثل ، من جهة أخرى ، أحد ملامح قوة الممدوح ، و قد تناول ابن الخطيب هذا الغرض في مدائحه ، من خلال تصويره للمعارك التي خاضتها جيوش المسلمين في المغرب و الأندلس ؛ و قد أنصَبَ اهتمام لسان الدين على وصف الخيول ، و السيوف ، و الرماح و السفن ، و هي أسلحة تقليدية ، و نلاحظ أنه لم يلتفت إلى نوع من الأسلحة استخدمته جيوش الأندلسيين و هو المدفع و ربما يكون أبو زكريا بن هذيل أول من وصف هذا النوع من السلاح ”لأن الأندلسيين استعملوا المدفع لأول مرة (سنة 744 هـ)“² ، و لعل عدم وصف لسان الدين لهذا النوع من الأسلحة يعود إلى عدم انتشاره بشكل واسع ، في حروب الغرناطيين مع القشتاليين ، أو لأن لسان الدين يعود ، دائما بخياله إلى التاريخ فيبرز الجيش الغرناطي ، في صورة من القوة مستوحاة من الماضي ، و هي صورة عربية للجيش الذي تشجر فيه الرماح ، و تلمع البيض ، و تصهل الخيول ، و تربد السماء من عجاج المعركة .

أ- الخيول :

تعتبر الخيول أهم سلاح تعتمد عليه الجيوش التقليدية في حروبها و هي رمز للقوة و العزة حتى في حالة السلم : و تأتي في قصائد لسان الدين الجهادية في صورة تشير النخوة و العزة الإسلامية ، و كل أوصافها يشير إلى هذا المعنى : و هي ذات ألوان مختلفة فمنها الخضر كأنها الحبر

¹ - المصدر السابق : 113/1 .

² - د/ مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه ، دار العلم للملايين ، ط 6 ، 1986 ، ص 490 .

و الشقر كأنها الذهب و الحمر كأنها العندم و الشهب التي تبدو في الظلام كأنها بياض في جين فرس أدهم :

من أخضر كالخبر أو من أشقر كالتيبر أو من أحمر كالعندم
أو أشهب إن لاح في غسق الدجى فكأنما هو غرة في أدهم¹

و قد تكون ألوانها ذات وشي متناغم الألوان كأن تكون ذات تحجيل يجتمع فيه البياض و السواد أو تكون أجسامها حمراء و قوائمها شقراء ، و هذه كلها ألوان اشتهرت بها الخيول العربية التي يتأنق الملوك في تزيينها بأنواع الحلبي كأنها الخرائد أو الظباء :

و جاءتك كالآرام تختال في الحلبي جياذ المذاكي و المحجلة الغر .
وراد و شقر واضحات شياتها فأجسامها تير و أرجلها در²

و بالإضافة إلى حسن ألوانها ، فهي رشيقة القدود ، ضاربة البطون ، و ذلك من آيات الخفة في طلب العدو ، و القوة و الاحتمال في المعركة ، و عددها كثير ، كأنها سرب من القطا ، تروع ملك الروم رؤيتها :

و لكن جنبت الجرد قبا بطونها فأقبلن أسرابا كمثل القطى تردي
و ما راع ملك الروم إلا طلوعها بوارق تدعى بالمطهمة الجرد³

و هي تدرك الأعداء بخفتها و سرعتها كأنها كواسر الطيور التي لا تفوتها طرائدها :

عراب كما تتصاع فتح كواسر إذا استعجلوها من مرابطها جريا
حرام عليها أن يفوت قنيصها و لو أنها تبغي الفراقد و الجديا⁴

و هي في سرعتها كالبرق ، إذ تلاحق الأعداء ، كأنها لهم قيد :

من كل برق كالأهله مسرج قيد الأوابد بالثريا ملجم⁵

كما أنها تسابق الرياح و تسبقها :

و من أشقر كالبرق يستبق الصبا و من أشهب يفري أديم الدجى فريا⁶

و هي خيول أعدت للحرب ، تسأم أن تظل في مرابطها حبيسة ، فيصحبها حنق ، تكاد معه أن تهد مرابطها ، و تمزق أعنتها ، يدرك الأعداء إذا سمعوا تصبها لها أن قد حان حينهم :

¹ - ديوان لسان الدين : 537/2 ، 538 .

² - المصدر نفسه : 401/1 .

³ - ديوان لسان الدين : 304/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 776/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 537/2 .

⁶ - المصدر نفسه : 776/2 .

و الخيل تهد مرابطها
... إما سهلت في أرض عدى
و تقد أغيبها حنفا .
فغراب البين بهم نغقا¹

و هي خيل مباركة ، تستوجب المسلمين أن يجعلوا من حوافرها التي تطأ بها الثرى ، محاريب
يعبدون الله فيها ، و يشكرونه :

ألا فاشكروا تلك الكتائب و اجعلوا محاريب ما تبديه منها الحوافر²
ب - السفن :

قد مر بنا أن الغرناطين خاصوا معارك بحرية ضد القشتاليين ، فمن الطبيعي أن يرد وصف
السفن في قصائده التي عرض فيها لجهاد المسلمين ضد الروم ، ذلك لأنهم استخدموا السفن على نطاق
واسع ، و الأسطول الأندلسي يتكون من عدة أنواع منها³ ، و لسان الدين ليس بدعا في هذا الشأن إذ
هو ، في الواقع ، يجري على سنة الشعراء الأندلسيين السابقين له و لا سيما ابن هانئ و ابن دراج .

يستعير لسان الدين التسمية القرآنية للسفن و هي الجواري المنشآت الواردة في قوله تعالى :
” و له الجوار المنشآت في البحر كالأعلام “ (الرحمان /24) و هذا التعبير له دلالاته عند لسان الدين
فهو يوحى بأن هذه السفن آية من بديع صنع الله الدال على قدرته ، و هي قدرة لا قبل للأعداء
بمجابتها لا سيما إذا كانوا يحاربون الله ، و الإسلام :

و لك الجواري المنشآت سوابجا في اليم أمثال الصقور الحوم⁴

و تتميما لهذا المعنى الديني ، يعتمد لسان الدين على أسلوب التورية ليحيل على غرض
إسلامي آخر ، و هو أن هذه السفن جوار رضعت لبان الغزو في سبيل الله ، و نشأت في كنف الإسلام
الحنيف و ستره ، و قد هفت أنفسهن إلى لقاء العدو ، و اتقات الله بنصر الله تعالى :

جوار غذاها الغزو در لبانه و حجبها الإسلام تحت حجاله

هواف إلى حرب العدو و إنما وثقن بنصر الله يوم قتاله⁵

أما صدق هذه الجواري فهو مهج الأعداء ، و طيبها من الدماء المسفوحة فلا تقتضي طالبها
دينار و لا درهما ، فصدّقهن الصدق في الجهاد :

تلك الجواري المنشآت صدّقها مهج العدو و خلوقهن من الدم⁶

¹ - المصدر السابق : 689/2 .

² - المصدر نفسه : 392/1 .

³ - د/ مصطفى الشكعة : الأدب الأندلس موضوعاته و فنونه ، انظر : فقرة سفن الأسطول الأندلسي ، ص 489 و ما بعدها .

⁴ - ديوان لسان الدين : 538/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 485/2 .

⁶ - المصدر نفسه : 538/2 .

و يصف لسان الدين بعد ذلك ألوانها ، و عناصر القوة فيها فهي في الغالب سوداء ، كأنها غريان ، و في ذلك إشارة إلى نوع من السفن التي استخدمها الأسطول الأندلسي ، تعرف ”بالشواني ... و كانت ضخمة الحجم ... و كانت هذه السفن تطلّى بالقار ، و هي من أجل ذلك عرفت بالأغربة أو الغريان“¹ و كما تشبه الغريان و الكواسر في لونها فهي تشبهها في السرعة ، و الانقراض على الأعداء ، كأنها قضاء مبرم سلطه الله عليهم :

فتح القوادم للفنا قد أبرمست أمرا بها كف القضاء المبرم²
و غريان أثباح زجرت سنيحها و يظهر نجاح الأمر في حسن فاله³

و تارة تتحول إلى روض بديع المنظر منسجم الشيات بما تضمه من جنود مقاتلين بأيديهم أغصان ملتفة من كثرة الرماح ، و أوراق خضراء من نصالها . و هنا نلاحظ تدخل الطبيعة الأندلسية لتتحول من عنصر للاستجمام و البهجة إلى عنصر من عناصر القتال و الحرب ، و هذا يدل على أن الشاعر يقاتل بكل كيانه و مقوماته ، و عناصر شخصيته التي و هبها إياه الله تعالى ، و التي استمد بعضها من عناصر الوجود الطبيعي المحيط به . و نلاحظ هذه الصورة الشعرية التي أوردها لسان الدين في وصف قطعة من الأسطول الأندلسي :

وروض سقاء النصر صوب غمامه و دارت عليه مفعمات سجاله
فأغصانه متلفة من رماحه و أوراقه مخضرة من نصاله⁴

ج / السيوف و الرماح :

يأتي وصف السيوف مقترنا بوصف الرماح في الشعر العربي ، لكثرة استخدامهما في الحروب التقليدية ، و قد حرص لسان الدين على إبراز ما لهذا النوع من الأسلحة من تأثير في سير المعركة ، بحيث تظهر في قصائده المدحية التي تعرض فيها لجهاد بني الأحمر للقشتاليين ، تظهر عاملا حاسما ، تتمتع بقوة خارقة في توهين قوى الأعداء و الفتك بهم . و يربط لسان الدين بين السيف و الحق ، إذ أنه لا يشرع إلا لإحقاق الحق ، و إزهاق الباطل ، فالسلطان أبو الحجاج لما رأى أنه يحمل راية الحق ، جرد سيفه على الأعداء ، و قبل ذلك أعد الله له جيشا من حسن الطالع ، والتوفيق :

و شِمت سيوف الحق و الله ناصر و جهزت قبل الجيش جيشا من السعد⁵

¹ - د/مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه ، ص 489 .

² - ديوان لسان الدين : 538/2 .

³ - المصدر نفسه : 485/2 .

⁴ - ديوان لسان الدين : 485/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 304/1 .

و للسيوف و الرماح بعد ذلك صورة تقليدية استوحاها الشاعر من ذاكرته الشعرية : فالسيوف
بيض ، و الرماح سمر ذوابل كأنها غصون ، دلالة على متانتها ، و إحكام صنعها و تارة تكون
السيوف أخطا ، و الأغمد جفونا ، إذا تجردت منها أزهقت الأرواح ، و إذا اهتزت غصون الرماح
سقطت على أبي الحجاج العزة المنبوعة القعساء :

مزق جفون البيض عن أخطاها لتسيل فوق سفارها الحوباء
و اهزز غصون السمر و هي ذوابل تسقط عليك العزة القعساء¹

و بعد انتهاء المعركة تبدو سيوف المسلمين و رماحهم ، قد ضربت بدماء الأعداء ، فتكتسي
لونا جديدا ، موردا و في ذلك علامة على كثرة الضحايا من الروم :

و أقبل منصور اللواء مؤيدا ذوابله قد ضربت و صفاحه²
و قواضبا بيضا سقين دم العدى فبدا على صفحاتها توريده³

و السيوف و الرماح شرهة في طلب العدو ، فالرمح ينضنض لسانه كأنه حية و الصارم يندلق
من غمده نحو الأعداء دون أن يشهد صاحبه :

فالرمح ينضنض من شره لهم و الصارم قد دلقا⁴

و للسيوف افتراس للأعناق ، و الرؤوس ، و للرمح سلهف للقاء الأعداء :

لله قومك و الرماح شواجر و البيض تلتهم الطلى و الهاما⁵

و إذا اشتكت السيوف من الظم ، أوردتها أبو الحجاج دماء الأعداء حتى ترتوي :

و إن شكت مرهفات البيض من ظم فسقها عللا صرفا من العلق⁶

و الرماح أقلام ، تكتب الوقائع التي أوقعها المسلمون بالنصاري :

و تقفت من سمر الرماح ذوابلا بأقلامها فيهم تخط الوقائع⁷

و المعلوم أن السيوف في حالة الحرب تجفو أغمادها ، ولكن هناك حالة واحدة يتألفان فيها ،
و هي حالة السلم ، بين المسلمين و القشتاليين ، حيث تهدأ الظبي ، و تستريح من عناء الحرب ، التي
أنهكت الأعداء فاضطرتهم إلى طلب السلم :

فألفت ما بين الظبي و جفونها و قد أوحشت منهم جفون و أغماد

¹ - المصدر السابق : 95/1 .

² - نفسه : 220/1 .

³ - نفسه : 292/1 .

⁴ - نفسه : 689/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 585/2 .

⁶ - المصدر نفسه : 692/2 .

⁷ - المصدر نفسه : 649/2 .

و أُجْمِمت حد السيف عن مهجاتهم و قد طال منهم من سؤالك ترداد¹

د / الدروع :

تبدو الدروع أقل شأنا لدى لسان الدين فهي تأتي ثانوية بالنسبة للسيوف و الرماح ، ربما لأنها سلاح دفاعي في المقام الأول ، يتفنى بها المقاتل طعنات العدو ، و لذلك فهي لباس سابع يفيض على لابسها الأمن ، لإحكام نسجها و متانة حديدتها إذ تضرب في جذور التاريخ و يتصل نسجها بداود عليه السلام الذي علمه الله تعالى صناعة الدروع ، و أذاب له النحاس ، و امتن عليه بهذه النعم ، فقال تعالى : ” و لقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه و الطير ، و أننا له الحديد . أن أعمل سابغات و قدر في السرّ و اعملوا صالحا إنّي بما تعملون بصير“ (سبا/110) .

يقول لسان الدين ، وهو يعدد الأسلحة التي رصدها أبو الحجاج للأعداء² :

و مُفاضة زَغفا تَضاعف نسجها خَلقاء قدر نسجها داووده

و للدروع مظهر يعجب الأولياء ، و يروع الأعداء ، إذ يبدو الرجال تحتها كأنهم بدور ، تسحب سحباً كثيفة ، تتزلزل لها النفوس المطمئنة ، و تضطرم الأرض نارا :

إذا سحبوا ذيل الدروع إلى الوغى كما تسحب السُّحْبُ البِدور الطوالع

تحركت الأجيال واشتعل الفلا و زلزل من هذي البسيطة و ادع³

و هي توقد عزائم المجاهدين ، و تبشرهم بالنصر المرتقب :

و تبصر سحباً من دروع سوابغ يطير بها عزم و يقدّمها نصر⁴

و تبدو كتائب المسلمين بجنودها الذين استلأموا الحديد ، و قد انجلى غبار المعركة ، كأنها أمواج متدفقة خضراء من تلاؤم زرد الحديد :

كأنك قد ذمّرت كل كتيبة غنائمها بيض و أسالها سمر

إذا ما انجلى عنها الغمام تدافعت على الأرض من ماديتها لُجج خضر⁵

أما في حالة السلم مع الأعداء ، فهي مدارع يلبسها الناس في الأمن و يتحول حلق الحديد إلى برود ترمز إلى السلم و الإطمئنان الذي يوفره السلمون لأنفسهم و لأعدائهم :

و أصبحت الأدرع و هي مدارع و أزداد أوزار الوغى و هي أبراد⁶

1 - المصدر السابق : 272/1 ، 273 .

2 - نفسه : 292/1 .

3 - نفسه : 649/2 .

4 - نفسه : 400/1 .

5 - المصدر نفسه : 401/1 .

6 - المصدر نفسه : 273/1 .

و هكذا رسم صورة القوة الروحية و المادية التي هيأت المسلمين بالأندلس لإحراز الانتصارات المتتالية على أعدائهم : فكيف رسم لسان الدين الصورة المقابلة ، و نعني بها صورة الهزيمة ؟

6 / صورة الانكسار في الشعر لسان الدين :

رأينا عند كلامنا عن الاستغاثة في شعر لسان الدين غلبة النبرة النضالية الواثقة بالنصر و إن تخلف ، على النبرة الانهزامية ، و مع ذلك فلا تخلو القصائد التي نظمها لسان الدين في الهزائم التي لحقت بجيوش المسلمين ، من انكسار نفسي ، و حسرة ممضّة على مصاب المسلمين و لكنها ليست تلك الزفرة الرثائية التي ينفثها المكظوم على فقيد كفن ، و قُبر ، و إنما هي أنّة متوجع على حبيب أصيب إصابات بالغة ، و مع ذلك يُرجى له التئام الجرح ، و استعادة القوى و النهوض من جديد لمواصلة التصدي ، و الزحف ...

تعرض الشاعر لواقعتين هزم فيهما المسلمون ، و كان مصابهم فيهما فادحا ، الأولى : هزيمة الأمير أبي مالك بن السلطان أبي الحسن المريني سنة (740 هـ) ¹ ، و الثانية واقعة طريف سنة (741 هـ) ² و ذلك في قصيدتين الأولى دائية (رقم 180) ، و الثانية فائية (رقم 608) ، و كلتاهما في مدح السلطان أبي الحجاج ، و تتضح معاني الهزيمة عند الشاعر فيما يلي :

أ / المطلع البكائي :

تطالعنا في مستهل القصيدتين ، مقدمة غزلية أقرب ما تكون إلى الرثاء ، يشكو الشاعر فيها الزمان الذي رماه بكل نائبة و سدّد إليه كل سهم ، فأصاب منه مقتلا ، و ذلك بعد أن عز النصير ، وفت في عضده :

ما للزمان رمت نحوي نوائبه فأقصدتني بلا عقل و لا قود .
و سدّد الدهر دوني كل شاحبة زرقاء أصمى شياها فلذة الكبد
سطا عليّ و قد قل النصر و هل يرجى الغناء لدى كف بلاعضد ³

و في مقدمة القصيدة الفائية : يروع الشاعر منظر الوداع ، و داع الأحبة و هل هناك ألم أمض من مفارقة الأحبة ، و الألاف ؟

¹ - الهزم أبو مالك ، و من عوامل هزيمته اتحاد الإسبانيين ، و بارك البابا هذا الاحاد ، انظر : نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان ، ص 127 .

² - واقعة طريف : الهزم فيها أبو الحسن المريني الذي عبر إلى الأندلس لنصرة السلطان أبي الحجاج ، و قدر أن الهزم فيها المسلمون ، أسر فيها ابن السلطان المريني ، و حرمه ، و استشهد فيها والد لسان الدين و أخوه و ذلك في السابع من جمادى الأولى عام (741 هـ) ، انظر : الإحاطة : 180/2 ، النفع : 14 / 6 ، 15 .

³ - ديوان لسان الدين : 276/1 .

غدا تَنْذُ كَتْمًا لِبَعْضِ الَّذِي تَخْفِي

و أَبْصَرْتَ التَّوْدِيْعَ حَقًّا فَلَمْ تَطُقْ

و أَفْطَعُ حَظْبًا مِنْ مَفَارِقَةِ الْإِلْفِ ؟¹

... أَخِيْلَيَّ هَلْ طَعَمَ أَمْرٌ مِنَ النَّوَى

و هكذا يبدو الاستهلال منبئًا بالجو الحزين الذي يرين على القصيدة كاملة و هو استهلال يناسب القصائد الرثائية ، كما سبقت الإشارة .

ب / الهزيمة قضاء من الله تعالى :

اعتبر لسان الدين هزيمة المسلمين "بطريف" قضاء مبرما من الله تعالى لا محيص عنه ، وابتلاء ، منه ليمحص قلوب المؤمنين ، و الاحتجاج بالقدر و الاستكانة إليه ، مما تلجأ إليه الشعوب المستضعفة و المهزومة ، و قد بلغت الأندلس في القرن الثامن الهجري من الضعف السياسي ما جعلها غرضا للمناوئين الصليبيين : القشتاليين ، و الأراجونيين في أكثر من مرة ، بالإضافة إلى التمزق الداخلي ، و لعل أبرز مظهر لذلك التشرنم الانقلاب الذي أودى بدولة الغنسي بالله و جعله يحتمي بملوك المغرب و يظل متربصا هناك مدة ليست بالقصيرة إلى أن تمكن ، أخيرا من استعادة دولته الثانية .

يقول لسان الدين مخاطبا أبا الحجاج بعد تلك الواقعة (واقعة طريف) :²

و لا دفاع لحكم الواحد الصمد

حتى إذا محَّص الله القلوب بها

بحيث لا والد يلوي على ولد

وقفت و الروع قد ماجت جوانبه

ج / الاعتبار بأيام الإسلام :

و إذا كان واقع المسلمين بالأندلس يبعث على الشجن ، فلهم ، في ماضيهم العريق ما يذهب عنهم الغم : فقد انتصر المسلمون بقيادة الرسول صلى الله عليه و سلم في غزوة بدر الكبرى ، و لكنهم ابتلوا ابتلاء شديدا في معركة أحد ، التي نكب فيها المسلمون ببعض رجالهم الصناديد الذين استشهدوا في ذلك اليوم دفاعا عن الإسلام . و لذلك يقرن لسان الدين حال أهل غر ناطة بعد هزيمة طريف ، بحال المسلمين بعد معركة أحد ، من الانكسار بعد الانتصار ، و لذلك لا ينبغي للروم أن يتبجحوا بما نالوا ، لأنه إملاء من الله ، لهم إلى أجل قدره :

فإن ذلك إملاء إلى أمد

لا يغرر الروم ما نالوا و ما فعلوا

بما تقدم في بدر و في أحد³

فللقلوب من الغمء منصرف

د / الحرب سجال :

¹ - المصدر السابق : 673/2 .

² - المصدر نفسه : 277/1 .

³ - المصدر نفسه : 278/1 .

و قد قضت حوادث التاريخ ، و سنن الكون المطردة بأن الأيام دول و الحروب سجال ، و هي قد تهب اليوم ، ما تسترجعه في غد ، و لكن الروم وقع في خلداهم أن انتصارهم ضربة لازب ، غرورا منهم بما حققوا ، و طالما قاد الغرور صاحبه إلى حتفه ، و لسان الدين يستند في هذا المعنى إلى المبدأ القرآني الذي يرشد إليه قوله تعالى : ” إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله و تلك الأيام نداولها بين الناس “ (آل عمران / 140) ، يخاطب لسان الدين أبا الحجاج عقب انهزام الأمير أبي مالك :¹

و غرتهم الحرب السجال و تلمأ يدل غرور السراء إلا على الحتف
و في الكائنة بطريف يقول² :
إن الحروب سجال طالما و هبت في اليوم فرصتها و استرجعت لغد .
هـ / النصر المرتقب :

و في حلقة المحن ، و وسط قتام المعركة الذي يغشى الفلول المنكسرة ينتعش لسان الدين ببارقة أمل ، و تلوح له تباشير الصبح المنبئ بنصر يرتقبه المسلمون على عدوهم : ذلك أن أهل الأندلس قد تعودوا ، بعد الهزيمة أن يفتح الله عليهم ، و ينصرهم على عدوهم إن صدقت منهم العزائم .
و العزم باد و صنع الله مرتقب و الفتح منتظر إن لم يحن فقد
و عادة النصر لا تستببط مقدمها إن لم توافك في سبب فقي أحد³
و / الدين يأخذ بثأره :

إن الحرب ، كما يصورها لسان الدين ، بين الغرناطين و الروم ، حرب دينية ، إنها معركة العقيدة ضد العقيدة ، معركة الإسلام ضد الصليبية ، و لذلك ، يستحث الشاعر ، في القصائد التي تتلوه فيها هزائم جيوش المغاربة و الأندلسيين ، الهمم ، و يدعو قادة المسلمين لأن يثاروا للدين الذي تكالبت عليه الأمم الغازية ، و يحيي في النفوس معاني القوة ، فأهل الأندلس يتوفرون على عدد تردع عدوهم و تقدح عزائمهم ، كما أنهم أهل نخوة ، تأخذهم الحسرة كلما تذكروا أمم الانتكاسات فيحملهم ذلك على الاستعداد للثأر :

فقد آن أخذ الدين منهم بثأره و ما كان جفن الدين في مثلها يغني
و دون مهيب العزم كل مهنسد و خطية سمر و فضفاضة زغف
و أسد غضاب إن تذكرن يومها عضضن بأطراف البنان من اللهف⁴

¹ - المصدر السابق : 675/2 .

² - المصدر نفسه : 277/1 .

³ - المصدر نفسه : 278/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 676/2 .

لقد كادت القصائد التي نظمها لسان الدين في وصف معارك بني نصر ، و أهل المغرب الإسلامي ضد النصارى ، أن تكون ملاحم إسلامية بما ارسنم فيها من روح جهادية عالية ، لا تعرف الخور ، فتزدرى الصعاب ، و لا تفت فيعضدها الهزائم لإيمان الشاعر بأن الحرب سجال ، و أن الأيام دول ، إنها روح نضالية مستعلية بقوة الإيمان ، بالإسلام العظيم .

جمهورية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا : شعر المدائح النبوية : (المولديات) :

إن شعر المدائح النبوية فن قديم في الأدب العربي ، يعود إلى صدر الإسلام ، وقد تحددت ملامحه وسماته الفنية على أيدي شعراء الصحابة رضي الله عنهم كحسان بن ثابت ، و كعب بن زهير ، و من تلاهم من الشعراء في المشرق العربي ، إلى أن أصبح فن البديعيات مقتصرًا على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، في القرن السابع و الثامن الهجريين و لا يخفى ما لبردة البوصيري خاصة من تأثير واضح في الشعر العربي إلى أيامه الأخيرة¹ إلا أن فن المدائح النبوية في المغرب الإسلامي أصبحت له طقوس مميزة ، إذ حرص «سلاطين المغرب و الأندلس على إحياء ليلة ميلاد النبي الكريم ، باحتفالات وفق تقاليد جرى العمل بها ، وفي ليلة الميلاد تعقد جلسات شعرية ، ينشد فيها الشعراء ما جادت به قرائهم في مدح الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، و أطلق على تلك القصائد ، اسم المولديات نسبة إلى مولده (ص) . و بعض ملوك المغرب الإسلامي ، كانوا يقرضون الشعر و يحتفون بأهله ، و لهم في مجال المولديات مشاركة واسعة ، من هؤلاء الملوك أبو حمو موسى الزياني ملك تلمسان الذي كان يتصدر المجلس الذي يقام في تلك المناسبة بقاعة المشور ، و يدعو إليه عليه القوم ، و أهل العلم و الأدب و يوليهم من الإكرام الشيء الكثير² ، و قد انتقلت تلك العادة من المغرب إلى الأندلس ، فيذكر ابن خلدون ، أنه عندما زار الأندلس في عهد الغني بالله ، شهد احتفال الغرناطيين بليلة الميلاد على الطريقة التي شاهدها في المغرب ، و يقول في ذلك : ”و كان يحتفل في الصنيع فيها و الدعوة و إنشاد الشعراء اقتداء بملوك المغرب“³ .

و يعود اهتمام ملوك الإسلام بليلة الميلاد ، إلى أسباب دينية و سياسية ، فقد انتشرت في المجتمع الإسلامي بالمغرب و الأندلس عادات غريبة عن عقائده و لا تمت إلى تاريخه بصلة ، بل هي مستوردة من حضارات أجنبية ، منها الاحتفال بعيد النيروز الفارسي ، و عيد يناير ، و ميلاد عيسى ، و غيرها من الأعياد الغريبة عن روح الإسلام ، فأخذ بعض العلماء على أنفسهم ، أن ينبهوا المسلمين إلى خطورة هذه البدع على دينهم ، و عقيدتهم ، من هؤلاء أبو العباس العزفي من أهل سبة بالمغرب (557 - 633 هـ) ، و الذي ألف لهذا الغرض كتاب : ”الدر المنظم في مولد النبي المعظم“ الذي شرع فيه للاحتفال بمولد النبي الكريم منطلقًا في تشريعه من نصوص الإسلام الصحيحة : القرآن و السنة ليظهر بذلك احتفال المسلمين بالمغرب بالمولد مما خالطه من بدع مضلّة ،

¹ - د/ زكي مبارك : المدائح النبوية في الأدب العربي منشورات المكتبة العربية صيدا بيروت ، د.ت ، ص 196 .

² - د/ عبد المالك مرتاض : حركة الشعر المولدي في تلمسان على عهد أبي حمو الثاني : الأصلة ، العدد 26 ، رجب - شعبان ، 1395 هـ ، جولية - أوت ، 1975 م ، عدد خاص عن تاريخ تلمسان و حضارتها . ص 311 .

³ - ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ، ص 881 .

فأصبح للاحتفال بالمولد معنى فقهي شرعي¹ ، وهذا هو السبب الديني ، أما السياسي ، فإن سلاطين المغرب و الأندلس ، وجدوا في إقبال المسلمين الكبير على إحياء تاريخ الرسول الكريم و سيرته ، مدعاة لإظهار ولائهم للإسلام و لرسوله ، من خلال إقامة الحفلات و المآدب الفخمة ، و استقبال الشعراء و إجازتهم و اتخذوا ذلك وسيلة دعائية لتوطيد أركان ملكهم ، و البحث عن مصدر روعي يعضد سياساتهم ، و يعطي لدولهم الصبغة الشرعية باعتبارهم حماة الإسلام ، و الحاملين للوائه في حروبهم ، بعضهم لبعض أو جهادهم للنصارى و لذلك لا تخلو قصائد الشعر المولدي من إشارات تاريخية سياسية تتعلق بأوضاع الدول الإسلامية في تلك المرحلة إلا القصائد القليلة منها . و قبل أن نتناول المدائح النبوية في شعر لسان الدين : من حيث المعاني التي يدور عليها ، ينبغي أن نقدم الملاحظات الآتية :

أولا : في النشرتين المحققتين لديوان الشاعر * أعني (ديوان لسان الدين) ، و (الصيب الجهام) توجد إحدى عشرة قصيدة ميلادية ، أضاف إلى هذا العدد قصيدة أخرى ، صاحب كتاب "لسان الدين ابن الخطيب حياته ، وفكره و شعره" ، لم يلحقها المحققان بطبعة الديوان . مع أن صاحب (ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني) ، حرص على جمع تراثه الشعري من مصادره المتنوعة ، كالنفاذ ، و الأزهار ، بالإضافة إلى ديوان الصيب ، و كتب لسان الدين الأخرى ، كالإحاطة ، و النفاضة و غيرها ، و هذه القصيدة بائية أولها² :

أصغى إلى الوجد لما جد عاتبه صب له شغل عن يعاتبه

فيكون عدد المولدات المعروف ، عندئذ اثنتي عشرة : و هو عدد قليل قياسا إلى ما نتوقعه من أن لسان الدين شاعر بلاط ، و من المفترض أنه ينشد كل سنة قصيدة بمناسبة ليلة الميلاد ، و قد لبث في ديوان الكتابة ثم في الوزارة و الاستبداد بالدولة أكثر من اثني عشر عاما قطعا ، و بذلك يكون كثير من شعر لسان الدين قد ضاع ضمن النكبة التي حلت بكتبه لما كان لاجئا عند ملوك المغرب .

ثانيا : في ديوان الشاعر مقطوعات عديدة في وصف ساعة المكناة (أو المنجاة)³ ، كان ملوك المغرب يتخذونها ليلة الميلاد ، و هي ساعة رمزية ، تشير إلى عدد ساعات الليل ، كلما مرت ساعة تقدم شاعر السلطان بين يديه بمقطوعة من وحي تلك الساعة . و هي مقطوعات تتعلق بطقوس الاحتفال بليلة الميلاد ، إلا أنها ليست مدائح نبوية فهي أقرب إلى المدح التقليدي أو الوصف و في

¹ - د / عبد الله حمادي : دراسات في الأدب المغربي القديم : دار البعث قسنطينة ط 1 ، 1406 هـ - 1986 م ، ص 222 و ما بعدها .

² - د/عصام قصبي : لسان الدين بن الخطيب : حياته وفكره و شعره ص : 275 و أنظر القصيدة في نفاضة الجراب ، ص 383 و ما بعدها .

³ - هذه الساعة من العمل الفني الذي قام به الموقت أبو الحسن التلمساني الملقب بابن الفحام ، للسلطان أبي عنان المريني ، بمدينة فاس ، و هي آلة من نوع الساعة لتحديد الزمن صنفها صاحبها من طيسان و طسوس نحاسية ، الجليلي : تاريخ الجزائر العام ، ج 2 ، ص 117 .

بعض الأحيان يمتزج الغرضان مع الاعتبار و الوعظ : من ذلك قوله في الساعة الأولى يمدح الغني بالله :¹

ساعة أولى من الليل انقضت شرعت شرع الرضى و افترضت .
إلى أن يقول :

يا ابن نصر يا سمّي المصطفى حكمة الله لك العز اقتضت .
فإذا استهضت في معترك نصره الله تعالى نهضت .

ثالثا : يختلف الشعر المولدي في المغرب الإسلامي عن شعر المدائح النبوية من حيث أن النوع الثاني خالص لمدح الرسول صلى الله عليه و سلم ، و الإشادة بأخلاقه و معجزاته ، و التوسل به و نحو ذلك من المعاني التي يدور عليها هذا الفن ، بينما يضاف إلى هذه المعاني، المدح الذي يتوجه به الشاعر في المولدية ، إلى السلطان و ذلك لأن ظروف نشأة هذا الفن في المغرب الإسلامي ، لم تكن بريئة من الدعاية السياسية كما سبقت الإشارة إليه ، و عادة ما يأتي المدح التقليدي في أعقاب مديح الرسول (ص) ، و من الجدير بالذكر أن معاني هذا المدح تعود في الأغلب إلى معاني الجهاد ، و التقوى ، ونحوهما من المعاني الدينية ، و ذلك انسجاما مع روح المولدية العام الذي محوره شخصية الرسول الكريم بكل ما تحمله من قداسة. و النموذج الصادق لهذا الظاهرة : المولدية التي أنشدها السلطان المريني أبا سالم في فترة إقامة بالمغرب و هي القصيدة (رقم 468) في الديوان و فيها يعرض جانبا من تاريخ الدولة المرينية و يمجّد سلاطينها الذين أوضحو أمور الدين ، و أقاموا العدل في الأرض و أوسعوها كرما ، و أخضعوا أعناق أعداء الإسلام من جلائقة ، و روم ، حتى حموا حرمة الثغر الإسلامي النائي عن قلب العالم الإسلامي، ويخص بالذكر يعقوب بن عبد الحق (696 - 685 هـ) ، و يوسف الناصر بن يعقوب (685 - 706 هـ) ثم السلطان أبا الحسن على المنصور (731 - 752 هـ) الذي تصفه المصادر التاريخية بالعزم و التقوى ، ثم ابنه : أبا سالم إبراهيم بن علي (760 - 762 هـ) الذي أنشده لسان الدين هذه الميلادية ، و التي يستجده فيها ، و يتشفع بقبر أبيه السلطان أبي الحسن أن يساعده في إعادة أمواله التي صودرت منه في غرناطة بعد فراره مع مخدومه الغني الله ، إلى المغرب ، و يمدحه بأنه وريث المجد المريني الذي يستسقى الحمام بأفكه ؛ و نلاحظ أن هذا الجزء من المولدية استغرق ثلاثة و عشرين (23) بيتا ، مما يجعل القصيدة تفتقر إلى الوحدة الموضوعية رغم براعة لسان الدين في "حسن النخلص" من غرض إلى آخر . و قد أوردنا هذه الملاحظة لأننا لا نتعرض لمعاني المدح الواردة في ثنايا المولديات و سوف نبرز كثر اهتمامنا على ما تعلق منها بمديح الرسول صلى الله عليه و سلم فقط ، أما ما يتعلق بغيره من المديح ،

¹ - ديوان لسان الدين : 645/2 .

فسوف نعرض له بتفصيل في الأغراض التقليدية في ديوان لسان الدين . و بعد هذه الملاحظات ،
نعرض ، الآن بنحو من التفصيل لبناء المدحة النبوية عند لسان الدين ، و ما تتضمنه من معاني .
1 - استهلال المدحة النبوية :

يستهل لسان الدين مولدياته بمقدمة ، يذكر فيها معاني الوجد الصوفي على الطريقة الرمزية ،
محاكيا بذلك الشعراء السابقين له في هذا الميدان فنراه يكثر من ذكر المواضع المشتهرة في الشعر
العربي ، أماكن نجد ، و الحجاز بأسلوب يذكرنا بحجازيات الشريف الرضي¹ ، و هي البقاع التي
تحيط بمدينة الرسول صلى الله عليه و سلم ، و ما كان في طريق المرتحل إليها ، إذ كل ما كان
مرتبطا بسبب إلى مدينته ، فحق على الشاعر ، أن يتخذ وسيلة شعرية للوصول ، فنراه مثلا يذكر
هذه المواضع التي ترمز إلى معاني صوفية ، كالحمي ، و زمزم ، و الحطيم ، و الغضا و الغور ،
و الثنية ، و كلها مواضع ذات سبب متصل بمدينة النبي الكريم ، يقول لسان الدين من القصيدة التي
توجه بها إلى السلطان أبي سالم المريبي² :

كفاني و حسبي أن يهب نسيمه	إن فانتني ظل الحمى ونعيمه
فزمزمه دمعي و جسمي حطيمه	و يقنعني أني به متكيف
فيقعه فوق الغضا و يقيمه	يعود ذكر من سكن الغضا
و لا شاقني من وحش و جرة ريمه	... و ما هاجني بالغور قد مرّح
من الثغر يبدو موهنا فيشيمه	و لا سهرت عيني لبرق ثنية

و نلاحظ أن هذه المواضع التي ذكرها الشاعر قد امتزجت بروحه ، و أضحت جزءا من كيانه
فزمزم يمتح من دموع الشاعر ، و الحطيم ، ذلك المكان المقدس من مناسك الحج ، ما هو إلا جسم
الشاعر ، نعم لم يبرح الشاعر الأندلس فجسمه هناك ، على الحقيقة ، و لكن على الحقيقة الصوفية قد
تعطر بنسائم (الحمى) .

و في مولدية أخرى ، نراه يستهل بموضع من مواضع المدينة المنورة أقام به النبي أول
مسجد في الإسلام أول ما أقام بها وهو قباء، يقول بعد بيتين من المقدمة ، و الضمير لامرأة ذكرت
فيها³ :

و في قباب قبا قامت لنا بقبا طرازها مذهب في حسن تزيين

¹ - انظر مثلا : د/ زكي مبارك : عبقرية الشريف الرضي منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا، بيروت ، د ج 2 ص 124 و ما بعدها .

² - ديوان لسان الدين : 549/2 .

³ - ديوان لسان الدين : 611/2 .

هذه المرأة التي حطت خيامها بقباء ، وبرزت في أحسن زينة ، أتراها تعرضت للشاعر أم تهيأت لزيارة الرسول (ص) ؟ و البرق انذني يلوح من نجد ، يزيد من تباريح شوق الشاعر إلى الحبيب :

تألق نجديا فأذكرني نجدا و هاج لي الشوق المبرح و الوجد¹

أما البرق الذي يلوح من مطلع الوحي ، لمن نزحت به الدار وشط به المزار ، فهو يستحث المطايا ، لتغذ السير ، كأنها سفائن أبحرت في بحر من الآل ، رغم ما بها من جهد لما تلقاه في تسيارها و كأن البرق إذا بدت تباشيره من مطلع الوحي ، نداء روعي ، لا يملك معه الشاعر إلا أن يليه .

أثار سرها و الديار نوازح سنا بارق من مطلع الوحي لأثح

سفائن تستف الفلا فكأنها سفائن في بحر السراب لوائح

إليك رسول الله شددت نسوعها و غادرها الإدلاج و هي طلالح²

و بالإضافة إلى المطالع التي يذكر فيها لسان الدين الموضع التي يرتبط ذكرها بشعائر مقدسة فإنه يستهل بعض مدائحه النبوية ، واعظا و تائبا منيبا ، إلى ربه ، من رعونات الشباب ، و ماله لا يفعل ، و قد جاءه النذير ، و وخط الشيب مفرقه و الشيب من أكبر الزواجر ، كما أنه أبعد في نصح عن التهم ، يقول لسان^{الدين} في مقدمة بعض مولدياته بعد أبيات غزلية³ :

وركضت طرف اللهو في شأو الصبا مرحا فجزت مدى النعيم بعيدا

ما لي و تذكر الصبا و الصبا و موافقا عند الهوى و عهدا ؟

و صباح شيب الفود لاح بمفرقي فغدوت من فقد الصبا مفؤودا

ثم يشير لسان الدين إلى فلسفة النفس و علاقتها بالجسد ، أو عالم الروح و عالم المادة : فحقيقة النفس و ماهيتها أنها ذات طبيعة نورانية و هي ترقى بالطاعات و الرياضة الروحية ، و تشرق بنور الرحمان ، كما أنها تظلم بدران الجسد ، و ذلك إذا تركت عالمها النوراني ، و ولغت في المعاصي و غاصت في لجج الهوى ، و أثرت شيحا مظلما يضاد ماهيتها النورانية ، و ابتعدت عن طبيعتها اللطيفة :

إنا إلى الرحمان منّا أنفسا بُؤِنَ من ظلم الجسد لحودا

نسيت عوالمها الكرام فنورها تَسْتَامُه أيدي الهوى بتديدا

و استوثرت شيحا خلاء لم زل لخفي معناها الأثير ضديدا⁴

¹ - المصدر السابق : 347/1 .

² - المصدر نفسه : 224/1 .

³ - المصدر نفسه : 351/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 351/1 .

ثم يقارن لسان الدين بين حالتين من حالات النفس متناقضتين فينما هي تهمل من مورد النبوة
المعين ، إذا بها ترد مستنفا أجاجا رنفته مادة المعاصي !

ترد الأجاج مرتقا و لطالما وردت بأكناف اعذيب برودا¹

و لكن هل يميل لسان الدين في هذا المعنى الفلسفي إلى الزهد الهندي القائم على تعذيب
الجسد ، و اعتباره لعنة على الروح ؟ كما يذهب إليه أبو العلاء المعري² في طرحه لكل متعة
جسدية ؟ لا نميل إلى ذلك ، لأن اعتباره الجسد قبرا للروح ، مقيد باقتراف الجسد للمعصية ، فالجالب
لهذا الوصف في الحقيقة ، هو المعاصي ، و الأهواء فلا لعنة على الجسد ، إذا كان مسخرا لعبادة الله
سبحانه ، هذا المعنى إسلامي لا غبار عليه ، و قد كان أهل الزهد من السُّنِّيِّين يحذرون من المعاصي
و الشهوات التي تجلب للنفس الكدرة ، و الظلمة و تبتعد بها عن لطافة العبودية ، ورقة الرياضة
الروحية . و كانوا لا يرون الزهد في تعذيب الجسد و لا يرونه معوقا للنفس في ترقبها في صفات
الكمال ، و سوف يعود لسان الدين إلى بسط هذه المعاني الزهدية في ثنايا القصيدة . و نحن نقصر
الكلام هنا على ما رد منها في مقدمات القصائد المولدية .

و يستهل بعض مولدياته بمقدمة أشبه ما تكون بالمقدمة الغزلية على الطريقة الصوفية
الرامية ، حيث يذكر الشاعر ، المحبوب و الوجد ، و الشوق إلى الحبيب ، و حالة الحزن الذي يملكه
شوقا إليه ، و المقصود في الغالب بالمحبوب هو الرسول صلى الله عليه و سلم ، و إنما يكون ذلك
على طريق الرمز الصوفي على الأسلوب الذي نجده عند ابن النارض، مثلا ، الذي يعد إماما من أئمة
الشعر الصوفي ، و من هذه المقدمات ما بدأه مولدية طويلة بلغت (95) خمسة و تسعين بيتا ، قائلا³

ما على القلب بعدكم من جناح أن يرى طائرا يغير جناح
و على الشوق أن يهب إذا هب بأنفاسكم نسيم الصباح
.. ضايقتني فيكم صروف الليالي و استدارت على دور الوشاح
و سقتني كأس الفراق دهاقا في اغتباق مواصل باصطباح
و استباححت من جدتي و فتائي حرما لم أخله بالمستباح

فالشاعر يصور حالة الشوق الجارف ، إلى الحبيب ، و لم يكن مستكرا أن يطير قلبه ، دون
أن يسبح بجناحه في الجو ، و هو شوق مستديم يعاوده كلما هبت نسائم الصباح ، ثم يتحول الشوق مع
كثرة الصروف إلى أرق ، و ألم ممض ، ينغص عليه ملذاته ، ثم أقضت الصروف شبابه و صيرته

¹ - المصدر السابق : الموضع نفسه .

² - انظر : "طه حسين" تجديد ذكرى أبي العلاء ضمن كتاب : من تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 4 ، يوليو 1988 ،

ج 3 ، ص 534 .

³ - ديوان لسان الدين : 250/1 ، 251 .

جسما ناحلا ، و الواقع أن الشاعر يعرض هنا حالة من الوجد الصوفي الخالص ، عندما يتحول الحب عنده إلى شوق ، ثم إلى أرق ، و ضنى قلم يبق إلا الفناء و هي المرحلة الأخيرة في رحلة الحب الصوفي .

و نلاحظ أن مقدمات هذه المولديات . ذات طابع زهدي ، و صوفي ، و هذا في الواقع أمر طبيعي لأن الشاعر يتوجه بهذه المدائح إلى خاتم الأنبياء و الرسل ، محمد صلى الله عليه و سلم أعظم من مدحه الشعراء قاطبة و هو ممدوح لا كغيره من الممدوحين ، فكان خليقا بالشاعر أن يكون بارع الاستهلال الذي يناسب مقام الممدوح ، فيرمز فيه ، و يلوّح ، أو يعتبر ، و ينبس ، و سنرى عند تحليلنا للمعاني التي عرض لها لسان الدين في قصائده النبوية هذا المنحى الصوفي ، الزهدي الذي لا تكاد تخلو منه قصيدة ، و لسان الدين ليس بدعا في هذا فقد نشطت الحياة الروحية في الأندلس في القرن الثامن الهجري نشاطا جعل الشعر يستجيب له و يسير في ركابه ، ثم إن شعر المدائح النبوية في مشرق العالم الإسلامي و مغربه ، من الفنون الشعرية التي أذاعها التصوف كما يرى بحق زكي مبارك¹ .

2 - شمائل الرسول - صلى الله عليه و سلم :

من الأسس التي يتألف منها بناء المدحة النبوية عند لسان الدين ما خص به النبي صلى الله عليه و سلم - من كريم السمائل ، و محاسن الآداب ، و ما فضله الله به على بقية خلقه ، خلقا و خلقا و ما ألقى عليه من المهابة ، و ما أكرمه به من الكرامات ، و ما عصمه به فطهر ظاهره و باطنه و ما خصه الله به يوم القيامة من المقام المحمود الذي يقومه بين يدي ربه حيث لا يؤذن لبشر دونه أن يكون شفيعا للمؤمنين ، ثم إظهار دينه على كل دين سواه .

و أول هذه السمائل و السجايا ما ورد في القرآن الكريم في حمد هذا النبي الكريم و التتويبه بخلقه العظيم ، و قد أشار لسان الدين إلى هذا التكريم الإلهي لنبيه تلميحاً مرة ، و تصريحاً مرة أخرى فمن تلميح قوله² :

فضلت النبيين الكرام مزية و كم بين "رب أشرح" و بين "ألم نشرح"

فقد لمح في الشطر الثاني إلى قول الله تعالى في سورة الشرح : " ألم نشرح لك صدرك و وضعنا عنك وزرك ... " (السورة (الشرح / 2و1) و شرح صدره صلى الله عليه و سلم - هو توسيعه "و المراد بالصدر هنا القلب ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : شرحه بنور الإسلام ، و قلل سهل : بنور الرسالة ، و قال الحسن : ملأه حكما و علما"³ .

¹ - زكي مبارك : المدائح النبوية في الأدب العربي ، ص 17 .

² - ديوان لسان الدين : 240/1 .

³ - القاضي أبو الفضل عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت ، ج 1 ، ص 18 .

و من تصريحه قوله من مرادية أخرى¹

لك الخلق الأرضي الذي بان فضله و مجدك في الذكر العظيم عظيمه

و ثناء الله تعالى على خلق الرسول ، قد ورد في آيات عديدة أكثر من أن تحصى ، أوردها القاضي عياض في كتاب الشفاء في الباب الأول : المتضمن ” ثناء الله تعالى عليه ، و إظهار قدره لديه “² من ذلك قوله تعالى : ” و إنك لعلى خلق عظيم “ (القلم/4) و هي آية جامعة لكل محاسن الأخلاق . و من الشمائل النبوية التي وردت في مولديات لسان الدين : خلق الصدق و الأمانة ، و هذان الخلقان من خصائص النبوة : و لذلك يأتيان عادة مرتبطين في الذكر ، و قد ذكرهما لسان الدين بقوله³ :

و بالأفق الأعلى من العرش قد سمت
رسول البرايا جاء بالصدق فأمّحت
مبلغهم أهدى رسالات ربهــــــــــــــــم
سجاياه يالله تلك السجائــــــــح
بنور هداه التّرهات الصحاصح
أمين على الإسلام في الله ناصح

و هذه السجايا متصلة بأسباب علوية أدبه بها ربه ، إذ المعلوم من سيرة الرسول -صلى الله عليه و سلم- أنه لم يتأدب بأستاذ ولم يأخذ عن حكيم ، و من أعظم تلك السجايا : الصدق فيما أتى به من الهدى الذي أبطل به الخرافات و الأباطيل ، و ترتبط بالصدق ، كما أشرنا ، الأمانة في التبليغ ، و النصح للناس .

و بالإضافة إلى الصدق و الأمانة ، فهناك خلق الرحمة الذي اتصف به النبي صلى الله عليه و سلم ، و ذلك أنه رحمة سابغة شملت العالمين جميعا لأنه بعث هاديا ، و نورا مبينا ، لهم أجمعين ، و غيثا مدرارا أغدقه الله على الكون :

أي غيث من رحمة الله هام و سراج يهديه وضاح⁴

و مع الرحمة ، فقد آتاه الله الحكمة ، و الحجة البالغة ، بل هو نفسه حجة الله على الناس ، و هو معدن الحكمة و أصلها ، و هو كذلك نور من الله :

حجة الله حكمة الله ، نور اللهــــــــــــــــ في كل غاية و افتتاح⁵

و النور يستقطب المركز في الفكر الصوفي ، و لذلك نرى لسان الدين يقرن نور الرسول صلى الله عليه و سلم بنور الله تعالى : و ذلك أن النور سر منبهم لا تدرك ماهيته ، و إنما تدرك آثاره

¹ - ديوان لسان الدين : 550/2 .

² - الشفا : 13/1 .

³ - ديوان لسان الدين : 225/1 .

⁴ - ديوان لسان الدين : 253/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 253/1 .

فمحور شخصية الرسول أنها شخصية نورانية ، يعجز العقل الإنساني عن تحليلها مهما أوتي من قدرة و براعة ، و يعجز الخيال عن وصفها مهما أوتي من السعة و الشمول ، و لذلك نرى لسان الدين يعبر عن عجزه عن الوفاء بمدح هذا النبي حق المدح بعدما مدحته آيات الكتاب العزيز ، و طالما كانت النفوس عاجزة عن إدراك الحقيقة فإن الحق سبحانه قد مثل لنوره بمثل المشكاة و المصباح في سورة النور بقوله تعالى ”الله نور السماوات و الأرض . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجه كأنها كوكب دريُّ يُوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية و لا غربية“ (النور/35) و يشير لسان الدين إلى هذا بقوله ¹ :

مدحتك الآيات يا خاتم الرسائل فمن لي من بعدها بامتداح
و لعجز النفوس عن درك الحق و إيقافها و قوف اقتضاح
مثل الله نوره في المثاني بمثل المشكاة و المصباح

و إلى الرحمة أيضا ، يشير لسان الدين بقوله ² :

عليك صلاة الله ياخير راحم و أشفق من يثني على رافة كيدا

و من أجل شمائل النبي - ص - الصبر : فقد صبر على أذى قومه ، و تحمل مشقات دعوته بجلد كبير ، و رغم أن الله أيده بالمعجزات الباهرة كأنها الشمس في الوضوح إلا أن قومه أقاموا بينها و بينهم حجابا صفيقا حجبهم عن الإيمان بها ... و مع ذلك فقد احتمل الرسول ذلك و لم يكن صاددا له عن المضي في سبيل دعوته صابرا محتسبا :

و كم قد تجشمت الخطوب كوالحا و صابرت ليل الروع و هو قد اُرْبِدًا

و كم قد جلوت المعجزات عليهم شموسا أقاموا دونها اللبس و الجحدا ³

و منها هدايته للخلق و إنقاذهم من المصير إلى النار و لولا بعثة لساد الضلال و الفساد في الأرض ، و لعِدَّت الأوثان من دون الله ، و لتمادت الأهواء في طغيانها ، و انتشرت الحروب بين الدول و الشعوب ، و صار الظلم أساس العلاقات الإنسانية فاستعبد الناس ، و أذلهم ، و جعل أحرارهم عبيدا لكن رحمة الله أبت إلا أن تزول تلك المفاصد ، و أن يؤلف بين قلوب العرب خاصة ، و الشعوب عامة ، بأن بعث إليهم هذا النبي ، و في ذلك يقول لسان الدين ⁴ :

فلولاك ما بان الضلال من الهدى و لا امتاز في الأرض المكب من الأهدى

و لما محت آي الشرائع فترة و أصبحت الأهواء لا تعرف القصدا

¹ - المصدر السابق : 254/1 .

² - المصدر نفسه : 349/1 .

³ - المصدر نفسه : 356 /1 .

⁴ - المصدر نفسه : 355/1 .

و تَعْبُدُ مِنْ دُونِ الْإِلَهِ حَجَارَةً
طَغَامٌ رَجَالٌ يَجْعَلُونَ لَهُ نَسْأَةً
و قد شنت الغارات من كل تلة
فأصبح حر القوم عن كُتُبِ عباد
أراد بك الله انحكام شتاتهم
و سل وشيكا من صدورهم الحقا

و بذلك يكون فضل الرسول على المشركين ، و غيرهم ممن انحرف عن طريق الهدى ،
فأشرف على هوة من النار ، فضلا عظيما لا يقوم الشكر بحقه و أي جزاء يعدل إنقاذ البشرية من
العذاب الإلهي ؟ و في ذلك يقول لسان الدين ¹ :

بماذا عسى يجزيك هاو على شفا من النار قد أسكنته بعدها الخلا ؟

عليك صلاة الله يا خير مرسل و أكرم هاد أوضح الحق و الرشدا

و مما خص به النبي صلى الله عليه و سلم من التكريم ، أن الله تعالى نصر دينه و أظهره
على ما سواه ، و أزر جنده ، فبلغت دعوته أقطار العالم القديم ، و طوقت جيوش تلك الربوع ،
فتحت بلاد العراق ، و الشام ، كما فتحت بلاد الهند و الصين بل وصلت إلى جبال (التبت) ، حتى
أصبحت في مواجهة السد الذي بناه الأسكندر ، و الذي ذكر في القرآن باسم ” ذي القرنين “
فنشرت دين الحق ، و قوضت ممالك الكفر ، و أقامت دولة الإسلام :

و فاض على الأديان دنيك و احتوت جنودك أقصى الشام و الصين و الهندا

و أنتحت على ملك العراقيين و انتهت (بثبت) حتى واجهت خيلها السدا²

و نلاحظ أن لسان الدين ، هنا ، لا يقرر حقائق تاريخية أولا يقصد إلى ذلك على وجه الدقة ،
و إنما جره إلى ذكر بلاد التبت ، و سد أجوج و مأجوج مبالغاته ، من جهة ، و تماديه في التبجح
بتقافته التاريخية من جهة أخرى .

و قد أشار لسان الدين في مَوْلِدِيَيْنِ إلى شرف نسب الرسول صلى الله عليه و سلم إذ إنه
مختار من بني هاشم أشرف قريش و العرب جميعا ، و يشير لسان الدين كذلك إلى ما تميزوا به من
جوارهم لبيت الله الحرام ، و حسن بلائهم في الحروب ، و نشأتهم على الفروسية ، و خوض الوقائع ،
و أن هذا المجد و الفخار متوارث فيهم غير منقطع الصلة إذ يتوارثه الأبناء عن الآباء كإبراهيم عن كابر
و لسان الدين يشير إلى الحديث المأثور عن النبي - ص - في شرف نسبه و أنه من خيار ، و هو
قوله صلى الله عليه و سلم : ” إن الله اصطفى من ولد آدم إسماعيل و اصطفى من ولد إسماعيل بنو
كنانة و اصطفى من بني كنانة قريشا ، و اصطفى من قريش بنو هاشم و اصطفاني من بني هاشم “³

¹ - المصدر السابق : 349/1

² - المصدر نفسه : 355/1 ، 356 .

³ - الحديث في الشفا : للقاضي عياض ، 82/1

و في ذلك يقول لسان الدين¹ :

و المنتقى من سر هاشم في الذرى حيث استقر ندى الفخار صعودا
جيران بيت الله و العرب الألى أضحوا على قنن النجوم قعودا
تخذوا السيوف تمانما لوليدهم و الحرب ظنرا و السروج مهودا
و حوى الكبير فخاره عن كابر و توارث الأبناء فيه جدودا

و عند لسان الدين ، كما هو عند كل مسلم ، فإن الرسول قد بلغ منتهى الكمال البشري ، ليكون قدوة للمؤمنين و ذلك أنه حاز من الفضائل أرقاها و أكملها و تنزه عن الدنيا ، بل عصم منها فلم يتعلق منها بشيء :

خصك الله بالكمال وزند الكون لم تقترن بكف اقتداح²

و يعلل لسان الدين سبب هذا الكمال الخلقى ، لرسول الله ، بأن الله تعالى قد طهر قلبه تطهيرا من كل إثم ، أو نقیصة ، و هو يشير في هذا الشأن إلى حادثة شق صدره صلى الله عليه و سلم و التي روتها كتب السير و الشمائل النبوية : إذ جاء جبريل عليه السلام ” و شق قلبه صغيرا و استخرج منه علقة و قال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله و ملأه حكمة و إيمانا“³ و يستنتج علماء العقيدة من هذه الواقعة أن النبي معصوم من الكفر و ما يقترن به من أعمال قبل البعثة ، بله أن يكون معصوما منها بعدها ، فالنبي آية الطهارة و مثال النقاء و الكمال البشري في هذه الأرض ، و قد ردد لسان الدين هذا المعنى أكثر من مرة فمن ذلك قوله⁴ :

شقه الروح ثم طهر منه القلب من بعد بالبرود القراح .

و قوله أيضا⁵ :

و طهر منك القلب لما استخصه فجلله نورا و أوسعہ رشدا

و إذا كان الأنبياء الكرام هم المثل الأعلى لمن أرسلوا إليهم فإن الرسول صلى الله عليه و سلم هو المثل الأعلى في الأنبياء أنفسهم⁶ فقد فضله الله تعالى على الأنبياء الكرام ، و إلى ذلك يشير لسان الدين بقوله⁷ :

¹ - ديوان لسان الدين : 352/1 .

² - المصدر نفسه : 255/1 .

³ - القاضي عياض : الشفا ، 110/2 ، 111 .

⁴ - ديوان لسان الدين : 255/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 348/1 .

⁶ - القاضي عياض : الشفا ، 226/1 و انظر أيضا : حوجة كمال الدين : المثل الأعلى في الأنبياء ، تعريب : أمين محمود الشريف ط 1 . دار

الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1409 هـ ، 1989م ، ص 60 .

⁷ - ديوان لسان الدين : 240 / 1 .

فضلت النبيين الكرام مزية و كم بين "رب اشرح" و بين "ألم نشرح" يومئذ إلى قول الله تعالى مخاطبا نبيه محمدا (ص) : " ألم نشرح لك صدرك" (الشرح /1) ، و قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : " قال رب اشرح لي صدري" (طه /25) فمحمدا (ص) شرح الله صدره بينما موسى عليه السلام هو الذي سأل الله أن يشرح صدره ، و من شرح الله صدره أفضل ممن سأل الله ذلك ، و يشير لسان الدين إلى هذا المعنى بقوله كذلك¹ :

فقولا رسول الله يا خير خلقه و أكرم مختار أبان به الرشدا
و مما خص الله به نبيه ، كونه علة هذا الكون ، الذي خلقه الله من أجله ، و قد وجد الرسول (ص) قبل أن يخلق آدم عليه السلام بل قبل خلق الكون كله ، و قد ردد لسان الدين هذا المعنى أكثر من مرة ، كقوله² :

تقدمت مختارا تأخرت مبعثا فقد شملت علياوك القبل و البعدا
و علة هذا الكون أنت و كلما أعاد فأنت القصد فيه و ما أبدى
و هل هو إلا مظهر أنت سره ليمتاز في الخلق المكب من الأهدى
فالرسول (ص) تقدم على الأنبياء في اصطفائه ، إلا أنه تأخر عنهم في البعثة و هو السر ، وراء خلق الله لهذا الكون فكل شيء خلق فلأجله خلق ، و هو المقصود به فهو يمثل القطب و المركز بالنسبة لكل المخلوقات و إلى هذا المعنى يشير لسان الدين بقوله³ :

خصك الله بالكمال و زند الكون لم تقترن بكف اقتداح
قبل أن يوجد الوجود و أن تتحف بالنور ظلما الأشباح
فقد خصه الله بالنبوة قبل إبداع الكون ، و قبل أن ينفخ الله من روحه في الإنسان الذي خلقه من طين ، فصار بشرا سويا ، و في مقطوعة من بيتين أشار لسان الدين إلى هذه المسألة بقوله⁴ :

يا مصطفى من قبل نشأة آدم و الكون لم تفتح له أغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعدما أتى على أخلاقك الخلاق
و يستند ابن الخطيب في هذه المسألة إلى الآثار الواردة فيها ، منها ما رواه القاضي عياض أن الصحابة سألوا رسول الله (ص) : متى وجبت لك النبوة ؟ قال : " و آدم بين الروح و الجسد" ،¹ ثم أنشد أبياتا للعباس بن عبد المطلب في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم يشير فيها إلى هذا الحديث .

¹ - المصدر السابق : 355/1 .

² - المصدر نفسه : 348/1 .

³ - المصدر نفسه : 255/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 715/2 .

و إذا كان النبي الكريم قد خص بالتكريم و التفضيل في الدنيا ، فإنه قد أضيف إلى هذا التكريم فضل آخر أُعدَّ له يوم القيامة ، يوم يحشر الله عباده للعرض و الحساب و هذا الفضل هو المقام المحمود الذي وعد به ، ألا و هو الشفاعة الكبرى ، إذ يشفع للمؤمنين ، و يسأل ربه أن يتجاوز عنهم حين يحشر الناس و عليهم تذلل و خضوع ، و نفوسهم ممثلة خشية من عقاب الله ، و حينئذ يتوجهون إلى الرسول (ص) الذي يكون له مقام خاص عند ربه ، مؤملين أن يتشفع لهم عند مولاه ، و هو فضل تميز به الرسول (ص) على كل البشر ، و في هذا يقول لسان الدين² :

الخلق يوم العرض جاهك تعتقي تأتي على قدم الصغار و فودا
متأهبين إلى الحساب ذواهلا متهيبين الموقف الموعودا
راجين فيه لديك فضل شفاعاة و مؤملين مقامك المحمودا

و لذلك فلسان الدين يتوجه إلى رسول الله و يسأله أن يكون شفيعا له لعله يفوز بأجر غير ممنون :

و كن شفيعي من النار يا أملي لعل أحظى بأجر غير ممنون³

و يلتفت لسان الدين في المولدية السابقة ، إلى أسماء الرسول (ص) و ما فيها من معاني التكريم و الفضيلة ، و هي أسماء مشتقة من طبيعة رسالة النبي (ص) و كونه خاتمة رسالات السماء ، و من هذه الأسماء قول لسان الدين⁴ :

حاشر الخلق عاقب الرسل و المثبت بالله بعدهم و الماحي

فهو الحاشر ، و العاقب ، و الماحي ، و قد شرح القاضي عياض هذه الأسماء في سياق روايته لحديث رسول الله (ص) الذي يقول فيه : "لي خمسة أسماء : أنا محمد ، و أنا أحمد و أنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر و أنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي و أنا العاقب"⁵ . و من أسماء الرسول كذلك (طه) ، و (ياسين) . و في ذلك يقول لسان الدين⁶ :

و الطبي و الضب جاءا يشهدان بأن لا شيء أعظم من طه و ياسين

و الملاحظ أن هذين الاسمين ، هما اسمان لسورتين من سور القرآن الكريم ، و من الحروف المقطعة المتشابهة ، التي اختلف المفسرون في تأويلها ، و يذهب لسان الدين في هذه المولدية إلى

¹ - الشفا : 166/1 .

² - ديوان لسان الدين : 352/1 .

³ - المصدر نفسه : 612/2 . في الريحان : في بدل من ، و رشح أنه ذلك خطأ مطبعي ، و التصيدة غير مثبتة في الصيب .

⁴ - ديوان لسان الدين : 253/1 .

⁵ - القاضي عياض : الشفا : 229/1 .

⁶ - ديوان لسان الدين : 612/2 .

التفسير الذي يعتبرهما اسمين من أسماء الرسول افتتحت بهما السورتان الكريمتان تعظيماً لشأنه
و تعبيراً عن سمو مقامه عند الله . وقد فسر الاسمان بأن (طه) معناه يا طاهر ، يا هادي ، و (يس)
معناه “ يا سيد ”¹

3 - معجزاته (صلى الله عليه و سلم) :

لما كانت الرسالة السماوية مقترنة بالمعجزة الدالة على صدق الرسول ، فقد أولى لسان الدين
المعجزات التي أيد الله بها نبيه عناية ملحوظة ، وذلك لأن المعجزة آية النبوة ، بها يطمئن النبي إلى
رسالته ، و بها يهتدي المعاندون ، و معجزات النبي صلى الله عليه وسلم نوعان : معجزات مادية
كثيرة و معجزة معنوية هي القرآن الكريم ، و قد وجدنا أن لسان الدين كرر في مولدياته الكلام عن
معجزاته المادية ، و هي كثيرة لا يحصوها العد ، كما أنها بوارق تلوح في الأفق يلوح منها اليقين لمن
يتوسمها :

وماذا يعد الوصف من معجزاته و أي رسول الله تستغرق العدا²

له المعجزات الزاهرات كأنها بروق بأفاق اليقين لوائح³

و هذه المعجزات سواء كانت مادية أم معنوية لا يمانع العقل في قبولها والإذعان إليها
لثبوتها ، و تواترها ، و اشتهاؤها في التاريخ بحيث لا يتطرق الشك إليها ، أو يجد من يماري
فيها مطعنا في صدقها :

صاحب المعجزات لا يتمادى العقل في أيها الحسان الصحاح⁴

و من أشهر هذه المعجزات ما أطلعه الله عليه من الغيوب ، و ما كشف له فيها من الحجب ،
من غير ما ذكر في القرآن الكريم ، و قد روت كتب السنة في ذلك أحاديث كثيرة بعضها يبلغ حد
التواتر الموجب للقطع بصحتها⁵ ، و في ذلك يقول لسان الدين⁶ :

كإخباره بالغائبات فعنده لأبواب أسرار الغيوب مفاتيح

و ربما كانت هذه أقرب إلى أن تكون معجزة معنوية من أن تكون مادية ، أما ما كرمه الله به
من الخوارق المادية ، فكثير مشتهر ذكر منه لسان الدين أمثلة ، منها انقلاب الأعيان له صلى الله
عليه و سلم كدفعه إلى عبد الله بن جحش ، يوم أحد عسيبا من النخل فتحول في يده سيفاً ، و منها ما

¹ - القاضي عياض : الشفا ، 231/1 .

² - ديوان لسان الدين : 356/1 .

³ - ابن الخطيب الصيب و الجهام : ص 368 . و في ديوان لسان الدين : ” له المعجزات كأنها “ و لعل كلمة (الزاهرات) سقطت طباعة .

⁴ - ديوان لسان الدين : 253/1 . و في الصَّيْب : لا يتمارى ، و لعل ذلك أوفق للمعنى : المصَّيب والجهام : ص 394 .

⁵ - القاضي عياض : الشفا ، 336/1 .

⁶ - ديوان لسان الدين : 228/1 .

ألقى الله عليه من البركة ، فيمس ضرع الشاة العجفاء فتصير حلوبا ، أو يشكو أصحابه و هم في شدة
الظما إليه حاجتهم ، فينبع الماء من بين أصابعه ، حتى يشرب أصحابه جميعا على كثرة عددهم ،
و في ذلك يقول لسان الدين ¹ :

و أعطي عسيب النخل في حومة الوغى
و ألقى بأخلاف الشياه يمينه
و روى ظماء الجيش ماء بنانه
و يقول أيضا ² :

و لما شكنا لله اللهم ^{المشني} الظما
أسأل له من ماء أنمله وردا

و منها إيراؤه المرضى الذين تعيي أمراضهم ، كما رد عين بعض أصحابه صحيحة و قد
تلقت في بعض غزواته ، وهو الصحابي قتاده بن النعمان إذ سقطت عينه على و جنته ، فردها
الرسول إلى مكانها فكانت أبصر عينيه :

و أثبت منه الريق عين قتادة فأحكما من بعد ما ذهبت ردا ³

و من تلك المعجزات الباهرة ، إجابة الجماد له كاستجابة الجذع له لما دعاه ، و تكليم الجماد
و استنطاق القمر :

و لما دعا بالجذع أقبل خاضعا إليه و شق البدر و استنطق الصلدا ⁴

و يعود لسان الدين إلى هذه المعجزات في بيت آخر قائلا :

من جماد يقر أو قمر ينشق و الماء من بنان الراح ⁵

و قد أوردت كتب السمائل ، أخبارا مستفيضة في هذه المعجزات ، و قد كانت مصادر لتقافة
ابن الخطيب كما سبق أن فصلناه و من تلك الأخبار قصة الجذع الذي حن إلى الرسول (ص) بعدما
تركه النبي و صعد المنبر و غيره من أنواع الشجر التي كانت تحيي رسول الله (ص) إذا مر بها ⁶ .
و من أعظم المعجزات التي كرم الله بها نبيه : معجزة الإسراء و المعراج الواردة في القرآن الكريم
و السنة النبوية الشريفة ، كما امتلأت بها كتب السير ، و هي تكريم من الله لنبيه الذي أدته قريش

¹ - المصدر السابق : 1 / 226 .

² - الصيبي والجماد ص 483 . وفي الديوان : (ولما شكنا لله اللهم من الظما)

³ - المصدر نفسه : 1 / 356 .

⁴ - المصدر نفسه : 1 / 356 .

⁵ - المصدر نفسه : 1 / 253 .

⁶ - انظر الشفا : فصل في كلام الشجر و شهادتها له بالنبوة و إجابتها دعوته ، ج 1 ، ص 298 و ما بعدها .

مكة و أسلمته ، فاحتوته عناية الله ، فأُسْرِي به من مكة إلى الشام ثم عرج به إلى السماوات العلى ، أين شاهد آيات التكريم و بلغ إلى حيث لم تبلغ قدم مخلوق :

سما فوق أطبقا السماء مناجيا و كَلَّم تكلما بهما الأحد الفردا :
و ما زاغ مئة الطرف كلا و ما طغى فله ما أجلى و الله ما أهدى¹

و مع أن الرسول قد وصل إلى حيث لم يصل إنسان قبله ، فقد كان في غاية الأدب ، فلم يلتفت طرفه يمنا ، و لا يسرة ، و إنما نظر حيث أمر أن ينظر .. فناجى ربه ليس بينهما واسطة ، على خلاف بين العلماء في ذلك²

أما أعظم معجزات الرسول صلى الله عليه و سلم ، فهي القرآن الكريم الذي لا تتفد علومه و لا تتقضي عجائبه ، فهي دائمة سرمدية :

و معجزة القرآن أجلى فإنه عجائبه لا تتقضي و علومه³

و نظرا لوضوح هذه المعجزة عند المسلمين و غيرهم فلم يجد لسان الدين داعيا إلى الإطالة في الكلام عنها ، لأن النهار لا يحتاج إلى دليل كما يقال .

4 - حقيقة النبوة :

سبق الكلام عن شمائل الرسول ، و معجزاته ، و هي من علامات بنوته إن جاز التعبير ، و لكن لسان الدين يتناول النبوة في حقيقتها و جوهرها فهي شديدة الصلة بذات الرسول (ص) و هي عند لسان الدين ذات حقيقتين : حقيقة غيبية أي سر من أسرار الله تعالى و نور منه ، و حقيقة حسية ، بشرية : فهو يشترك مع سائر البشر في جسمانيته التي يطراً عليها ما يطراً على سائر البشر ، ويختلف عنهم في النور الرباني الذي خص به تلك الطاقة التي يستمد منها ليقوم بمهمة الهداية و الإرشاد ، و لذلك فهو يشبه الملائكة من جهة ، و يتصف بصفات البشر من جهة أخرى ، يقول القاضي عياض في الشفا : ”فظواهرهم (أي الأنبياء) و أجسادهم و بنيتهم متصفة بأوصاف البشر طارئ عليهما ما يطراً على البشر من الأعراض و الأسقام و الموت و الفناء و نعوت الإنسانية ، و أرواحهم و بواطنهم متصفة بأعلى من أوصاف البشر ، متعلقة بالأعلى متشبهة بصفات الملائكة ، سليمة من التغير و الآفات لا يلحقها غالبا عجز البشرية و لا ضعف الإنسانية“⁴ و في هذا المعنى يقول لسان الدين:⁵

فمن عالم الأسرار ذاتك تجتلي ملامح نور لاح للطور فانـــــــهـــــــدا

1 - ديوان لسان الدين : 1/ 356 .

2 - انظر الشفاللقاضي عياض : ج 1 ، ص 202 وما بعدها .

3 - ديوان لسان الدين : 2/ 551

4 - الشفا : 96/9

5 - ديوان لسان الدين : 1/ 349

و أخبر شق أن في الأرض عندها طلوع نبي طاهر الأب و الأم

ذلك ما سبق ليلة الميلاد من مبشرات و علامات ، أما الخوارق التي صاحبته فهي كثيرة ، منها إضاءة قصور الشام و بطاح مكة ، و تهدم إيوان كسرى ، و خمود نار المجوس التي عمرت دهرًا طويلًا متأججة ، و جفاف وادي السماوة و إن كان المعروف لدى شعراء المدائح النبوية أن البحيرة غاض ماؤها إنما هي بحيرة (ساوة) ، و من تلك الوقائع : الرؤيا التي رآها كسرى الفرس و التي أفضت مضجعه ، و أنذرت بزوال ملكه ، و استباحة مملكته ، و أن دين النبي الجديد ، سيخضعها لسلطانه .

و هذه العلامات تشير إلى انقلاب خطير سيهز الكون ، و يقضي بحلول قيم جديدة ، و عقيدة قوية ، لا تلبث أن تهيمن ، و تنسخ ما سبقها من ضلالات و عقائد باطلة ، فلا مجال لاستمرار عبادة النار ، أو عبادة الأوثان في الأرض ، و إنما هي عبادة واحدة خالصة من شائبة الشرك ، و الزيغ ، هي عبادة الله تعالى ، يقول لسان الدين ¹ :

و في ليلة الميلاد لاحت شواهد	توالت بها لله فينا المناءح
أضاعت قصور الشام منهن و انجلت	معالم ما ضمت عليه الأباطح
و هد لها إيوان كسرى مهابة	و أخذ من نيران فارس لافح
و غاض بها وادي السماوة فانتشت	تقلص ذيل الخصب فيه المسارح .
و أبصر سيف الملك رؤيا فأصبحت	لتذكراها ترتاع من الجوارح
و أعلمه كهانه أن أرضه	أتيح لها من سيد العرب فاتح

و من تلك العلامات الدالة على كرامة هذا النبي على ربه ، ما أخبرت به أمه (أمنة) من أنها حملت بنبي كريم هو إمام الأنبياء ، مع ما وجدته في حملته من خفة ، و سهولة فلم تشك في ذلك ألما ، و لا مشقة ، على عادة النساء الحوامل ، يضاف إلى ذلك ما لاح لها من الأنوار لحظة مولده صلى الله عليه و سلم- فأضاء لها ما حولها من البطاح و انفسح ذلك النور إلى مدبصرها . يقول لسان الدين ² :

و لم تشك ثقل الحمل آمنة الرضا	و لا دهيت منه بكرب و لا غم
... و بشرها الأملاك أن وليدها	إمام النبيين الكرام أولى العزم
إلى أن تفرى الليل عن نور و جهه	كما شف سحب عن سنا قمر تم

¹ - ديوان لسان الدين : 226/1 ، 227 و أنظر كذلك . 350/1

² - المصدر نفسه : 530/2 ، 531

و منها امتلاء السماء بحرس من الملائكة حتى إذا رام مارد من الشياطين أن يقترب من الملاي
الأعلى يسترق السمع ، ترصد له حرس السماء بشهب الرجم ، فصُدَّ عن السمع ، و هي صورة قرآنية
إذ ذكر القرآن الكريم * أنه عند بعثة الرسول (ص) أخبرت الجن بعضها بعضا أن قد ملئت السماء
حرسا شديدا و شهباً ، ترمي مرده الجن بروجوم ملتهبة ، فتردعهم و تمنعهم من الاقتراب من الملاي
الأعلى إلا أن لسان الدين جعل ذلك ليلة الميلاد ، يقول :¹

فرا م استراق السمع رائد عائف من الجن فانقضت له شهب الرجم
و مما يتم هذه الصورة أن الملائكة احتفت بولده ، و اعتبرت تلك الليلة عيداً ، و قرئت
الشياطين في الأصفاد ، يقول لسان الدين :²

يا ليلة تخذ الملائك يومها و المرسلون إلى القيامة عيداً .
و تفاعل الكهان أن رثيها أضحى لديك مقرناً مصفوداً
و بذلك أحيطت تلك الليلة المباركة بهالة من القداسة ، تتناسب مع الإنسان العظيم الذي ولد
فيها .

6 - الشوق إلى زيارة قبر الرسول - ص :

كان لسان الدين عقد العزم على الرحلة إلى البقاع المقدسة عندما ترك غر ناطة و الغني بالله ،
إلى المغرب ، إلا أن القدر لم يسعفه بذلك و قد حفلت مدائحه النبوية بمعاني الشوق إلى رسول الله
و تمنية النفس بزيارته ، و التوسل به و بحبه عند الله تعالى و الاستغاثة به ، عند ما تشعر النفس
المؤمنة بالاضطراب ، و ترين عليها آثار المعاصي و الذنوب فهو دائم الشكوى من البعد ،
و الاغتراب في الوطن النازح . و يتساءل في لهفة عن الفرصة الموانية التي يحدث فيها ركابه إلى أن
تحط بتربة مقدسة ، تفوح مسكا ، و يطفئ نار غلته التي تضطرم بها جوائحه :

ألا ليت شعري هل أراني ناهدا
أقود القلاص البدن و الضامر النهدا
... إلى أن أحط الرحل في تربك الذي
تصنوع ندا ما رأيت له نهدا .
و أطفئ في تلك الموارد غلتي
و أحسب قربا مهجة شكت البعدا³

* - انظر سورة الجن الآيات : 8 ، و 9 و هي قوله تعالى ” و أنا لسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا و شهباً . و أنا كنا نقعد منها مقاعد
للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا“ .

¹ - ديوان لسان الدين : 531/2 .

² - ديوان لسان الدين : 353/1 .

³ - المصدر نفسه : 350 ، 349 /1 .

إلا أن عائقين يحولان دون هذه الزيارة المرتقبة : أولهما الذنوب التي تملأ الشاعر خجلا ،
و ثانيهما ضيق السبل به و قد تولى من أمور الساسية ما حجبته عن الرحلة ، و حصر نشاطه كله في
المغرب الإسلامي ، يخاطب لسان الدين الركب الحجازي قائلا : ¹

فقولا رسول الله يا خير خلقه و أكرم مختار أبان به الرشدا
غريب بأقصى الغرب طال اشتياقه فلو لا تعلات المنى لقضى و جدا .
يؤمل منك القرب و الذنب مبعد و قد سد من طرق التخلص ما سدا

و مع كل هذه الموانع فإن أمل الشاعر مازال معقودا بهذه الزيارة إن امتد به العمر :
و يا ليت أني في جوارك ثاويًا أوسد منك المسك و العنبر الورداء .
و إن فسح الرحمان في العمر برهة فلا بد من حث المطية لا بسدا. ²
و أحيانا يتعلل بالقدر الذي يتوقف عليه أمل الإنسان و عمله :

تقريبه الآمال منك تعللا و يبعده المقدار عما يرومه . ³

و أعظم ما يبعث الشوق في نفس الشاعر ، و يؤجج ضرامه صورة الركب الحجازي ، و قد
ولى وجهه شطر البقاع المقدسة و ترك الشاعر في حالة من الوجد شديدة ، مهيض الجناح منكس
الطرف خاشع البصر ، ثقيل الخطى ، كيف لا ، و قد رحلوا ، إلى الحبيب الذي قعدت الأقدار ، و بعدت
الدار بالشاعر عن زيارته ، و هنا يبلغ الشاعر ، درجة التواجد الصوفي الذي يبرح بصاحبه في
لحظات الصفاء ، و الخلو إلى النفس ، و عندما يبسط الليل رواقه حيث يتراءى الظلام للشاعر ، كأنه
قطع من عساكر الزنج و ترتسم النجوم في صفحة السماء كأنها القنا مشرعة ، يعبر الشاعر عن هذه
الحالة في مقدمة المدحة النبوية بقوله : ⁴

و ركاب سروا و قد شمل الليل بمسح الدجى جميع النواحي
و كأن الظلام عسكر زنج و نجوم الدجى نصول الرماح
إلى أن يقول :
خلفوني من بعدهم ناكس الطر ف ثقيل الخطى مهيبضا جناحي
و حدوها مثل القسي ضمورا قد برت منهم سهام قـداح .

¹ - المصدر نفسه : 355/1 .

² - ديوان لسان الدين : 356 / 1 .

³ - المصدر نفسه : 549 / 2 .

⁴ - المصدر نفسه : 253 ، 251/1 .

و يظل الشاعر متأرجحا بين حالتين صوفييتين : و هما الطي و النشر فقربه من الحبيب
يشرح نفسه ، أما بعده عنه فيقبضها ، و هاتان الجالتان يعبر عنهما الصوفية بالقبض و البسط¹ ،
يقول لسان الدين واصفا هذه الحال الصوفية²

النار في كبرى و الشوق يقلقني و القرب ينشروني و البعد يطويني
و ركن صبري تخلى في الغرام و قد تمكن الحب مني أي تمكين

و إذا كان بعد الدار و الانغماس في الذنوب ، و الإقامة على اللهو ، قد حالت دون زيارة
الرسول - ص - فلا أقل من التوسل به و بحبه ذلك أن من وسائل قبول الدعاء لدى المؤمن ، الصلاة
على الرسول ، و التوجه بها إلى الله ، ففي لحظات الندم و التوبة ، و الإنابة يضرع لسان الدين إلى
الله متوسلا برسوله (ص) قائلا³ :

فأزل خجلي بإغضائك المأمول و استر به عوار افتضاح
صلوات الله يا نكتة الكون على مجدك اللباب الصراح
عدد القطر و الرمال و ما عاقب نهر غدود بالرواح
... أسفي كم أرى طريد ذنوب أويقتني فليس لي من سراح
... لا لدينا جنحت ألغ فيها لا لديني خلصت لا لصلاح .
قاطعا بالغرور برهة عمري خسرت صفتي و خابت قداحي .

و طالما كان الرسول (ص) رحمة من الله مهداة إلى خلقه ، فكيف لا يتعرض الشاعر لتلك
الرحمة ؛ فيكون له نصيب منها ؟ و كيف يقضي ظامنا ، و رسول الله غياث العباد ؟ يخاطب لسان
الدين رسول الله قائلا :⁴

ألا يا رسول الله ناداك ضارع
... تداركه يا غوث العباد برحمة
أيجهر بالشكوى و أنت سميعه
أتعوزه السقيا و أنت غياثه
و قد بث منك الله في الخلق رحمة
على البعد محفوظ الوداد سليمه
يقضيه دين العفو منها غريمه
أعلن بالنجوى و أنت علمه
أنتفه البلوى و أنت رحيمه
فأنقذ عانيه و أثرى عديمه

و هكذا شارك لسان الدين في هذا الفن الشعري الذي ذاع في القرن الثامن في الأندلس
و الغرب الإسلامي عموما مشاركة كشفت لنا عن مدى تعلق هذا الشاعر برسول الإسلام بل عن عناية

¹ - أنظر في حالي البسط و القبض : الرسالة القشيرية ، لأبي القاسم عبد الكريم القشيري ، دار الكتاب اللبناني ، د . ت ، ص : 32

² - ديوان لسان الدين : 611 / 2 .

³ - ديوان لسان الدين : 224 / 1 .

⁴ - ديوان لسان الدين : 244 / 1 .

ملوك غر ناطة ، و فاس بجانب الاحتفال بمولده صلى الله عليه و سلم ، على أساس أنه مرجع ديني يستند إليه هؤلاء السلاطين في توطيد عروشهم ، من جهة ، و بث الروح الإيمانية في نفوس المسلمين الذين يواجهون ، عدوا من أعتى الأعداء ، و أمكرهم من جهة أخرى كما كشف لنا هذا الجانب من شعر لسان الدين عن ميله الصوفي ، و نزوعه إلى الحياة الروحية الخالصة ، و شوقه إلى إكمال دينه بزيارة قبر الرسول (ص) و إطفاء غلته التي يزيد لها حرقه هذا الطوق الذي ضرب على الشاعر من مناصب سياسية سامية لم تسمح له بأن يخلص إلى نفسه التواقة إلى الراحة الإيمانية .

ثالثا : شعر الزهد و التصوف :

قد سبقت منا الإشارة إلى بعض الجوانب الصوفية في قصائد المدائح النبوية ، لا سيما ، ذلك الشوق العارم الذي تملك قلب شاعرنا ، إلى الحبيب الأعظم رسول الله ، و مع ذلك فلا يمكن عد لسان الدين شاعرا متصوفا كابن الفارض مثلا ، ذلك أن الحياة الروحية لم تستقم له ، و لم تطرد ، في زحمة الأحداث السياسية الصاخبة التي تميزت بها حياته ، إنما قصارى ما في الأمر ذلك النداء الذي يلح عليه من حين لآخر ، نداء الضمير المؤمن و نداء النفس المطمئنة التي تؤنبه على انغماسه في الحياة اللاهية و قد رأينا لسان الدين في حياة الاغتراب و النفي ، يطلب من سلطان المغرب الأذن في الخلوة ، و زيارة قبور الصالحين و الأولياء ، و التطارح على أضرحتهم ، لالتماس البركة ، في حالة من التوبة ، و محاسبة النفس ، و قد قال في ذلك مقطعات و قصائد قليلة ، و لكنه لا يني يلتفت إلى نفسه مؤنبا ، و موبخا في ثنايا القصائد ذات الأغراض المختلفة ، و في هذا الجانب ، من هذا الفصل ، نتناول شعره الزهدي ، و الصوفي متلمسين القضايا الزهدية أو الصوفية التي عرض لها لسان الدين ، و لكن قبل ذلك يحسن بنا أن نتساءل عن أي تصوف سلك لسان الدين ؟ و ما هي المشارب التي استقى منها ؟ ذلك أن التصوف مدارس و مذاهب شتى ، بعضها يمت إلى الإسلام ، و السنة ، برباط وثيق و بعضها يغلو في جانب معين حتى يبعد عن روح التصوف السني ، الذي نعرفه عند أقطاب العارفين وكبار رجال الإسلام .

و قد عرف أهل الأندلس والمغرب بشدة ميلهم إلى السنة والتصوف السني كما عرفوا تيار الزهد و أكثر شعراؤهم من القول فيه ، مما حدا ببعض الدارسين إلى القول : "إنهم فاقوا المشاركة في شعر الزهد من حيث غزارته و توليد معانيه ، و رسم صورته القوية المؤثرة"¹ و يتجلى ذلك في موقفهم من كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي ، فقد كان ذلك الموقف ذا وجهين متناقضين : موقف الرفض ، بحيث أدنى ذلك إلى إحراقه ، و موقف المتقبل و ذلك في فترة ازدهار التصوف في الغرب الإسلامي ، و بحيث "نظر للغزالي و إحيائه على أنه شيء لا يبلغ شأوه و الكلام فيه عبارة عن خخش في سيرة السلف الصالح ، و ما أقرته السنة النبوية الصحيحة ... و ابن السبكي يعبر عن الموقف النقدي بقوله : "لما وقع لهم كتاب الإحياء لم يفهموه فحرقوه ، و يعبر عن الموقف الثاني : ثم إن

¹ - د/ عبد العزيز عثمانق : الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، الطبعة الثانية : 1986 م ، ص 220 .

المغاربة أقبلا عليه و مدحوه¹ و يتجلى ذلك أيضا ، في انتشار كتاب الشفا للقاضي عياض في المغرب و الأندلس انتشارا واسعا فقد شرحه ابن مرزوق كاتب السلطان المغربي مثلا ، و كتاب الشفا حافل بالجوانب الصوفية ، و قد رأينا لسان الدين يأخذ منه كثيرا من الإشارات فيما يتعلق بشمائل الرسول (ص) و معجزاته .

نعم ، ربما وجدنا في الأندلس بعض المتصوفة الذين نادوا بالوحدة المطلقة "كالششتري" أو ابن عربي في رموزه و إشارات الموعظة في الغموض و الرمز ، و لكن ذلك لم يكن القاعدة ، بل هو استثناء و قد سبقت الإشارة أيضا إلى زجل لسان الدين الذي نحا فيه منحى الششتري كما يرى ابن خلدون² و لكن "الغالب أن تأثير لسان الدين بالششتري ، على فرض وجوده لا يعدو أن يكون تأثيرا عاما ، فرضته طبيعة الموضوعات الصوفية نفسها ، و في هذا المجال ربما يكون صاحبنا أقرب إلى ابن عربي منه إلى الششتري و لا سيما و أنه ينكر الوحدة المطلقة"³ و سبق أن ألمعنا إلى ذلك في الفصل الأول من هذه الدراسة .

و لكن هل يعطينا شعر لسان الدين مذهبيا صوفيا واضحا أو طريقة متبعة ؟ يجيب أحد الباحثين المعاصرين : "و يمكن القول إنه ليس للسان الدين ... مذهب متكامل ، و إنما هي خطرات عابرة ، بيد أنها تتدرج جميعا ضمن اتجاهه الصوفي السني العام ، فلا نجد فيها غلوا ، و لا سطحا"⁴ و عند دراستنا لهذا الفن الشعري عند لسان الدين تكشف لدينا اطلاعه على الثقافة الصوفية و خبرته برموز أهل التصوف و مصطلحاتهم ، و متابعتهم لكبار شعراء التصوف و لا سيما ابن الفارض ، في الموضوعات الصوفية التي تناولوها بالمقدار الذي تسمح له به حياته الصاخبة ، و قد رأينا أن نفصل ، في هذا البحث بين شعر التصوف و شعر الزهد ، لا لوجود فارق جوهري بينهما ، و إنما لكون الزهد يمثل مقاما ساميا من مقامات السالكين ، بل ربما كان السمة المميزة لمدرسة صوفية معينة كما نرى ذلك في تصوف إبراهيم بن أدهم⁵ (ت 162هـ) على سبيل المثال ، و هذا أحد سببين حملان على الفصل بين النوعين هذين النوعين الشعريين ، و ثانيهما هو تكرار هذا المعنى بنسبة أكبر إذا ما قورن بالقضايا الصوفية التي أثارها لسان الدين في ديوانه .

1 - الطاهر المعموري : الغزالي و علماء المغرب ، الدار التونسية للنشر ، و المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1990 ، ص 23 .

2 - المقرئ : المنقح . ج 7 ص 23 .

3 - د / عصام قصبجي : لسان الدين بن الخطيب حياته و فكره و شعره ، ص 292 .

4 - المرجع نفسه : ص 292 .

5 - الدكتور : عبد الحليم عمود : إبراهيم بن أدهم ، دار السلام القاهرة ، المكتبة العصرية بيروت (الفصل الرابع : الطريق) : ص 129 و ما

أ / المعاني الزهدية :

لرجال التصوف تعريفات متعددة للزهد ، فقد عرفه الإمام الطوسي بقوله : ”الزهد مقام شريف و هو أساس الأحوال الرضية و المراتب السنيّة و من لم يُحْكَم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، و الزهد في الدنيا رأس كل خير و طاعة“¹ . أما الإمام الغزالي فيعرفه بقوله ”الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى ، و هي الدرجة العليا“² . فحقيقة الزهد إذن عدم حب الدنيا و التهاك عليها ، لأن ذلك أساس الذنوب و هذه مرتبة المبتدئ في السير إلى الله ، أما المرتبة العليا فهي الزهد فيما سوى الله كلية ، و الإقبال عليه وحده .

و لذلك وجدنا لسان الدين يكثر من ذم الدنيا في مناسبات متعددة و لاسيما عند اغترابه منتبذا بالمغرب ، فقد لاحظت له الدنيا قليلة المتاع تقبل على الإنسان خداعا ، و لكنها سرعان ما تزور عنه ، و هي و إن وجد شاربها ماءها عذبا فما أسرع ما يتحول إلى ملح أجاج ، يقول لسان الدين³ :

و لكنها الدنيا قليل متاعها _____ و لذاتها دأبا تزور و تزور .

...بكينا على النهر الشروب عشية فعاد أجاجا بعدنا ذلك النهر

و لا وثوق بالدنيا لأن من وثق بها فقد باء بالخسار :

و من كان بالدنيا الدنيئة واقفا على حالة يوما فقد باء بالخسر⁴

لقد استخلص لسان الدين هذه الحكمة الزهدية إذا صح التعبير من تجربته المؤلمة ، لا من تأمل

مجرد .

و مما يثني من عنان المرء الذي سفرت له الدنيا عن وجه حسن ، و سرقت منه دنيئه ، في غفلة عن أمره ، أن كل ما نال منها إلى الزوال ، أليس مصيره إلى السيب و الهرم اللذين تنقطع معها لذة الشباب و نعيمه ؟ :

دنيا خدعت الذي سفرت له عن صفحة لم يجل بها كرم .

سرقت حظ الإله من يده فهان ما كان منك يحترم

¹ - د/ عبد الرحمن عميرة : التصوف الإسلامي منهجا و سلوكا مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ، ص 68 .

² - أبو حامد الغزالي . إحياء علوم الدين ، المجلد الخامس ، دار الجيل ، بيروت ، ص 81 .

³ - ديوان لسان الدين : 414/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 399/1 .

ماذا الذي نال منك ليس له منقطع دائما و منصرم
 و هبة نال الذي أراد أما بين يديه المشيب و الهرم¹
 و بعد أن تقدم به العمر ، و لاحت له نذر الآخرة ، و أخطرها الشيب ، نجد كثير التفرغ
 لنفسه و التفجع عليها في وقت معا ، فإن نكبات الدهر على ما لها من أثر على نفسه ، لم تبلغ منه ما
 بلغه الشيب الذي و خط مفرقة فكانها شهاب يرمج شيطان الهوى ، فأحس شاعرنا بأن ميعة الصبا قد
 ولت و أن الشباب قد سرق منه فيصرخ قائلا² :

و ما راعني و الدهر زب وقائع سجال على أبنائه و غلاب
 سوى شعرات لحن من فوق مفرقي قذفن لشيطان الصبا شهاب
 أبحن ذماري و انتهبن شيبتي أمن نصول أم فصول خضاب
 و هاهو يعبر عن أثر المشيب على نفسه ، كأنه أضحى يشمت به في أخريات حياته ، في
 صياغة لا تخلو من الصنعة ، و ذلك في قوله³ :

و قالوا عجبنا لضحك المشيب بوجهك في هذه المدة
 تكاثر شيبك من بعدنا فها هو يضحك في الشدة
 و أكبر ما يخترم من المرء أيامه دون أن يشعر : الهوى و تأجيل التوبة ، و تحليل النفس
 بطول العمر ، لذلك يعاتب الشاعر نفسه على اتباعها سبل الهوى ، التي تنقطع به عن الوصول ، إلى
 الجادة و ذلك في قوله⁴ :

جهاد هوى لكن بغير ثواب و شكوى جوى و لكن بغير جواب
 و عمر تولى في لعل و في عسى و دهر تقضى في نوى و عتاب
 أما أن للمنبت في سبل الهوى بأن يهتدي يوما سبيل صواب
 و علاج هوى النفس هو الصبر لأنها متى استمرأت الحلاوة استمرت في غوايتها ، و متى
 تعودت على المرارة ألفتها ، و صلح مزاجها :

صبر التصبر من أجل علاجها إن الهوى لشكاية معروفة
 يوما ضمت لها صلاح مزاجها و النفس إن ألفت مرارة طعمها

¹ - ديوان لسان الدين : 572 / 2 ، 573 .

² - المصدر السابق : 155/1 .

³ - المصدر نفسه : 174/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 155 / 1 .

و من وسائل علاج النفس الجَموح ، تحقير الدنيا في عينيها و تذكيرها بما أعده الله من عظيم الثواب في الآخرة و تحذيرها من أن تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير بأن تبيع الدين بالشهوات

و الملمات :

حقر لها ما في يديها بـدأة و اضمن لها عوضا و إن لم يحضر
و أربأ بنفسك عن تسامح بائع و أغنم إذا سامتك شهوة مشتري¹

و يرى لسان الدين أنه لا واعظ للإنسان أحسن من نفسه فخير من يعظ المرء هو نفسه ذلك لأنه أعرف الناس بها ، و أدرهم بعيوبها ، و هاهو يعاتب نفسه لأنه جلس يعظ غيره و يذكرهم وهو أحوج الناس إلى ذلك² :

قعدت لتذكير و لو كنت منصفاً لذكرت نفسي فهي أحوج للذكرى
إذا لم يكن مني لنفسي واعظ فيا ليت شعري كيف تفعل في أخرى ؟

و من المعاني الزهدية التي ترد في ديوان الشاعر في شكل مقطعات أو أبيات مبنوثة في تنابها قصائد الرثاء خاصة ، الاعتبار ، بتقلب الأيام ، و أحداث الزمان ، و هنا يعود لسان الدين إلى رصيده التاريخي ليجد فيه نماذج حية هي في الواقع دروس و عبر للدارس المتأمل ، و الزاهد المعتمر ؛ هؤلاء أعظم الملوك صارت أيامهم التي كانت ، حافلة بالمجد ، و عظام الأحداث ذكرى ، و إذا ولى الإنسان ، مهما عظم شأنه لم يبق منه إلا جميل الذكر ، فلماذا الاغترار بالدنيا إذن ، يقول لسان الدين من مقطوعة زهدية³ :

يمضي الزمان و كل فان ذاهب إلا جميل الذكر فهو الباقي
لم يبق من إيوان كسرى بعد ذا ك الحفل إلا الذكر في الأوراق
هل كان للسفاح و المنصور و المهدي من ذكر على الإطلاق
أو للرشيد و للأمين و صنوه الا شباة براعة السوراق
رجع التراب إلى التراب بما اقتضت في كل خلق حكمة الخلاق

فلم يبق من إيوان كسرى الذي كان حافلا بالوزراء و الحكماء ، و الجند إلا ما كتبه المؤرخون في كتبهم و كذلك شأن خلفاء بني العباس : كالسفاح و المنصور و المهدي و الرشيد ، و الأميين و المأمون ، فالإنسان خلق من تراب و هو راجع لا محالة إلى تراب ، و كذلك شاعت حكمة الله تعالى. و هنا نلاحظ الأثر القرآني في هذه الأبيات ، و ذلك أن الله تعالى ، تكرر أمره في الذكر الحكيم

¹ - الديوان لسان الدين : 407 / 1 .

² - المصدر نفسه : 408 / 1 .

³ - المصدر نفسه : 702/2 .

بالاعتبار بالأمر السابقة و ما آل إليه أمرهم ، بعد تلك باذخ و سطوة جبارة فما كان إلا أن طوتهم يد الردى و بعد أن كانوا أسوة لأشياعهم ، صاروا عبرة لمن جاء بعدهم ، و من أمثلة ما ورد من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى : ” أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة و أثاروا الأرض و عمروها أكثر مما عمروها“ (الروم /9) .

و المرء لا بد ملاق ربه ، و لكن غفلته تنأى به عن هذه الحقيقة فيتعلل بطول العمر ، و هو و إن طال قصير لأن الملتقى قريب و هو إما إلى نار أو إلى جنة ، و لنا في الملوك الذين بادوا بعد أن سادوا عبرة ، يقول لسان الدين¹ :

يدعو بنا الداعي ويغري بالمنى	شأن امرئ قد خانته استبصاره
والملقى كذب وان طال المدى	وتقلبت بمعمر أطواره
ووراء غفلتنا معاد جامع	هاتيك جنته و هاذي ناره
أين الملوك بنو الملوك و من إذا	طلب الصعاب تيسرت أو طاره ؟

و لماذا ينظر الشاعر إلى التاريخ البعيد ؟ و هذا الحاضر أعظم عبرة ، و لذلك يتذكر و هو في مجلس و عظ أحبته الذين فقدهم ، و قد مر بربعهم يسائله فلم يجد منه جوابا ، فكأنه قد خلف قلبه هناك و وجد في الموت سلوى إذ عما قليل سيرحل ، و يلتقي أحبته :

صحت بالربع فلم يستجيبوا	ليت شعري أين يمضي الغريب ؟
و بجنب الدار قبر خصيب	منه يستسقي المكان الجديد
غاب قلبي فيه عن التماحي	قلت هذا القبر فيه الحبيب
لا تسل عن رجعتي كيف كانت	إن يوم البين يوم عصيب
باقتراب الموت عللت نفسي	بعد إلفي كل أت قريب ²

و ما دامت الأيام متقلبة ، لا تقيم على حال فلماذا يشتد جزع المرء و حرصه ؟ فالأجدر بمثله أن يتجمل و يصبر و إنما الحيلة، كما يقال، في ترك الحيل ، فلا يغتر أحد بسعيه و حرصه فربما كان النجاح من ترك السعي لا حظًا من قيمة العمل، كوسيلة للنجاح و لكن تحذيرا من الاتكال عليه وحده و الغفلة عن أن تحقيق النتائج إنما يكون بقضاء الله ، و إرادته :

و اصبر على مضض الليالي إنها	كحوامل ستلدن كل عجيب
و اقنع بحظ لم تتله بحيلة	ما كل رام ، سهمه عصيب
يقع الحريص على الردى و لكم غدا	ترك التَّسْبِيبِ أَنْفَعَ التَّسْبِيبِ ³

¹ - المصدر السابق : /441 .

² - المصدر نفسه : 154/1 - 155 .

³ - المصدر نفسه : 129/1 .

ب - المعاني الصوفية :

تتاول لسان الدين قضايا صوفية تلميحاً تارة و تصريحاً تارة أخرى ، و قد لمسنا شيئاً من معانيه الصوفية في المدائح النبوية خاصة ، و ليس لشاعرنا مذهب محدد واضح كما سبقت الإشارة ، فما أكثر المقطوعات المتناثرة التي يلامس فيها معنى صوفياً ملامسة خفيفة دون أن تكون تلك المقطوعات رؤية متكاملة أو فلسفة خاصة ، فقد فرغ لسان الدين لهذا الشأن في كتابه الذي عارض به ديوان الصبابة لابن أبي حجلة التلمساني ، و نعني به ، «روضة التعريف بالحب الشريف» ، أما في ديوانه فقد فرغ للسياسة تقريباً على النحو الذي فصلنا فيما مضى من هذا الفصل و فيما يأتي من فصول . و يمكن إبراز المعاني الصوفية التي يمكن للباحث أن يستخرجها من ديوانه في النقاط الآتية:

1 / الميل الصوفي العام :

و نعني بالميل الصوفي ما نلمسه من شوق لسان الدين الواضح إلى زيارة البقاع المقدسة ، و في إيمانه العميق و توقيره للأولياء و العارفين و سعيه إلى حياة الخلوة و لا سيما عند إقامته بالمغرب مع سلطانه الغني بالله .

أما شوقه إلى زيارة البقاع المقدسة فليس شعوراً يخالج رجلاً مسلماً فحسب بل هو - كما يلوح لنا - محاولة من لسان الدين أن ينعق من إسهاره الوثيق و هو إسهار السياسة ، بما تعرفه من دسائس و مؤامرات و تنافس على السلطان و الحظوظ ، و هو أشبه ما يكون بمحاولة الهروب من حياة لظختها الذنوب ، إلى حياة طاهرة ، و لذلك اعتبرنا هذا الإحساس ميلاً صوفياً ، فقد تكرر في ديوانه التعبير عن هذه الرغبة الملحة ، من ذلك قوله يخاطب الغني بالله ، و يتوسل إليه ، و يستأذن في الانصراف إلى بيت الله ¹ :

و سائل لا تلقى شفاعتها كلا	جعلت إليك اله و الملائ الأعلى
و لا ابنا ولا جدا له خبر يتلى	و لم أبق أما للشفاعة أو أبا
وجود نظام الكون إن عدم اختلا	و بالقطب و الغوث الذي بوجوده

¹ - ديوان لسان الدين : 772/2 .

و في المرحلة الأخيرة ، من حياة لسان الدين ، مرحلة فراره من غرناطة إلى المغرب ، كتب قصيدة يستشفع فيها بأبي حمو الزياني ملك تلمسان لدى الغني بالله ، و يختم تلك القصيدة بالتحسر على ضياع فرصة العمر فرصة الارتحال إلى بيت الله ، و زيارة رسوله و الظفر بحسن الخاتمة و هذه الأبيات تصوير صادق لهذه المشاعر الإيمانية الصوفية :

فيا من رأني و الحداة مرنة بشعري إذا ما زمزم القوم أو زموا
تخب برحلي كل شاكية الوجى هي القوس ترمي الركن ، راكبها سهم
... و قد حط كوري في جوار مثابة بها تكتب الزلفى و يغتفر الإثم
و كان محج البيت بدني و بعده بقصد رسول الله ، يسر لي ختم¹

و يتجلى هذا الميل الصوفي في توسل لسان الدين بالأولياء الصالحين و منهم الولي الصالح أبو العباس السبتي : الذي زار لسان الدين قبره بالمغرب ، و انشد يخاطبه متوسلا به² :

يا ولي الله أنت جواد و قصدنا إلى حماك المنيع
راعنا الدهر بالخطوب فجئنا نرتجي من علاك حسن الصنيع
قد جعلنا وسيلة تربك الـ زاكي زلفى إلى العليم السميع
كم غريب أسرى إليك فوافي برضى عاجل و خير سريع

فهذه الأبيات تدل على اعتقاد لسان الدين أن زيارة الصالحين عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى ، و البيت الأخير منها يوضح مكانة هذا الولي بين أهل المغرب إذ يكثر من زيارته طمعا في الفوز برضا الله تعالى .

و لسان الدين قصيدة يتشوق فيها إلى أهله و ولده بسلا بالمغرب ، و فيها يعرض ذكرياته هناك ، و يلم بتصوير أشواقه الروحية إلى أماكن العبادة ، و مقامات الأولياء ، و يخص منهم الولي العارف ابن عاشر الذي يصفه بواحد الأحاد ، و قد سبق التعريف به في الفصل الأول ، كما يذكر الشيخ الصالح (عبد العزيز الصنهاجي) الذي كان على قيد الحياة في حدود (770هـ)³ و (ابن غياث) و (ابن رضى) ، و يذكر أيضا (الزاوية العليا) مثنوى المهتدين ، يقول لسان الدين ، من تلك القصيدة⁴ :

بولي الله فابدأ و اقتصد واحد الأحاد في باب الورع

¹ - ديوان لسان الدين : 547/2 .

² - المصدر نفسه : 658/2 .

³ - المصدر نفسه : الهامش 77 ، 661/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 661/2 - 662 .

و على عبد العزيز اعطف تجد ناسكا لله و الناس اتضع
و إلى الزاوية العليا التفت فهي مثنوى من عن الغي نزع
حي بالرضوان عني ابن رضى فرع مجد قنة المجد فرع
و ابن غياث و شفا جملة الخلق به الله نفع

و إذا كان الأنبياء قد خصوا بالمعجزات فإن الأولياء قد خصوا بالكرامات و هي خوارق يظهرها الله على أيديهم ، إيناسا لهم بمكانتهم عنده ، و اصطفاء منه سبحانه لهم ، و نلاحظ بروز هذه الفكرة الصوفية في وصف لسان الدين لمدينة (بنينوش) فمن كرامات هذه المدينة أن ريح الشمال إذا أرادت زيارتها تمشي على الماء يقول لسان الدين ¹ :

و من كراماتها أن الشمال إذا رامت زيارتها تمشي على الماء

و من ملامح هذا الميل الصوفي عند لسان الدين ميله إلى حياة الخلوة ، و سكون النفس إلى جوار ربها تأنس بقربه و قد استوحشت من الدنيا بأخطائها ، و شهواتها ، و الخلوة عبارة عن إثارة حياة الخمول ، و الابتعاد عن الذكر و الشهرة لأن ذلك مظنة الرياء و إثارة العاجلة على الآخرة ، و قد رأينا لسان الدين و هو في المغرب خاصة تجذبه تلك الحالة الروحية ، فيتمنى لو يقضي تلك الفترة كاملة في الاختلاء إلى نفسه فهاهو يخاطب صاحب الإنشاء بالمغرب "أبا القاسم بن رضوان" (ت783هـ) بعدما بره بالصلوات و الهدايا ، سائلا إياه أن يأذن له في الانصراف من فاس إلى (سلا) حيث أثر أن يقيم ² :

و مقامي نزر و أصرف وجهي لسلا حيث معدن الحمقاء
و أعندي لخلوتي عن قريب لا تعذب قلبي بطول الثواء
خالصا عند كل سر و جهر لك حبي و مدحتي و دعائي

فهو يعد إقامته مع صاحب الإنشاء ، رغم ما فيها من البر و التكريم ، عذابا لقلبه الذي لا يجد سكينة إلا عندما يخلو إلى نفسه .

و يصرح لسان الدين في مقطوعة جعلها خالصة للتعبير عن هذه الرغبة الجامحة في الانقطاع إلى منزل بعيد عن أعين الرقباء ، يعيش فيه حياة الطلب ، و الذكر حتى يلقي الله ، و هو على حاله تلك ، دون أن يصرفه عنها شاغل من هموم الدنيا أو رغبة من رغباتها و ذلك بقوله ³ :

ألمي من الدنيا تأتي خلوة في منزل باد خصيب الجانب

¹ - المصدر السابق : 102/1 .

² - المصدر نفسه : 98/1 ، 99 .

³ - ديوان لسان الدين : 146/1 .

أذكي به زند القراءة و القرى رحب الجناب لطارق أو طالب
حتى ألقى الله لم تضر فني الأ و هام عنه بشاغل أو شاغب

و لكن لسان الدين لم تسنح له هذه الفرصة ، و لم يحقق هذه الأمنية في حياته العملية ، و إن كان قد حقق ذلك في حياته الشعرية ، إذا جاز التعبير ، و طالما عرض في ثنايا قصائده المتنوعة الأغراض ، نظرات (صوفي) اقترب من حمى القوم ، و عبر بلسان المقال ، دون لسان الحال .

2/ أخلاق المرید :

لم يكن لسان الدين مريدا سالكا نهجا أو طريقة صوفية معينة ، على ما تبين لنا من سرد حياته ، و لكنه مع ذلك تعرض لهذه المسألة ، و هي صفات المرید و آدابه ، ذلك لأنه سالك ، إلى الله ، و سائر إليه فلا بد من علامات و صوى يهتدي بها في طريقه تكفل له الوصول ، أو الترقى في المقامات إلى أن يبلغ أعلاها ، فما هي هذه الآداب يا ترى ؟

أولها عند لسان الدين الرضا بالقضاء من الله تعالى ، و الشكر على النعمة ، فمن فتح الله عليه في هذا الطريق كان عليه أن يقابل ذلك الفتح بالشكر لأنه مظنة الزيادة ، يقول لسان الدين في ذلك¹ :

أرد ما كان و ارض بما قضاه إلهك هذه خلق المرید
و من أعطاك بالشكر استزده فإن الشكر مفتاح المزيد

و ثاني هذه الآداب : الذكر ، و لا يكون ذلك إلا في مجلس يؤمه جماعة المریدین ، يتعاطون فيه أورادا مقرررة ، و يتمادى بهم ذلك إلى أن يصلوا إلى (حال) السكر ، و هو الغيبة عن الذات و الدخول في حالة من الوجد ينشغلون فيها عن ذواتهم ، و يحسبهم الرائي سكارى ، و ما هم كذلك حقيقة بل هم في نشوة روحية غاب فيها الحس ، و قد عبر لسان الدين عن حلقة القوم بالدير ، مستعيرا إياه من مكان عبادة النصارى ، و ذلك في قوله من قصيدة على الطريقة التحقيقية ، و هي طريقة أهل الحقيقة أي التصوف² :

و دير قطعت إليه الفلا و جبت الدجى و ركبت البحارا
و نادمت من أجله فتية تراهم سكارى و ماهم سكارى
كلفت به في سياق الحديث فقمنا نعاقر فيه العقارا

و الطريق محفوف بالمخاطر محاط بالمزلق ، و ما أكثر المتساقطين الذين لا يبلغون الشأو ، لأن سيرهم لم يكن مطردا على وتيرة واحدة فتراهم يبلغون درجة من الشرّة بحيث يجهدون أنفسهم

¹ - ديوان لسان الدين : 326/1 .

² - المصدر نفسه : 385/1 .

فيترجعون إلى فترة و ضعف لأنهم لم يحققوا لأنفسهم نهجا مقتصدا ، فكانوا كمن سار في فلاة موحشة فأهلكه الظما ، أما من كان على بينة من أمره ، من وضوح السبيل ، و اقتصاد في السير فذلك حري بالفوز و بلوغ المنزلة ، و يحذر لسان الدين من آفة قد تعصف بكيان المرید و تورده المعطب ، تلك هي آفة الهوى ، و لذلك لا يصل من انسالكين إلا القليل الذين تتكبوا الطريق المقفرة ، و سلموا من ضواري المعاصي ، و أمنوا من دياجر الطريق ، و غموضها ، يقول لسان الدين :¹

نهضوا و قد جن الدجى و تخالفت	سبل الهدى فمسددون و ضلل
سلني عن المنبت حين تقطعت	أسبابه تيتها و لا من يسأل
قوم سبط بهم السباع و فرقة	عطشوا و أين من الظماء المنهل ؟
لفح الهجر و جوههم بسعيه	فتهافتوا ببلاة و تعللوا
و ركائب جعلوا الدليل أمامهم	و سروا و فازوا بالذي قد أملوا
و الليل متلفة و مدرجة الهوى	لا يستقل بها المطي الذلل
و الواصلون هم القليل و كيف لا	قفر و مسبغة و ليل أليـل

3 - مقام التوبة :

المقام من عبارات أهل التصوف ، و يعرفه الإمام القشيري بأنه ” ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، و يتحقق به بضرب تطلب و مقاساة تكلف ، فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك و ما هو مشتغل بالرياضة له و شرطه أن لا يترقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام “² فهو إذن درجة من درجات الترقى أو التحقق ، يبلغها السالك بكسب و اجتهاد ، و مجاهدة، و المقامات بعد ذلك تتفاوت فالمبتدئ عليه أن يتحقق ببعضها قبل أن يرتقي إلى بعض تحققا كاملا ، ” فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل و من لا توكل له لا يصح له التسليم و كذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة“³.

و أول مقامات العابدين السالكين : التوبة ، يقول الإمام الغزالي : ” التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب و علام الغيوب مبدأ طريق السالكين و رأس مال الفائزين و أول إقدام المریدين “⁴ و ذلك لأنها عبارة عن اعتراف الإنسان بينه و بين نفسه بذنوبه ، في محاولة للتطهر

¹ - المصدر السابق : 511/2 .

² - الرسالة القشرية : ص 32 .

³ - المرجع نفسه : ص 32 .

⁴ - إحياء علوم الدين : 234/4 .

منها ، و بذلك يستهل السالك سيره ، و قد عبر لسان الدين عن هذه الحال ، عند توجهه إلى مولاه مقورا بدائه معترفا بذنبه ، يسأله العفو و الرحمة :

مولاي أنت فدائي أجب خفي بدائي
إن لم تدارك برحمي فقد هلكت بدائي¹

و بعد الاعتراف بالذنب ، يأتي الندم عليه ، و اقرار المعصية لا يتنافى مع محبة الإنسان لربه ، و لذلك يتخذ لسان الدين حبه لمولاه وسيلة من وسائل الإقبال على ربه :

و إن تعاطم ذنب قد جنته يدي و طال قرعي عليه السن من ندم
فهبه لي و اغتفر ما كان من خطي وزلة وارع لي حبي على القدم²

و من أهم البواعث التي تحمل على التعجيل بالتوبة ، كون الموت يأتي سريعا ذلك أنه كتب على الإنسان أن يموت و هو في بطن أمه ، بل إن صرخته التي يستهل بها الحياة هي إشارة إلى ميلاد (ميت) جديد ، و لسان الدين قصيدة أفردها لموضوع التوبة ، و ذكر الموت ، و ساق فيها مواعظ ، يخاطب فيها نفسه و منها قوله :³

خذ من حياتك للممات الآتي و بدار ما دام الزمان مواتي
لا تغترر فهو السراب بقيعة قد خودع الماضي به و الآتي
يا من يؤمل واعظا و مذكرا يوما و أنت تعد في الأموات
لا فوت عن درك الحمام لهارب الناس صرعى معرك الآفات

و يلح لسان في ندائه هذا ، و يبلغ درجة الحسرة على أن لا سميع له ، لأن الناس قد ألتهتهم الدنيا عن نداء الموت مع أنه لكل أمة أجل :

ألا أذن تصغي إلي سميعة أحدثها بالصدق ما صنع الموت
مددت لكم صوتي بأواه حسرة على ما بدأ منكم فلم يُسمع الصوت
هو القدر الآتي على كل أمة فتوبوا سراعا قبل أن يقع الفوت⁴

1 - ديوان لسان الدين : 101/1 .

2 - نفسه : 554/2 .

3 - المصدر نفسه : 187/1 .

4 - المصدر نفسه : 186/1 .

و يجار و هو بسلا ، مخاطبا أهلها الصالحين ، شاكيا ما هو فيه من الندم على تشاغله بالدنيا ،
و تفريطه في آخرته ، و قد سرق عمره :

أيا أهل هذا القطر ساعده القطر بليت فدلوني لمن رفع الأمر
تشاغت بالدنيا و نمت مفرطا و في شغلي أو نومتي سرق العمر¹

و بهذا نخلص إلى أن التوبة عند لسان الدين "يقوم على مبدئين : الندم العميق على ما فات من
العمر ، و ما اقترب من المعاصي ، و تذكر الآخرة ، واقتراب الأجل ، و في ذلك ما فيه من حشد
الهمة و استنهاض العزم على التعجيل بالتوبة و الرجوع إلى الله تعالى .

4 - المحبة :

المحبة من المقامات الرفيعة عند المتصوفة : " و الحب هو أصل الإسلام و جوهره ، و روح
التصوف ، و منبعه² و للمحبة أحوال ، و درجات ، و رموز و إشارات شائعة بين شعراء
التصوف ، و لسان الدين قصيدة أفرد لها لباب المحبة يخاطب فيها عشاق غير الله تعالى ، و يرسم
طريق المحبة للعاشقين يصف أولا من تعلقت قلوبهم بغير الله ، بالجنون الذي أعبى المداوي ، لأنهم
تعلقوا بالفاني الذي يترك في النفس ألما و حسرة على فقدانه فلا النفس تبلغ حظها منه ، و لا هو يباق
لها :

أعشاق غير الواحد الباقي جنونكم و الله أعيبى على الراقي
جننتم بما يفنى و تبقى مضاضة تعذب بعد انبين مهجة مشتاق
و تربط بالأجسام نفسا حياتها مبايعة الأجسام بالجواهر الراقي
فلا هي فازت بالذي علقته به و لا رأس مال كان ينفعها باقي³

و بعد ذلك ، يدعوهم إلى رياضة النفس بالعمل ، و التحلي بمحاسن الأخلاق ، مع الابتعاد عن
عالم الحس ، و استشراف عالم الحق فتلوح للنفس عندئذ إشراقات تكشف عن الحق ، فإذا تجلت لها
أنواره ، بلغت حالة الغيبة عن عالم الحس ، و ذاقت حلاوة السكر ، و رأت بعين القلب الجمال المطلق
فإذا كانت صادقة في محبتها بلغت درجة الوجد و هي قريبة من حال الفناء :

فجدوا فإن الأمر جد و شمروا بفضل ارتياض أو بإصلاح أخلاق
و لا تطلقوا في الحس ثني عنانها و شيموا بها للحق لمحة إشراق
فإن سكرت و استشرفت عند سكرها لماهية السقيا و معرفة الساقبي

¹ - المصدر السابق : 421/1 .

² - د / عبد الرحمان عميرة : التصوف الإسلامي منهجا و سلوكا ، ص 91 .

³ - ديوان لسان الدين : 703/2 .

أطيلوا على روض الجمال خطورها إلى أن يقوم الوجد فيها على ساق¹

و قد يبلغ المحب ، مرتبة يتجلى الله له فيها ، فيكاشف بأسرار يحجب عنها غيره ممن لم يبلغ تلك المرتبة ، و إذا تجلى له الحق غاب عن الوجود ، و فني عن نفسه ، و لم يبق ثم غير الباقي و هو الله سبحانه :

فما هو إلا أن تحط رحالها بمثوى التجلي و الشهود بإطلاق
و تفنى إذا ما شاهدت عن شهودها و قد فني الفاني و قد بقي الباقي²

و إذا كانت المحبة هي ”الميل الدائم بالقلب، الهائم“³ فإن الشوق لوعة و احتراق و التهاب الأحشاء و هو أحد أحوال المحبة بل أسمى درجاتها ، و لسان الدين لا يكتفي بالتعبير عن الحب ، و السبيل المؤدية إلى بلوغه ، بل يصف لنا شوقه إلى محبوبه و طموحه إلى إدراك حال المشاهدة أو الشهود ، و هو منتهى القرب من الحبيب ، فمنتهى أمله أن يتجلى عليه محبوبه و يمن عليه بالإدناء و التقريب لأن قربه منه أمان لقلبه من المعاصي ، و هو اجس الفكر القلقة ، و إن لم تتيسر هذه المنزلة فلا أقل من لائح من لوائح التأنيس ، تسكن معه النفس و إن لم يتحقق أي من هذين فلا سبيل إلى الصبر و العزاء ، يقول لسان الدين معبرا عن هذه الحال⁴ :

إذا لم أشاهد منك قبل منيتي نهاية آمالي و غاية غاياتي
فحسن عزائي حيل بيني و بينه و مرآة عيني لم تجل بمرآتي
شهودك أمن من عداة خواطري و قربك حرز من توقع آفاتي
فإن لم يكن وصل فهبها إشارة فيا حسن شاراتي بها من إشاراتي

و ليس للشوق مدى يقف عنده ، بل هو حال متجددة ، فكلما نال المشتاق حظا من حبيبه ، ازداد إليه شوقا ، و طمع في مزيد من الوصل ، لأنه كلما اقترب ازداد رجاء ، و أبرح ما يكون الوجد -كما يقال- إذا دنت الديار من الديار ، فكلما لاحت أشاعرنا ، لوائح الحسن ، ازداد ما يكابده من شوق ، و لولا لطف حبيبه به ، لهلك لأنه يغيب عن طوره و يفني عن ذاته بقدر ما يفتح عليه به من الميّن ، و يصل الشوق به إلى أن يسأل حبيبه نظرة يرضى بها عنه :

على قدر ما يلتاح من ذلك الحسن أكابد من شوق إليه و من حزن
لطائفه أبقت علي فكلما تعديت طوري فيه غيبي عنِّي

¹ - المصدر نفسه : 704/2 - 705 .

² - المصدر السابق : 705/2 .

³ - الرسالة القشيرية : ص 144 .

⁴ - ديوان لسان الدين : 178/1 .

حنانيك تكفي مهجتي منك نظرة و يا فوز قدحي إن رضيت بها عني¹
5 - معرفة الله :

معرفة الله تعالى عند أهل التصوف لا تتحقق بالعلوم الكسبية وحدها لأن تلك العلوم ، تكتسب بالجوارح ، و قصاراها أنها علوم معاملة ، و لكنها تتحقق بنقاء القلوب و صفائها من الأدران و المعاصي و بقدر ما يصقل العارف مرآة قلبه يلقي الحق عليها من الحقائق ، و يجلي لها من المعارف ، فهي إذن معرفة مكاشفة خص الله بها أنبياءه ، ثم أوليائه الذين هم ورتتهم² و سبب عدم معرفة المخلوقات لربها حق المعرفة ، كونها أسيرة للدنيا و للعالم الظاهري فحجبها ذلك عن رؤية الحق ، الذي هو أعظم فوز يحققه الإنسان المتحرر من قيود المادة في هذه الحياة فإن فاتته ذلك فقد أهلكه ما ظل يسعى من أجل جمعه من الحظوظ الفانية .

و الكون أشراك نفوس الوري طوبى لنفس حرة فازت

إن لم تحز معرفة الله فقد أورطها الشيء الذي حازت³

و من عرف الله أحبه حبا اضطراريا ، يستولي على قلبه و يأخذ عليه أقطار نفسه ، لأنه -في رأي لسان الدين- قد خضعت الكائنات لله تعالى طوعا و كرها و إذا أحب شاعرنا مولاه ذلك الحب ، فلأنه نظر في الكون فلم يجد في الحقيقة سوى الله تعالى ، و ما هذا العالم الفسيح ، سوى أثر من آثار صنع الله فوجوده متعلق بوجود الله الأزلي ، فلا وجود له بهذا الاعتبار ، و هنا يقترب لسان الدين من نظرية وحدة الوجود إلا أن المعنى القرآني واضح على النحو الذي أشرنا إليه آنفا . إلا أن هناك فرقا بين ما يذهب إليه ابن الخطيب من أن الكون مفتقر إلى وجود الله ، فلا قيام له بغير الله تعالى ، و بين نظرية وحدة الوجود التي تبتعد كثيرا عن توحيد المسلمين لله تعالى ” و القائلون بهذه النظرية يختلفون في تصويرها إلى فريقين : فريق يرى الله روحا و يري العالم جسما لذلك الروح ، فالله هو كل شيء ، و فريق يرى جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله فكل شيء هو الله“⁴ .

يقول لسان الدين :⁵

لا شكر لي إن كنت قد أحببتكم أو أنني استولى علي هواكم
طوعا و كرها ما ترون فإبني طفت الوجود فما وجدت سواكم

¹ - المصدر نفسه : 630/2 .

² - انظر : إحياء علوم الدين : لأبي حامد الغزالي ، المجلد الأول ، ص 10 .

³ - ديوان لسان الدين : 454/2 .

⁴ - د . زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الأدب و الأخلاق ، منشورات المكتبة العصرية للطباعة و النشر ، صيدا بيروت ، ج 1 ، ص 152 .

⁵ - ديوان لسان الدين : 574/2 .

و يزيد لسان الدين هذه الفكرة وضوحا في قطعة صوفية أخرى عندما يرى كل ما في الكون من آثار تشير إلى صفات كمال الله تعالى : ذلك أن قدرته تتجلى في أي مظهر من مظاهره فهي تبدو متفرقة ، و متعددة و لكنها في حقيقة الأمر ، يجمعها معنى واحد ، و هو دلالتها على الحي القيوم ، الذي خضعت له العقول ، و تعلقت العيون بالجمال الذي يسري في مجال الكون ، و الذي هو من آثار القدرة الإلهية ، و كانت عبارات الخلق قاصرة عن التعبير عن ذاته ، العليا ، المقدسة ، فهي إليها تشير دون أن تدركها إدراكا مطلقا ، و بذلك يكون هذا الكون كتابا ينظر فيه العارف فيرى الله ، لا بذاته ، فهي منزهة عن ذلك ، في هذه الحياة الدنيا و لكن بآثاره و رحماته ، فصار العالم بذلك أثرا من فعل الله ، لا ممتزجا متوحدا به ، و ليست هذه هي الوحدة التي يعنيها لسان الدين بقوله:¹

تعددت الألفاظ و اتحد المعنى
و عادت لجمع العين و هي كثيرة
تعبدت الأفكار آثارك العلى
و قصرت الألفاظ عن نيل غاية
و أصبح فردا ما مررت به مثلى
محا كل فرق مجتلى وجهك الأسنى
و قيدت الأبصار روضتك الغنى
ببعض الذي أبدته ذاك من معنى

و في قطعة صوفية ضارعة ، منيية بعد خلوة الشاعر مع نفسه، ينادي لسان الدين مولاه ضارعا أن يكشف عنه شدة ، معترفا بنعمه . مؤمنا بأنه قد قضى في علمه الأزلي بشقوة الإنسان أو سعادته منزها له عن ^{أن} يكون له شبيه ، معتبرا نفسه ضالا ، واهما إن ظن غيره قادرا على فعل شيء بل كل المخلوقات عاجزة عن أي حركة إلا بقضاء الله و علمه المحيط بكل ذرة في الكون ، ثم في الأخير ، يسأل ربه أن يطهر نفسه ، و يهبه الإخلاص في سره ، و علنه ، يقول لسان الدين ² :

إليك مددت الكف في كل لأواء
و يسرتني قبل ابتدائي و نشأتني
تعاليت يا مولاي عن كل مشبه
و إن أبصرت عينا غيرك فاعلا
أعني و طهرني و خلص حقيقتي
و منك عرفت الدهر تريد نعماء
لشقوة بعدي أو سعادة إدنائني
فيا جل ما طوقت من غرر آلاء
فقد تهت للأوهام في جنح ظلماء
إليك و أيد نور سري و معنائني

٥ - الخمرة الإلهية و رؤية الحق :

لسان الدين قصيدتان تحدث فيهما بلغة الصوفية ، و رموزهم عن الخمرة الإلهية و رؤية الحق تعالى ، اعتمد فيهما على رؤى صوفية لكبار العارفين ، موظفا بعض المفاهيم القرآنية التي تشير

¹ - المصدر السابق : 628/2 .

² - المصدر نفسه : 100/1 .

إلى رؤية الحق ، و كيفية تجليه لمخلوقاته الذين اصطفاهم بالنبوة أو الولاية ، و فيهما نلاحظ أثر ابن الفارض و لا سيما في ميمته التي مطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم¹

و يرى بعض الباحثين أن لسان الدين تأثر فيهما طريقة الششتري ، و ذلك لأنه يذكر فيهما الخمر ، و الدير دون الغلو في الرمز و الإشارة ” و لكنه ظل صوفيا سنيا لم تذهب خمرة القوم بلبه ، فتجعله يقول كما يقول الششتري :

في الحي حي سوى ليلى فتسأله عنها سؤالك و هم جرّ للعدم²

و الواقع أن لسان الدين ظل مرتبطا ، حقا ، بالتصوف السني لكونه ذهب إلى تأويل بعض آيات القرآن الكريم التي تناولت مسألة رؤية الحق ، تأويلا يتفق ، مع ما ذهب إليه كبار متصوفي أهل السنة ، من ذلك قوله تعالى في سورة ” طه “ ” و هل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودي يا موسى . إني أنا ربك فاخضع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى . و أنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني و أقم الصلاة لذكري “ (طه/ 9-10-11-12-13-14) .

و في تأويل الوادي المقدس ، و الهدى الذي على النار ، يقول الإمام الغزالي : ” و الوادي المقدس عبارة عن مقام الكليم موسى عليه السلام ، مع الله تعالى في الوادي ، و إنما تقدس الوادي بما أنزل فيه من الذكر ، و سمع كلام الله تعالى ، و أقيم ذكر الوادي مقام ما ذكر فيه “³ أما تأويل الهدى الذي على النار فيقول فيه : ” و لعلك من سرادقات العز تتادي بما نودي به موسى ... و (ما يوحى) ما يرد من الله تعالى بواسطة ملك أو إلقاء في روع أو مكاشفة حقيقية أو ضرب مثل مع العلم بتأويله “⁴ .

و يصور لسان الدين هذه التجربة الصوفية وفق هذا الفهم السني فيذكر أنه قد صفى الحق قلبه حتى أشرق بأنوار المعارف ، فأنس نار الهداية فأدرك حقيقة ذاته و ذلك بعد اعتناقه من قيود الجسد القاضية بحجب الإنسان عن أدراك سر الحقيقة ، و عرف أن هذه الحياة عارية مسترجعة و أن الحياة

¹ - ديوان ابن الفارض : دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، 1983 ، ص 140 .

² - د/عصام قصيحي : لسان الدين بن الخطيب حياته فكره و شعره ، ص 303 .

³ - الإملاء في إشكالات الإحياء ضمن الجزء السادس من كتاب الإحياء ، ص 231 .

⁴ - المرجع نفسه : الموضوع نفسه .

الحقيقية هي في رؤية علامات الحق ، و من بلغ هذه المرتبة من المكاشفة الحقيقية ، كان من حقه أن يجر الذيل اختيالا و تيهها بما أصابه من حظ ، يقول من قصيدة رائية على الطريقة الحقيقية¹ :

جلا الحق قلبي حتى أنارا فأنتست من جانب الطور نارا
و درت على مركزي دورة يحقر من دارها ملك "دارا"
و حقت إنيتي و هي كنز فأخرجته إذ هدمت الجدارا
فأبصرت رسمي رسما محيلا و أبصرت وصفي وصفا معارا
فمن كان مثلي نال الغني و باهى وجر الذبول افتخارا

ثم يستطرد لسان الدين إلى ذكر الدير و الصحب ، و الخمرة فإذا هو قد جاب الوجود برا و بحرا حتى حل بدير ، رقيقة فتية قد طرحوا كل كلفة ، بعد أن هزهم الشوق إلى الراح ، ثم لاحت لهم بروق تكشفت لهم عن جمال الله و جلاله فظلوا بين قبض و سبط ، يقول لسان الدين² :

و دير قطعت إليه الفلا و جبت الدجي و ركبت البحارا
و نادمت من أجله فتية تراهم سكارى و ما هم سكارى
كلفنا به في سياق الحديث فقمنا نعافر فيه العقارا
و لما حللنا بأكنافه حللنا الحبا و نبذنا الوقارا
و طرنا إلى الراح فيه ارتياحا و من هزه الوجد و الشوق طارا
و لاحت لهم خطفات البروق تلوح مرارا و تخفى مرارا
يعارض فيها الجلال الجمال فهم بين قبض و بسط حيارى

ثم يكشف لسان الدين عن حقيقة هذه الخمرة ، فإذا هي قد بحث عنها الحكماء ، و ذكرها الذاكرون ، كما أنها منزهة عن الحلول بالمكان لأنها هي الذات الإلهية المقدسة التي جسستها اليهود ، وثلثتها النصراني أما البراهمة³ و المجوس⁴ فقالوا إنها أصل النور و الظلمة ، يقول لسان الدين يخاطب راهب الدير في شأن هذه الخمرة⁵ :

و من أجل خمرك جينا الفلا و خضنا الدجي و قطعنا الققارا

¹ - ديوان لسان الدين : 385/1 .

² - المصدر نفسه : 385/1 - 386 .

³ - البراهمة : قوم من الهند يقال لهم الثنوية و هم القائلون بالنور و الظلمة : انظر : الملل و النحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ،

تحقيق : أمير علي مهنا ، علي حسن فاعور ، دار المعرفة بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1995 ، ج2 ، ص 601 .

⁴ - المجوس : طائفة من الفرس "أثبتوا أصلين اثنين ، مديرين قديمين يقسمان الخير و الشر...يسمون أحدهما النور و الآخر الظلمة ..." المرجع

نفسه : 277/1 .

⁵ - ديوان لسان الدين : 386/1 .

فقال و ما مهرها عندكم ؟ فقلنا : أمتنا النفوس الغيارى
فكل حكيم ، و ذكر حكيم عليها حنا و إليها أشجارا
مقدسة عن مكان يرى منزهة عن شعاع توارى
معتقة جسمتها اليهود و بعدهم تلتتها النصارى
و قال البراهم و الفرس فيها و قد جهلوا الحق نورا و نارا

و بالإضافة إلى هذه الرائية فللسان الدين قصيدة جيمية ، عرض فيها للخمرة الإلهية ، نظمها بعد أن أظهر السلطان أبو الحجاج ميله إلى الصوفية ، و أمره أن ينظم على طريقتهم ، و فيها يشير إلى كلف الصوفية بهذه الخمرة ، فقد كلف بها الحلاج الذي كان يذهب إلى الوحدة، فظل يناجيها كأنه يناجي نفسه إذ توحد بها فصارا شيئا واحدا ، أما إبراهيم بن أدهم فقد لاحت له من أنوارها بروق فصار شعاره لبس الصوف ، زهدا ، و انقباضا عن الدنيا ، و شوقا إلى تلك الخمرة المقدسة ، ثم يعلن لسان الدين أنه سلك طريق هؤلاء العارفين ، يقول لسان الدين في مطلع هذه القصيدة ¹ :

هَبَّ نَسِيمَ مَعْطَرِ الْأَرَاكِجِ فَشَفَى لَوَاعِجَ قَلْبِي الْمَهْتَاجِ
ثم يستأنف قائلا :

فاشرب على ذكر الحبيب و سقني صهباء تشرق في الظلام الداجي
من خمرة السر المقدسة التي كلفت بطاستها يد الحلاج
وَأَزَتْ لَهُ الْأَشْيَاءَ شَيْئًا وَاحِدًا فَهَذَا يَخَاطِبُ نَفْسَهُ وَيُنَاجِي

ورأى ابن أدهم لمحة من نورها تلتاح بين مخارم و فجاج
فغدا و من صوف الصفاء شعاره و اعتاضه من لبسة الديقاج
رفعوا لها قبسا بجانب طورهم فعشوت نحو سراج الوهاج

ثم يخاطب لسان الدين (رب الدير) ، في ضراعة ، و توسل ، بأسطا إليه كف فقره و حاجته ، فاستجاب له ، ففكر من تلك الخمرة ، التي خفيت عن الإدراك ، إلا أنها تهدي بسناها ، من يتناولها ، إلى أقوم طريق .

و بذلك يعد لسان الدين نفسه ، ممن سنكوا هذه السبيل ، يقول لسان الدين ² :

ناديته مترحما و الليل قد رجعت كتابته على الأدرج
مالي سواك فلا تخيب مقصدي ما خاب فيك رجاء عبد راجي

¹ - ديوان لسان الدين : 199/1 .

² - المصدر نفسه : 200/1 .

و مددت كف الفقر أسأله فـيا
 عز الغني به و ذلة المحتاج
 فرأى انتصاري في يديه فجادلي
 من جوده بالوابل الثـجـاج
 و أحلني من ديره في هضبة
 تتحط عنها الشهب في الأبراج
 و جلا عليّ الراح في أكوابها
 فشربتها صرّفاً بغير مزاج
 تخفى عن الإدراك إلا أنها
 يهدي سناها راحة المزاج

ثم يختم لسان الدين قصيدته بالتنويه بطريق أهل التصوف فيرى أنها أوضح سبيل و أقومها ،
 لأنها أحلتهم من المعرفة مقاما انفتح فيه لهم من الكشف و الأسرار ، ما كان مستغلقا على غيرهم من
 الطالبين :

لله أخوان الصفاء فإنهم
 سلخوا الطريق الواضح المنهاج
 من كل ذي طمرين أشعث أغبر
 عبثت بشملته يد الإنهـاج
 وقفوا بأبواب اليقين وفتحوا
 ما كان منها قبلُ ذا إرتـاج
 حتى إذا كادت سمات طريقهم
 تخفى بكل مموءٍ و مداجـي
 نادت هلموا جددوا عهد الرضى
 أيام مولانا أبي الحجـاج¹

و هكذا نكون قد تناولنا المضامين الإسلامية ، في شعر ابن الخطيب ، أو أكثر تلك المضامين ،
 بتعبير أدق ، و قد كشفت لنا هذه الدراسة عن أثر العقيدة الإسلامية ، في إنتاج الشاعر الأندلسي ، فقد
 عبر ، بقوة عن الصراع العقائدي بين التوحيد و الصليب ، حيث كان المسلمون يواجهون قوة صليبية
 غير مهادنة لا تألوهم خبالا ، و قد كانت الحرب بين الفريقين سجالا ، غير أن الغلبة كانت في جانب
 المسلمين أكثر ، و ذلك بفضل إيمانهم بدينهم ، و أنهم يجالدون أعداءهم ، و هم يحملون راية الحق
 و كانت تلك الثقة بالإضافة إلى ما أعدوه من قوة و من رباط الخيل ، و من ضروب الإخاء ، أكبر
 عون لهم في انتصارهم على أعدائهم ، و قد سجل مسلمو العدو صفحة بيضاء في تاريخ الإسلام في
 الأندلس ، بما أمدوا إخوانهم ، من مال و سلاح .

كما يكشف لنا هذا الفصل ، جانبا من شخصية لسان الدين الروحية ، فقد مال في بعض أطوار
 حياته إلى الخلوة و إيثار الزهد ، و تلك الأحوال الطارئة كانت تملأ نفسه وجدا صوفيا فعبر عن ذلك
 شعرا ، و هو و إن ذاق بعض ما لقي القوم ، إلا أنه لم يطرد له ذلك السلوك ، و لا ارتسمت له
 طريقه .

¹ - ديوان لسان الدين : 201-200/1 .

و في هذا الفصل، أيضا، رأينا جانبا من الحياة الدينية الإسلامية في الأندلس و المغرب الإسلامي حيث كان الحكام المسلمون ، يحتفلون بمولد النبي صلى الله عليه و سلم ، احتفالات فخمة ، تتم عن حبهم لهذا النبي الكريم ، و تعلقهم بسيرته ، و قد أبلى الشعراء في ذلك بلاء حسنا و منهم شاعرنا الذي عبر عن حبه لشخصية النبي صلى الله عليه و سلم ، فبرز ذلك في تعداد شمائله الكريمة و معجزاته ، و كراماته ، و قد كانت تلك المدائح التي أنشدها الشعراء في تلك المجالس الكريمة رافدا روحيا ، قويا لتوثيق عرى الإيمان ، و التجانف عن الغزو الديني الذي كاد يفسد على المسلمين دينهم ، و لا يخفى ما في تلك المدائح ، من دعم سياسي لأنها تصور قادة المسلمين حينئذ في نظر المجتمع الإسلامي ، قادة ، يحملون راية الإسلام و يدافعون عنها .

الفصل الرابع

شعر ابن الخطيب التقليدي

أولا : المدح .

ثانيا : الرثاء .

ثالثا : الغزل .

رابعا : الوصف .

خامسا : اللهم .

سادسا : الصبأ .

سابعا : الإخوانيات .

عبد القادر للعلوم الإسلامية

نظم لسان الدين في أكثر أغراض الشعر العربي ، المعروفة و قد تناول هذا البحث ، في الفصل السابق ، شعره الإسلامي ، و بعض ذلك الشعر لا يستقل بغرض معين ، كشعر الجهاد ، إذ أغلب معانيه وردت في قصائد المدح ، و الاستغاثة .

أما في هذا الفصل ، فنأخذ في دراسة شعر لسان الدين التقليدي ، و لا يفهم من ذلك ، أنه لا يمت بصلة إلى الإسلام و لكن الشاعر لا ينطلق فيه من فكرة إسلامية واضحة تعد أساسا ، أو موقفا قويا في القصيدة بل تتناول في ذلك النوع من الشعر ، موضوعات و قضايا انطلق فيها من واقعه ، و ما يآثره عن شعراء العرب القدامى من ، معاني و أفكار ، و يمكن حصر الأغراض التقليدية في شعر لسان الدين فيما يلي :

المدح ، و الرثاء ، و الوصف ، و الغزل ، و اللهو ، و الهجاء و أغراض مختلفة يجمعها وصف "الإخوانيات" .

و في هذه الأغراض : تتناول الشاعر قضايا سياسية ، و أخلاقية و اجتماعية و وجدانية ، و حضارية ، و تاريخية ، "لأن الشاعر ، يتحدث من خلال العرضي عن الجوهرية ، و من خلال المدح و الهجاء ، و الرثاء ، عن مشكلات الإنسان التي يواجهها باستمرار على الرغم من اختلاف الزمن و الثقافة" ¹ .

و قد وجدنا لسان الدين ، بحق ، أصدق معبر عن الواقع التاريخي و السياسي لعصره و لذلك مثلا ، درسنا معاني المدح التقليدية ، ثم أعقبناها بدراسة المعاني السياسية في هذا اللون الشعري ، لكون الشاعر قد نظم أكثر قصائده في هذا الغرض .

غير أن اللافت لانتباه الدارس هو امتزاج القضايا السياسية بالأغراض الأخرى و لو بطريقة خفية و ذلك ما يؤكد ، أن الأغراض الشعرية التقليدية في ذاتها قد تكون عرضية ، و شكلية ، و أن الشاعر يتخذ منها وسائل فنية للتعبير عن أفكاره ، و رؤاه الشعرية .

¹ - د . مصطفى ناصف : دراسة الأدب العربي ، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع ، ط2 بيروت لبنان 1983 ، ص 232 .

أولا : المدح :

ظلت قصيدة المدح هي الوعاء الفني الذي يعرض فيه الشاعر العربي التقليدي رؤاه ، و مواقفه و إن كانت تتسع ، حسب عمود الشعر المتبع ، لموضوعات وجدانية ، أو موضوعية .
و يلاحظ الدارس كثرة قصائد المدح في ديوان ابن الخطيب ، فقد بلغ عدد ممدوح الشاعر بعد إحصائهم تسعة و عشرين ممدوحا ، أغلبهم ينتمون إلى الأسر الحاكمة في المغرب الإسلامي و هم إما من سلاطين بني الأحمر أو من ملوك بني مرين ، و إما من ملوك الدولة الزيانية بتلمسان أو من وزرائهم و قادتهم و كتابهم ، و تحليل هذه الكثرة واضح في صلة ابن الخطيب بالأسر الحاكمة في الأندلس و المغرب .

و قد جرى لسان الدين في مدائحه على أساليب الشعراء السابقين في اختيار معاني المدح ، و إضفاء الصفات النبيلة على الممدوح من كرم و شجاعة و حكمة و حلم و غيرها ، و لكنه كان مرتبطا بواقعه ارتباطا واعيا ، فسجل لنا موقفه من الأحداث السياسية التي جرت في عصره تأييدا أو معارضة ، و قد رأينا مواقفه فيما يتصل بالأحداث التي لها صلة بعلاقة المسلمين بغيرهم ، في الفصل السابق عند دراستنا لشعر الجهاد ، و لذلك رأينا أن نتناول قصائد المدح عنده من جلتين: المعاني التقليدية ، و المعاني السياسية ثم رأينا مراعاة لطبيعة الممدوحين من حيث انتماءاتهم أن نصنفهم إلى :

ممدوح الشاعر من البيت النصري و من يحيط بهم من رجال السيف و القلم و ممدوحيه من البلاط المريني و رجاله من قادة و كتاب ثم ممدوح الشاعر غير هؤلاء و أولئك .

1 - مدائح بني الأحمر : (المعاني التقليدية) :

عاصر لسان الدين ستة من ملوك البيت النصري ، و وزر لاثنتين منهم ، و يمكن أن نعد لسان الدين شاعر بلاط بأتم معنى الكلمة لأنه كاد أن يقف شعره على تمجيد هؤلاء السلاطين الذين عاش في كنفهم و نال منهم كل إكرام لولا نهايته المؤلمة ، و أكبر من شدا لسان الدين بمدحه و التتويه بفضائله السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل ، فبالإضافة إلى تسجيل أعماله الجهادية ضد القشتاليين و الأراغونيين ، فقد أسبغ عليه أوصاف العظمة و المجد المؤتل و هي أوصاف تعود إلى فضائله الذاتية ، كما تعود إلى نسبه الكريم .

أ / أبو الحجاج :

* - نسب أبي الحجاج :

لما كان بنو نصر (بنو الأحمر) ينتمون إلى الصحابي سعد بن عبادة¹ الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه ، فقد استغل لسان الدين هذا النسب الشريف في مدائحه لأبي الحجاج في كل مناسبة سانحة فنوه بهذا الانتماء الذي يعد شرفاً دينياً قبل أن يكون أي شيء آخر ، فما ميز الله به السلطان يوسف ، دون سائر الملوك في المغرب و الأندلس على الأقل ، أن أجداده هم أنصار النبي صلى الله عليه و سلم :

إذا عدد الأملاك مجداً أو محتداً فيوسف أنصار النبي جدوده² .

و من كان هؤلاء جدوده ، فلا ريب ، أن ملائكة السماء هم من جنوده ، و مؤيديه على أعدائه .

من كان أنصار النبي جدوده فملائك السبع الطباق جنوده³ .

و للخزرج تاريخ مجيد ، في جاهليتهم و في إسلامهم ، فقد انتقلوا من اليمن إلى الحجاز ، و منهم الأسرة الحاكمة في الشام المعروفة بالغساسنة الذين هم أبناء عمومة الخزرج الذين حلوا ببيثرب ، و هم عرب يتصفون بإباء الضيم ، و العزة ، و قهر الملوك :

من دوحة الأزدي حيث الحي من يمن بسبط غسان من بعد السرى نزلاً .

ثم استراد جناب الله خزرجه حتى أحل بأعلى يثرب الحلالا .

من كل أروع تبدو في أسرتيه سمات يعرب تأبى الشؤب و الدخلا .

ترى الملوك و قوفا دون مسورده لا يوردون به إلا إذا نهـلا⁴ .

أما زعيم هذه القبيلة سعد ، فهو ذو مقام خاص في الإسلام ، إذ هو الصحابي الجليل ، الذي كان يستشير به النبي صلى الله عليه و سلم ، و يستعين به ، و الذي حباه الله إيماناً صادقاً ، و أخلاقاً كريماً ، لم يشبها ريب طول حياته :

و أطلع سعد منك بدر خلافة تنير به الدنيا و تجلي الغياهب .

و من ذا له فخر كسعد على الورى فسعد وزير للنبي و صاحب .

مكارم لم تخلق على بعدي و لا شاب منها الخالص البحت شائب⁵ .

و للأنصار مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي ، و في نفوس المسلمين بل و في نفس الرسول الكريم (ص) لأنهم يمثلون حزب النبي ، فقد آووه ، بعد أن أخرجهم قومه ، و نصره على أعدائه ،

¹ - صحابي جليل ، شهد العقبة و بدر ، و سائر مشاهد الرسول (ص) كان جواداً مطعماً ، توفي في خلافة أبي بكر ، انظر الاستبصار في نسبة

الصحابة من الأنصار : لموقف الدين عبد الله بن قدامة المقدسي (620هـ) تحقيق و تقديم علي نويهض ، دار الفكر 1973 م ، ص 93 .

² - ديوان لسان الدين : 291/1 .

³ - المصدر نفسه : 291/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 764/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 121/1 .

رغم ما يحيط موقفهم ذاك من خطر ، و رغم ما كان يعاني الإسلام من ضعف في أول أمره ، و لكن صدق الأنصار ، و إيمانهم العميق بالإسلام و فدائهم لرسوله ، كل ذلك حملهم على تحمل الأذى ، و الصبر على اللأواء ، و الصدق عند لقاء العدو و البلاء الحسن في سبيل الله ، و كان منهم أبطال في معارك الإسلام لا يقلون بطولة عن خالد بن الوليد ، و ضرار بن الأزور .

يقول لسان الدين في ذلك ¹ :

فحططت رحلي بين نيران القَوَى و رميت بينهم عصا التسيار
 لله مثوى جنة يَمْتَمُّتُهُ حزب الرسول و أسوة المختار

إلى أن يقول :

نصروا الرسول و قد دجا ليل الهوى و الروح دامي الناب و الأظفار
 و رعوا به بعد المائة حقوقه فمَرَّتْ سيوف الله كل مमार
 قاموا بأمر الله و الإسلام مَمَّا بين العدو و مزبد زخْـار
 و استرهبوا البيض العصاب كأنها تمضي بكفِّي خالد و ضرار

و حسب الأنصار شرفا أن القرآن الكريم نوه بفضلهم ، أكثر من مرة ، فقد أشاد بصدق إيمانهم و إخلاصهم للرسول (ص) و حسن بلائهم و صبرهم في ساعة العسرة ، قال تعالى ”لقد تاب الله على النبيّ و المهاجرين و الأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة“ (التوبة/117) و في هذا دليل قاطع على صدقهم ، و يخاطب لسان الدين الأسرة النصرية التي يعد أبو الحجاج أحد أقطابها الراسخين ، قائلا:²

أبني الأنصار لكم شرف حكم القرآن به نطقا
 أووا نصروا أو ذوا صبروا كانوا لرسول الله وقا
 و وفوا لله ما عهدوا فما كذبوه إذ صدقا
 و رضوا بالصبر فما وهنوا جزعا بالدين و لا قلقا

و للأنصار موقف آخر لا يقل روعة عن صدق جهادهم ، هو إيثارهم للمهاجرين ، و لا سيما الفقراء منهم ، فقد ضربوا في ذلك أروع الأمثلة و حكى القرآن الكريم ذلك عنهم ، فقال تعالى : ”و الذين تبوأوا الدار و الإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم و لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة ، من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون“ (الحشر/9) و يشير لسان الدين إلى هذه الأخلاق العالية التي عرف بها الأنصار ، بقوله:³

¹ - ديوان لسان الدين : 368/1 - 369 .

² - ديوان الصيب و الجهم : ص 632 - 633 .

³ - ديوان لسان الدين : 576/2 .

من آل سعد الخزرج بن عبادة صحب الرسول و أسرة الفرقان
 المؤثرون على النفوس بزادهم و المفعمين حقائب الضيفان
 إن سوبقوا سبقوا الندى أو كوثرُوا فهم النجوم علا و عزٌّ مكان
 و يجانس لسان الدين بين لقب (النصرين) و (الأنصار) و نصرة الرسول صلى الله عليه
 و سلم فيرى أن بني نصر ، قد ورثوا نصرة الإسلام ، و رسوله عن أجدادهم الذين أشاد القرآن
 بفخرهم التليد :

أبني عبادة إن فخر قديمكم تليت بفرقان الهدى أسطاره
 النصر لفظ أنتم مدلوله و الدين روض أنتم نواره
 نصر النبوة فيكم مستودع فهو النسيم و أنتم أسحاره¹
 و هكذا يكون أبو الحجاج قد ورث عن أجداده الخزرج ، الدين ، و الملك ، و السيادة :
 أخليفة الرحمان و الملك الذي تتميه من أقبال خزرج صيده²
 و ربما عكس لسان الدين الصورة ، فصار أبو الحجاج فخرا للأنصار إذ أنجبوا منه ابنا
 عظيما ، حفظ لهم هذا الذكر الحسن ، و جعله باقيا على توالي الأيام و الدهور :
 و أنت ابن أنصار الهدى و حماته هنيئا لهم هذا الثناء المخلف³ .
 * - فضائله الذاتية :

حاول لسان الدين أن يستغل ثقافته الأدبية ، ليرسم لمدوحه صورة مثالية للملك الذي جمع بين
 شتى الفضائل ، و أكرم المحامد التي ينبغي توفرها في ملك ، مسلم ، إنسان ، رجل ، بحيث لا نملك
 أنفسنا إعجابا بما حازه من مناقب ، و قد سبق أن رأينا أعمال هذا الملك فيما يتعلق بجهاده في سبيل
 الإسلام ، و الأندلس . و من هياتة العناية الإلهية للقيام بأشرف الأعمال ، لابد أن يتصف بأشرف
 الصفات و السجايا و إلا عد ذلك منه مستنكرا غريبا ، و الصورة العامة لأخلاق أبي الحجاج أنها ذات
 مَرَأى بديع ، بحيث لو تجسدت أمام ناظريك رأيت روضا جاده الغيث فأمرع ، و كساه الربيع ، حلة
 بديعة و هذا معنى شعري استوحاه الشاعر من طبيعة الأندلس الفاتنة :

و خلانق كالروض زاوله الحيا غباً و دبجَه الربيع وحاكا⁴ .
 و مدح أبي الحجاج نافح بأريج أعطر من روض مزدهر بكل ورد جميل :
 ما زهر روض الغور روضه الحيا و حنت عليه بروقه و رُعوده .

¹ - ديوان لسان الدين : 373/1 .

² - المصدر نفسه : 292/1 .

³ - المصدر نفسه : 671/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 469/2 .

و سرى سقيط الطل في أوراقه بددا كدرًا أسلمته عقوده .
بأنم من مسرى امتداح عاطر يهدى إلى نادي علاك فريده ¹

و أعظم خصال أبي الحجاج ، و هي خصلة حرص الشعراء العرب على ترديدها بين أيدي
ممدوحيه ، هي خصلة الكرم ، و لكن كرم أبي الحجاج يزري بالغمام ، الجون ، لأن مواهب يديه
أكثر انهمارا :

يغص الغمام الجون يوم انسكابه إذا صدرت عن راحتك المواهب ² .

و لو أن الغيث المنسكب حلف يوما أنه أندى من أبي الحجاج فهو حانث لا محالة :

و إن حلف الغيث السكوب بأنه أعم ندى من يوسف فهو حانث ³

ذلك أن جود أبي الحجاج عميم شامل ، لا يقتصر على موطن دون آخر ، فلو أنه فاضت

أنامله في الغيث ، لكان شاملا بحيث يمتد نفعه إلى كل البلدان :

لو أن راحته فاضت أناملها في الغيث لم يقتصر يوما على بلد ⁴ .

و يشترك جود الممدوح مع الغيث في الانصباب ، و الغزارة ، و يتفوق عليه في أنه لا يعرف

الجفاف ، و القحط ، إذ يتراخي أثره كل فصول السنة :

و ندى كصوب الغيث إلا أنه لا يعرف الإمحال و الإمساك ⁵ .

و هكذا يكون جود الممدوح أعم من جود الحيا ، على كل حال ، و بأي مقياس .

و لكن الجود يقتزن عند غالب الشعراء التقليديين بخلق ، كأنه يذكر احترازا من مظنة أن

يكون الكرم جالبا لمعنى الليونة ، و السهولة المؤذنة بالضعف و لهذا فالممدوح يقرن في راحته سكبيا

يسد به رمق الجائعين فيرد إليهم الحياة ، و سيفا يهلك به الأعداء ، و يقضي عليهم بالموت :

سيب و سيف ضمنا في راحة ضمنت حياة للورى و هلاك ⁶ .

و الممدوح كهف و ملاذ للمضطرين إذا أصابهم مكروه ، كما أنه خلف من الغيث ، إذا

أجذبوا:

إذا نزل المكروه أو بخل الحيا فغيث لمعتر و غوث لمضطر ⁷

¹ - ديوان ابن الخطيب : 292/1 - 293 .

² - المصدر نفسه : 120/1 .

³ - المصدر نفسه : 190/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 277/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 469/2 .

⁶ - المصدر نفسه : 469/1 .

⁷ - المصدر نفسه : 376/1 .

و يبلغ جود الممدوح مرتبة يتعذر على أي إنسان أن يبلغها لأنه وجود على كل من جاء يطلب رفته ، حتى الأيام ، و الأعياد فهي تعاود زيارته كل سنة ، قاصدة نواله ، فهذه المواسم :

تزورك أثناء الزمان كأنها عفاة ترجّي راحتك و قصاد .

لقد عم منك الرfid من جاء قاصداً نوالك حتى للمواسم إرفادا¹ .

و هذه المواسم هي مناسبات ، يغتتمها المعوزون ، فيقبلون على هذا الملك الذي أصبح سلطانه كهفا للغريب ، و مأوى للشريد ، و مئوى للوفود و الضيوف ، و قد أقام أبو الحجاج احتفالا ضخما بمناسبة بناء أحد قصوره فتوافد الناس إلى ذلك الحفل ، و قد نظم لسان الدين في ذلك قصيدة قال فيها ، بعد المقدمة² :

فيا من يؤمل هذا الجنب أنخت بعقوة رعي العهود

بلغت بيوسف مئوى الضيوف و ورد الندى و مناخ الوفود

ثمال الفقير و يسر العسير و كهف الغريب و مأوى الطريد

و يذكر لسان الدين ، و لائم السلطان ، و عددها في اليوم ، فإذا هي عشرون مجلسا ، و إذا

فيها ألوان من الأطعمة ، و لكنها تشترك في كونها دواء يستشفى به :

قالوا و لائم مولانا مجالسها عشرون من ضحوة الليل معدودة

فقلت ألوانها في النفع أدوية و البعض منها بل المجموع محمودة³

و لا يخفى ما في هذين البيتين من إشارة إلى البذخ الذي عرفته قصور بني الأحمر في القرن

الثامن ، و إلى الرقي الاقتصادي لهذه المملكة في عهد السلطان أبي الحجاج .

و إذا كان الكرم من الأخلاق التي يستميل بها السلطان قلوب رعيته ، فإن إمامته السياسية

للمسلمين تقتضيه أن يكون لهم قدوة في التقوى و العمل الصالح ، و لم يفت لسان الدين التتويه بهذا

الجانب من شخصية أبي الحجاج ، فقد قسم هذا الملك يومه إلى قسمين ، بصورة تعود بالذاكرة إلى

الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنهاره لقضاء حوائج المسلمين و ليله صلاة و تهجد لله

تعالى :

فلناس في يوم العطاء هباته

و لله في الليل الطويل هجوده⁴

¹ - ديوان ابن الخطيب : 271/1 و 122 .

² - ديوان ابن الخطيب : 264/1 .

³ - ديوان ابن الخطيب : 322/1 .

⁴ - ديوان ابن الخطيب : 269/1 .

وإذا كانت التقوى صفة متصلة بسريرة المرء و باطنه ، فإن لها من الأعمال الظاهرة الطيبة ما يدل عليها ، و قد ظهر ذلك في أعمال السلطان أبي الحجاج العظمية التي يستحق عليها من الله المثوبة والرضا :

أُبديت من تقوى الإله سريرة يُحِبُّ مقامك فضلها و ثياب¹

وأوضح ما تظهر هذه الأعمال الكريمة في شهر الصوم : الذي يغتنمه الممدوح ليزداد من الله قربا و من فضله نهلا : فيصل يومه بليله ذكرا و عبادة ، و يفيض على الفقراء بصدقاته التي تجبر حاجتهم وتلج صدورهم :

قابلت شهر الصوم منك بما بدا ينهل من فضل الإله مزيده
و وصلت تم الليل منه بيومه ذكرا يبلغه القبول صعوده
و شرعت للصدقات أصفى مشرع يندى على حر الصدور بروده²

و مما يتصل بالمكانة الدينية للسلطان أبي الحجاج ، إمامته للمسلمين يوم العيد ، و بروزه للمصلى و ما يحيط موكبه من هيبة و جلال و قد استغل لسان الدين هذه المناسبات في قصائده العيدية ، ليأخذ منها بعض المعاني المدحية التقليدية فقد أصبح الممدوح من الصالحين الذين يتوسل العباد بحبهم ، إلى رضوان الله ، فعند خروجه إلى المصلى في ذلك اليوم ، يخرج معه المصلون ، و قد ملئت قلوبهم سكينه ، و تيقنوا أن الله ، متقبل دعاءهم و غافر ذنوبهم و كيف لا ؟ و قد خرجوا وراء إمام صالح و دوا لو كانت خدودهم مؤطنا لقدميه :

لما برزت إلى المصلى ماشيا ودت خدود أنها حصباء
حتى إذا اصطفوا و أنت وسيلة و سما إلى مرقى القبول دعاء
ملئت صدور المسلمين سكينه إذ ذاك و أنتاش القلوب رجاء
و تيقنوا الغفران من زلاتهم ممن لديه الخلق و الإنشاء³

و ليوم العيد مشهد آخر ، مشهد مهيب ، ففي ذلك اليوم يخرج موكب السلطان ، و قد غص المكان بالجنود ، علامة الهيبة و عزة الدولة ، و نود الأعداء عن حوزتها ، و قد امتدت الأبصار إلى الملك الجليل الذي أحاطه الله بهالة من الحسن و الجمال كأن جماله قد من ضياء النجوم النيرة :

أتيت المصلى و الجنود روائح تغص بها أغواره و نجوده
و قد أبصرت منك النواظر ملامها جمالا تمد النيرات سعوده

¹ - المصدر السابق : 106/1 .

² - المصدر نفسه : 293/1 .

³ - المصدر نفسه : 95/1 .

و آية نصر من حجاب مهابة يدافع عن دين الهدى من يكيد¹

و إذا كان المسلمون عادة يتمنون أن يطول شهر الصوم لما فيه من الخير و البركة كما يشناقون إلى يوم العيد ، طمعا في قبول الله لأعمالهم فإن الأمر مع أبي الحجاج بعكس ذلك ، إذ يحدث العيد السير شوقا إلى لقائه ، و يود شهر الصوم لو يطيل الإقامة ، محبة له و تمسكا به :

هنتت عيد الفطر أسعد قادم
و الشهر ودد بأن يطول مقامه
حث السرى شوقا إلى لقياءكا
كلفاً بوذك منه أستمسكا²

و جريا على طريقة الشعراء القدامى ، لا يفصل لسان الدين صفة الكرم عن صفة أخرى ، من أهم ما يطلب في الملوك العظام ، و هي القوة ، و هذه السجية ، لها مظاهر ، و تجليات ، فتارة تكون في شدته على أعدائه في الزحف فلو تجلت هذه الشدة للبحر ، لغاض مأوه ، و تارة تكون في مضاء عزيمته التي تطاول الريح ، و تخجلها :

لو أن بأسك و الجموع زواحف
في مجمع البحرين غيض الماء
لو أن من مستن عزمك هبة
في الريح ما نسبت لهن رخاء³

و تارة تكون في سداد رأيه ، و حسن تدبيره ، و إحكام تنظيمه للجيوش و خبرته بالحروب ، و أساليبها ، فإذا أبرم رأيا ، فهيئات أن ينقض و إذا بعث جيشا على الأعداء فهيئات أن يخالطه حذر ، كيف و قد نفخ فيه هذا الملك الهمام من مضاء العزم ، ما جنبه الخوف ، و الحذر من الأعداء :

فلا ينقض الأمر الذي هو مبرم
و لا يحذر الجيش الذي هو باعث⁴
لواؤك منصور و حزبك ظافر
و ملكك محفوظ و حزبك غالب
و رفدك موهوب و عزمك نافذ
و بأسك مرهوب و سهمك صائب⁵

و إذا هم بأمر فهو واقع لا محالة لتأييد الله له فكأنه قضاؤه و قدره و هل لقضاء الله تعالى من رد ؟

إذا هم أمضى الله في الأرض حكمه
و ما لقضاء الله في الأرض من رد⁶

و من مظاهر قوته : طموح همته إلى معالي الأمور ، فلا يبالي في ذلك بالصعب منها ، بل يدعوها فتنقاد لأمره ، و كيف لا تستجيب له ، و إن المشتري ليكتفي بأن يلقي ببصره إلى شموخ همته ، دون أن يبلغها ؟

¹ - المصدر السابق : 270/1 - 271 .

² - المصدر نفسه : 471/2 .

³ - المصدر نفسه : 94/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 190/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 120/1 .

⁶ - المصدر نفسه : 302/1 .

إذا رمت صعبا أو طلبت ممنعا¹ فجذك يدعو بالصعاب فتتقاد¹
نو همة علياء مدّ المشتري طرفا إلى غاياتها طمأحا²

و أخيرا فإن الزمان على ما أخضع من أعناق الجبابرة ، قد دان لأبي الحجاج ، و خضع
لحكمه ، فلم يبال بصروفه ، إذ هي مصروفة عنه ، فعاش في عزة و منعة ، قد وطد الأمن
و الاستقرار في ملكه ، و ظفرت جنوده بأعدائه :

و دان له الزمان فنام فيه قرير العين منصور الجنود³

و هو لم يؤمن نفسه ، فحسب من سطوة الدهر ، و إنما حمى منه المستضعفين الذين يلونون
به ، فيصد عنهم غوائله ، فيرتد الدهر مفلول الحد ، خائر القوى :

أقول لركب ينتحي طرق السرى و يخبط في جنح من الليل مريدا⁴
... و لذتم من الدهر الظلوم بناصر يردّ شباة الدهر مقلولة الحد⁴

و إذا عرفنا وضع مملكة غرناطة في القرن الثامن الهجري ، لم نستغرب هذه المبالغة التي
يبديها لسان الدين في وصف ممدوحه بالقوة التي تقارع الدهر ، و تصرعه !

و للنجاح في تدبير شؤون رعيته ، في ظل تلك الظروف السياسية الصعبة فهو في حاجة إلى
الحكمة و سداد الرأي ، و لم يكن يفتقر إلى ذلك ، بل لقد أوتي منهما حظا وافرا ، فقد عرف بحكمته
و حسن تدبيره، في معالجة المعضلات فكأنه ، من رفقته ، و لطف تناوله لها ، أس يجس عليلا ، فما
هو إلا أن يضع يده الحكيمة على موضع الداء حتى يسري الشفاء في كامل الأعضاء :

ما لج داء أو تفاقم معضل إلا و في يمني يديه شفاء

إن رام بالتدبير حيلة برئها أبدت منافعها له الأعضاء⁵

و إذا داهم خطب ، فلم يدر الناس سبيل الرشد فيه من الغي كان رأيه فيه نورا يضيء ، فيفوق
بين الحق و الباطل :

إن أبهم الخطب أنكى في دجنته رأيا يفرق بين الغي و الرشد⁶

و لهديه ألق تستضيء به الشمس ، و في مجالسه من الوقار ، ما يرغب الملائكة في شهودها
و الشاعر هنا ينظر إلى الأثر النبوي الذي يرغب في مجالس الهدى و العلم لأن الملائكة تشهدوا

¹ - المصدر السابق : 272/1 .

² - المصدر نفسه : 223/1 .

³ - المصدر نفسه : 283/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 302/2 - 303 .

⁵ - المصدر نفسه : 93/1 .

⁶ - المصدر نفسه : 277/1 .

و تدعو لمن يجلسها ، و ذلك في قوله صلى الله عليه و سلم : ” .. و إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم¹ يقول لسان الدين :

و رأي يمد الشمس نورا و مشهدا
ملائكة السبع الشداد شهوده²

* - مكانته بين عظماء العالم :

يُحِلُّ لسان الدين سلطانه أبا الحجاج مكانة خاصة بين عظماء العالم ، و ملوكه و هو عنده فخر ملوك بني نصر لما امتاز به من انشراح لفعل الخير و من مهابة و روعة ، و من جود عميم ، و نفع شامل ، فهو موطن ذلك السلطان الذي بدأ تشييده الغالب بالله بن الأحمر و أتم بناءه خلفه الذين :

كفاهم أن أنجبوا يوسفيا الأريحي الملك الأروعا

ملكا عميم الجود سحّ الندى أجرى من الوابل أو أنفعا³

بل أن يوسف و ملكه في بني نصر ، كالكعبة الشريفة في الأمصار ، تشد إليها الرحال ، لالتماس ما فيها من بركة و خير :

و يا كعبة الملك التي بركاتها تفيض على زوارها و توكف⁴

و إذا كان عهده ، هو العهد الذهبي لمملكة بني نصر ، و هو بذلك فخر هذا البيت الحاكم ، فإنه قد أخل من قبله من ملوك العالم ، و أزرى حسن ذلك العهد ، بكل حسن سواه ، و إن الملوك ليقصرون عن إدراك ما بلغه أبو الحجاج من المجد ، و إن أفعاله الجليلة التي انتظم ذكرها على لسان الأيام ، لتمحو كل مآثر تنسب إلى أولئك الملوك :

أنسى زمانك كل عصر ذاهب حسنا و أكسد ذكرك الأملاكا

فإذا هم راموا لمجدك غاية كان القصور لديهم إدراكا

و محت مآثرك المآثر عندما نظمن في نحر العلاء أسلاكا⁵

و لا ريب أن تصوير أبي الحجاج على هذا النحو من العظمة ، بل التفوق على جميع العظماء ، قد استمده الشاعر من ثقافته الأدبية ، ذلك أنه يجاري الشعراء العرب الذين يميلون إلى هذا النوع من الإفراط و الغلو في تصوير العظمة ، و منهم أبو تمام الذي تكونت لديه ”نظرية .. في

¹ - رواد الترمذي ، انظر : سنن الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، حققه و صححه عبد الرحمان محمد عثمان ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت ، ط 2 ، 1403 هـ - 1983 م ، ج 4 ، ص 153 .

² - ديوان لسان الدين : 269/1 .

³ - المصدر نفسه : 652/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 670/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 469/2 .

الرجل العظيم ، تتلخص عنده في تفرده بمجد لا يستطيعه أحد ، إذا ارتقى إلى قمة ، أعيت كل من أراد الوصول إليها¹ .

و يرى لسان الدين أن ملك أبي الحجاج قد شيد على أساس متين من الشريعة الإسلامية ، فصار بذلك مضرب المثل لغيره من الحكام ، و قدوة صالحة يتأسى بها الملوك الصالحون :

فقضيت من حق الشريعة مقصدا لزم الملوك الصالحين أكيدة

فاخذ و دم و انعم بسابغ نعمة تترى و ملك لا يئلل مشيده²

و يعقد لسان الدين^{مشارفة} مخدمه ، و ولي نعمته ، و بين كبار الخلفاء في تاريخ الإسلام ، و لا سيما بني العباس منهم ، و قد اجتمع فيه من الخصال الحميدة ، ما تفرق فيهم ففيه من فتك (السفاح) بأعدائه و من قوة المنصور ، و من ثقة المستكفي بالله ، بالإضافة إلى ما جبل عليه من الرحمة برعيته ، و السعي بها إلى سبل الهداية :

إذا ذكر الأملك يوما فيوسف لما شئت من جود و ما شئت من عطف

فبالسيف (سفاح) ، و بالهدى (مهتدا) و بالرعب (منصور) و بالله (مستكفي)³

بل إن شجاعته ، و انتصاراته على أعدائه ، لتغطي على ما حازه الرجلان العظيمان اللذان شادا ملك بني العباس (السفاح و المنصور) :

يا واحد المجد الذي أثاره تروى حسانا في الزمان صحاحا

أنسيتنا بحسامك الماضي الطيبى و لوائك (المنصور) و (السفاح)⁴

و يعود لسان الدين إلى تاريخ العرب القديم ، و أيامهم في الجاهلية و يرى أن السلطان أبا الحجاج ينبغي أن يقترن ذكره بمن صنع تلك الأيام من الأبطال ، فأيام أبي الحجاج لا تقل ملحمة عن بطولات أولئك المشاهير : فلو كان شهد تلك الأيام لغير مجرى التاريخ ، و حقق لقومه من العرب ، انتصارات على أعدائهم ، فلو شهد أيام "قنص بن سعد" لظفر بريعة بن نزار ، و لما تفرق هذا الحي من العرب في (الأنبار) على يد (الأنباط) و لو قصده (عمر بن ذهل) لخلص أبناءه من القتل في يوم (ذي قار) الذي انتصرت فيه اليمن على الفرس :

أو كان في "قنص بن معد ثاويا دهم العفاء ربيعة بن نزار

و لما تلاشوا جفلاً و رمت بهم أيدي النبيط أقاصي الأنبار

1 - د / موهوب مصطفى: المثالية في الشعر العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1982 ، ص 494 .

2 - ديوان لسان الدين : 294/1 .

3 - المصدر نفسه : 675/1 .

4 - المصدر نفسه : 223/1 .

أو أمه عمرو بن ذهل ما طفت مهجات صبيته على (ذي قار)¹

د - الصورة الشخصية لأبي الحجاج :

و حتى تكتمل الصورة أمامنا ، لا ينسى الشاعر أن يعرض علينا مشاهد ، من جمال الممدوح ، و ألقه ، و هيئته ، فقد حباه الله نورا وضاحا ينقذح من تلؤلؤ جبينه ، فهو أغر ، كان غرته الشمس و قد حلت في برج الأسد ، فقد جمع إذن بين حسن الرواء و شجاعة القلب :

و إن نظرت إلى لألاء غرته يوم الهياج رأيت الشمس في الأسد²

و هو تارة كالبدر يشع منه نور في الليلة الداجية ، فحيثما حل الممدوح ، حل النور معه :

إذا سرت سار النور حيث تموج كأنك بدر و البلاد بروج

و هو تارة أخرى كضوء الصباح الذي يجد فيه الرائي متعة لا تعدلها متعة أخرى ، و لا سيما

إذا علمنا أن الصباح يعقب ظلام الليل :

نور كما متع الصباح لناظر و خلائق كالروض غبّ قطار³

و ربما خلب ببهائه ، و سطوع نوره الأبخار ، و الألباب كما يلمع البارق المتألق الذي يبشر

بانهمار الغيث ، فتهدأ النفوس و تعود إليها سكينتها بعد طول انتظار و ترقب :

و لقد شجاني بارق متألق يشجى به صبّ الفؤاد عميده

و كأن نور جبين يوسف نوره و كأن ديمته الملتئة جوده⁴

و يحرص الشاعر عندما يتناول حسن ممدوحه المادي ، أن يذكره باسم (يوسف) ، أما عند

تناول حسنه المعنوي ، ففي الغالب ، يذكره بكنيته (أبي الحجاج) ، و في ذلك تلميح منه إلى

الشبه بين ممدوحه و بين النبي (يوسف) عليه السلام في الجمال و الحسن .

و بذلك يتجلى لنا السلطان أبو الحجاج قد حاز من المناقب ما يكاد يكون مستحيلا على غيره

من الملوك ، فهو ، أولا ملك سليل الملوك ، و هو ثانيا يتمتع بقدرات حربية خارقة ، و فضائل نفسية

عز نظيرها من شجاعة ، و حسن تدبير ، و حكمة و سداد رأي و جود و حلم و عطف على الرعية ،

و تقوى ، و عفة و عمل صالح ، و إمامة في الدين ، و قدوة للمسلمين ، و هو ثالثا ، قد حباه مولاه

المنظر الحسن فجمعت له الكمالات من كل طرف ! و لذلك لا يستنكف لسان الدين أحيانا أن يغالي في

مدحه ، و يجعله في مرتبة فوق كل من عداه من البشر ، يقول مادحا له في إحدى موشحاته⁵ :

¹ - المصدر السابق : 370/1 .

² - المصدر نفسه : 277/1 .

³ - المصدر نفسه : 369/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 291/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 784/1 .

إنما يوسف إمام هدى
حاز في المعلوات كل ندى

قل لدهر بملكه سعدا

افتخر جملة على الدهر كافتخار الربيع بالزهر

و يقول ، من قصيدة رائية¹ :

و إني مذ يممت حضرة يوسف
تقل مقادير الخلائق عن قدرتي

فهذا الشاعر قد بلغ منزلة لا يرقى إليها بقية الخلائق عندما توجه إلى مجلس الممدوح ، فما بالك بالممدوح نفسه ؟

ب / الغني بالله :

و ثاني ملوك بني الأحمر الذين استأثروا بمدائح لسان الدين ، هو الغني بالله ، محمد الخامس ، و له فيه سبع عشرة مدحة ، بين قصيدة و مقطوعة عدا ما قاله فيه ، في المولديات ، و هو رقم نتحفظ عليه كثيرا ، كما سبقت الإشارة ، بالمقارنة مع السنوات التي قضاها لسان الدين في كنف الغني بالله ، مع ما عرفت به أيامه من أحداث ، تقتضي شاعرنا أن ينظم قصيدة واحدة على أدنى تقدير ، في كل حدث ، و مناسبة ، و لكن العداوة قضت على بعض آثار لسان الدين ، و عدت على نصيب من أشعاره ...

و نلاحظ أن لسان الدين يكرر ما نسبه إلى أبي الحجاج من صفات في مدح ابنه ، و خليفته الغني بالله ، مع وصف لبعض المظاهر السلطانية التابعة (لوظائف) السلطان من مرآة ، و سرير ، و سكين و نحوها ، مع تسجيله للصراع السياسي بينه وبين أعدائه الذين خلفوه في الملك قبل أن يعود إليه .

* أصل الغني بالله :

لما كان الغني بالله أحد حكام البيت النصري ، فإن لسان الدين يربط أصله بأصلهم ، إذ ينتمون إلى أصل شريف ، يفضح من يفاخرهم بأجدادهم ، و كيف لا ؟ و جدهم أحد أقطاب الأنصار بالمدينة المنورة و أحد صحابة النبي صلى الله عليه و سلم ، بل أحد نقباء الأنصار الذين أشاد القرآن بمدحهم ، فما عسى أن يضيف المادح إلى تلك الإشادة ؟

يا آل نصر إن تذوكر مفخر
أو ليس جدكم المدينة داره
سعد و ما أدراك سعد عبادة
لا تفضحوا من دونكم و ترسلوا
كلا و صاحبه النبي المرسل
في مجده صدق الذي يتوغلُّ

¹ - المصدر السابق : 376/1 .

ماذا يخبر مادح من بعدما أثنى بمدحك الكتاب المنزل¹
وقد جمع الله لهذا الملك كرم الأصل إلى كرم الفرع ، فإذا كان ماضيه مجيدا فحاضره لا يقل
مجدا ، إذ هو لم يكتف بأن يُنسب إلى العظماء ، حتى أضاف إلى ذلك من جليل الأعمال ، وحميد
السجايا ما جعله جديرا بذلك الانتساب :

الكريم المنتمى و المنتهى أسد السرج و بدر المجلس²
و هو فرع زكا من أصول كريمة ، كما صنع الشراك من جلد النعل
و فرع زكي من أصول كريمة حباها كما قد الشراك من الجلد³
* مناقبه و آثاره :

أشاد لسان الدين بأخلاق الغني بالله ، و أعماله ، العمرانية ، فمن أخلاقه ، الكرم العميم الذي
لا يشاب بتكدير صفوه ، و لا من به فجوده ، كالغيث ، غير أنه لا برق ، فيه و لا رعود ، و هو مع
ذلك جود ، متوارث عن أسلافه الأجواد .

جاد بها من جود كف محمد
و إن أحق الغيث أن يروي الثرى لغيث زكي صاب من منشأ المجد⁴
و هذا السخي المعطاء ، يغني عن البحر ، كما يغني حسنه ، و سعادة زمانه ، عن أبراج
السماء :

غنينا عن البحر الذي غاض بالحيا و عن كوكب العلياء بالقمر السعد⁵
وقد جمع الغني بالله ، إلى الكرم ، الشجاعة ، و المضاء ، و قد تولى الخلافة بعد ، مقتل
والده الحجاج ، فكانا كسيفين ، هذا رده الدهر في غمده ، بعد أداء مهمته ، و هذا سلّه ، على الأعداء
صارما :

و سيفان هذا سلّه الدهر ماضيا صقيلا ، و هذا رده الدهر في غمد⁶
و للغني بالله بعد ذلك ، السجايا الحميدة ، من وقار ، و طلاقة وجه و حسن رواء ، و كمال
منظر ، فنور وجهه يزري بكل نور سواه و هو البحر الذي تغدو البحار معه جداول ، و ذكره طيب
عطر ، يغني عن كل مسك :

¹ - ديوان لسان الدين : 501/2 - 502 .

² - المصدر نفسه : 793/2 .

³ - المصدر نفسه : 307/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 307/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 307/1 .

⁶ - المصدر نفسه : 307/1 .

و لك السجايا الغرّ و الشيم التي
و لك الوقار إذا ترزلت الربا
و لك الجبين الطلق و الخلق الذي
النور أنت و كل نور دجيسة
و إذا ذكرت كأن هبات الصبا
بغريبها يتمثل المتمثل
و هفت من الروع الهضاب المثل
لحظ الكمال بلحظهن موكل
و البحر أنت و كل بحر جدول
ركد الكباء بجوها و المندل¹

و من بين منجزات الغني بالله العمرانية ، يشيد لسان الدين ، بتشيده القصر المعروف بقصر السباع² ، بغرناطة ، و ذلك في قصيدة مدحية بمناسبة إعداره لبعض أولاده ، و يعتبر لسان الدين هذا البناء معجزة لا يفي بحق وصفه كاتب و لا شاعر ، لأنه جاء متناسب الأجزاء ، قد قدر تقديرا ، كأنه قطعة من الفن الأدبي ، قد نظمت نظما أو نثرت نثرا ، و لكن لسان الدين يكتفي بهذه الإشارة ، فلا هو يصف النافورة التي وسط القصر ، و لا الأسود التي تحملها ، والسبب في ذلك أن غرض القصيدة الأصلي هو تهنئة السلطان بإعذار ولده ، كما سبقت الإشارة ، و التتويه بمظاهر الاحتفال ، من سباق للخيل ، و طرد ، و نحوها .

أما الأبيات التي يشير فيها إلى القصر فهي قوله :

و لله مبنائك الذي معجزاته
تتاسبت الأوضاع فيه و أحكمت
فجاء على وفق العلى رائق الحلى
أبت أن يوفيهما الشفاه أو الخط
على قدر حتى الأرائك و البسط
كما سمط المنظوم أو نظم السمط³

ثم ينتقل بعد هذا إلى وصف إعذار الطفل ، فيشبهه بالشبل الذي أحسن والده تربيته فهو يجمع بين الأنفة التي تحمله على الشدة و دماثة الخلق التي تكسبه ليونة و سهولة و قد أسلمه أبوه للعادر رغم ضنائه به ، و لكنها سنة الإسلام التي يسمح في سبيلها بكل احتياط و تحفظ :

و جيء بشبل الملك بنجد عزمه
سمحت به لم ترع فرط ضنائه
عليه الحفاظ الجعد و الخلق السبب
و في مثلها من سنة يترك الفرط⁴

و من صور الاحتفال الدالة على البذخ ، و الترف الذي عرفه البلاط النصري في هذه المرحلة ، صورة سباق الخيل التي يشبهها تارة بالكتيبة التي تقذف بالنار صوب العدو ، و تارة بالغزال الأحور ، و تارة أخرى بذكر النعام حين يمد عنقه ، و يشبه قوامها بأعمدة منحوتة من الزبرجد :

¹ - المصدر السابق : 496/1 .

² - انظر : في وصفه و وصف الآثار الباقية منه : محمد عبد الله عنان ، الآثار الأندلسية الباقية ، ص 199 .

³ - ديوان لسان الدين : 460/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 461/2 .

و أرسلت يوم السبق كل طمرة كما ترسل الملمومة : النار و النفط
رنت عن كحيل كالغزال إذا رنا و أوفت بهاد كالظليم إذا يعطو
و قامت على منحوتة من زبرجد تخط على الصم الطلاب إذا تخطو¹

و من صور الاحتفال الباذخ الملوكي ، صورة مطاردة الجوارح لبقر الوحش ، تلك الجوارح التي تصيب من القطيع المقاتل ، ثم يصف لسان الدين (الصوار) و هو رائد بقر الوحش فيصفه بقوة أرجله ، ويشبه قرنيه بالرماح (السمهرية) ، ثم يلتفت إلى هيئة القرنين و قد استدارا على أذني الثور ، فصارا يشبهان القرطين اللذين تتزين بهما المرأة ، بعد أن كانا تاجين له ، و يرى لسان الدين أن هذه الاحتفالات التي يقيمها الغني بالله دليل على عظمة ملكه ، مع ما يفهم من استتباب الأمن في مملكته فأضحى آمنا لا يخشى أعدائه :

و طاردت مقدم الصوار بجارح يصاب به منه الصماخ أو الإبط
متين الشوى في رأسه سمهرية مقصرة عنهن ما يثبت الخُط
و قد كان ذا تاج فلما تعلقا بسامعتيه زانه منهما قـرط
فهنيته صنعًا و دمت مملكا عزيزا تشيد المعلوات و تُخنط²
* المظاهر السلطانية :

و مما يتبع لغرض المدح ، وصف المظاهر السلطانية التي ترمز إلى هيبة السلطان و بذخ المملكة النصرية ، مما يعكس الحضارة الأندلسية في تلك الفترة ، و من تلك المظاهر : سرير الملك ، و قد التفت إليه لسان الدين في مناسبات مدحية متعددة و لذلك تكررت المعاني التي يضيفها على هذا المظهر أو غيره من مظاهر الملك ، و ربما وردت بعض الصيغ التعبيرية مكررة مع تغيير ضئيل ، فسرير الخشب الذي ينام عليه السلطان مهد للأمن و موطن للعز ، بل هو جواد كريم يقود من يمتطيه إلى غاية اللذة و المتاع ، و قد حجب عن العيون صونا له من الابتذال لا سيما و قد أحاطت به الحسان لرعايته و خدمته ، و يلتفت لسان الدين إلى معنى جهادي كنا قد أشرنا إليه في فصل سابق ذلك أن هذا السرير مع كونه محلا للدعة و الاطمئنان فهو أيضا رمز للسلم الذي تحقق على يد الغني بالله ثامن الملوك النصرين بسبب ما أحياه هذا الملك من سنة الجهاد :

إذا نمت نم للأمن فوق مهـاد و إن قمت قم للعز تحت عماد
و جُل فوق سرجي و اجعل الوصل غايـتي فإني للذات خير جـواد
حجبت بحجب الصون عن كل ناظر وأسكنت للترحيب أرفع نادي

¹ - المصدر السابق : 460/2 .

² - المصدر نفسه : 461/2 .

و حف بي الغيد الحسان لخدمتي فسري مكتوم و حسني بادي

... و ثامن أملاك الجهاد أقامني مطية سلم في محل جهاد¹

و في الديوان مقطوعات أُخِرَ تشابه معانيها بل ألفاظها و مبانيتها في وصف سرير الملك².

و من تلك المظاهر مرآة السلطان ، و لسان الدين يستغل وصف هذا المظهر لإسباغ مزيد من معاني المدح على ممدوحه ، فمرآة الغني ذات شأن عجيب : فالأمور تبدو بظواهرها جليسة واضحة كأنها في نفس هذا الملك الذي أحاط بالمسائل و القضايا إحاطة جعلته يدركها إدراكا جنيا ، لما أوتي من عقل حكيم و بصيرة نافذة :

لمجدد الملك الرفيع محمد أنشيت فاعجب من غرابية شاني

تبدو بظاهري الأمور كأنني من باطن المولى الذي أنشاني³

و من تلك المظاهر : بيضة السلاح و هي الخوذة التي يضعها الملك على رأسه وقت الحرب و قد ألمنا ببعض ما توحى به من معاني جهادية في الفصل السابق و لكن الشاعر يلتفت إلى معاني مدحية خالصة حين يتخيل تلك البيضة كأنها كوكب بزغ مع طلوع الفجر على جبين ملك أغر :

خصصت بالحسن و انفردت به فجل وزني و قل أشباهي

كأنني كوكب الصباح بـدا على جبين الغني بالله⁴

و هكذا يبدو لنا لسان الدين في مدائحه التقليدية لمملوك بني الأحمر شاعر بلاط بآتم معنى الكلمة و نعني بذلك أنه اهتم بكل ما يتعلق بالمملكة النصرية من دقيق الأمور و جليلها .

ج - ممدوحو ابن الخطيب من حاشية البلاط النصري :

لما كان الشاعر قد نشأ و ترعرع في غرناطة ، فقد أخذ عن علمائها و أدبائها على نحو ما ذكر في الفصل الأول و قد اتصل بوزراء المملكة النصرية و كتابها قبل أن يصبح أحد رجالها البارزين ، و على رأس هؤلاء الوزراء أستاذه ، أبو بكر بن الحكيم : الذي أشاد بمفاخره الذاتية ، كما تغنى بمآثره التي ورثها عن أسرته ، أما خصاله الذاتية فكونه نورا لاح للناس من الغرب و إذا ألقى خطبة فكانما يلقي على سامعيه أبعادا موشاة ، يضاف إلى ذلك كونه خلاصة أهل العلم بالغرب الإسلامي ، تفيض على المعتنقين يداه قبل سؤاله ، فكان في راحتين سحابا سكوبا أنهمر ، بعدما عضت الناس سنة شهباء هذا إلى لطافة ورقة لم تمنعها أن يكون صارما كالعضب مغمدا في جرابه :

أنور سناء لاح في مشرق الغرب و فرع اعتلاء لاح في دوحة العرب

¹ - ديوان لسان الدين : 342/1 - 343

² - انظر : مثلا القصيدة ، 342 : 409/1 ، و القصيدة 322 : 410/1 .

³ - المصدر نفسه : 627/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 750/2 .

نظقت فحزت الحكم فصلا خطابه
كفيل بنيل الجود قبل سؤاله
و أيّ انسكاب في سحائب كفه
و أي مضاء في لطيف طباعه
خلاصة شِعْب العلم ناهيك من شِعْب
وَصُولٍ إلى الغايات في المركب الصعب
إذا كلحت شهباء في ناجر الجذب
كما سكن التصميم في ظبة العضب¹

ثم ينتقل لسان الدين إلى فضائل أستاذه ، الوزير التي نسبته إلى سلالة أعلام حازوا المكارم ،
من لخم التي أنجبت الملك عمرو بن هند ذا البأس الشديد في حومة الحرب :

سلالة أعلام و فرع مكارم بهم فلك العلماء دار على قطب
... و أنت من الصّيد الذين سمت بهم
أرومة لخم في حدائتها الغلّيب
و يشهد نعل السيف في حومة الحرب²

و إذا كان بعض الشعراء ينتحلون الشعر مكسبا ، و تجارة ، فليس شاعرنا من هذا الصنف ،
فما أبعد عن هذا المتجر ، فالموت أولى به أن كان منهم و هل بين التلميذ و الأستاذ غير المودة
الخالصة من كل رياء ، و نفاق ؟

و لست كمن يعتدُّ بالشعر مكسبا هبّلت رضيع المجد إن كان من كسبي³
و في مدحة ثانية يفيض الشاعر في الإشادة بأجداد أبي بكر من الملوك اللخميّين ، و يذكر هذه
المرّة النعمان بن المنذر ، ثم يعرج على قوة أولئك السلف و شدة فتكهم بأعدائهم إذ يرمون نحورهم
بشبا الرماح ، و يضربون أعناقهم بالسيوف المهندة ، و تكاد رماحهم و سيوفهم أن تتلظى حنقا على
أعدائهم :

أنذر المنذر الأنام بجـدواه
فشبا صعدة بثغرة ذمـر
و صيفاح تمضي و سمر تلظى
و سح النعمان نعمى عتاد
و غرار مهند في هادي
تفدح النار في متون الصلاد⁴

و من أساتذة الشاعر الذين مدحهم أيام الدراسة : الكاتب أبو الحسن بن الجياب ، الذي تسنم
رئاسة الكتاب في القصر النصرى ، و جلس الطلبة ، و صار مجلسه معمورا بالعلوم الدينية ، فحما
بهينته السلطانية ، قد أخل حساده ، و رنت إليه أعين محبيه ، أما سياسته في تدبير شؤون الدولة فقد
وقفه الله فيها فأدارها على أحكم وجه :

مهلك بالدنيا و بالدين معمور
فشانيك مخذول و راجيك منصور

1 - ديوان ابن الخطيب : 117/1 .

2 - المصدر نفسه : 116/1 .

3 - المصدر نفسه : 118/1 .

4 - المصدر نفسه : 295/1 .

...تحوط أمور الملك منك سياسة حباها من اللطف الإلهي تديبر¹

هذا عن علمه ، و سياسته ، أما أخلاقه ، ففي مقدمتها كرمه الذي جرى على السنة ، الشكرين
لأياديه فقد جاد بالمال كما جاد بشبابه ، و قضاءه في خدمة الدولة ، و إفادة طلبة العلم ، و قد وهبه الله
هيبة جعلت الرعية و الحكام يرهبونه على حد السواء،

عميم الندى حتى بماء شبابه كريم بأفواه المواهب مشكور

و يرغب في نعماء كل مؤمل و يرهب بؤسائه أمير و مأمور²

و ما أشبه أدبه إذا دبج به الأوراق ، بسقيط الدر ، منظوما و منثورا و إذا خط بقلمه ، فكأنما
ليل يقع على صباح ، و قد كان أدباء الأندلس يتبجحون بجمال الخط ، كما يعتزون بقوة الأدب ،
و غزارة العلم :

إذا اهتز في روض المهارق غصنه تساقط منظوم البيان و منثور

تخال صباح الطرس يرقم بالدجى و يرقم بالمسك ، المفتق كافور³

و من أهل العلم الذين وفدوا على حاضرة غرناطة فوجه إليهم الشعراء قصائد المدح الشريف
أبو عبد الله محمد بن راجح⁴ و كان ممن احتفى بقدمهم ابن الخطيب و له فيه قصيدة أشاد فيها
بأخلاق هذا الشريف و أصله الهاشمي و أدبه و علمه ، و لما هبت نسمة حاجرية طرب لها الشاعر ،
فصار يترنح من غير سكر ، كأنها شمائل الممدوح في نشوتها ، و وقعها على قلب الشاعر :

رجحنا لها من غير سكر كأنها شمائل أخلاق الشريف بن راجح⁵

و ما لأخلاقه لا تكون في رقة الشمول و هو فتى هاشم المعرق في المجد و العلى ، و الذي
صار ذكره في الأمداح كأنه لها نضار من نفاسة معدنه:

فتى هاشم سبقا إلى كل غايمة و صبورا مغار الحبل في كل قادح

أصيل العلى جمّ السيادة ، ذكره طراز نضار في بُرود المدائح⁶

أما علمه بالقرآن فبؤاه مكان تفسيره و شرحه ، بعلم يصيب به دقيق المعاني كما أصاب
السيف البتار ضريبته ، و قد اشترأبت أعناق الطالبين رامحة إياه ، فكأنه "قس" في عكاظه و قد
تحلق الجمع حوله ، يسمعون بلاغته :

1 - المصدر السابق : 403/1 .

2 - المصدر نفسه : 403/1 .

3 - المصدر نفسه : 403/1 .

4 - شريف كاتب و شاعر له اهتمام بالتاريخ ، و له رواية ، قدمه الملوك و قربوه ، قدم على الأندلس مغلثا ، من الوقعة بالسلطان أبي الحسن
المربني سنة 750هـ و توفي سنة 765هـ بغرناطة و أصله من تونس : الإحاطة 571/2 .

5 - ديوان لسان الدين : 230/1 .

6 - المصدر نفسه : 230/1 .

... و فرقان مجد يصبغ الشكَّ نوره
.. و قد جمعت في مجمع الحفل نحوه
..تذكرت قسا قائما في عكاظـه
حبا الله منه كل صدر بشسارح
أسنة حرب للعيون اللوامح
و قد غصَّ بالشَّمَّ الأنوف الججاجح¹

و هكذا كاد شعر ابن الخطيب المدحي أن يكون صورة تاريخية حية عن تاريخ المملكة النصرية فقد هيا للباحث أن يلم بلمحة عن تلك الفترة من تاريخ الأندلس من خلال ما يعرضه من معلومات عن الحياة الثقافية بشكل خاص .

2 - المعاني السياسية التابعة لمدائح بني الأحمر:

لقد كان للشعر دور ، في الحياة السياسية للأمة العربية بما كان للشعراء من صلة برجال السياسة ، سواء أكانوا من شيوخ القبائل في الجاهلية أم من الخلفاء ، و الوزراء في العصور الإسلامية ، و قد أدى الشعر وظيفة لا تقل خطرا عن آراء الساسة و تدبيراتهم لأنه تدخل في الشؤون الداخلية الدقيقة للدول العربية و الإسلامية ، كما تناول شؤونها الخارجية من علاقات سياسية ^{بها} ^{أور} غير ^{من} الدول ، و لذلك يمكن تعريف الشعر السياسي ، كما عرفه أحد الباحثين المعاصرين بقوله : "هو هذا الفن من الكلام الذي يتصل بنظام الدول الداخلي أو بنفوذها الخارجي و مكانتها بين الدول" ² .

وقد عرفت الحياة السياسية في مملكة غرناطة فترات من الاستقرار و الأمن و غير قليل من فترات القلق و الاضطراب ، بحيث انتهت بعض الأحداث نهاية مؤلمة قضى فيها بعض خيرة ملوك غرناطة النصرين حتوفهم نتيجة لمؤامرات داخلية و خارجية . و نظرا لطبيعة المنصب الذي كان لسان الدين يحتله فقد كان طبيعيا أن يعرض للحياة السياسية و هو يتوجه إلى ممدوحيه ، مهنتا تارة ، و موااسيا تارة أخرى ، و ناصحا موجهها ، حيننا ثالثا ، إلى درجة تحولت قصيدة المدح معها أحيانا إلى تحليل للوقائع و الأحداث ، و بسط لأرائه السياسية ، في الحكم ، كطريقة استفادة الحاكم من الظروف المحيطة به بكيفية تسمح له بكسب القلوب ، و توطيد الأمن و تحقيق الاستقرار .

و لا يسعنا في هذا المقام أن نعرض لتلك المعاني باستقصاء و تفصيل لأنها تشكل نواة بحث أدبي مستقل ، و حسبنا أن نعرض لأبرز تلك الأحداث ، و ما أوحى به من معاني إلى لسان الدين .
و أبرز تلك الوقائع : استيلاء السلطان إسماعيل بن يوسف على الملك متوثبا على العرش ، ثم فرار الغني بالله إلى المغرب لاجئا سياسيا ، و في هذه الفترة الحرجة ظل لسان الدين في غرناطة ، قد صودرت أمواله ، و استؤصلت النعمة الكبيرة التي كان يعيش في ظلها بعد أن تخطاه الحتف كما يقول في الإحاطة ³ و لم يجد بدا من مصانعة السلطان المتوثب بأن يقف بين يديه مبديا له الولاء ،

¹ - ديوان لسان الدين : 231/1 .

² - د / أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، ط 5 ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، ص 4 .

³ - الإحاطة : 27/2 .

و مادحا له ، معتمدا على دهائه و حنكته السياسية، فيستهل قصيدته بمعنى مدحي كثيرا ما تكرر في ديوانه :

مولاي يا خير ملوك الورى و نخبة النصر و أربابه¹
ثم يصور للسلطان صنيعه بأنه صواب ، و بأنه أهل له :
قمت بأمر أنت أهل له فلتأت هذا الأمر من بابه²

و باب الأمر ، هو مأرب لسان الدين إذ يغريه بأعدائه الذين نكبوه في ثروته الواسعة وكادوا أن ينكبوه بحياته نفسها وعلى رأس هؤلاء الأعداء محمد بن أبي الفتح و ابن عمه ، إبراهيم بن أبي الفتح اللذان كان لهما دور خطير في الفتنة ، و يحذر الشاعر، السلطان المتوثب من هؤلاء الذين يحيطون به لكنهم يضمرون له المقت ، و يدبرون له المكائد ، لاهم لهم سوى الاستكثار من الأموال ، و اصطفاء الأصحاب و الأعوان ، يحذره من هؤلاء قائلا³:

لا تدن من بابك شخصا يرى بأنه في الناس أولى به
و عنده مال و من خلفه أيد تعلقن بأهدابه
فهمه استبدال قواده و فكره استخاب كتابه
..ينقدك الغيبة مهما خلا ما بين أهليه و أصحابه
..و الآن قد هابك فأحذر فما يبدأ فتكاً غير هياكبه

و ينصح المتوثب ، و هو في واقع الأمر ، يرسم ملامح الحياة السياسية في الأندلس ، فيرى أن الملك لا يستتب إلا لمن غلب و أقرب دليل يورده للمتوثب ، هو مصير ابن هود ، بعد أن أخذ منه ابن الأحمر غرناطة و ذلك بعد أن ملكها زمنا ، و يطمئن المتغلب بأن نصائحه لم تأت من فراغ و إنما هي بنت التجربة ، فقد خاض الشاعر غمار السياسة حتى امتلأ من الحكمة ، و العلم بأداب الملك ، و سياسته الحكيمة :

و الملك لم يقصر على أمة و إنما الملك لغلابه
هذا ابن هود بعد إرث العلى فاز بنو نصر بأسلابه
لا يستلذ العيش ليث الشرى حتى يزود الأسد عن بابه
لا تتهمني إنني ممتلٍ من حكَمِ الملكِ و آدابه⁴

¹ - ديوان لسان الدين : 134/1 .

² - المصدر نفسه : 134/1 .

³ - المصدر نفسه : 134/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 135/1 .

و في الأخير ، يسدي الشاعر للمتوثب نصائح بليغة ، تكفل له استتباب الأمر ، و ذلك بتحكيم العقل في الأمور ، و ملايين الأعداد ، و استمالة الخصوم :

و عقلك الموهوب حكمه في الأحوال و اشكر فضل وهابه
و كل من أذلتته قلبها علمه بالملك و ألقابه¹

ثم يرشده إلى الاستعانة بالرجال ذوي السن ، و التجربة ، لأن الملك الأريب هو من يحيط نفسه بالشيوخ الذين يهتدي بأرائهم السديدة عند المشورة لا سيما إذا أحسن الأدب معهم ، و عاملهم بما يستحقونه من توفير ، و احترام :

لم ير ملك في زمان خلا قام له رسم بأثرابه
من قلت له يا عم مرة ثق بتعاطيه و إعجابه²

و على الملك بعد ذلك أن يوطد أركان مملكته على دعامتين : بسط العدل بين الرعية ، و توفير السلم ، و تأمين الوطن :

و ابسط على الخلق من العدل ما يستتر الخلق بجلبابه
و أحكم السلم لهم عاقدا عقدة غر قاهر نابه³

لقد اعتمد لسان الدين في المحافظة على نفسه ، على ذكائه و حنكته السياسية فأظهر ولاءه للسلطان المتوثب إلى أن لحق بمخدومه الغني بالله ، و بعد استعادة الغني لملكه ، نظم لسان الدين قصيدة طويلة أشرنا إليها أكثر مرة ، أسماها المنح الغريب في الفتح القريب و لم يكن الشاعر بدعا في هذا التلون أو التكيف مع الظروف الطارئة حين يبدي من القول الشعري غير ما يضمّر فؤاده للممدوح ، و لذلك لا نجد في هذا الضرب من الشعر ، من الصدق ما نلمسه في مدائحه في السلطان أبي الحجاج مثلا ، نقول : إنه لم يكن بدعا في هذا الشأن فقد سار على نهج رسمه من سبقه من شعراء العربية حين سخرُوا مواهبهم لخدمة الأحزاب الإسلامية في صدر الدولة الأموية ، و العباسية ” و ليس من شك في أن أكثر هذا الشعر الذي قيل رغم جودته ، لم يكن صادرا دائما عن إيمان قائله بحزبه و تفانيه في سبيله “⁴ . و في تلك القصيدة يبدي ابتهاجه بما قدر الله لسلطانه من الظفر بعدوه و التمكين له بعد التشرّد ، و فيها كذلك يعرض الأحداث المؤلمة التي حلت بمملكة غرناطة ، و يقدم ، على عادته في قصائد المدح المطولة ، للممدوح ، نصائح سياسية ، قيّمة فبعد أبيات عديدة في المدح التقليدي ، يشرع في عرض الوقائع ، و نقدها و أول ما يقرره الشاعر حال غرناطة بعد رحيل الغني

¹ - ديوان لسان الدين : 135/1 .

² - المصدر نفسه : 135/1 .

³ - المصدر نفسه : 135/1 .

⁴ - د / مصطفى الشكعة : الأدب في مركب الحضارة الإسلامية ، 1 : كتاب الشعر ط 2 1974 ، دار الكتاب اللبناني ، ص 199 .

بالله عنها : فقد أصبحت في حال لا تحسد عليها ، حال يعتربها الجهل و التتكر للمبادئ و البديهيّات حتى كاد الناس أن يجهلوا تلك المسلمات ، و كادت أعينهم ، تتكر ما ترى من المحسوسات ! و قد حل العقاب ، و حياة الشطف بجميع طوائف المجتمع و قد مارس المتوثب على الملك ، كل أنواع العذاب ، على الغرناطين ، و لم تتفهم مبايعتهم له ، و لا العهود التي أعطوها إياه ، ففسد أمر الدنيا و الدين :

قد كانت الأعيان يكذب حسها و الأوليات السوابق تجهل
و الأرض راجفة تمور و أهلها عصفت بهم ريح العذاب فزلزلوا
.. لا بيعة تتجي ولا عهد يفى الدين و الدنيا نسيج هل هل¹

و لا يبعد أن يشير لسان الدين بفساد الدنيا و الدين إلى مبايعة الغرناطين للسلطان المتوثب ، و حاشيته ، و خلعتهم بيعة الغني ، و لذلك يدعو الشاعر إلى العفو ، لأن تلك البيعة (الفاسدة) وقعت تحت الإكراه ، لا سيما و قد أقر كل بذنبه ، و تتصل أصحاب الذنب من ذنبهم ، و أمثل بالغني بالله أن يعفو عن الجميع :

فاليوم إذ بخر المسيء بذنبه مستسلما و تتصل المتصل
فاشمل بعفوك من تجني أو جني و اسلك طريقتك التي هي أمثل²

و لكن الشاعر يخص من تولى كبر المؤامرة بالتشيع و التقييح : و هما أخوا السلطان : إسماعيل ، و قيس و كلاهما ابن السلطان أبي الحجاج و أن هذه الخيانة التي ارتكباها تزداد فداحة عندما تعلم أن السلطان قد أحسن معاملتهما ، و لا سيما أخاه إسماعيل إذ ألزمه قصرا من قصور غرناطة ، و أحاطه بالرعاية ، و جزيل العطاء ، و مع ذلك فقد انخدع بغواية الشيطان له : فولغ في الفتنة ، و لكنه عاد بالخسار ، و سوء العاقبة إذ سرعان ما انقلب عليه مدبر مكيدته ، محمد بن إسماعيل بن عمه فدير أمر اغتياله ، و انفرد بالسلطان .

أما قيس ، فقد طالته هذه الجريمة فكانت نهايته شبيهة بنهاية أخيه إسماعيل ، و يشير لسان الدين إلى ذلك بقوله :³

لم يدر إسماعيل ما طوقته من منة لو كان ممن يعقل
نعم مهنة و ظل سجسج تتدى غضارته و ماء سلسل
الطاعم لكاسي ورفدك كافل و العالة المعفاة مما يتقل
أغواه شيطان الغرور لغاية من دونها تنضى المطي الذلل
سرعان ما أبداه ثم أعاده في هفوة البلوى و بئس المنزل

¹ - المصدر السابق : 496/2 - 497 .

² - المصدر نفسه : 497/2 .

³ - المصدر نفسه : 497/2 .

..و سقى بكأس الحين قيساً بعده و الله يملئ للطغاة و يمهل

ثم ينتقل لسان الدين إلى وصف جريمة مختصبي الملك ، بصراحة : فقد طرَقوا السلطان و هو في بعض خلواته ليلاً و لولا دفاع الله عنه ^{ونفحة الن} تسربل في أبراد ، و لولا رحمته لما رُقِع الخرق الذي خرَقوا لكنه لا ينسى ذلك الموقف الإنساني و الوطني الشجاع الذي وقفه الحاجب (رضوان) الذي فدى السلطان بنفسه و اقتحمه الأعداء و هو في بيته و بين أهله و يلاحظ أن لسان الدين مدح هذا الموقف لرضوان ، مع العلم أنه يحمله شيئاً من المسؤولية في الإحاطة¹ لأنه يعتبر ما وقع سببه غفلة هذا الحاجب ، و عدم أخذه للحيطه اللازمة . يقول لسان الدين في وصف الجريمة²:

طرَقوا على الضرعام ليلاً غابه و البدر تاج و النجوم مَكَلَّل

لولا دفاع الله عنك و عصمة أصبحت في أبرادها تَسْرَبَل

ما رقع الوهي الذي قد مزقوا ما حلبي الجيد الذي قد عطلوا

و يشيد بموقف "رضوان" قائلاً³:

و فداك شيخ الأولياء بنفسه و النفس أثر كل شيء يبذل

ما ضرهم إذ ناوشتهم كلابهم و سطت به إن لم يكونوا مثلاً

و كذلك الخب اللئيم إذا سطا عمل التي ما بعدها ما يعمل

و ينتقل لسان الدين بعد ذلك إلى وصف نجاة الغني بالله ، و اعتصامه بمدينة وادي آش محلولا استرجاع سلطانه ، و لكنه فشل، و هو يشيد بسرعة الغني بالله في الهرب قبل إن تصل إليه أيدي الباغين ، و يشير إلى نصرة أهالي هذه المدينة له و بذلك صارت مثنى عزيزا اعتصم به السلطان ، و ظل ماكنها بها يدبر أمره حتى دعاه المستعين صاحب فاس ، فأجاره :

و نجوت منجى البدر بعد محاقه تهوي كما يهوي بجو أجدل

و حللت من (وادي الأشا) بقرارة عز الثواء بها و طاب المنزل

حتى دعاك المستعين و إنـه لأبرُّ بالملك المضاع و أكفل⁴

و يمدح لسان الدين المرينيين ، في موقفهم من غرناطة و ملكها و يشيد بنصرتهم له ، و هم بذلك لا يعينون لاجئاً استجارهم ، بل يحافظون على ثغر من ثغور العرب و المسلمين ابتداء من جدهم يعقوب المريني إلى أبي سالم المستعين بالله :

حتى حلت بعنصر الملك الذي يدعى الدخيل به و يكفى المعضل

1 - حيث ينسب إلى ترك الحزم الذي عرف به فكان ذلك من أسباب الفتنة ، الإحاطة 26/2 .

2 - ديوان لسان الدين : 498/2 .

3 - المصدر نفسه : 498/2 .

4 - المصدر نفسه : 498/2 .

مَثَى بنى يعقوب أسباط الهدى و سحائب الرَّحْمَى التي تَسْتَنْزِل
و خلائف الله الذين أكفهم دِيمَ الورى إن أحسنوا أو أمحلوا¹
و قد لعب البلاط القشتالي دورا في عودة الغني بالله إلى عرشه و قد ألم لسان الدين في هذه
القصيدة بذلك الدور قائلا :²

و الروم لاسترجاع حقلك شمريت هذا هو النصر المَعِمُّ المَحْوَل
و يشبه لسان الدين حركة الغني بالله ، هذه بفتح طارق بن زياد للأندلس ، و كأن هذه الحركة
فتح جديد للأندلس بعدما انفرط عقد الإسلام فيها بتشتت أمر المسلمين ، و تغلب الملوك عليها :
و طلعت منك على البلاد بطارق للفتح و النصر الذي يستقبل³
و بعد عودة الغني إلى غرناطة فر المتوثب محمد بن إسماعيل ، إلى صاحب قشتالة من غير
سابق عهد أمان ، فلقى هنالك مصرعه ، مع من لحق به من حاشيته و أرسل صاحب قشتالة رؤوسهم
بعد قطعها⁴ إلى الغني ، و قد وجد لسان الدين فرصة للتشفي من أعدائه فقرن نهايتهم الوبيلة هذه ،
بعاقبة قوم عاد ، الذين أخذهم الله بالريح العقيم ، فقال في ذلك :⁵

و بقية من أهل عاد أهلـكوا ببقية الريح العقيم و جُكَلوا
بالباطل البحت الصراح تعززوا فالآن للحق المبين تذللوا

و يختم مطولته المدحية ، بوصايا سياسية يقدمها بين يدي الممدوح على عادته ، و يمكن أن
تعد تلك الوصايا دستورا سياسيا للطريقة القويمة للحكم ، و أول أسس ذلك الدستور: الحزم ، و الفطنة
و الاعتبار بالماضي ، ثم تأتي بعد ذلك الشورى و العدل ، أما ثالث تلك الأسس فهو حسن اختيار
المعقود له ولاية العهد ، إذ ينبغي اختيار أهل الكفاءة في ذلك ، بعيدا عن الهوى . هذا فيما يتعلق
بأسس الحكم الناجح⁶ ، أما ما يتعلق بالسلطان ذاته ، و ما ينبغي أن يتوفر فيه من الأخلاق ، فيتلخص
في الحذر ، و اتخاذ العيون و الأعوان ، بالإضافة إلى تقوى الله ، و الابتعاد عن الهوى و الاشتغال ،
بما يصلح لنفس الحكيم⁷.

¹ - ديوان لسان الدين : 499/2 .

² - المصدر نفسه : 500/2 .

³ - المصدر نفسه : 500/2 .

⁴ - الإحاطة : 30/2 .

⁵ - ديوان لسان الدين : 500/2 .

⁶ - انظر القصيدة 418 : الأبيات 158 إلى 168 .

⁷ - انظر القصيدة السابقة : الأبيات 181 إلى 182 .

و يعود لسان الدين إلى هذه الأحداث التي كادت أن تعصف بدولة الغني بالله ، في قصيدة أخرى بمناسبة إعدام ولد السلطان فيذكر صنيع الغادرين الجاحدين للنعم ، و يشبههم بأهل سبأ من أهل اليمن الذين بوأ الله لهم جنتين من نخيل و أعناب ، فلما ظلموا بدلهم جنتين من أثل و خمط :

كانوا نعيم الجنتين تفيــــــــــــأوا و لما يقع منها النزول و لا الهبط
فقد عوضوا بالأثل و الخمط بعدها و هيهات أين الأثل منها و ما الخمط¹

و لسان الدين قصيدة أخرى ، لامية ، في نصح الغني بالله ، و فيها يصور الوضع السياسي في غرناطة ، يشير إلى ما يضمه بعض الطامحين السياسيين ، من تطلع إلى السلطان ، و هم في ذلك لا يعدمون حيلة ، و لا يبعد أن تحدثهم نفوسهم بالمكيدة و الغدر ، و لذلك فهو يحذر الغني بالله من هؤلاء² :

لا تحسب الناس في نوم فأعينهم ترنو: إليك فعاملهم بإجمــــــــال
و كل طعامهم و البس لباسهم و انصب لصيدهمُ أشراكُ محتال
..و كن حذورا و لا تغفل مكيدة من يدنو إليك و ينوي فتك مغتال

و في عقد بيعة الغني بالله ، يتوجه لسان الدين إلى ممدوحه بالوصايا السابقة ، و لكنه في هذه القصيدة يلتفت إلى أمر خطير ، ألا و هو الاهتمام بالجند ، ذلك لأنهم الحد الذي يوجهه المسلمون إلى نحر العدو ، و لكنهم كذلك الحد الذي يوجهه السلطان إلى نحر أعدائه الداخليين لا سيما ، و نحن نعلم أن الغني بالله تولى الخلافة بعد حادثة دامية هي مقتل والده أبي الحجاج على يد أحد الجنود ، صبيحة يوم العيد ، من سنة (755 هـ) ، و لذلك على السلطان الجديد أن ييتم وجهه شطر الجند ، ويوليهم عنايته القصوى ، إذ هم مكمّن الداء ، و الدواء معا يقول لسان الدين في ذلك³ :

و أوجب لأرباب السوابق حقها و لا تمنع المعروف من لك من جند
هُمُ الحدُّ في نحر العدو و هل ترى دفاعا امن يلقي العدو بلا حــــــــد ؟

و يشير لسان الدين إلى تلك الحادثة الأليمة معزيا الغني في والده القتيل : فيرى أنهما سيفان : أحدهما سله الدهر ، و أشهره في وجوه الأعداء ، و الثاني رده في غمده بعدما أبلى البلاء الحسن :

و سيفان هذا سله الدهر ماضيا صقيلا ، و هذا رده الدهر في غمده⁴

و يلتفت الشاعر ، و هو يمدح أبا بكر بن الحكيم إلى الحادثة المؤلمة التي حلت بوالده ، الذي قتل (سنة 708 هـ) ، في فتنة داخلية أدت إلى خلع محمد المخلوع من العرش ، و قتل كاتبه ابن

1 - ديوان لسان الدين : 459/2 و انظر : سورة سبأ الآيتين 15 - 16 .

2 - المصدر نفسه : 514/2 - 515 .

3 - المصدر نفسه : 308/1 .

4 - المصدر نفسه : 309/1 .

الحكيم ، والد الممدوح و يرى لسان الدين أن ذلك من حكم الأيام الجائر ، الذي لم ينصف الممدوح و أسرته الذين كانت أياديهم بيضاء على العرش النصري ، و عادة الأيام كذلك فهي لم تعرف حق الإمام الوصي علي رضي الله عنه ، فهضمت مكانته ، و أعلنت سفاهة من حظوظ آل حرب ! يقول لسان الدين :¹

و إن أغفلت من فرض برك واجبا علي أنها قد أوطأتك ذرى الشهب
فقد درأت حق الوصي سفاهة علي و أعلنت من قداح بني حرب

و في هذه الإشارة التاريخية نلمس رأيا سياسيا لابن الخطيب ، إن لم يكن مذهبا دينيا ، إذ يرى أحقية الإمام علي بالخلافة ، و أن حكم بني أمية كان سفاهة ما كان ينبغي للمسلمين أن يقعوا فيها !
3 - مدائح بني مرين :

عرفنا من حياة ابن الخطيب في الفصل الأول ، اتصاله بملوك بني مرين بالمغرب لأغراض سياسية ، أو شخصية ، و قد أثمرت تلك الصلة عددا غير قليل من القصائد ، نظمها الشاعر في مدح أولئك السلاطين أو وزراءهم المتغلبين على الملك أو كتابهم و قضاتهم ، و في تلك القصائد ، يمزج لسان الدين بين الأغراض التقليدية ، و الأغراض السياسية ، و هو بذلك يصف لنا الحياة السياسية ، و جانبها من الحياة الاجتماعية في المغرب في القرن الثامن الهجري .
و قد آثرنا أن نعرض لتلك المدائح ، مرتبة تاريخيا دون أن نفصل بين المعاني التقليدية ، و المعاني السياسية ، لصعوبة ذلك الفصل من جهة ، و لكون تلك المعاني ، وردت شديدة الاتصال من جهة أخرى .

و قد عاصر لسان الدين ثمانية من ملوك بني مرين ، و لكنه لم يمدح غير **بِسْتِهْ** منهم لأنه ارتبط بسياستهم ، موقدا من قبل صاحب غرناطة أو لاجئا سياسيا .

أ - و أول هؤلاء السلاطين هو أبو عنان فارس بن أبي الحسن المريني (749هـ-759هـ)² الذي قدم عليه الشاعر في غرض السفارة عن أبي الحجاج ، و له فيه أربع قصائد ، كنا قد تناولنا إحداها ، و هي الرائية ، في شعر الجهاد .

و في تلك المدحيات ، يتعرض لسلفه ، و أخلاقه ، و مكانته ، و بعض أعماله العمرانية و منجزاته العلمية :

أما سلفه من آل عبد الحق فهم أسد الشرى ، و شعب العلاوسرج للأنام و حياتهم بين محارِب
يتعبدون فيها و حروب يخوضونها :

¹ - ديوان لسان الدين : 118/1 .

² - انظر ترجمته في الإحاطة : 18/2 .

أسد الثرى سرج الورى فمقامهم
الله بين محارب و حروب¹
و قد ورثوا تلك السجايا و المعالي عن آبائهم فقد أثرت عنهم كما يؤثر الحديث الصحيح
المتصل الإسناد إلى مصدره :

تروي العوالي في المعالي عنهم
أثر الندى المولود و المكسوب
عن كل موثوق به إسناده
بالقطع أو بالوضع غير معيب
فأبو عنان عن علي غُضَّةً²
لنقل عن عثمان عن يعقوب²

ثم ينتقل بعد الإشادة بهذا السلف العظيم إلى الخصال الذاتية لأبي عنان ، ذلك أنه جمع طرفا
إلى تليد : فمن شمائله الكرم العميم و العزيمة التي تذلل الصعاب ، و البصيرة النافذة و العلم الغزير ،
فهو عون على الزمان العضوض ، و كفه غيث كل محل ، و قد آتاه الله بصيرة جعلت مغيَّبات
الأمر كأنها مجلوة حاضرة ، و هو في العلم كالبحر يقذف بكل نفيس الدر من المعاني و المعارف
التي يهتدي بها الخلق :

و إذ استعنت على الزمان بفارس
لبي نداءك منه خير مجيب
بخليفة الله الذي من كفه
غيث يروض ساح كل جديب
و يرى الحقائق من وراء حجابها
لا فرق بين شهادة و مغيب
و وردت بحر العلم يقذف موجه
للناس من درر الهدى بضروب³

و قد وجد لسان الدين من البر و الحفاوة عندما حل ببلاط أبي عنان ما جعله يقرن مقامه هناك
بجنة المأوى التي أعدها الله للصالحين من عباده . أما انصرافه عنه فهو كمن خرج من تلك الجنة بما
اقتضته ذنوبه :

يا جنة فارقت من غرفاتها
دار القرار بما اقتضته ذنوبي⁴

و قد ضرب أبو عنان في السياسة المثل الذي جعل عظماء العالم من أمثال كسرى ، لو أدركوا
أبا عنان يلقون إليه بتيجانهم لأنه أحق بها و أهلها : فدولته دولة حق قامت على العدل الذي جمع بين
الشاة و الذئب و قد أمنت من بطشه :

هي دولة العدل الذي شمل الورى
فالشاة لا تخشى اعتداء الذئب
لو أن كسرى الفرس أدرك فارسا
ألقي إليه بتاجه المعصوب⁵

¹ - ديوان لسان الدين : 129/1 .

² - المصدر نفسه : 130/1 .

³ - المصدر نفسه : 129/1 - 130 .

⁴ - المصدر نفسه : 131/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 130/1 .

و يقارن لسان الدين بين أبي عنان و بين ملوك الإسلام من بني العباس و لكنه يرى أن من يقارن بين الممدوح و بينهم كمن يقارن بين الغمر و الضحضاح :

فضل الملوك فليس يدرك شأوه أنى يقاس الغمر بالضحضاح
أنسى بني عباسهم بلوائه "المنصو ر" أو بحسامه "السفاح"¹

و ينتهز فرصة مشاهدته لبعض الألعاب التي يرهاها أبو عنان ليضيف معنى من معاني المدح جديدا و ذلك حين يرى البرج² الذي أعده الممدوح لمصارعة الثيران و الأسود حيث يتغلب الثور على الأسد فيعد الشاعر ذلك من مزايا الممدوح إذ أضحت أنعامه تصرع الآساد فكأن الممدوح صرع محاربا يسعى في الأرض فسادا و كأن الأنعام بعض جنوده :

أنعام أرضك تقهر الأسادا طبع كسا الأرواح و الأجسادا
كان الهزبر محاربا فجزيتته بجزاء من في الأرض رام فسادا³

و يلتفت لسان الدين إلى الشؤون السياسية وهو بصدد مدح أبي عنان و ذلك حيث يشير إلى قوته و بأسه في الحروب إذ كان والده أبا الحسن المريني قد استولى على تلمسان و افتكها من الزيانيين ، و كان الممدوح واليا لأبيه على تلمسان ، و يشيد لسان الدين بقوة المرينيين و استيلائهم على تلمسان و سحقهم لبني زيان ، إذ تركتهم رماح أبي الحسن بين صريع ، و سليب :

... بذوابل السلب التي تركت بني زيان بين مجدل و سليب⁴

ب/ و بعد أبي عنان : تولى ابنه السعيد أبو بكر : و لكن فترة ولايته لم تدم طويلا و خلع بعد عام : و تولى مكانه أبو سالم ، و لابن الخطيب في السعيد بالله مقطوعتان إحداهما تهنتته له بتولييه السلطة ، و فيها يقارن بين الممدوح و والده من جهة ، و الرسول (ص) و أبي بكر من جهة أخرى :

خلفت الأب المرضي خيرا خلافة و قمت بأمر الله ممثلا الأمر
و لما قضى (المختار) هل قام بعده بضم شتات الأمر غير "أبي بكر"⁵

و الثانية مدح هو أقرب إلى ملاطفة طفل صغير منه إلى أي شيء آخر و ذلك لأن الشاعر يوظف فيها صيغ التصغير ، فالممدوح أمير كأنه "قمير الدجى" و يسأل الشاعر ربه ألا تبسط كف الردى "لذاك الشخيص و ذاك الوجيه"⁶ ، و هذه المقطوعة تدل على ما وصل إليه البلاط المريني من

¹ - المصدر السابق : 233/1 .

² - انظر وصف هذه اللعبة والبرج في الإحاطة : 19/2 .

³ - ديوان ابن الخطيب : 336/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 132/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 383/1 .

⁶ - انظر المقطوعة 686 : 748/2 .

الضعف في تلك المرحلة ، إذ استبد الوزراء بالأمر ، و أصبح السلاطين يمثلون الجانب الرسمي للسياسة المرينية أما الجانب العملي فهو في يد هؤلاء المتغلبين¹

ج/ و أوفى هؤلاء الملوك حظا من مدائح لسان الدين هو أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني : (760هـ - 762هـ) ، و له فيه أربع قصائد و موشحتان ، و ثلاث مقطوعات ، و هو الذي لجأ إليه مع سلطانه الغني بالله ، بعد الحادثة التي جرت عليها . و أول تلك القصائد : كافية أرسلها إليه من "شالة"² مدفون والده أبي الحسن ، يستشفع به لدى أبي سالم لاسترداد أمواله بخرناطة و يسأله أن يُسمع والده تحت الثرى ما يُرضيه و يسعده :

فاستمعه ما يرضيه من تحت الثرى و الله يُسمعك الذي يرضيك³

و يصف الممدوح بقوة العزم الذي جعله يخيف الملوك في عصره في إشارة إلى بني زيان بتلمسان و القشتاليين :

فإذا سموت إلى مرام شاسع فغصونه ثمر المنى تجنيكا⁴

و لابن الخطيب قصيدة ثانية رائية في أبي سالم : عرض فيها لمسائل سياسية ذات صلة بالبلاد المريني ، و علاقته بخرناطة . فقد أشاد أولا ببني مرين و قوتهم العسكرية ، فهم أسود في الوعي لا تعجزهم الملمات ، و لا تغلهم الخطوب ، إذ إنهم يقبلون على الأعداء غير مبالين بهم اعتدادا و حمية :

و أسد رجال من مرين مخيفة عمائمها بيض و آسالتها سمر

.. هم القوم إن هبوا لكشف ملمة فلا الملتقى صعب و لا المرتقى وعر

و تبسم ما بين الوشيج ثغورهم و ما بين قضب الدوح يبتسم الزهر⁵

و ينتقل لسان الدين بعد ذلك إلى شرعية خلافة أبي سالم ، و يصل بتلك الشرعية إلى درجة الإيمان بالله ، فمن لم يقدم لها الولاء ، فلا قيمة لإيمانه ، و لا معنى لعقله و علمه :

خلافتك العظمى و من لم يدن بها فإيمانه لغو و عرفانه نكر⁶

¹ - من الوزراء المتغلبين على الملوك في ذلك العهد الحسن بن عمر الفردودي : انظر الإحاطة : 21/2 .

² - مدينة صغيرة بناها الرومان على بعد ميل من الرباط بما قاعة مدفن الملوك المرينيين ، عدد القبور فيها ثلاثون قبرا : انظر الحسن بن محمد الوزان ، ليون (الإفريقي) : وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ط2 ، 1983 ، ج1 ، ص 203 .

³ - ديوان لسان الدين : 474/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 474/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 417/1 .

⁶ - المصدر نفسه : 415/1 .

ثم يشير إلى قوة هذا الأمير ، إذ عرفت فترة حكمه نوعا من الاستقرار السياسي بعد أن عاث الوزراء فسادا ، فقرت السيوف في أعمادها و خمدت الفتن و الاضطرابات ، و ذلك دليل على استعادة مركز السلطان لهيبته :

فأصبح ثغرا الثغر يفتر ضاحكا و قد كان مما نابه ليس يفتر¹
و أمّنت بالسلم البلاد و أهلها فلا ظبّة تعرى ، و لا روعة تعرو¹

و يثير لسان الدين بعد ذلك مسألة على درجة من الأهمية ، و هي أحقية أبي سالم بالخلافة بعد وفاة أبيه ، و لكن أخاه أبا عنان استولى على الحكم و نزع أباه منه و نفاه إلى ²شالة ، ثم تولى بعد وفاته ، ابنه السعيد بالله ، و لكنه خلع من طرف الوزير الحسن بن عمر الفودودي بعد عودة أبي سالم إلى فاس مستعينا بصاحب قشتالة² ، و يورد لسان الدين في هذه القصيدة أن أبا الحسن كان يرشح ابنه أبا سالم للخلافة بعده ، لكن نازعه في ذلك أخوه ، ثم عاد الحق إلى صاحبه بعد أن استجاب القدر له ، و يقول لسان الدين في ذلك :

و قد كان مولانا أبوك مصرّحا بأنك في أبنائه الولد البـرّ
و كنت خليقا بالإمارة بعـده على الفور لكن كل شيء له قدر
..فرد عليك الله حقه إذ قضى بأن تشمل النعمى و ينسدل الستر³

ويختم ابن الخطيب مدحته بغرضه الأول منها ، و هو طلب النجدة للغني بالله الطريد ، اللاجئ عند سلطان المغرب فيحرضه على أعدائه ، و يحثه على أن يأخذ للمظلوم حقه من الظالم ، و أن يرسى دعائم البيعة التي نقضها الغادر :

و هذا ابن نصر قد أتى و جناحه مهيبض و من عليك يُلتَمَس الجبر
...ففز يا أمير المؤمنين ببيعة موقّعة قد حلّ عروتها الغدر⁴

و في قصيدة ثالثة بائية ، يمدح لسان الدين أبا سالم و يهنئه بظفره بالوزير ³الحسن بن عمر الفودودي الذي شق عصا الطاعة و خرج نائرا على أبي سالم فيقرر أولا أن من غالب أبا سالم فهو مغلوب لأنه مؤيد من الله سبحانه و تعالى ، و كيف يفر منه من تقلب في نعمته ، و رفل في عطائه ، فلا بد أن يطالّه سيغّه ، فيسلبه تلك النعم :

أبغلب من عاداك و الله غالبه و يفلت من وآلاك و السيف طالبه

1 - المصدر السابق : 416/1 .

2 - انظر خير ذلك في الإحاطة : 21/2 .

3 - ديوان لسان الدين : 416/1 .

4 - المصدر نفسه : 416/1 .

و يَخْلُصُ مَنْ فِي رَاحَتِكَ زَمَامَهُ فسيفك كاسيه و سيفك سالب¹

و ينتقل ، كعادته ، إلى الإشادة بقوة أبي سالم ، الذي أضحي الدهر من جنده ، يسالم ، من
سالمه و يحارب من حاربه :

يسالم من سالمته دهرهك مثلما يدافع من عاديتته و يحارب²

و يلتفت إلى فتوح أبي سالم و منها فتحه لتلمسان ، الذي ينحصص له شاعرنا قصيدة طويلة ،
و يكتفي هنا بالإشارة إلى ذلك قائلا :

دعا بآبك الأعلى الفتوح فأقبلت أئمنع حظ و المهيمن و اهبة³

أما القصيدة الرابعة ، فهي نونية ، هنا فيها ممدوحه بفتح تلمسان و فيها يكرر كثيرا من
المعاني السابقة ، و يكثر من المبالغات ، و يضرب الأمثلة من التاريخ : فهذا الفتح عجيب ، لم ير
إنسان مثله من قبل ، بل هو من المعجزات و الخوارق التاريخية ، و هذا و إن كان مبالغة من لسان
الدين ، فهو ينطوي على ما يوليه المرينيون من أهمية لتلمسان ، فلم يكن انتصارهم على بنسي زيان
حاسما ، لأنهم استولوا عليها أكثر من مرة ، بيد أنها خرجت عليهم مرات إلى أن استتب الأمر لبني
زيان آخر الأمر ، يقول لسان الدين :

...تهنيك بالفتح الذي معجزاته خوارق لم تذخر سواك لإنسان⁴

و ذلك لأن الله أمد فيها الممدوح بجنود من عنده ، فجيش أبي سالم عند التحقيق ، جيشان ،
أحدهما من البشر ، و الآخر من الملائكة ، و نحن نعلم أن الله أكرم نبيه بهذه الكرامة ، و لذلك فلسان
الدين يشبه جيش أبي سالم بجيش النبي (ص) :

أمدك فيها الله بالملائكة العلى فجيشك مهما حقق الأمر جيشان⁵

و يعود لسان الدين مرة أخرى إلى المعاني الإسلامية فيشبه بيعة أبي سالم ببيعة الصحابة للنبي
صلى الله عليه و سلم - المعروفة ببيعة الرضوان⁶ و هو بذلك يعطي الشرعية الدينية لاستيلاء
الممدوح على تلمسان ، لأن فيه نصرة للإسلام نفسه ، و هنا نتساءل هل كان يرمي لسان الدين إلى
تحقيق ما ندعوه -اليوم- وحدة أقطار المغرب الإسلامي ؟ ربما كان الأمر كذلك ، و لكن المحقق أن

1 - المصدر نفسه : 136/1 .

2 - المصدر نفسه : 136/1 .

3 - المصدر نفسه : 136/1 .

4 - ديوان لسان الدين : 588/2 .

5 - المصدر نفسه : 588/2 .

6 - وقعت في السنة السادسة للهجرة بالحديبية حيث بايع الصحابة ، النبي (ص) على قتال قريش بعد الإرجاف بقتل عثمان بن عفان (رض) انظر:
وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة و السلام ، لأبي العباس أحمد بن الخطيب ، (ابن قنفذ) القسنطيني ، تقدم و تعليق سلمان الصيد الحامي ، ط 1

1984 ، دار الغرب الإسلامي ، ص 105 .

شاعرنا كان يرمي إلى المكث بالمغرب انتهازا للفرصة السانحة التي تمكنه من تحقيق أمنيته التي وطن نفسه عليها ، و هي زيارة البقاع المقدسة ، و سنرى موقفا مغايرا تماما أو لنقل مناقضا لموقفه هذا ذلك أنه سيهنئ أبا حمو الزباني بفتح تلمسان من جديد .. يقول لسان الدين :

لقد كست الإسلام ببيعتك الرضا و كان على أهليه بيعة الرضوان¹

ثم يوظف لسان الدين ثقافته الأدبية و التاريخية طلبا للمبالغة التي تعد من أظهر سماته الشعرية ، تفخيما لأمر هذا الفتح ، فلو رميت مصر و صعيدها بهذا الجيش (الصاعقة) لأضحت هذه البلاد المعمورة أرضا خلاء ، و إن هذا الجيش يوم عرضه و تأهبه للانقضاض على تلمسان أشبه شيء بيوم العرض ، إذ يذهل الإنسان عما يشاهده :

فلو رميت مصر بها و صعيدها لأضحت خلاء بلقعا بعد عمران

... و عرضا كيوم العرض أذهل هولاه عياني و أعياني تعدد أعياني²

و لابن الخطيب موشحتان في مدح أبي سالم يشبهه في إحداهما بإبراهيم الخليل عليه السلام لا في الاسم وحده ، بل في السمائل و السمات :

موافق الخليل في الاسم و السمات³

أما المقطوعات الثلاث فهي في وصف المظاهر السلطانية المتعلقة بالبلاط المريني و هي في وصف سكين الكم و سترة الطعام ، و وصف سيفه⁴

د / و رابع هؤلاء السلاطين هو أبو زيان محمد بن عبد الرحمان بن السلطان أبي الحسن ، الذي تولى بعد مقتل أبي سالم ، و في هذه الفترة كان ابن الخطيب مقوما بالمغرب ، فجدد له هذا السلطان ما كان يتمتع به من الحقوق و المنح و الحريات⁵ فسارع ابن الخطيب بإرسال قصيدة تهنئة قبل أن ينتقل إلى فاس ، و يقرر في تلك القصيدة جدارة هذا السلطان بالخلافة و يذكره فيها بما تجشمه من المشاق ، لأنه خاض بحرا من الخطوب و أجم حربا مخرسة لأنه أجاز من قشتالة إلى المغرب مستعينا بالروم بواسطة من الغني بالله صاحب غرناطة⁶

و يتفاعل لسان الدين لهذا المملك بحسن الخاتمة لأن من كانت بدايته ناجحة المساعي فهو أجدر

أن يكون سعيد العاقبة ، يخاطب ممدوحه في هذه الأبيات⁷:

1 - المصدر السابق : 588/2 .

2 - المصدر نفسه : 590/2 - 591 .

3 - المصدر نفسه : 787/2 .

4 - انظر المقطوعات رقم : 51 - 233 - 234 .

5 - محمد عبد الله عنان : لسان الدين حياته و تراثه الفكري ، ص 90 .

6 - المرجع نفسه : ص 90 .

7 - ديوان لسان الدين : 381/1 .

ألقت إليك يد الخلافة أمرها
هذا و بينك للصريخ و بينها
من كان هذا الصنع أول أمره
إذ كنت أنت لها الولي الناصر
حرب مضرّسة و بحر زاخر
حسنت له العقبى و عز الآخر

ثم يوصية بعامر بن محمد الهنتاتي خيرا لأنه أحد الأولياء المخلصين لبني مريـن المتصفيـن،
بالإضافة إلى الإخلاص و حسن الولاء، بقوة الشكيمة و الرأي المحمود ، و حسن إتيانه للأمور ،
و تذييله للمعضلات :

و بذلت و سعي و اجتهادي مثلما
و هو الولي لك الذي اقتحم الردى
.. فاستهد منه النصيح و اعلم أنه
يلقى لملكك سيف أمرك عامر
و نضا العزيمة و هو سيف بائر
في كل معضلة طيب ما هر¹

و حين قدم الشاعر إلى فاس و استقبله السلطان في قصره أنشده قصيدة طويلة عبر فيها عن
ابتهاجه بالخليفة الجديد و تعرض لبعض مظاهر الحياة السياسية بمملكة فاس :
يقرر أولا أن انتخاب هذا الخليفة كان بناء على اجتماع أهل الأمر في البلاط المريني بعد أن
كان الأمر شورى بينهم ، و نلاحظ إضفاء الشرعية الإسلامية على ولاية هذا السلطان كما فعل مع
سابقه أبي سالم :

و بيعة شورى أحكم السعد عقدها
و أعمل إجماع عليها و إصفاق

ثم يتعرض لموقف الوزير عمر بن عبد الله الذي عضد أبا زيان فسجل بذلك صفحة من
الوفاء ، و يصطنع لسان الدين أسلوب التورية ليبرر عظمة هذا الموقف فقد قضى هذا الوزير بحق
(محمد) و كأنه قام بواجبه نحو النبي محمد - صلى الله عليه و سلم - حين سلك طريق الوفاء
و النصيحة لأئمة المسلمين ، فهو يشبه في هذا الموقف عمر رضي الله عنه :

قضى (عمر) فيها بحق محمد
فسجل عهد للوفاء و ميثاق²

ثم يصور حال المغرب بعد تولي أبي زيان ، فقد انتشرت الخيرات و ازدهر الاقتصاد فهذه
أسواق تميز أهلها و أراض مغلّة :

وفاض لفضل الله في الأرض تبتغى
و سرح تهنيه الكلاءة بالكللى
و مجتمعات لا تريب و أسواق
و فتح لسقي الغيث قام له ساق³

¹ - المصدر السابق : 381/1 .

² - المصدر نفسه : 697/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 697/2 .

ثم يعود إلى حال المغرب قبل وصول أبي زيان إلى سدة الحكم ، حيث أطبقت على الناس فتنة عمياء فسد فيها الدين و الدنيا حتى كأن الناس أصابهم الجذب فأمسك عنهم الغيث ، و تفرق أمر الناس ، و اختلفت قلوبهم على الفساد فصار لهم في الأرض عيث و بغي :

و قد كان طيف الحلم لا يعمل الخطى و للفتنة العمياء في الأرض أطباق
و للغيث إمساك و في الأرض رجوة و للدين و الدنيا و جوم و إطباق
فكل فريق فيه للبغي راية و كل طريق فيه للغيث طراق¹

و يختم القصيدة بعد أن يستطرد إلى مدح الأسرة المرينية ، بنصيحة الممدوح بأن يعفو عن أعدائه الذين حاولوا الكيد له معتذرا عنهم بأن الذنوب في الناس معروفة و شائعة ، و لكن الله لا يقطع عنهم رفته و كرمه :

خذ العفو و ابدل فيهم العرف و لتسع جريرة من أبدى لك الغدر أخلاق
... و ما الناس إلا مذنب و ابن مذنب و لله إرفاد عليهم و إرفاق²

و قد أحسن هذا السلطان إلى الشاعر كل الإحسان ، فخاطبه بأبيات ضمن رسالة وجهها إليه يمدح إكرامه لأهل العلم لأنهم معدن نفيس ، على الحكام أن يسعوا إلى الظفر به ، كما يمدح حسن خلقه و يقرنه بالخليفة العادل عمرو بن عبد العزيز :

أنت للمسلمين خير عماد و ملاذ و أي حرز حريز
لو أرى ما شرعت للخلق فيه عمر الفاضل بن عبد العزيز
لجزى ملكك المبارك خيرا و قضى بالشفوف و التبريز
... كل ملك يرى بصحبة أهل العلم لم قد باء بالمحل العزيز
فإذا ما ظفرت منهم بإكسير لأت البلاد من إبريز³

هـ/ و خامس هؤلاء الأمراء هو أبو فارس عبد العزيز (767هـ-774هـ) :

الذي لجأ إليه الشاعر بعد فراره من الأندلس ، و كانت تربطه به علاقة حسنة قبل قدومه عليه إذ كان يوجه إليه الرسائل و القصائد ، منها قصيدة في شكر عبد العزيز على هدايا أرسل بها إلى غرناطة تضمنت خيلا و تمرا و طيبيا و سلاحا على عادة ملوك بني مرين في مساعدة الغرناطيين :

... و لذاك ما أهدت علاه هديئة قد أعربت عن بأسه و سماحه
... فالخيل عن أعرافه و التمر عن أخلاقه و الطيب عن أمداحه
... و سلاحها ماضٍ مضاء غزيمة أو سابغ واقٍ سُبوغ صلاحه

¹ - المصدر السابق : 697/2 .

² - المصدر نفسه : 700/2 .

³ - المصدر نفسه : 455/2 .

جَدَّدتَ عهدا أليك في إمدادها لَمَّا قَبَسْتَ النور من مصباحه¹

و لما استقر لسان الدين بالمغرب ، و أصبح في كنف الممدوح أضحى يلزمه ، و يصف حركاته و أعماله السياسية من ذلك قضاؤه على كبير الوطن المراكشي كما يصفه لسان الدين ، إذ مر السلطان على جبل ” هنتاتة “ موطن هذا الزعيم فأنشده على البديهة مقطوعة يذكره فيها بتأييد الله له و نصرته على عدوه ، على تحصنه و قوة شكيمته ، إلا أن الله أعز عبده و استباح ذمار ذلك العدو :

أمولاي استزد بالشكر صنعا فقد وعد المزيدَ الله بعبده
أبَحَّتْ ذَمَار من تَأوَاكَ لَمَّا نَوَّيْتَ جِهَادَه و قَصَدْتَ قَصْدَه
و ما كان الذمار بمستباح و لكن العزيز أعزَّ عبده²

✽ و سادس هؤلاء الملوك هو السعيد بالله محمد بن عبد العزيز (774هـ - 776هـ) :

الذي ألف له لسان الدين ، أعمال الأعلام ، و لا يذكره إلا في قصيدة رثى بها والده عبد العزيز حيث يشيد بموقف الوزير أبي بكر بن الكاس كافل السعيد الذي كان صبيا .
و هكذا رأينا كيف أحسن لسان الدين توثيق علاقاته بملوك بني مرين بما يكفل له تحقيق مآربه ، و قد عبر من خلال ذلك بشكل جلي عن إدراكه للأسباب السياسية التي انتهجها هؤلاء الملوك ، و صور لنا جو الصراع القائم الذي طبع الحياة السياسية في المغرب منذ منتصف القرن الثامن الهجري إلى أواخره ، ابتداء من مقتل أبي عنان على يد وزيره الحسن بن عمر الفودودي و انتهاء بتعليك الطفل السعيد بن عبد العزيز مرورا بقضاء أبي سالم على الوزير الحسن بن عمر ، ثم مصرع عامر بن محمد على يد أبي فارس عبد العزيز ، و لا يفوتنا هنا أن سجل اعتماد لسان الدين على ثقافته الإسلامية ، و هو يسبغ على كل من مدحه من هؤلاء السلاطين الشرعية الإسلامية ، فكل واحد منهم يمثل في نظره خليفة المسلمين الذي تعد بيعته إرضاء لله تعالى بغض النظر عن كيفية وصول ذلك السلطان إلى العرش ، سواء كان ذلك بالتغلب و الاستيلاء أو من طرف الوزراء المتغلبين الذين سنفردهم بالفقرة الآتية :

4 - مَمْدُوحُو لسان الدين من حاشية البلاط المريني :

كانت للشاعر صلات صداقة مع بعض رجال السيف و القلم في بلاط بني مرين و لا سيما الوزراء المتغلبين منهم، المستبدين بالدولة لمكانتهم من الملوك ، فكان على الشاعر أن يخصهم بمدائحهم و ثنائهم مكررا في أغلب الأحيان المعاني التي مدح بها الأمراء و السلاطين ، و قد عرض لأخلاق هؤلاء الوزراء و أعمالهم و حنكتهم السياسية و دورهم في رسم سياسة البلاط المريني .

¹ - المصدر السابق : 249/1 - 250 .

² - المصدر نفسه : 326/1 .

* وفي مقدمة هؤلاء الوزراء ، الوزير >عمر بن عبد الله الياباني< : الذي استبد بالدولة منذ عهد أبي سالم إلى أن لقي مصرعه على يد عبد العزيز . وتوثقت صلته بالشاعر عند إقامته بالمغرب¹ ، وله فيه قصيدة يشيد فيها بخبرته السياسية ، و رسوخه في الوزارة ، إذ والده عبد الله كان وزيراً للسلطان أبي الحسن ، ثم لوريثه من بعده أبي عنان ، و أبي سالم ، و ينسب إليه الشاعر جلائل الأعمال التي هي أشبه بالخوارق و المعجزات منها بأي عمل سياسي مهما عظم شأنه ، اللهم إلا إذا أراد فتكه ببعض الأمراء ، و توليه بعضهم الآخرين ، فإن ذلك يعد بحق من الأعمال الفظيعة الهائلة ، القليلة الأشباه ، و لكن لسان الدين لا يكتفي بأن ينسب إليه هذه العظائم ، بل يرتفع بممدوحه إلى مرتبة أسمى من الوزارة ، و نحن نعلم أنه لا منصب أعظم منها غير الخلافة نفسها! فهو يرى أن هذا الوزير لم يزد بتوليه هذا المنصب الخطير الشأن ارتفاعاً و سمواً ، كما لم تزد نعم الوزارة التي كان يتقلب فيها رفاهية ، و ذلك لأنه كان مطلق اليد ، مستبداً بالأمر ، نظراً لضعف الأمراء بعد أبي عنان ، كما سبقت الإشارة إليه ، يشيد لسان الدين بحنكته السياسية ، وجوده ، و فطنته بقوله :²

إلى حبر السياسة لا يجارى و لا يبغى معارضه للحاقا

إلى الفطن الذي لولا نداءه إذا ما جسسته خفت احتراقا

و في رسوخه في الوزارة و إغراقه فيها يقول :³

و من كآبئه عبد الله رأيا إذا ما المعضل انطبق انطباقا

لعبد الله في الوزارة مهما تدوكر خير من ركض العتاقا

و في أعماله التي تشبه الخوارق يقول :⁴

ضربت الصخر فانفجر انفجارا ضربت البحر فانفرك انفراقا

... فلم تزد برتبها علواً و لم تزد بنعمتها ارتفاعا⁵

* و ممن لقيهم لسان الدين من زعماء الدولة المرينية : >عامر بن محمد الهنتاتي< الذي كان مقيماً بـ ” جبل هنتاتة “ ، و له أباد بيضاء على الدولة المرينية ، و قد زاره لسان الدين في مستقره ، و مدحه و كان يصفه بكبير الوطني المراكشي، و بينه و بين لسان الدين مراسلات⁶ ، و قد رأينا الأبيات التي مدح فيها عبد العزيز المريني ، مهنتاً إياه على ظفره بهذا الزعيم الذي بدأ يظهر

¹ - انظر علاقته بهذا الوزير ، في نفاضة الجراب ، ص 281 .

² - ديوان لسان الدين : 707/2 .

³ - المصدر نفسه : 707/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 708/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 708/2 .

⁶ - انظر : نفع الطيب : 208/6 - 414 - 416 .

نوعاً من الانفصال عن الدولة : و ستره بعد قليل يضيف على هذا الزعيم صفات العظمة و التجلية ، و هذا السلوك أحد أخطاء لسان الدين و جانب من جوانب الضعف في شخصيته ، و في ديوان لسان الدين ثلاث قصائد : الأولى منها في تهنئة عامر ، بزواجه من بنت السلطان الحفصي أبي بكر يحيى¹ يحليه فيها بأروع الصفات ، من كلف بالمعالي ، و عزة الجانب ، و زهد في الدنيا مما ينحدر إليه بعض الملوك المعاصرين له ، و حزم في تدبير الأمور :

...و إن راع دهر أو تنكر حادث فلذ بحمي من عامر بن محمد
...رحيب مجال الفضل يكف بالعلی فما هو بالمصغي لقول المفند
...و مشغل بالحزم يقدر زنده إذا اشتغل الأملاك باللهو و الدد

و ينتقل لسان الدين بعد هذه الأبيات إلى تمجيد أسرته ، و بيان فضلها على الإسلام و على المغرب الإسلامي ، إذ إن الممدوح ينحدر من سلالة الموحدين ملوك المغرب و الأندلس ، أبناء «عبد المؤمن بن علي» الذين اتبعوا دعوة المهدي بن تومرت و نصرها ، و أصبحت تسمى تلك الدعوة بدعوة التوحيد¹ ثم ينوه الشاعر ، بوفاء هذا الزعيم للدولة المرينية و إصرارها كلما ألمت بها معضلة يقول لسان الدين :

ليس من القوم الذين علاهم مخلدة و استشهد الكتب تشهد
خلائف عبد المؤمن الملك الذي بسر من المهدي قد كان يهتدي
...رفعت بناء الملك لما تمايلت دعائمه فوق الأساس الموطد
و أصرخته لما دعاك على النوى و واصل ترجيع النداء المردد²

و الثانية مقطوعة وجهها إليه صدر رسالة أرسلها إليه قبل أن يزوره بجبله الذي يشبهه بالبقاع المقدسة التي يزورها المسلمون ، و ذلك لأن فيها تربة «المعصوم» المهدي بن تومرت صاحب الدعوة الموحديّة :

وزر تربة المعصوم إن مزارها هو الحج يمضي نحوه كل ضامر
ستلقى بمثوى عامر بن محمد ثغور الأمان من ثنايا البشائر³

أما القصيدة الثالثة فهي تعزية له عن وفاة أخيه عبد العزيز و هي إلى الرثاء أقرب منها إلى

المدح⁴ .

¹ - في دعوة المهدي ، و دور قبيلة هنتاتة في نصرها ، انظر رشيد بورويلة : ابن تومرت ، ترجمة عبد الحميد حاجيات ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 ، ص 93 .

² - ديوان لسان الدين : 313/1 - 314 .

³ - المصدر نفسه : 429/1 .

⁴ - القصيدة : 98 من الديوان .

* و من الوزراء المرينيين الذين اتصل بهم لسان الدين و مدحهم: أبو بكر بن غازي بن الكاس، كافل السلطان السعيد بالله بن عبد العزيز ، الذي كان طفلاً ، و قد حاول هذا الوزير حماية الشاعر من أعدائه قَدَّرَ جهده و لكنه فشل في ذلك على النحو الذي فَصَّلَ في الفصل الأول ، و للشاعر فيه قصيدة عرض فيها لدور هذا لوزير السياسي ، و لا سيما كفالته لابن أبي فارس ، بعد وفاته ، و فاءً ، و حفظاً للذمة ، كما يشيد باهتمامه بالجيش ، و حسن جبايته للأموال و دوره في فتح تلمسان حيث وصلت جيوش المرينيين ، في عهده إلى تخوم الزاب بالجزائر ، يقول لسان الدين¹:

...سيف السعيد و كافل الأمر الذي
...أنصفت جيش المسلمين فما القنا
و جبيت مال الله و استحصنته
إلى أن يقول²:

قد ناب عن مولاه خير مناب
صعب المهز و ما الحسام يناب
من بين ظفر للسابع و ناب

و تمهد الملك الذي بك جاوزت
أسياف عزمته تخوم الزاب

* و منهم صاحب الإنشاء بالمغرب : أبو القاسم بن رضوان الذي يصفه ابن خلدون بأنه "من مفاخر المغرب في ... كثرة علمه و حسن سمته ، و إجادته في فقه الوثائق و البلاغة و الترسيل ... و حوك الشعر و الخطابة"³.

و بينه و بين لسان الدين مراسلات أوردها المقري في نفح الطيب⁴ ، و للشاعر قصيدة أنشدها إياه عند قدومه عليه من سلا ، محملاً ببعض الحوائج إلى هذا الكاتب و في تلك القصيدة يتعرض لما يعانيه الممدوح من بعض طوائف المجتمع في المغرب و يذكر حسن صبره ، و خلقه العالي في تحمل حوائجهم و احتمال سوء أخلاقهم و من ثم يقدم صورة عن امتزاج الأجناس ، و تعدد لهجاتهم ، كالبربر و الأحابيش و غيرهم في المجتمع المغربي خلال القرن الثامن الهجري :

يعرض أولاً و ساطته عن هؤلاء الناس و يسأل ممدوحه أن يتقبل هذه الشفاعة :
سيدي أنت عمدتي فاحتملني
و تغمّد بالفضل منك جفائي⁵

ثم يعرض تلك الطوائف ، فمنهم البربر ، و الغز ، و هم جنس من الأتراك ، و من هؤلاء ، من يستوطن الصحراء ، و بعضهم يسكن الأرياف ، و يتصفون ببداوة بالغلة ، تظهر في ارتفاع أصواتهم ، و شدة إحافهم ، و سوء أدبهم و فُسُوْا النميمة ، و السعاية بينهم بالفساد :

¹ - المصدر السابق : 163/1 - 164 .

² - المصدر نفسه : 165/1 .

³ - التعريف بابن خلدون : ص 815 .

⁴ - انظر النفح : ج 6 ، ص 44 - 106 - 167 .

⁵ - ديوان لسان الدين : 97/1 .

مُبْتَلَى أَنْتَ بِالْبِرَابِرِ وَالْغُزْرِ
وَأَهْلَ الْجِبَالِ وَالصَّحْرَاءِ
وَذَوِي أُنَيْقٍ وَأَهْلَ حَمِيْرٍ
وَرِجَالٍ وَصَبِيَّةٍ وَنِسَاءٍ
... تَرْفَعُ الصَّوْتِ إِنْ مَرَرْتَ عَلَيْهِمْ
كَالْكِرَاكِي أَوْ بَبَاتِ الْمَاءِ
... وَسَعَاةِ ذَوِي اجْتِدَاءٍ وَإِحْسَافٍ شَدِيدٍ يَأْتُونَ بَعْدَ الْعِشَاءِ¹

و يستطرد لسان الدين ذكر كثير من معايبهم ، و لكن الممدوح يسع الجميع بسابغ خلقه ،
و راجح عقله :

وَسِعَ الْكَلَّ مِنْكَ خُلُقٌ جَمِيلٌ
وَجَنَابٌ لِلْفَضْلِ رَحْبٌ الْفَنَاءِ²
و هكذا يمكن أن تعد هذه القصيدة وثيقة تصف مجتمعا ، متعدد الأعراق و متعدد الثقافات ،
و متنوع اللغات ، و اللهجات .

و لكن لسان الدين يختم القصيدة باختصاص أهل سلا دون غيرها من مدن المغرب ، بأن أهلها
يتصفون بالحمق ، بل هي معدن الحمقاء ، كما يقول لسان الدين ، و مع ذلك فقد أثار لسان الدين
الإقامة بها خلال نفيه إلى المغرب لا رغبة في أهلها ، و لكن لأنها توفر له ما يحتاج إليه مثله من
الخلوة و التأليف ، و لكونها قريبة من مدافن الملوك المرينيين الذين يتوسل بهم إلى ممدوحه :

أَيْنَ تَقْلِي إِذَا فَرَضْتَ تَقِيْلًا
وَمَقَامِي نَزْرًا وَ أَصْرِفٍ وَجْهِي
و كَثِيرَ الْجَفَاءِ مِنْ هَوْلَاءِ
لَسَلَا حَيْثُ مَعْدَنُ الْحَمَقَاءِ³

* و من هؤولاء الوزراء و الكتاب و القادة ، شيخ الغزاة "علي بن رحو" و يمثل شيخ الغزاة
قوة عسكرية و سياسية مرينية بالأندلس ، و يقود جيشا مرابطا يتحيز انتفاض العدو على المملكة
الغرناطية ، و يتأهب للدفاع عن حوزة المسلمين ، و تقديرا لهذا الدور الذي يلعبه هذا القائد ، فإن
لسان الدين يتوجه إليه مادحا و معترفا بالفضل الذي لا يقدر الشاعر على قضاء حقه من الثناء :

يَا جَمَلَةَ الْفَضْلِ وَ الْوَفَاءِ
مَا كُنْتُ أَقْضِي عِلَاكَ حَقًّا
مَا بِمَعَالِيكَ مِنْ خَفَاءِ
لَوْ جِئْتُ مَدْحًا بِكُلِّ فَاءِ⁴

* و منهم والي مراكش أبو عبد الله محمد بن حسن : وصفه ابن الخطيب بكونه من مفاخر
المغرب لا يبر على بره إلا الملوك و ذلك صدر أبيات مدحه بها ، و عميد الدولة ابن جدار ، و يصف
كل واحد منهما بالجود ، و الكرم⁵ .

¹ - المصدر السابق : 97/1 - 98 .

² - المصدر نفسه : 98/1 .

³ - المصدر نفسه : 98/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 101/1 .

⁵ - انظر القطعتين رقم : 53 و 356 من الديوان .

* و منهم سليمان بن داود الذي التقاه ابن الخطيب "بجبل هنتاة" عندما زار عامر بن محمد

و يشبهه لسان الدين ، منتحلا المبالغة ، على عادته ، بسليمان بن داود النبي ، عليه السلام :

بالله آل مرين أبشروا و تقوا بكل سعد من الأيام ممدود

فلملككم بسليمان بن داود في العـز ، "ملك سليمان" بن داود¹

و قد كان هذا القائد المغربي ممن كادوا لابن الخطيب ، و سعوا في القبض عليه غير أن

الآبيات قيلت قبل ذلك .

و يمكن أن نلاحظ من المدائح السابقة أن لسان الدين يكثر من الإيغال و المبالغة فتارة يشبهه ممدوحه بالأنبياء الذين أجرى الله على أيديهم المعجزات و طورا يقرنهم بكبار سلاطين العالم ، و يفضلهم عليهم ، كما أنه يكرر في أغلب الأحيان المعاني نفسها ، و لعل السبب في ذلك أن الشاعر أمام عدد معتبر من الممدوحين يحمله واجب الصداقة أو السياسة على إسداء الأمداح إليهم ، و نلاحظ أخيرا تناقض الشاعر في بعض الأحيان و تقلبه على ممدوحيه فسرعان ما يتحول الثناء العاطر ، إلى تشفٍّ كما رأينا مع عامر بن محمد الهنتاني .

5 - مدائح الزيانيين :

لابن الخطيب صلات وثيقة بالدولة الزيانية رغم اتصاله بالملوك المرينيين و إيثارهم له ، و هم ألدّ خصوم بني زيان فقد كان لسان لدين يعتمد على دهائه في صلته مع الملوك ، إذ كان يرسلهم خفية لأنه وطن نفسه على عدم الاستقرار بغرناطة ، فهو يهتبل الفرصة السانحة التي تمكنه من قضاء أوطاره دون نظر إلى مصلحة أخرى مهما عظمت غير مصلحة الشخصية .

و تعود صلته بالدولة الزيانية إلى صداقته لأحد أعظم ملوكها هو أبو حمو الزياني² و علاقة ابن الخطيب بأبي حمو قديمة راسخة لعلها ابتدأت بغرناطة مسقط رأس أبي حمو .. و توثقت في المغرب العربي .. و كانت الرسائل بينها متواصلة .. سواء على الصعيد الرسمي ، أو على الطريق الشخصي بين الصديقين² . و لابن الخطيب في أبي حمو ثلاث قصائد و مقطوعتان : أما المقطوعتان فقد سبق الكلام عن غرضهما في الفصل السابق ، و أما القصائد الثلاث فقد وجهها إليه جميعا من المغرب .

الأولى منها هنا فيها بمناسبة فتحه لتلمسان بعد وفاة السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني

سنة 774 هـ ، و فيها يعرب له عن شكره و ثنائه كما تشكر الرياض مطر نيسان لما فيه من غزارة

¹ - المصدر السابق : 344/1 .

² - د / محمد الشريف قاهر : لسان الدين بن الخطيب و تراثه الفكري في تلمسان ، مجلة الأصالة ، السنة الرابعة ، العدد 26 ، رجب - شعبان

1395 هـ ، جويلية - أوت 1975 م ، ص 245 .

و نفع و بركة عليها ، ثم يؤكد له ولاءه رغم إقامته عند أعدائه ، و يعتبر هذا الولاء بديهية لا مجال للنظر فيها :

أنا شيعنة لك حيث كنت قضيية لم يختلف في حكمها نفسان¹
ثم يخلع عليه صفة التفرد بين الناس و هل يمكن أن تطلع من مطلع واحد شمسان ؟ و القمة لا تتسع لاثنين :

الشمس أنت قد انفردت و هل يرى بين الورى في مطلع شمسان (2)
و أبو حمو بانتصاره على المرينيين ، قد جبر نفوس الأحرار من الناس و منهم نفس ابن الخطيب التي أصبحت تتشوق لهذه الدولة المنتصرة و تطمح إلى الاستقرار فيها ، لو جرت المقادير بما أراد الشاعر :

جبرت بجبرك كل نفس حرة و شدا بشكر الله كل لسان (3)
أما القصيدة الثانية فهي أطول من السابقة و تتسع لإبراز مواهب السلطان العلمية و حنكته السياسية و بسالته في الحرب ، و شرف نسبه الذي يتصل بالنبي صلى الله عليه و سلم .
فإذا كان الزمان قد هاض الشاعر و رمت به أمواج المضيق إلى المغرب و طغى عليه الدهر طغيان فرعون على بني إسرائيل فإن الركن الشديد الذي أوى إليه الشاعر هو الممدوح (موسى) كما انتصر بنو إسرائيل "بموسى" عليه السلام :

...و إذا طغى فرعونه فأنا الذي من ضره و أذاه عذت موسى(4)
و هذا الملك قد جمع الشجاعة ، و هداية الخلق ، و الوقار الذي طأطأت له شمس الجبال ، و الجدى الذي يصير معه الغمام ناقة بسوسا ، و هو أعلى ملوك بني زيان إذ سما إلى مرتبة الكمال ، فترزين الكمال به ، و فاق كل الذوات ، فلا يجوز أن يقاس بغيره :

أعلى بني زيان و الفذ الذي لبس الكمال فزين الملبوسا
..من قاس ذاتك بالذوات فإنه جهل الوزان و اخطأ التقييس(5)
و لا غرابة في أن يتسنى الممدوح قمة الكمال ، فهو ذو أصل شريف ، إذ يتصل بنسبه بفاطمة البتول ، بنت النبي محمد -صلى الله عليه و سلم- أما جده الأقرب فهو إدريس(6) الذي تملك المغرب

1 - 2 - 3 ، ديوان لسان الدين : 607/2 .

4 - المصدر نفسه : 724/2 .

5 - المصدر نفسه : 724 ، 725 .

6 - عن إدريس ابن عبد الله الأول (ت 175 هـ) و تأسيس دولته بالمغرب انظر : إسماعيل العربي دولة الأدارسة ملوك تلمسان و فاس و قرطبة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1983م ، ص58 و ما بعدها .

وهو في نسبه الشريف كالنبي إدريس عليه السلام الذي رفعه الله إلى السماء ، و إذا كان الممدوح حاكما

شريفًا من آل البيت ، فقد أصبح و لاؤه و نصرته و محبته عقيدة يصح بها دين المسلم :

قسما بمن رفع السماء بغير ما عمد و رفع فوقها إدريسا

..من دان بالإخلاص فيك فعقده لا يقبل التمويه و التلبيسا

و المنتمى العلوي عيصك لم تكن لترى دخيلا في بنيه دسيسا

بيت البتول و منتمى الشرف الذي تحمى الملائك دوحه المغروسا¹

و قد أخل الممدوح بسياسته الحكيمة ذكر الحكماء ، بحيث يعد حكيم اليونان ” أرسطو

طاليس” ، مقصرا إلى جنبه ، و لو شهد عظيم الفرس كسرى بعض هذه السياسة ، لما حدثته نفسه

بالملك يوما و يشير ابن الخطيب ، بهذا إلى علم أبي حمو ، بالسياسة ، و تأليفه في هذا العلم ؟

أما سياستك التي أحكمتها فرميت بالتقصير أسطاليسا

فلو ان كسرى الفرس أبصر بعضها ما كان يطمح أن يعد سؤوسا³

و يلتفت الشاعر إلى معنى سياسي آخر ، إذ كان ينبغي ، لو أنصف الدهر أن يدعى لأبي حمو

علي المنابر ، لأنه أحق بالخلافة لما حازه من الفضائل السابقة و لكن الطامحين إلى الملك هضموه هذا

الحق و نافسوه فيه :

فلو انصفتك إيالة الملك الذي رضت الزمان لها و كان شريسا

قرنت بذكرك و الدعاء لك الذي تختاره التسبيح و التقديسا⁴

و قد كان لسان الدين مقيما بالمغرب تتعاوره الظنون و تستبد به الهواجس و لا تجد نفسه

الاطمئنان ، و لا تستقر من مخاوفها إلا بنزوله على الممدوح ، لأن كل أمله معقود على ذلك المثوى

الذي يريحه من مخاوفه :

لا يستقر قرار أفكاري إلى أن استقر لدى علاك جليسا⁵

و مثواك مقصود و حبك طاعة و أمر على الأعيان مفترض حتم⁶

1 - ديوان لسان الدين : 725/2 .

2 - و قد كان أبو حمو أدبيا ، شاعرا ، عالما بالحكمة و قد ألف في السياسة كتابا لابنه (أبي تاشفين) سماه ”نظم السلوك في سياسة الملوك“ انظر ترجمته في: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من : نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان ، لمحمد بن عبد الله التنسي ، حققه و علق عليه محمد بوعبيد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، و المكتبة الوطنية الجزائرية ، 1985 ، ص 157 .

3 - ديوان لسان الدين : 725/2 .

4 - المصدر نفسه : : 725/2 .

5 - المصدر نفسه : 728/2 .

6 - المصدر نفسه : 548/2 .

و يعود لسان الدين في القصيدة التالية إلى ترويض ما نسبته إلى الممدوح من حزم و عزم و تقوى
و حكمة و عفة و كرم و أدب و علم ، و إلى تشبيهه بموسى عليه السلام عندما أقام لبني إسرائيل دولة
على قدر من الله¹ .

و لكنه في هذه القصيدة يورد شروط الخلافة ، وهي في نظره ، قد اجتمعت في أبي حمو ،
و منها : الحلم ، و الاستقامة ، على الهدى ، و الكرم ، و حسن المظهر و القدرة على إدارة شؤون
رعيته ، و حفظ أمنها و الرأفة بها ، هذا كله إلى علم يسنده تقوى الله ، إلى النسب الشريف المتصل
بالنبي صلى الله عليه و سلم ، و هنا يقترب الشاعر من رأي الشريعة في شروط الإمام :

مليء بأوصاف الإمام بمثلـه	و لا مثل من يبغى الإمامة يأتـم
إذا اجتمع الإقدام و الرأي و التقى	و ساعد سعد و استقل به عـزم
و لاحت بأفاق السماح مخيلة	من الجود يتلو برقها العارض السجم
و قام على التقوى بناء سياسة	تمهد من أساس أركانها علم
و رفت عليها نسبة طالبيـة	فليس ظلام في الوجود و لا ظلم ²

و الشاعر و إن كان يطمح إلى لقاء أبي حمو ، فهو لا يزال مقيما على الود القديم لأبناء
موطنه ، و لا ذنب له إذ آذوه ، و نبذوه إلا أن أتاهم بالصبح و لكنهم عموا ، و مع ذلك فهو لا يزال
يذكرهم ، و يزجي إليهم الأمداح حيث حل أو ارتحل :

أتيتهم بالصبح لكنهم عموا	و آذنتهم بالصبح لكنهم صموا
سأذكرهم حيث احتلت و إن نسوا	و أسدحهم مهما قدرت و إن ذموا ³

أما محمد بن قيس الثغري كاتب أبي حمو فهو الوزر في الخطوب ، الحامي لمملكه أبي حمو ،
قد بسط الأمن في ربوع مملكته ، فلا يزعج عنده مستجير ، حتى الأنعام قد أمنت السباع فالراعي لا
يخشى على غنمه سطوة الأسود ، إذا أهملها :

...و إن أحسن من هذا و ذا وزر

هو الحمى لأبي حمو استجره فقيه الأمن منسدل و الفضل مكتمل

و الله لو أهمل الراعي النقاد به

ما خاف من أسد خفان به همل⁴

و هو من قوم موسى الذين يقضون بالحق و به يعدلون إذا لحق الناس حيف ، و ما لهم لا
يفعلون و هم الجبال الثابتات حلما ، و البحار الطامية كرما :

1 - انظر القصيدة رقم 465 من الديوان .

2 - ديوان لسان الدين : 546/2 .

3 - المصدر نفسه : 547/2 .

4 - ديوان لسان الدين : 518/2 .

تكون من قوم موسى إن قضاوا عدلوا و إن تقاعد دهر جائر حملوا

هم الجبال الرواسي كلما حلموا هم البحار الطوامي كلما جملوا¹

إن هذه المدائح الكثيرة تكشف لنا عن شخصية عظيمة الشهرة ، ذات خطر و تأثير في سياسة ملوك الأندلس و المغرب الإسلامي ، كما تكشف لنا عن جو الصراع الدامي أحيانا على المناصب ، طلبا للتغلب ، بين أولئك السلاطين من جهة ، و وزراءهم المتغلبين من جهة أخرى . و قد تبين من ذلك ضعف بعض أولئك الحكام ، و أدى هذا الضعف إلى خلل في العلاقة الدينية بين أهل الأندلس ، و المغرب و لتلك العلاقة المختلفة أثر واضح في سقوط الأندلس بعد فترة قليلة من ذلك .

و تبين لنا تلك القصائد أيضا مدى ما وصلت إليه قصيدة المدح على يد شعراء الأندلس من تطور ، من حيث الموضوعات التي تتضمنها فقد كان الشاعر الجاهلي مرتبطا بقبيلته ، مستمدا منها قيمه الشعرية و تلك القيم ، ” و إن وجهت إلى فرد إنما توجه له بحكم مكانته في القبيلة من ناحية ، و باعتبار أنه يمثل القبيلة و يدل عليها تمثيل الجزء للكل و دلالة الجزء على الكل“² ثم أصبح الشاعر ، في ظل العقيدة الإسلامية ، يعبر في مدائحه عن حضارة ، و سياسة دولة ، و إن توجه بها إلى حاكم فإنما لكونه يمثل رمزا لتلك الحضارة أو الدولة . كما أصبحت مصدرا ، تاريخيا ، يسد بعض الفراغ الذي يجده دارس تاريخ تلك الفترة من حياة دول الإسلام في المغرب في المصادر التاريخية ، و تصبح لقصيدة المدح ، خاصة ، قيمة توثيق كبرى لأنها ” سلاح ذو حدين ، فهي تمكنا من الجديد الغريب عندما نستكنه أمرها لكنها قابلة لأن توقعنا في أشد الأحكام بعدا عن الحقيقة التاريخية ، فالشاعر مهما كانت موضوعيته في رسمه الأحداث التاريخية ، يبقى وصفه ذاتيا بالدرجة الأولى“³ و مهما تكن ذاتية الشاعر مانعة من ارتياد الحقيقة ، أحيانا ، فلا مناص للدارس المسلم المعاصر ، من الاعتماد على الشاعر ، باعتباره شاهدا على تاريخ ذلك العصر ، و حضارته .

¹ - - المصدر السابق : 518/2 .

² - - أمين عماد زكي العشماوي : قصيدة المديح عند المتنبئ و تطورها الفني ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، ط 1 ، 1983 ، ص 18 .

³ - - د / جمعة شبيخة : الشعر الأندلسي ، حدوده و أبعاده كمصدر للتاريخ ، المجلة العربية للثقافة ، السنة الرابعة عشرة ، العدد السابع و العشرون ربيع الأول 1415 ، نوفمبر 1994 .

ثانيا : الرثاء :

و هذا الغرض أيضا عريق في الشعر العربي ، و هو من الفنون التي يمكن للشاعر أن يطوّعها للحديث عن الوجدان بما تتطلبه من تفجع و حزن و حسرة و ذرف للعبارات ، كما يتطرق فيه الشاعر إلى التنويه بفضائل المرثي التي يفقده خسرهما العالم كله أو بلد المرثي و أهله و هو من هذه الناحية شبيه بالمدح ، و يمكن أن يقال فيه ، هو مدح للموتى بما كانوا أهلا له في حياتهم و هو أيضا يتسع مجاله للوعظ و الحكمة و النظر في مصائر العظماء و الأمم المتجبرة و من هنا يقترب من الزهد .

و الشعراء يتفاوتون فيه إجابة و إبداعا ، و لكل واحد منهم ذاتيته و خواطره الخاصة ، يستوحياها من تجربته الشعرية التي ليست بنمط مطرد .

و قصيدة الرثاء عند ابن الخطيب تتسع لكل ذلك ، و لكنها تضيف إليه إضافات مصدرها بيئة الشاعر و ثقافته و علاقاته بالسلطين و القادة و الوزراء ، و أرباب القلم فقد بكى و تفجع على فقيدته و أحى ما كان يتصف به من فضائل ، و اعتبر و اتعظ بالموت و من ثم هداه تأمله إلى حكم بثها في ثانيا قصائده أو استهل بها مرثيته ، ثم عاد إلى علمه بالتاريخ فذكر القارئ لشعره بما وقع للأمم السالفة ، و دعا للفقيد بكل دعاء صالح ، و فوّق إليه ، و لكنه أيضا ، و هنا موضع الإضافة عنده في هذا الفن الشعري ، يمزج السياسة بذكر الموت ، و كأنه بذلك يريد تحقيق عنصر معادل للموت في مرثيته ، و هو الحياة . فالفقيد إذا كان من أرباب الدول قد خلف و ارثا يجدد للدولة شبابها و يحيي مآثر الخلفية الراحل ، و إذا كان للفقيد حزب أو طائفة لعبت دورا قويا في تدبير ملكه ، فلا يرى لسان الدين مانعا من التنويه بهذا الفضل .

و لكننا نبدأ تفصيل هذه القضايا من (الوعظ الحكمي) إذا جازت العبارة ، و هو عبارة عن تأملات فلسفية في الموت و الحكمة منه و ما ينبغي للإنسان أن يستفيد من هذا القضاء المحتوم ، من الناحية العملية التي تعود عليه بالنفع في دنياه و آخرته ، و أول ما يلفتنا من ذلك هذه الغفلة التي تغشي بصائر الناس ، فتحجب عن أعينهم الحقائق المجلوة أمامهم : فهم يعلمون أنهم مقهورون خاضعون لقضاء الله ، و أن الموت حق ، و مع ذلك فهم يتقون بالدهر ، و حدثانه ، و يضيفون إلى ذلك اغترارهم بالملاهي ، في الحياة الدنيا و يعللون أنفسهم بوقائها لهم مع أن من سماتها الغدر ، و لذلك يماطلون أنفسهم بالتوبة ، و الأيام تمر و النهور تكرر و الأغرب من ذلك أنهم يودعون أحبّهم كل يوم ، ثم يطيب لهم اللهو ، و يسلمون عن أمر الموت :

نبيت على علم يقين من الدهر و نعلم أن الخلق في قبضة القهر
و نركن للدنيا اغترارا بلهوها و حسبك من يرجو الوفاء من الغدر

و نمطل بالعزم الزمان سفاهة
و ندفع أحبابا كراما إلى الردى
فيوم إلى يوم و شهر إلى شهر
و نسلو و نلهو بعد ذلك عن الأمر¹

وفي رثاء السلطان أبي الحسن المريني يقف لسان الدين ليذكرنا بأمر الآخرة وقفة طويلة تليق
برثاء ملك اشتهرت مآثره و جَلَّ فقده عند المسلمين، تسجل منها بيتين تطرق فيهما الشاعر إلى
اقتراب اللقاء و إن بدا للناس طويل الأمد لغفلتهم ، و بعد المعاد الذي يجمع الله فيه مخلوقاته فليس
هناك إلا مصيران : إما جنة أو نار :

و الملتقى كثب و إن طال المدى
و وراء غفلتنا معاد جامع
و تقلبت بمعمر أطواره
هاتيك جنته و هذي ناره²
و إذا حل القضاء بأمرئ فلا يغني عنه سلطانه ، و لا ينفعه ماله ، و لسان الدين في هذا
المعنى الحكمي ، يلتفت إلى أبي الطيب المتنبى³

نعد الرماح المشرقية و الفنى
و يطرق أمر الله من حيث لا ندري
و المرء قد يفقد أعز أقربائه إليه فيصيبه الهم من ذلك، غير أن الشاعر بعدما فقد بعض
أصدقائه أحس كأنما فقد روحه ، و من فقد روحه ، فقد تلف جسده لما بين الأمرين من اتصال : فكان
الخل يجوز أن يقول لخليله: يا أنا ، يصوغ لسان الدين هذه الحكمة بقوله :

صديق الفتى إن حقق الأمر روحه
و ما حال زند لم يؤيد بساعد
و كم نسبة ما بين روح و جثمان
و ما حال طرف لم يؤيد بإنسان
و لا نريد أن نتوسع أكثر مما ذكر في هذا الموضوع ، بعدما فصل القول نوع تفصيل في
المعاني الزهدية من الفصل السابق .

أما الموضوع الثاني الذي يتردد بصورة لافتة في مرثيات لسان الدين الذين فهو إعرابه عن
عظيم فاجعته لهول المصيبة التي تهد من ركنه هدا لا سيما إذا كان الفقيد : أم الولد ، و سكن الروح
و يزيد الفاجعة هولاً ، أنها رحلت و الشاعر يتجرع غصة الاغتراب و النفي عن الوطن ، بعد أن كاد
يفقد نفسه .

و قد نظم الشاعر قصيدة في رثائها و هي إن كانت قليلة الأبيات فهي من أصدق ما نظمه ، لا
في فن الرثاء فحسب ، بل في شعره كله .

¹ - ديوان لسان الدين : 396/1 .

² - المصدر نفسه : 441/1 .

³ - المصدر نفسه : 397/1 ، و البيت مأخوذ من قول المتنبى في إحدى مرثياته: نعد المشرقية و العوالي و تقتلنا المتون بلا نزال

ديوان المتنبى ، دار بيروت للطباعة و النشر ، 1403 هـ ، 1983 م ، ص 265 .

فقد روع الدهر باله ، و هاج بلباله ، و قلب له الدهر ظهر المجن بعد إقبال و تأتَّ كيف لا
و قد خطف منه ذخيرته في الحياة ، وعدته عند اشتداد الأهوال ، و مما يزيد جوى الشاعر غياب ذلك
الوجه (الجميل) في تراب سلا ، ذلك الوجه الذي لا يسلو عن فقهه أبدا .

وتصل المأساة بالشاعر ، إلى أن يطلب **ورن** فقيدته انتظاره لأن رحلته قد حان أوانها ، و أن
تمهد له مضطجعا بجانبها لأنه في عجلة من أمره :

روّع بالي و هاج بلبالي و سامني التكل بعد إقبائل
ذخيرتي حين خانني زماني و عدتي في اشتداد أهوال
أما و قد غاب في تراب سلا وجهك عني فلست بالسالي
فانتظريني فالشوق يقلقني و يقتضي سرعتي و إجمالي
و مهدي لي لديك مضطجعا فعن قريب يكون ترحالي¹

و يسائل الشاعر ، من يتوسم فيهم العلم بالسُلوان إن كان عندهم علم بذهاب صبره فهم يطلبون
أن يهون على نفسه ما بها من ألم الفقد ، و هل يحسُّ الخلي بما يكابده الشجي ، و يعتقد هؤلاء
الناصحون أن ما بمفرقه شيب ، و إنما هو كما يعلم الشاعر ، هموم متعاقبة لها شيات و أصباغ :

و هل عندكم علم بصيري أنني فقدت جميل الصبر أوجع ققدان
يقولون خفض بعض ما بك من جوى و هان على المرتاح ما لقي العاني
و ليس مشيبا ما ترون بمفرقي و لكن خطوب جمّة ذات ألوان²

و يقف الشاعر على قبر السلطان أبي الحسن و يتأمل تلك التربة التي كانت ترفل في العز
فأخلق الدهر ديباجها ، و بعدما كانت مربع عز ، و دار رباط هد الموت عمارها بموت الفقيد لاجئا
فيها ، فصارت هامة بلاقع ، كأنها صرعى :

محت جوانبها البرود و إن تكن شبّت بها الأعداء جذوة نار
هدّت بناها في سبيل وفائها فكأنها صرعى بغير عقار³

و قد يجد الشاعر السلوى عن فقيد مات طريح فراشه ، غير أنه يعظم لديه الخطب إذا مات
المرثي غدرا على أيدي بعض السفلة ، و كم هو مؤلم ذلك المشهد الذي ظهر فيه المرثي ، بعد شهر
الصيام إلى مصلاه في كامل أبهة ملكه فإذا بهذا المشهد البهيج ، يتحول إلى منظر للدماء المسفوحة ،
و لا يفطر الإمام إلا على كأس الشهادة -

تولى شهيدا ساجدا في صلاته أصيل النقى رطب اللسان من الذكر

¹ - ديوان لسان الدين : 505/2 - 506 .

² - المصدر نفسه : 623 / 2 .

³ - المصدر نفسه : 418/1 .

و باكر عيد الفطر و الأمر مبرم و ليس سوى كأس الشهادة من فطر
أتيح له و هو العظيم مهابة و قدرا حقير الذات و الخلق و القدر¹

و الخطب إنما يجلب على قدر فضل الفقيد ، ففقدان جدة السلطان أبي الحجاج لا يعد خسارة
لأهل بيتها فحسب ، بل رزءا على الإسلام و أهله جميعا ، لأنهم أصيبوا بوفااتها في خلافتهم التي هي
معقد أمرهم ، و مجمع شملهم :

و بين الخطوب الطارقات تفاضل كفضل من اغتالته في رفعة القدر
..لقد فجع الإسلام منك و أهله
..و شمل جميع فرقته يد النوى
و منصب ملك أو حشت جنباته
و هالة إيوان تراءت بلا بدر

و يميل لسان الدين إلى تعداد مناقب المرثي فيكثر من ذلك في مرثياته و لعل السبب في ذلك ،
تهيؤ لسان الدين للمدح أكثر منه للثناء ، و قد أدرك النقاد القدامى ما بين المدح و الرثاء من صلوة ،
غير أنهم يجعلون المديح ، أصلا ، و الرثاء فرعا عليه³

و مما هو واضح أن غرض الشاعر في عد مناقب المرثي غيره في المدح ، فهو يقول بطريقة
صريحة أو غير صريحة أنه برحيل المرثي فقدت تلك الفضائل ، و لم يفقد شخصه فحسب ، و لذلك فهو
يتخذ منها وسيلة فنية للتعبير عن هول الفاجعة .

و يبدأ لسان الدين في عد تلك السمائل و المزايا من قبر الفقيد ، فقبر أبي الحجاج روضة طيبة
الأريج و ذلك لأن قبر الشهيد مضمخ بالطيب حتى يلقي ربه ، و قد أحدث في ذلك القبر مجموعة من
الشيم ، ووري فيه الهدى ، و التقوى و المعالي ، و قد كان الفقيد في حياته حاملا للواء الجهاد ، حاميا
دار الإسلام مدمرا دار الكفر ، كما أنه إمام الهدى ، واسع الجود ، عميق الفكر ، سليل الخزرج :

و لست بقبر إنما أنت روضة
و يا ملحد التقوى و يا مدفن الهدى
و من كأبي الحجاج حاميا حمى الهدى
إمام الهدى غيث الندى دافع العدى
منعمة الريحان عاطرة النشور
و يا مسقط العليا و يا مغرب البدر
و من كأبي الحجاج ماحي دجى الكفر
بعيد المدى في حومة المجد و الفخر
و حسبك من بيت رفيع و من مجد⁴

¹ - المصدر السابق : 399/1 .

² - المصدر نفسه : 397/1 .

³ - ابن رشيقي : العمدة 121/1 .

⁴ - ديوان لسان الدين : 398/1 .

و في رثاء جدة أبي الحجاج يعود إلى التراث الشعري العربي ، ليستمد منه مادته الشعرية ، فهذه الفقيدة تعدل نساء الأرض فضلا ، بل تفوقهم مثلما فضلت ليلة القدر على سواها من الليالي بل هي أفضل حتى من الرجال ، هالشمس لم يخفضها التأنيث ، والقمر لم يرفع من قدره التذكير ، و هذا المعنى تردد في شعر أبي الطيب كما هو جلي هو يشبه الفقيدة بالشمس في كمالها من غير نقصان/ و نفعها للناس من غير أن تضرهم :

و واحدة فاقت نساء زمانها كما فضلت أمثالها ليلة القدر
و هل خفض التأنيث للشمس رتبة و هل رفع التذكير من رتبة البدر
و هيات من للشمس منك بمشبهه كمال بلا نقص و نفع بلا ضرر¹

و يلتفت لسان الدين إلى مآثر المرثي الدينية ، فقد أضحى مقام أبي الحسن مكانا مقدسا يؤمه الزوار ، التماسا لبركته عسى أن تغفر ذنوبهم ، لأن ذلك الضريح يضم بداخله وليا صالحا من أولياء الله ، و يشبه لسان الدين هذا الضريح بالوادي المقدس الذي تكرر ذكره في عدد من الأبيات :

عرج على الوادي المقدس و الحمى و اقصد ضريحا لا يغيب جواره
..طابت معاهدها بخير خليفة من زاره غفرت له أوزاره²

كما يلتفت إلى أعمال الفقيد الخيرية و التي يتواصل نفعها للناس بعد وفاته فهي تبيكه حزينه لفقده ، فأبو الحجاج تراثه مصانع حربية شادها و مساجد عمرها بذكر الله و قلوب أمنها من الفزع بما نشر من السلم في دولته :

تبكي عليك مصانع شيدتها بيض كما تبكي الهديل حمام
تبكي عليك مساجد عمرتها فالناس فيها سجد و قيام
تبكي عليك خلائق أمنتها بالسلم و هي كأنها أنعام³

أما إذا كان الفقيد من أهل الأدب و العلم ، فأولى ما يرثيه به ما ذهب من معارف و ما درس من حلل البيان ، و ما دق من فهم للمعاني المستغلفة على الناس و تيسيرها لهم ، يقول لسان الدين في رثاء أستاذه ابن الجياب⁴ :

كنز المعارف لا تبيد نقوده و لا تفنى على كثرة الإنفاق
من للفنون يجيل في ميدانها خيل البيان كريمة الأعراق

¹ - المصدر السابق : 397/1 .

² - المصدر نفسه : 441/1 .

³ - المصدر نفسه : 557/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 709/2 .

من للحقائق أبهت أبوابها للناس يفتحها على استغلاق¹

و يعود لسان الدين إلى ثقافته التاريخية على عاداته في أغلب شعره ليختار منها مادته الشعرية المناسبة فحادثة الموت تجره إلى التأسى بموت عظماء العالم الذين هو خبير بأيامهم ، و دولهم فهذا "تبع" اليمين أقصده الحنف فلم يجد من أتباعه وليا و لا نصيرا ، و ذلك عظيم الفرس "كسرى أنو شروان" أودى قتيلًا على قوة شكيمته و لم ينفع "قيصر" الروم ما شا ده من قصور ، و من ملوك الإسلام العظام الذين طوتهم يدي الردى "آل العباس" ، و "بنو أمية" ، و "بنو عبيد"² يقول لسان الدين³ :

رمى (تبعًا) بالحنف قصدا فلم يكن لأتباعه في ذلك الخطب من نصر
و أودى (أنو شروان كسرى) بصرفه كسيرا ، و لم يترك (لقيصر) من قصر
و يقول أيضا في موضع آخر⁴ :

عبس الزمان (آل عباس) فما يرجى تهلله و لا استبشاره
و بنو أمية قد أدار عليهم قدحا تفتت في الجميع عقاره
و (بنو عبيد) إذ تعبد ملكهم سلطان (مصر) و أذعنت أمصاره

و لما صار الوصول إلى المرثي غير متاح بحكم انتقاله إلى عالم الأرواح فلم يبق أمام الشاعر إلا الدعاء وسيلة للاتصال به ، و هنا يستوحى عقيدته الإسلامية في أن الأدعية ينفع بها الميت ، غير أن لسان الدين يدعو لنفسه لأن المقام مظنة القبول من الله فهو يسأله المغفرة لنفسه ، و يخص الممدوح بالرحمة و دخول الجنة :

فيا مالك الملك الذي ليس ينقضي و يا من له الحكم في الخلق و الأمر
تعمد بستر العفو منك ذنوبنا فلسنا نرجي غير عفوك من ستر
و حصص أمر المؤمنين برحمة تبيؤته دار المقامة و الأجر⁵

غير أن لسان الدين لا يفصل الواقع السياسي عن مشاعره الذاتية فقد خلف المرثي ورثيا يخلفه على العرش فلا داعي للقلق ، على المرثي إذ أنه راض عن مصير دولته ، فقد تولى بعده خليفة ، و لو كان حيا لما اختار غيره لولاية العهد ، و هنا ينتهز لسان الدين الفرصة ، فيتوجه إلى الخليفة

¹ - المصدر السابق : 709/2 .

² - بنو عبيد نسبة إلى عبيد الله المهدي ، و يقال لهم الفاطميون نسبة إلى فاطمة الزهراء (ض) و قد اختلف في نسبهم إلى الحسن (ض) دامت دولتهم بالمغرب و مصر ، مائتين و اثنتين و ثلاثين سنة (232) انظر : أخبار ملوك بني عبيد و سيرهم لأبي عبد الله محمد الصنهاجي (548 هـ) ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ص 17 و ما بعدها .

³ - ديوان لسان الدين : 397/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 444/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 399/1 .

الجديد منوها بحكمته ، في تدبير شؤون دولته ، و بره بوالده ، محييا ذكر الخليفة الراحل ، يخاطب لسان الدين (أبا الحسن المريني) بقوله :¹

و اعلم بأن سرير ملكك حلـه من أنت لو خيرته مختاره
من هز دوح رضاك ممتازا به حتى دنت من راحتيه ثماره
خلفت إبراهيم خير خليفة للمسلمين قد استقر قراره

و يقوم الشاعر بالصنيع نفسه في رثاء (أبي الحجاج النصرى) و يهنئه بتوليه ابنه (الغني بالله) معليا من مكانة هذا الولي كما يفعل في المدح تماما (ق. رقم 484) .

و في رثاء أبي سالم بعد أن وقف على قبره بجبل هنتاته ، نراه يشيد في أبيات ذات عدد ، بدور الزعيم (أبي عامر الهنتاتي) ، و أخيه (عبد العزيز)² .

يستخلص من النماذج الشعرية السابقة أن ابن الخطيب يجاري من تقدمه من الشعراء مستعيرا منهم أكثر المعاني الرثائية ، من وعظ ، و تأس ، و تنويه بفضائل المرثي ، و الدعاء له . غير أنه يتميز بتسجيله للأحداث التاريخية التي فيها عبرة و عظة ، للمسلم ، متأشيا بنهاية عظماء العالم من ملوك و قادة ، إذا ذكرهم هانت في نفسه مصيبتة .

و يمكن أن نقسم مرثيه إلى قسمين :

قسم يتصل بأقاربه و أهله و هو في هذا النوع صادق العاطفة دافق العبرة لأن الفقيد يمثل جزءا من كيانه النفسي ، و هذا الصنف قليل إذ وجدنا خمس قصائد ندب فيها زوجته و والده ، و ثلاثة من أصدقائه³ ، و أستاذه ابن الجياب و أربع مقطوعات في رثاء نفسه و شيخه أبي جعفر بن صفوان و أحد الفضلاء بالمغرب لم يذكر اسمه⁴ .

و قسم يتصل بمخدوميه من سلاطين بني الأحمر ، و بني مرين ، و يمكن أن نسّم هذا النوع بشعر البلاط لأنه (رسمي) دفع إليه الشاعر بحكم واجبه السياسي في دولته و الدولة الشقيقة ، و لذلك تقل فيه حرارة التفجع و يظهر فيه التأمل العقلي ، و السرد التاريخي للوقائع المؤلمة .

¹ - المصدر السابق : 443/1 .

² - انظر : القصيدة رقم 331 ، الأبيات 21..09 .

³ - انظر القصائد : (رقم 13 - 100 - 419 - 557 - 635) و المقطوعات (رقم 35 - 45 - 394) .

⁴ - انظر المقطوعات : 35 ، 45 ، 115 ، 530 .

ثالثا : الغزل :

الغزل من أعرق الأغراض الشعرية الغنائية في الشعر العربي : سواء ورد مستقلا بقصيدة أم جاء في مستهل القصائد ومقدماتها .

و للشعراء العرب فيه مذاهب ، بعضها عذري عفيف ، وبعضها حسي ماجن ، و مكانة المرأة في المجتمع الأندلسي ، ليست في حاجة إلى تفصيل و شرح في هذا المقام بعد الذي تقدم ، في التمهيد عن المرأة الغرناطية و جمالها و نظافتها ، و أناقتها ، و بعد الذي نعرفه من مكانة كثيرات من الأدبيات الشواعر ، في مجال الأدب و السياسة .

و قلما وجدنا شاعرا إنسانيا خلا شعره من نكر المرأة تماما ، و لو رمزا ، فهؤلاء مشاهير الصوفية¹ لهم سياحات عظيمة في عالم الحب و الجمال ، و لاشك أن المرأة هي المثال المختصر و الواضح و المأنوس للجمال البشري الذي يهفو الإنسان إليه ، و يأنس به ، و تسكن نفسه إليه كما عبرت ذلك القرآن العظيم حين قال : ” و من آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودة و رحمة“ (الرُّوم / 21) .

و إلف النساء فطرة في الرجال ، تميل إليه كل نفس سليمة ، كما يرى ابن قتيبة حين يقول : ”..لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل و إلف النساء فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب و ضاربا فيه بسهم حلال أو حرام“² و قبل أن ندرس المعاني الغزلية في ديوان ابن الخطيب ، نقدم الملاحظات الآتية :

- أ/ لابن الخطيب اثنتان و عشرون قصيدة غزلية أغلبها مقطوعات و نتف لا تتعدى البيتين أو الثلاثة و لو فرضنا أن كل هذه القصائد ذوات عدد فإنها تعد قليلة بالقياس إلى عدد القصائد في الديوان ، و بهذا فابن الخطيب ليس شاعرا غزليا ، فهو كما اتضح من شعره الذي درسناه أقرب إلى أن يكون شاعر سياسة ، و دين .

- ب/ و أغلب ما وجدنا من أبيات في الغزل إنما ورد في مقدمات قصائد المدح و قلما يفرد له قصيدة مستقلة .

- ج/ و إلى ذلك فشعره الغزلي أقرب إلى أن يكون عذريا ، مع ما ورد فيه من الأوصاف الحسية للمرأة و السبب في ذلك هو التربية التي تلقاها الشاعر ، إذ هي تقوم على القرآن ، و إجلال

¹ - نذكر مثلا : الصوفي الشهير ابن عربي ، و ديوانه : ”ترجمان الأشواق“ الذي نظمه في ابنة شيخه .

² - ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ، ص 15 .

أهله ، و قد رأينا احتفاءه بالفقهاء ، و العلماء ، لا سيما الأشراف منهم ، و ربما كان السبب عائداً إلى المسؤولية التي كان يتحملها في الدولة بأن يكون أول من يرفع الآداب العامة التي تعارف عليها المجتمع ، و هي لا شك آداب إسلامية تتخرج من اللهو ، و المجون¹ .

- د/ ترد في أكثر قصائد الغزل ، في تقديم الشاعر لها عبارة "وقلت باقتراحه" و هو يعني بذلك السلطان النصري و يؤخذ من هذه العبارة تتصل لسان الدين من تلك القصائد لأنه لم تدفعه رغبة صادقة في نظمها ، و لذلك يمكن أن تعد ، من الشعر السلطاني ، أعني تلك القصائد التي ينظمها لسان الدين في المظاهر السلطانية من سكين إلى سفرة طعام ، إلى غير ذلك ، و أكثر مناسباتها ما تدعوه إليه مجالس السلطان اللاهية من ترويح عن النفس بتشنيف الأذن بسماع الغزل و لذلك نجد ، أكثر من مرة ، امتزاج المعاني الغزلية ، بمعاني اللهو .. و الطرب .

- ه/ و أغلب المعاني التي تدور عليها قصيدة الغزل عند ابن الخطيب إنما هي معان تقليدية ، يكرر أكثرها مجارة للشعراء السابقين ، و إظهارا للبراعة في هذا الفن الشعري ، و لكن الأمر الملحوظ هو ورود كثير من المعاني الإسلامية في صورها و أساليبها مما يجعل الدارس - أحياناً - في حيرة من أمره : أيدرج تلك الأبيات و المعاني في زمرة فن الغزل أم يسلكها في معاني الزهد و التصوف ؟

تلك هي الملاحظات التي ينبغي أن نحضرنا و نحن نقرأ غزل ابن الخطيب الذي يمكن حصر مضمون قصائده و مقطوعاته الغزلية في الموضوعات الآتية :

وصف محاسن المرأة سواء أكانت مادية أم خلقية ، من سعة عين ، و توردد و حسن أسنان و شبه بالشمس أو بدر ، أو ظبي إلى غير ذلك من معاني الجمال الحسية ، أو الوفاء ، و البخل ، أو الخفر و غيرها من الصفات الخلقية .

كما تعرض لسان الدين إلى مفهوم الهوى فهو أحياناً معاناة و ألم ، و أحياناً أخرى متعة ، ونعيم ، هذا بالإضافة إلى إيرادها للأماكن التي تذكره بالحبيب مما درج أغلب الشعراء العرب القدامى على ترديده في أشعارهم ، ثم تطرقه إلى موضوع اللقاء و العفاف ، و أخيراً ما يمثلته الشيب من عذاب نفسي لأنه يردع الشاعر ، أو لأنه ينفر عنه الحبيب . بعد هذا الإجمال ، نفصل تلك الموضوعات فيما يلي :

1/ أوصاف المرأة :

لا نستطيع أن نعرف من المرأة التي يتغزل بها الشاعر ، لأنها امرأة عربية تتصف بجميع أوصاف الجمال أو معظمها ، فهي إذن امرأة مثالية لا وجود لها في الواقع و قد عرف الشعر العربي

¹ - انظر : ص 35 من مقدمة محقق ديوان لسان الدين .

هذه النزعة المثالية في تصوير الجمال وخاصة عند الشعراء المحدثين في العصر العباسي و فيهم
 البحرى الذى يتوق إلى "الجمال الأمثل الذى يستجليه فى حبيبته علوة التى بقى و فى لها طول
 حياته"¹ فهى تستمد جمالها من طبيعة الأندلس الفاتنة ، إذ هى فى نظر الشاعر روضة ، غرستها
 لحاظه ، و سقتها دموعه الهطالة ، أو هى ظبية و لكنها من ظباء الأوس لأنها رائقة الحلى ، و ربما
 كانت بدرا و زينتها المتلائة أبراج السماء المحيطة به ، و لكن البدر ، لا يحسن إلا إذا كان ليلة تمه ،
 و عندئذ يهتدى به السارون بينما أظلمت ليلة الشاعر ، فهى ليلة ليلاء ، أما الشمس فتأتى بدرجة أقل
 رغم روعتها ، و لكن قد يغيب عن الشاعر نهاره ، فعندئذ تظلم عليه الدنيا ، و ذلك عند غياب
 الحبيب:

و هبت لها نفسى و ملكتها لبي ²	و بي من ظباء الأوس رائقة الحلى
سارى الفلاة و ليلى ليلاء ³	يا بدر تم يهتدى بضياءه
و جنح الليالى فرعه و دلالة ⁴	هو البدر و الجوزاء قرط معسجد
رهينة حب أوتقتها حباله ⁵	تقتصت منه ظبية الأوس فانتشت
فنهاري مثل الظلام الداجى ⁶	أنت شمسى فكما غاب عني
و سكبت دمعى ديمة و سقيته ⁷	يا روضة غرست لحاظى و ردها

هذه محاسن المرأة إجمالاً كقطعة من جمال الطبيعة التى خلقها البارى على أبداع مثال ،
 و يستطرد لسان الدين بعد ذلك إلى تلك المحاسن تفصيلاً ، مقلداً من سبقه من شعراء الغزل ،
 و يخبرنا الشاعر أنه ليس أول شاعر صبا إلى حبيب أسمر ألى ، فى قده هيف كأنه الرمح ممشوقاً أو
 خوط بانة زادها الشباب نضرة ، افتكت من الشاعر ثناءه فظل يشدو بجمالها و كأنه ورقاء ساجعة
 على تلك البانة :

أهيف ماضى الهجر مرهوبه ⁸	لى به أسمر حلو اللمى
ذا قوام مهفهف و اندماج ⁹	هز من معطفيك ذابل خط

¹ - د / موهوب مصطفى : المثالية فى الشعر العربى ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1982 ، ص 661 .

² - ديوان لسان الدين : 1 / 122 .

³ - المصدر نفسه : 93/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 394/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 394/2 .

⁶ - المصدر نفسه : 195/1 .

⁷ - المصدر نفسه : 184/1 .

⁸ - المصدر نفسه : 153/1 .

⁹ - المصدر نفسه : 196/1 .

..يا بانه ورق الشباب ظلّالها و كأن قلبي بينها ورقاء¹

و من الأوصاف التي يتغنى بها لسان الدين العيون . أثناء اللحظ فنظرات المرأة تقرن عادة بالسيف يفتك بالفرسان عد اشتداد العراك ، و لكن عيون فاتتة لسان الدين أشد فتكا و تكيلا لأنها تؤثر حتى في الدروع المضاعف نسجها . و لتكسر الجفون المريضة الذابلة ، وقّع على قلب المحب تذرّه بفتورها معنيّ ، سقيم القلب ، فاقد الصبر ، و يجاري لسان الدين غيره من الشعراء في اعتنائهم بذلك التناقض الذي تتطوي عليه نظرات المرأة المنكسرة ، لأنها تخدع الغرّ ، بذبول جفونها فتبدي للناظر خفرا في نسك بشر بن الحارث و تقواه ، إلا أنها مع ذلك أشد فتكا من الحجاج بن يوسف المضروب به المثل في إيادة الخوارج :

..و شمّ السيف من لحاظك تفري كل درع مضاعف في الهياج²

..تخدع الناس بالفتور ففيها نسك بشر و فتنة الحجاج³

أعوذ بصبري من جفون مريضة لها مرض في القلب منّي لايت⁴

أما ثناياها فهي دائما مقترنة بوميض البرق في تلالئها و إشراقها أو بالجواهر اللامعة

الكريمة ، و لسان الدين هنا ، أيضا ، يجاري شعراء العربية ، و يستعير منهم هذا المعنى الغزلي :

و مبيض ثغرك أم تألق بارق.....⁵

شفتي حب جوهرى الثنايا.....⁶

و يواصل لسان الدين تغنيه بمحاسن المرأة التي يشبب بها ، و أعظم ما يبهره منها الخد ، فقد رده مرارا و هو في لونه يشبه الورد الذي يتطلع (سراق العيون) إلى قطفه ، فيمنعهم من ذلك ما أحيط به من سياج العذار ، و قد يكون جنة تستريح النفس لانتشاق عبيرها ، و اجتلاء محاسنها ، على أن وقع احمراره على قلب المحب كلفح النار المتأججة ، و بيدع لسان الدين معنى غزليا طريفا حين يقرن بين احمرار الخد ، و سواد الشعر ، بصفحة كتب عليها علامة السلطان⁷

و لما تناهى ورد خدك نضرة و أنشأ في طي القلوب هياجا

تشوق سراق العيون لقطفه فكان له شوك العذار سياجا⁸

¹ - المصدر نفسه : 93 / 1 .

² - المصدر السابق : 196/1 .

³ - المصدر نفسه : 195/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 189/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 93/1 .

⁶ - المصدر نفسه : 196/1 .

⁷ - علامة السلطان عبارة يغم بها الرسائل الرسمية : و لفظها (صح هذا) ، انظر التّحريف بليّ خلدون ، ص 891 .

⁸ - ديوان لسان الدين : 215/1 .

مجتلى أعين و شم أنوف

جنة الخلد تحت تلك السيوف¹

.....²

علامة مولانا على أحمر الطرس³

أصبح الخد منك جنة عدن

جلتْها من العيون جفون

تؤجج نار الخد نار جوانحي

كأن احمرار الخد تحت عذاره

و إذا كانت هذه المحاسن ذاتية في المرأة ، فإن لها من المحاسن المجلوبة بما تزين به نفسها من حلي ، مما يأسر لب الشاعر ، لا سيما ، ما عرفت به المرأة العربية عامة و المرأة الغرناطية خاصة من اهتمام بالتأنق في اللباس ، و ترصيع جيدها ، و أذنيها و معصمها و رجليها بالحلي ، و يستعير لسان الدين صفة الحلي ممن سبقه من الشعراء فيقرن بين وسواس حلي المرأة إذا مشت بحركة الرقباء الذين يرصدون الشاعر ، و هو معنى جاهلي ، و لكننا قد تبين لنا اتباعية لسان الدين في كثير من المعاني في الفصل الثاني :

وسواس حليك أم هم الرقباء للقلب نحو حديثهم إصغاء⁴

و يعود لسان الدين إلى أندلسيته فيأخذ من الطبيعة مادة تشبيهه للقرط و القلادة ، فإذا غاب الحبيب عنه وجد في الأنجم الزهر ما يسليه عنه ، إذ فيها شبه بما يرصع به جيده ، و ما يشنف به أذنه :

و إن غاب قرط عنده و مقلد رجعت إلى الجوزاء و الأنجم الزهر⁵

و لا يهمل الشاعر رضا بها ، حيث يشبهه على عادة الشعراء العرب القدامى بالشهد ، و هذا المعنى يرد في القصائد اللاهية التي تستدعيها مجالس الأنس :

إنما كان ريقك العذب شهدا حيث أهل الهوى ذباب مكبة⁶

و نلاحظ أن الشاعر لم يحالفه التوفيق في هذه الصورة ، لأنها لا تزيد القارئ إلا نفورا منها . تلك هي الأوصاف الحسية التي أعرب الشاعر عن إعجابه بها ، و لكنه أخذ كذلك بمزايا إنسانية لا تقل روعة عنها ، و جمالا .

¹ - المصدر السابق : 681/2 .

² - المصدر نفسه : 732/2 .

³ - المصدر نفسه : 720/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 93/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 392/1 .

⁶ - المصدر نفسه : 154/1 .

و أوضح تلك المزايا الإنسانية كون الحبيب من الأشراف ، و ربما لجأ لسان الدين إلى هذا المعنى لأنه يناهى بالحبيب عن الظنة و يقترب به من العفاف ، فالشاعر يخاطب المرأة بصاحب الشرف الأرضي ، و ابن الكرام الهاشميين و يتقرب إليها بمدح أوليائها المعرقين في الشرف و المكارم ، و امرأة ربيت في بيت هؤلاء السادة الأماجد ، حريّة أن تكون ممنوعة من أعين المحبين و مصونة من طماح هواجسهم :

أبا الشرف الأرضي تلتف بأنفس
غزاها غرام أصبحت نهب جنده¹
يا ابن الكرام الهاشميين الألى
البأس طوع بنانهم و الجود²
يا ربة البيت الممنع جـاره
و ربيّة الشرف العليّ مناره³

و من الأوصاف التي تأخذ بلب الشاعر خفر المرأة و حياؤها إذا كلمها المحب و تبدو على محياها سماته ، إذ تعتربها حاله تتورد معها ، و جناتها و تستدعي في خيال الشاعر صورة طبيعية رائعة الحسن هي امتزاج احمرار الورد ببياض السوسان :

..قلت مهلا لا تروّع إنما
.....
فاعترها من كلامي خجل
خلط الورد بسوسان الخفر⁴

و يشتكي الشاعر من صدود الحبيبة عنه ، غير مراعية ما يكابده من عذاب و لا ناظرة إلى وفائه بعهد ، و رغم إعراضها عنه فهي محببة إليه بل تزداد قربا إليه بمقدار ما تصدّ ، و هذا من لعب الهوى بمشاعر الشعراء ، و سر ذلك الإعجاب رغم الإعراض أن هذا الصنيع من المرأة فيه دليل على العفة ، و يدل على ذلك أيضا بخل الحبيبة برجع الجواب الذي كثيرا ما يردده شعراء الغزل :

راعوا فؤادي بالصدود و ما رعوا
عهدا لهم حافظته و رعيته⁵
ضنّ برجع الطرف يوم النوى
هلا رعى عهدي كما أرى⁶

و يلتفت لسان الدين إلى كلام المرأة فرسالتها حين ورودها على الشاعر تقوم مقام حديقة يتفيا ظلّالها على حر الهجر و هجير ، فأرسل دمه فجرى غديرا :

أتاني كتاب منك لا بل حديقة
تفياؤها و الهجر منك هجير
و أرسلت دمع العين حين قرأتها
فمنها أمامي روضة و غدير⁷

1 - المصدر السابق : 287/1 .

2 - المصدر نفسه : 290/1 .

3 - المصدر نفسه : 371/1 .

4 - المصدر نفسه : 394/1 .

5 - المصدر نفسه : 184/1 .

6 - المصدر نفسه : 651/2 .

7 - المصدر نفسه : 395/1 .

أما تحيتها فنسيم عليل يسكن غلة الشاعر إذا ورد عليه عاطرا :

فلولا نسيم رد رجع جوانبا فسكن من حر الأوام بروده¹

بنفسي من أهدى إلي تحية كما حملت ريح الصبا نفحة الزهر²

و تارة يتولى الطيف تأدية الرسالة عن الحبيب ، و الطيف محبب إلى نفوس الشعراء ، فيتمنى لسان الدين لو كان يستطيع أن يضيفه و يعاتب الحبيب أن كان قد أناب عنه طيفه و يود لو كان هو الزائر :

أدى إليّ الطيف عنك رسالة فقرأتها و لو استطعت قريرته

ما كان ضرك لو أقمّت مقامه فبئس شكاوي أو ناجيت³

و يعبر الشاعر عن وفائه للحبيب الذي حجبته يد النوى ، فإذا كان قد خفي عن عينيه شخصه فطيفه يخطر له فيراه في نومه ، و نكره حاضر معه :

حبيب إذا ما حجبته يد النوى فطيف له يرى و نكر له يجري⁴

و أخيرا فللحبيب حسن يفوق الجمال البشري كله إنه جمال يستمد مغزاه من الجنة التي أعدت للمتقين ، فهو يفوق الحور حسنا لأنه ملاك كريم :

لو بدا للحور يوما وجهه قلن جل الله ما هذا بشر⁵

و يسمو الشاعر بحبيبه إلى مرتبة يصبح معها صينوا للكعبة المشرفة في قداسه و ميل القلوب إليه :

يا كعبة الحسن الذي قلبي له مرمى الجمار و أضلعي أستاره⁶

2/ عذرية الحب :

و من الموضوعات اللافتة لنظر الدارس في أبيات الغزل عند ابن الخطيب تعرضه لمفهوم الحب ، و لا شك أنه يستمد نظريته فيه من ثقافته الصوفية التي مكنته من تصنيف "روضة التعريف" و من التزامه بدينه الذي هذب نفس الإنسان العربي وسما به في علاقته بالمرأة ونظرته إليها ولا يخفى أثر الإسلام في شعر الغزل العربي ولاسيما في صدر الإسلام "وسالك إلى تهذيبه هذين الطريقين : هذب النفوس التي كان يصدر عنها ، وهذب الصورة التي كان يقال فيها" ،⁷ و هو أبعد ما

¹ - المصدر نفسه : 267/1 .

² - المصدر السابق : 392/1 .

³ - المصدر نفسه : 184/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 392/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 393/1 .

⁶ - المصدر نفسه : 371/1 .

⁷ - د/شكري فيصل : تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، ط 6 ، 1982 م ، ص 269 .

يكون عن العلاقات المادية ، بل هو على النقيض من ذلك امتزاج روحين تحدث معه نشوة روحية اكما لا يخفى أثر دراسات ابن حزم في هذا المجال في شعر الغزل الأندلسي فقد فسر الحب تفسيراً روحياً ، و يشرح رأيه ذاك بقوله : ” و الذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليفة في أصل عنصرها الرفيع “¹ .

وبعد ذكره لأصناف من الحب يقول : ” فكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عِلْمِها ، و زائدة بزيادتها ، و ناقصة بنقصانها .. حاشا محبة العشق الصحيح المتمكن من النفس فهي التي لا فناء لها إلا بالموت .. و لا يعرض في هذه الأجناس ... ما يعرض في العشق فصح بذلك أنه استحسان روحاني و امتزاج نفساني “² . و يمثل لسان الدين لتلك النشوة بامتزاج الماء الزلال مع الخمر و قد سبقت كلمة في الخمر عند العارفين و المتصوفة :

لقد مزجت روجي بروحك في الهوى كما مزج الملاء الزلال مع الخمر³
و يخاطب لسان الدين المحبين ، مذكراً إياهم بسكرة الخمر ، التي يتعاطونها و يقرن بها نشوة
الحب :

ففي سكرة الصهباء ما تعلمونه فكيف إذا انضافت إلى سكرة الحب⁴
و للهوى ، عند لسان الدين سلطان مطلق ، على قلوب العاشقين يأمر فيطاع فكأنه إليه تؤتى
مناسكه كما يؤدي المسلمون مناسك الحج إلا أن كعبة الحب هو قلب الشاعر ، و زمزمه ، هي ماء
عينيه :

فؤادي مأمور و لحظك أمر و طاعة رب الأمر في الناس واجب⁵
و حجبت كعبته فما من منسك إلا أقمت شعاره و قضيت^ه
و لو انني أنصفت حج بي الهوى عيناى زمزمه و قلبي بيت^ه⁶
و قد يعود الشاعر إلى وعيه ، فيجد نفسه متهاكاً على الحبيب مترامياً على عتبته ، فيشعر أنه
أصبح يعبد إلهين ، و يشعر أنه كاد أن يشرك بالله و لا يستطيع الشاعر أن يزجر قلبه فهو لا يملك إلا
الانصياع ، و لذلك فهو يكتفي بتساؤل المتعجب الذي لا ينقضي عجبه :

¹ - ابن حزم الأندلسي : رسائل ابن حزم ، تحقيق د / إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط 1 ، 1401 هـ -
1980 م ، ج 1 ، ص 93 .

² - المرجع نفسه : ص 96 .

³ - ديوان لسان الدين : 392/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 122/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 152/1 .

⁶ - المصدر نفسه : 184/1 .

ما لقلبي من ذكر تلك المغاني ما لقلبي يهوى إلهين ماله !¹
و كما للحب نشوته ، فله عذابه و مقاساته ، فالمحب يعيش مغتربا عن واقعہ أرقا ليله ، و هو
عليل يرى كل شيء أمامه مريضا ، و أقرب مثال أمام عينيه اعتلال الأصيل الذي يشعر الشاعر أنه
يقاسمه شجوه :

لا تحلوا دم الغريب المعنى و على الله في الجزاء الحوالة²

و تائه ما اعتل الأصيل و إنما تعلم من شجوي فبان اعتلاله³

و ينفر عن عيني المنام كأنما قطا صده عن ورد مشرعه سهم⁴

و من الهوى ما يكون طبعاً و جبلة فلا يغني عنه عدل العاذلين لأن ما كان طبعاً في الإنسان
فليس بزائل منه ، و منه ما يكون ذلاً لصاحبه و هو انما إذا لج في جهالته و ضلاله ، و منه ما يكون
وهما و خيالاً خادعاً يجني على صاحبه كالسراب الخادع في الصحراء يودي بصاحبه و من الحب ما
يكون عزا و هو حب الملوك الذين يضيفون إلى سلطانهم سلطاناً ثانياً :

يلومونني في الحب قومي جهالة و ما كان طبعاً فهو ليس يزول⁵

و الهوى مركب الهوان إذا هملج في ملعب الصبا و الجهالة⁶

علاقة وهم في الخيال تحكمت و يا شد ما يجني إذا استحك الوهم⁷

ويقول لسان الدين تخميسه لأبيات المستعين⁸ :

و إذا الهوى أنحى على جبل هوى لا تعذلوا ملكاً تذلل في الهوى

ذل الهوى عز و ملك ثان

3/ موطن الحبيب :

1 - المصدر السابق 527/2 .

2 - المصدر السابق : 527/1 .

3 - المصدر نفسه : 394/1 .

4 - المصدر نفسه : 542/1 .

5 - المصدر نفسه : 481/2 .

6 - المصدر نفسه : 527/1 .

7 - المصدر نفسه : 542/1 .

8 - المصدر نفسه : 584/1 .

و يجاري لسان الدين الشعراء السابقين في ذكر أماكن الحبيب و ذلك في مقدمات قصائد المدح خاصة حيث ترحل الظعينة تاركة وراءها أطلالها التي يقف عندها الشاعر فتقفز إلى خياله الذكريات الجميلة التي تربطه بالحبيبة ، و أغلب تلك الأماكن معروفة في الشعر العربي القديم و أكثر تلك الأماكن مشرقية فمنها ربوع المالكية و "حاجر" مما يدفعنا إلى القول بأن غزل لسان الدين إنما هو مجارة لغيره من الشعراء شحذاً لقرينته و إظهاراً لبراعته أو بتعبير آخر هو غزل لا ينطوي على حب واقعي فليس له امرأة معينة يتغزل بها بل هو حب أقرب إلى أن يكون فلسفياً عقلياً منه إلى أن يكون عاطفياً وجدانياً بلّه أن يكون مادياً ماجناً . يذكر لسان الدين ربع المالكية قائلاً :¹

وقفنا بربع المالكية بعدما تقسم بين قومته و رحيل

و يصف الطلل الدارس كما يفعل الجاهليون و قد عفا رسم الدار و اندثر و لم يبق منه غير نؤي كالسوار المحيط بالمعصم و أنافي تشبه الحمام فمنها أبيض و أسود، و ذلك بعد أن كان أهلاً بالحبيب و أهله و قد غفلت عنه عين الدهر :

لمن طلل نائي المزار بعيده و عهد كريم لا يذم حميده
عفا غير نؤي كالسوار و موقد كما جثمت بيض الحمام و سوده
محل لسلمى و الزمان مساعد و جفن الليالي لا يريم هجوده²

غير أن لسان الدين يذكر الجانب الغربي و الجانب الشرقي و هو يريد بهما حاضرة غرناطة التي يتغنى بنسائها البارعات الجمال مما قد يحملنا على الظن بوجود حب واقعي : غير أن لسان الدين يدفع عن نفوسنا هذا الاحتمال إذ يفسر (الجانب الغربي) و ما يأتيه منه من نفح معطر بالجمال يفسره بأنه نسمة هبت عليه من (حاجر)³ أحد المواضع المشرقية التي يتردد ذكرها في قصائد الغزل فما الجانب الشرقي أو الغربي غير رمزين من رموز الغزل العذري لأنهما يذكران الشاعر ببادية العرب حيث الأنوثة الكاملة و العفة الصادقة و الشعر البدوي الطاهر الأبراد من أي دنس :

و بالجانب الشرقي سرب من الدمى بغير الكرى ما إن يصاد غزاله⁴
و يورد الجانب الغربي في قصيدة أخرى :

أمن جانب الغربي نفحة بارح سرت بتباريح الجوى في الجوارح
..و ما هي إلا نسمة حاجرية رمى الشوق منها كل قلب بجارج⁵

¹ - المصدر السابق : 480/1 .

² - المصدر نفسه : 267/1 .

³ - حاجر : مكان بطريق مكة : أساس البلاغة للزمخشري دار صادر بيروت ط 1992 م .

⁴ - ديوان لسان الدين : 394/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 230/1 .

و لا يخفى ما في هذه العبارة من دلالة رمزية قرآنية فهي ناظرة إلى الموضع الذي كلم الله فيه
كليمه موسى عليه السلام بالوادي المقدس الذي تكرر وروده في شعر لسان الدين في غير هذا الغرض
و في هذا الرمز ما يدل على عذرية لسان الدين بل صوفيته في غزله و ابتعاده عن أن يكون علاقة
خل بخليل .

4 / اللقاء العفيف :

و لا تكتمل اللوحة الغزلية التي رسمها لسان الدين إلا بحديثه عن لقاء حبيبه . و أغلب صور
اللقاء بالحبيب عند لسان الدين عفيفة نقية و إذا كان هجر الحبيب نارا يتلظى في سعيها المحب ، فإن
لقاءه و القرب منه جنة الرضوان بحيث لا نصب و لا عذاب :

قد كنت في نار البعاد معذباً فدخلت منها جنة الرضوان¹

و إذا كانت ملذات النفس درجات ، فإن رضا الحبيب و لقياه أقصى ما تحققه نفس المحب من
متع ، و حتى اللقاء ذاته درجات فما كان بعد نزوح من دون قطيعة ، ليس كما يكون بعد الهجران :

و ما عرفت نفسي أذً من اللقا و أندی على الأكباد من ساعة القرب

و أحلى من العتبي و أشهى من الرضى إذا جاء من بعد القطيعة و العتب²

و إذا حدث بعض المحبين أنفسهم بالسوء ، إذا ظفروا من أحببهم ، بوصل فإن نفس الشاعر لا
تسمح له بأن يذهب بخواطره بعيدا عن العفاف فليس لنفسه عليه قهر ، و لكنها تخضع لسلطان العفاف :

فبايعت سلطان العفاف و لم أجز على فكرتي إلا الوفاء بعهده³

و لابن الخطيب صور غزلية بديعة كأن يشبه نفسه ، عند لقاء أهل وده بالمؤمن المذكور في
القرآن الكريم⁴ من أصحاب القرية ، حين بعثه الله ، و أدخله جنته ، فتمنى أن لو كان قومه يعلمون
بما غفر له ربه ، و ما أكرم نزله في الجنان و تلك نزعة قرآنية يتردد صداها في شعره أغلبه ، مثلما
اتضح ذلك في فصل سابق ، يقول لسان الدين في ذلك :

فيا ليت قومي يعلمون بأنني ظفرت على يأسى بجنة خلده⁵

و يذكر الشاعر أيام الحمى أين كان الوصل نغبة خائف ، و نظرة اختلسها المحب ، لم ترتو
نفسه من لقا الحبيب فيها ، و لا اكتحلت عينا بمحاسنه فيترك ذلك اللقاء الخاطف في النفس حسرة
و كمدًا ، تجعل الشاعر يدعو لتلك الأيام :

1 - المصدر السابق : 587/1 .

2 - المصدر نفسه : 123/1 .

3 - المصدر نفسه : 286/1 .

4 - قوله تعالى في سورة يس : "قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي و جعلني من المكرمين" ، الآيتان : 27 و 26 .

5 - ديوان لسان الدين : 286/1 .

رعى الله أيام الحمى دار صبوتي و مربع ألقى و معهد أيناسي
فما كان فيه الوصل إلا علالة كنغبة مرتاع و نهبة خلاس¹

و قد ترد في غزليات ابن الخطيب صور لاهية معرودة ، للقاء ، و ما نظن إلا أنها من أثر
تقليده لأرباب هذا الفن و أعمدته ، من أمثال امرئ القيس ، حيث يعرض لنا الشاعر ما يدور بين
الحبيبين من حديث ، و بعد كلام و مدام يسلم كل منهما نفسه للآخر ، و هذا النوع من الصور قليل
جدا في شعر لسان الدين :²

و بعد عرضنا لأسس غزليات لسان الدين يتحصل لدينا أنه لم يكن شاعر امرأة و غزل ،
يتهالك على اللذات الطائشة و المعرودة ، فأين هو في هذا الميدان من الشاعر الأندلسي الذي "مال ..
بكل ارتياح إلى اللهو و المجون بلا حساب لإرضاء طبيعته (الأبيقورية) ، و لم يحرم على نفسه كل
ما أهدتها الحياة من لذة" ،³ و نعني به ابن خفاجة .

فما ورد من معاني غزلية في شعره إنما يحاكي فيها غيره من الشعراء متبعا طريقتهم القديمة
في استهلال قصائدهم بالوقوف على الأطلال و البكاء على آثار الحبيبة .

و قد تتحول المرأة لديه إلى رمز ديني خالص ، يعبر من خلاله عن ألمه من عالمه السياسي
و الاجتماعي المحيط به ، و شوقه إلى حياة جديدة يخلو فيها إلى نفسه ليظهرها من درن المعاصي ،
حتى إن بعض المعاني الغزلية هو أقرب ما يكون إلى خطرات الزهاد منها إلى عبارات الشعراء⁴ .
هذا بالإضافة إلى قلة القصائد الغزلية قياسا إلى حجم الديوان ، و أغلب ما ورد في هذا
الغرض إنما هو أبيات قليلة العدد .

1 - المصدر السابق : 732/2 .

2 - انظر آخر قصيدة : 126 مثلا .

3 - د/ حمدان حجاجي : حياة و آثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة : الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر ، ط2 ، 1982 ، ص 187 .

4 - انظر القصيدة 185 : البيتين 20 - 21 .

رابعاً : الوصف :

من الأغراض التقليدية التي توسع فيها الأندلسيون ، فن الوصف ، و المثل المضروب بين شعرائهم فيه هو أبو خفاجة الملقب (بالجنان)¹ و لا خفاء بأن أساتذة هذا اللون الشعري هم المشاركة و رائدهم في ذلك هو الصنوبري ، و لذلك تعد فضيلة الأندلسيين في هذا الباب ، التوسع ، و التفنن و التنوع ، أما المبادئ و الخطوط العريضة فقد رسمها شعراء المشرق ، فلا ننتظر جديداً من لسان الدين في هذا الضرب من الشعر . و يرى بعض الباحثين في الأدب الأندلسي أن فنون الشعر كانت "تنضج في الأندلس بعد أن تكون قد بلغت أوجها في المشرق ، ففي القرن الرابع الذي بلغ فيه وصف الطبيعة ذروته في حلب ، و أصبحت مدارس الروضيات و الزهريات و الثلجيات و المائيات في أوج إبداعها كانت هذه المحاولات لا تزال تحبو في محاولات فردية على ألسنة شعراء الأندلس"² .

و يأتي الوصف في ديوان الشاعر ، على ثلاثة أضرب :

ضرب يرد مستقلاً بقصيدة كاملة ، و ضرب آخر عبارة عن نتف و مقطوعات ، و ثالث : يندمج في الأغراض الأخرى : كالممدح ، و الغزل ، و اللهو ، و لكنه حاضر في أغلب الحالات و طبيعي أن الشاعر ينوع في هذه الأشكال ، و يرمي من كل واحد إلى غرض معين :

ففي الممدح : يأتي بصور وصفية للمبالغة ، و التنوع في معاني الممدح .

و في اللهو : يأتي وصف المشاهد الطبيعية طلباً لمزيد من اللذة .

و في الغزل : يندمج وصف الصور الطبيعية بمشاعر الحب ، للتناسب الموجود بين جمال المرأة و جمال الطبيعة .

و لكي يتسنى لنا دراسة صور الوصف عند ابن الخطيب يستحسن أن نصنفها إلى نوعين :

وصف الطبيعة الجامدة ، من مناظر طبيعية ومباني و مدن و غير ذلك و وصف الطبيعة الحية : كوصف الحيوانات .

1 - وصف الطبيعة الجامدة :

يعد هذا النوع من الوصف أرحب مجالاً من سابقه ، و لعل تفسير ذلك يكمن في طبيعة

الأندلس ذاتها ، و مدينة غرناطة خصوصاً التي سبق وصفها في التمهيد و التي فتنت الشعراء ،

¹ - حمدان حجاجي : حياة و آثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة ، ص 225 .

² - مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي : موضوعاته و فنونه ، دار العلم للملايين بيروت لبنان الطبعة السادسة ، 1982 ، ص 249 .

والرحالة ، و لذلك من الطبيعي ألا يغمض الشاعر عينيه عن ذلك الجمال الأخاذ و هو يحيط به من كل مكان .

أ/ المناظر الطبيعية :

* الرياض :

أخذ لسان الدين برياض غرناطة ، فعرضها علينا في أبداع صورة معتمدا على الصور التشبيهية ، ملتفتا إلى كل جزء من الروض ، فيبدو الروض أمام ناظره ، كأنه شخص قد صنف عذاريه ، من اخضرار النبات فيه ، و تبدو الحمام على الأغصان كأنها تكتسي ديباجا من أوراقها ، و يتخيل الشاعر الغصن متأودا ، عند الصباح و المساء ، ثملاً يترنح في مشيته ، ثم يشعر بارتياح فيطرب ، فتنتثر الأوراق ، فتزيده زهوا و جمالا ، و تتراءى أشجار الدوح من نضرة أغصانها كأن الغيث صابها بانهمار ، و يجلل الندى الشقائق ، فتبدو صفحة خده كأنها ترشح عرقا ، و يهم الأقحوان بتقبلها فيغار منه البنفسج ، و يرتفع الأس مشبها أذان الجياد عند الانتباه إلى خطر محقق و يبدو النهر في صفائه كالأفق في إشراقه أما الورود التي تحيط بالنهر فكأنما الشفق في ذلك الأفق ، و هكذا بث الشاعر في هذه اللوحة الحياة و ملاءها حركة و حيورا تتناسب مع نفسيته المرتاحة و المبتهجة بعيد الأضحى الذي هنا الممدوح بمناسبته :

و الروض يجلو عذاريه و قد لبست	عقائل الورق ديباجا من الورق
كأنما الغصن فيه شارب ثمّل	بكأس مصطبح في الأوس مغتبق
فكلما ارتاح هز العطف من طرب	و زاد زهوا بمنثور من الورق
كأنما الدوح و الأغصان جاثية	قد جادها كل جهم الغيث مندفق
كأنما الطل إذ ظلّ الشقيق به	خد بصفحته رشح من العرق
همت ثغور الأقاحي أن تقبله	فللبنفسج وجه الواجم الحنيق
..كأنما الأس أذان الجياد و قد	شعرن بالروع في قفر من الطرق
كأنما النهر في أثائه أفق	و الورد في الشط منه حمرة الشفق ¹

و ينظر الشاعر إلى جنة ورد تدعى "جنة الزاوية" فيؤخذ بجمالها و سحر و رودها فلا يجد مشبها بها غير الجنة التي وعد الله بها المؤمنين ، فإذا وجدت في الأرض جنة ، فلا شك عنده أنها تلك التي فتن بها ، يقول لسان الدين :²

¹ - ديوان لسان الدين : 690/2 - 691 .

² - المصدر نفسه : 781/2 .

إن كانت الجنة موجودة في الأرض قلنا جنة الزاوية

غير أنه ما كل ما تقع عليه عين الشاعر في الأندلس ، فهو ساحر الجمال ، بل هناك بقاع لا ترتاح إليها النفس ، بل ربما تنفر منها لمظهرها القبيح ، فقد مر الشاعر ببقعة شديدة البرد حتى كأن الشمس تحذر أن تشرق بها ، فقد تجمدت عيون الماء فيها فصارت تشبه عين الإنسان الأعمش :

يا بقعة بالجمد معروفة تحذرها الشمس فلا تشرق
ترى عيون الماء عمشا بها و أعين النيران لا تتطق¹

وفي مثل هذا الوصف تظهر نزعة لسان الدين الساخرة التي سنقف عندها أثناء دراستنا لشعر التهكم و المداعبة عنده .

* الأنهار و الأودية :

ترد الأنهار في شعر ابن الخطيب جزءا من صورة شعرية في قصائد الغزل أو اللهو ، كما تأتي موضوعا مستقلا بذاته ، و يعتبر (الوادي الكبير) من أهم المناظر الطبيعية التي لفت انتباه الشاعر ، و فتت الغرناطين ، فضلوه على أنهار الدنيا ، و قد خصه ابن الخطيب بقطعة صغيرة يصور فيها مشهد الوادي عند الأصيل ، و قد بدأت الشمس تميل إلى الغروب ، كزئبق ألقته عليه الشمس أشعتها فأصبح المشهد مزيجا من البياض و الاصفرار الذي يبهر الأعين و يسحر القلوب :

انظر إليه و الأصيل مؤرس و الشمس ترسل من عنان عسيها
فكأنما هو زئبق مترجرج ألقته عليه الشمس من إكسيرا²

و لا يخفى إبداع الشاعر في رسم هذا المشهد ، الذي مزج فيه بين لون الورس ، و ضوء الشمس ، و بياض الزئبق ، و اصفرار الأصيل .

و له قطعة أخرى في وصف نهر و لعله أحد أنهار غرناطة التي ترفد الوادي الكبير و في هذه المرة يشبه النهر بثعبان متسلل من جحره ، فاهتزت الأغصان من هذه الحركة ، و غردت الأطيوار على أغصانها ، كأنها ارتاعت من مرور هذا الثعبان :

ثعبان نهر راعنا قده لما أتى ينساب من جحره
فاهتزت الأغصان من فوقه و صاحت الأطيوار في إثره³

* الجبال: (جبل شلير) :

و يعد جبل شلير (جبل الثلج) الذي تجلله الثلوج صيفا وشتاء ، منظرا شامخا يعطي لمدينة غرناطة تميزها من بين مدن الأندلس ، و طبيعي أن يهتم الشاعر بوصفه غير أن الشاعر عاتب عليه

¹ - ديوان لسان الدين : 791/2 .

² - المصدر نفسه : 407/1 .

³ - المصدر نفسه : 438/1 .

لأنه جار على هذه المدينة و غطى عليها الأفق و هو في برودته كشيخٍ فان تَدَثَّرَ بالبرنس الأبيض ،
و واضح أن تشبيه الشاعر ناظر إلى تشبيه امرئ القيس لبعض جبال نجد بشيخ مزمل في بجاد .

شكَّيرَ لعمرى أساء الجوار و سد عليَّ رحبَ الفضا
هو الشيخ أبرد شيء يرى إذا لبس البرنس الأبيضاً¹

* جبل زرهون :

ويأتي جبل زرهون ضمن وصف الشاعر لمدينة مكناسة بالمغرب ، و يضيف عليه لسان الدين
وصفا تشخيصيا بديعا ، فحين ضحكت البروق في أعاليه بكت في أسافله عيونه العذاب ، و في سفوح
هذا الجبل الخصب ، أشجار التين و الزيتون فيحلو للسان الدين أن يقارن بينه و بين رجل بربري
قوي البنية رفيع القامة حريص على لوحه الذي أثبت فيه آيات من القرآن الكريم ، فهو ملتزم له لا
يفارقه² ، يقول لسان الدين في وصف ذلك الجبل³ :

جبل تضاحكت البروق بجوه فبكت عذاب عيونه بعيون
و كأنما هو بربري وافد في لوحه " و التين و الزيتون"
* الأشجار :

يأتي هذا المنظر الطبيعي في ثنايا القصائد المختلفة الأغراض ، و أكثر ما يذكره لسان الدين ،
في صورته الشعرية ، شجر الدوح ، غير أنه خص شجر الجوز الذي أعجب باخضرار أوراقه
و بسوق قامته ، و استقامة أغصانه ، و يوحى إليه منظره الجميل بعيون الغانيات ، و عروقه
بتغورهن و قد مرّ بنا من قبل هذا النوع من الوصف التشخيصي الوجداني الذي يملأ الشاعر فيه
المشاهد ، حياة و حركة ، و يضيف عليها صفات الإنسان و أفعاله :

انظُرْ إلى يَنعِي و حسن بُسوقي يهفو النسيم بقَدِّي الممشوق
يجلو اللواحِظَ منظرِي حسناً كما يجلو ثغورَ الغانياتِ عروقي⁴
ب/ السظواهر الطبيعية :

أكثر الظواهر الطبيعية حضورا في شعر ابن الخطيب ، هو الليل ، و لعل سر اهتمامه به داء
الأرق الذي أصيب به الشاعر ، حتى أصبح يعرف "بذي العمرين" لأنه لا ينام نهارا و ليلا ،
و أغلب الحالات التي تستدعي انتباهه هي هجوم الصباح على الليل ، وهو يعرض هذا المشهد في

¹ - المصدر السابق : 643/2 .

² - انظر الهامش رقم 129 : ج2 ، ص 597 من الديوان .

³ - ديوان لسان الدين : 597/2 .

⁴ - انظر وصفه لرمانة ، القصيدة رقم 696 من الديوان .

⁴ - المصدر نفسه : 713/2 .

صور شتى ، فتارة يكون الليل ظالما اختلس من الصبح ضيائه حتى إذا طلع النهار استعاد منه ظلامته
و يشبه لسان الدين ذلك بعبد أسود سرق عمامة بيضاء ثم أخذت منه :

تلوى ظلام الليل بالصبح ظالما إلى أن تبدى الصبح و انقشع الحلك
كما سرق العبد العبوس عمامة فأخرجها من تحته حاكم الفلك¹

و في بعض الصور ، يجعل الليل ثعبانا أسود ، مخوف الجانب ، حتى إذا سطا عليه الصباح
صار كأنه ثعبان رفع ضره عن العباد لما طغى و تجبر :

ساورت أسود من ظلام دجى من نابه فإلى الهموم دفع

أنا لا أقول سطا الصباح به لكن "طغى ثعبانه فرفع" (*)²

أو يجعله شيئا اشتعل رأسه شيئا ، بعد سواد لمته فيجد فيه العزاء عن شبابه الذي أبلاه الزمان
فخطط المشيب مفرقه :

كنت آسى على زمان تقضى أخلق الدهر منه ثوبا قشيبا

فتأسيت حين أبصرت فودا لليل قد عمه الصباح مشيبا³

* الصبح :

ورد وصف الصبح في قصيدة صبحوية : لاهية فيها كثير من الابتهاج بحلول الصبح ، بعد أن
ترجع الغيب و تراءت النجوم في صفحة السماء ، بعضها ياد للعيان ، و بعضها اختفى عن الأنظار
فأصبحت السماء كالغادة التي ترفل في حليها و بعد طلوع النهار بدأت تخلع حليها شيئا فشيئا و بدا
شجر الدوح في تأود أغصانه كالمسلم في صلاته ، و استيقظت الطيور مؤذنة لصلاة الصبح ، فالحمام
يتلو آيات الذكر و البلابل تخطب و هي صورة بديعة اعتمد فيها لسان الدين على ثقافته العلمية ،
و الدينية على عاداته ، في أكثر شعره ، يقول لسان الدين و الضمير في الكلمة الأولى للخمر⁴ :

زارت و قد صرف العنان الغيب و الصبح ينشر منه بند مذهب

و الزهر في نهر الجرة بعضها يطفو بصفتها، و بعض يرسب

و كأنما الفلك المكوكب غادة زقت و حل لها الحلي المغرب

و الدوح صلى بالتحيات التي ألقى بسمعه النسيم الطيب

و الطير قد نفض الجناح مؤذنا و الورق تتلو ، و البلابل تخطب

* السماء :

¹ - المصدر السابق : 2 / 475

² - المصدر نفسه : 663/2 . * - هذا الشطر تورية يمثل أندلسي عامي "إذا طغى الثعبان يرفع" هامش 92 ، ج 2 ، ص 663 من الديوان .

³ - المصدر نفسه : 1 / 151

⁴ - المصدر نفسه 1 / 109 .

يرد وصف السماء في قصائد مختلفة الأغراض ، كما مر في القطعة السابقة و قد يرد مستقلاً في أبيات قليلة ، و يعتمد ابن الخطيب في ذلك على التورية بألفاظ الشطرنج والفلك فقد تجلت صفحة السماء كسفرة مترامية الأطراف حولها قطبان ، و يبدو نجم الزهرة كالمملكة ، (الفرزان) والبدر (كالشاه) والنجوم (بيادق) :

تتعاور القطبان منها رقعة وكلاهما فيها لعوب حاذق
الزهرة الزهراء فرزان بها والبدر شاه والنجوم بيادق¹
* الغيم :

ورد هذا المظهر كذلك في قصيدة صبوحية حيث تترى السحب كأنها رفاق متمهلون في سيرهم ، مهتدية في سيرها بحداة الرعد الذين ضلوا السبيل ، فاهتدوا بلامع البرق ، و قد أتت الأمطر من كل صَوْب فجات الروض الذي صار كعبة يحج إليها السَّفر من كل مكان ، و كأن زهر السوسن قائم لصلاة الاستسقاء و قد قلبت رداءه ، ربح النعامي و قامت الحمائم البيض باكية على النرجس العليل و رق له الغيم فنفت من سحبه عليه ورقته ربح الصبا ، و هذه الصورة كسابقها في امتلائها بالحياة و الحركة ، و نلاحظ أن لسان الدِّين لا يستغني عن الرياض ، و ما فيها من أزهار و ورود ، في وصف الظواهر الطبيعية ، لولوعه بها من جهة ، و لأن انصباب الغيم يستدعي صورة الرياض الزاهية الألوان مزناحية أخرى ، يقول لسان الدين² :

وقد قاد يوم الغيم سحبا كأنها رفاق أتت تمشي الهوينى على رفق
كأن حداة الرعد ضلت طريقها فهزت لكيما تهتدي مشعل البرق
وكعبة روض زارها الروض والتقت بميقاتها جوابة الغرب والشرق
وقد قلب السوسان فيها رداءه كأن النعامي أبرزته ليستسقي
كأن عليل النرجس اهتاج داؤه و قد قعدت تكيه ساجعة الورق
و قد أشفق الغيم الظليل لما به فتفتت فيه سحبه و الصبا ترقى ...
ج/ المدن³ :

تعددت رحلات ابن الخطيب فزار أغلب مدن الأندلس ، و لا سيما الحواضر الكبرى منها ، و لا ريب أن مدينة غرناطة ، التي نشأ في أفيائها ، و عرف أيام البذخ في قصورها هي أول هذه الحواضر التي نظم فيها شعره :

¹ - المصدر السابق : 713/2 .

² - المصدر نفسه : 694/2 .

³ - انظر وصف أكثر مدن الأندلس و المغرب في معيار الاختيار ، لابن الخطيب ، تحقيق د/محمد كمال شبانة من ص 82 ، إلى ص 183 .

1 - غرناطة : لسنا في حاجة إلى تعداد محاسن هذه العاصمة النصرية فقد أصبح ذلك شهيرا لدى كل من له صلة بالتراث الأندلسي ، و من ليست له صلة وثيقة ، و لكن علينا أن نعرف كيف تبدو هذه المدينة في نظر شاعرها الوزير .

و قد أحب لسان الدين هذه المدينة حبا جما ، حتى إنه لم يخرج منها إلى المغرب إلا مضطرا و إذا سألنا عن علة هذا الحب ، فإن الشاعر يجيبنا بأن غرناطة موطنه و واجب على كل امرئ أن يمجّد وطنه و يجله ، و أن يستنفد طاقته و وقته في جلاء محاسنه الغر ، و سبب آخر لحب الشاعر لمدينته كونها مثوى أهله ، و أصدقائه ففي ترابها من ثكلهم ، و على أرضها من مد الله في أجلهم :

أحبك يا مغنى الجلال بواجب و أقطع في أوصافك الغر أوقاتي
تقسّم منك الترب قومي و جيرتي ففي الظهر أحيائي ، و في البطن أمواتي¹

و يترنم لسان الدين بتلك المحاسن في قطعة أخرى و كأنها محاسن غادة حسناء ، فهذه المدينة وجة جميل ، و الرياض التي تحف به عذار فوق ذلك الوجه ، أما واديهما فهو معصم ، و قد استدارت به من الجسور أسورة :

بلد تحفّ به الرياض كأنه وجة جميل و الرياض عذاره

و كأنما واديه معصم غادة و من الجسور المحكمات سواره²

و مر الشاعر يوما ، مع أستاذه "أبي البركات بن الحاج" ببعض مسالك غرناطة فأنشد الأستاذ من شعره :

غرناطة ما مثلها حضرة الماء و البهجة الخضرة³

غير أن التلميذ اهتدى إلى معنى ديني طريف حين أجاز بيت شيخه ، فغرناطة عنده جنة ،

يلقى سكانها نضرة النعيم ، كما ورد في القرآن الكريم وكان بيت لسان الدين قوله :⁴

سكانها قد أسكنوا جنة فهم "يُلَقَوْنَ بها نضرة"

و قد أدار لسان الدين حوارا طريفا بين حاضرة بني الأحمر ، و مدينة مالقة حين زيارة السلطان أبي الحجاج لها ، فقد عاتب العاصمة غريمها بإمساك يوسف عنها فهي حزينة عليه حزن يعقوب على ابنه و لا يخفى ما في هذا الحوار من إشارة إلى القصة القرآنية :

تقول غرناطة يوما "لمالقة" لما استراحت لوعد منك مرقوب :

أمسكت "يوسف" عني فعل ظالمة فهل لي اليوم إلا حزن يعقوب¹

¹ - ديوان لسان الدين : 186/1 .

² - المصدر نفسه : 425/1 .

³ - المصدر نفسه : 435/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 435/1 .

2 - مكناسة : 2

و مكناسة من المدن المغربية التي زارها الشاعر في رحلاته المتعددة إلى مملكة بني مريس و قد حلاها الشاعر بأبداع الحلي ، فحسنها فتنة للمناظرين ، لطيب هوائها و عذوبة مائها و وفرة غلاتها و انسكاب الغمام الهتون عليها ، فتزهو فيها ألوان الورود و تبتسم ثغور الزهور ، و حسبها شاهدا على ذلك قريبا من جبل "زرهون" الذي تعرضنا لوصفه من قبل و لهذا استحققت هذه المدينة أن يحييها لكونها أرض الخصب و الأمان :

قد صحّ عذر الناظر المفتون	بالحسن من مكناسة الزيتون
يجري بها و سلامة المخزون	فضل الهواء و صحة الماء الذي
للمزن هامية الغمام هتون	سحت عليها كل عين ثيرة
و افتت ثغر الزهر بين غصون	فاحمرّ خد الورد بين أباطح
قصب السباق القرب من زرهون	و لقد كفاها شاهدا مهما ادعت
مثنى أمان أو مناخ أمون ³	... حبيبت من بلد خصيب أرضه

3 - بليونش :

و هي مدينة صغيرة ، زارها لسان الدين في المغرب ، و وصفها بما وصف به مكناسة من قبل إلا أنه يضيف عليها أوصاف العارفين الأولياء بما خصهم الله من الكرامات ، فهذه البلدة قد أشبهت مدن المغرب في صحة الهواء و اعتلال الماء و جمال مفاظرها البيضاء التي تشبه الكواكب غير أنها بفضلها يكون ريح الشمال تهب عليها ماشية على الماء :

كواكب أشرفت في جنح ظلماء	الله بليونش تحكي منازلها
إلا النسيم و لا يرتاع من داء	صحّ الهواء فما يعتل من أحد
رامت زيارتها تمشي على الماء ⁴	و من كرامتها أن الشمال إذا

4 - تلمسان :

هذه المدينة من عرائس مدن المغرب الإسلامي طمع فيها ملوك بني مدين مرات ثم أفلتت من أيديهم و عادت إلى الزيانيين فهي مَطْمَعَة للملوك كما وصفها لسان الدين في معيار الاختيار⁵ و هي عند الشاعر مدينة حبلى بالنفائس و الدرر عميمة الفضل كثيرة الخيرات و هي بلدة انقذت فيها نيران

¹ - المصدر السابق : 1/145 .

² - مكناسة أو مكناس ، انظر وصفها في معيار الاختيار لابن الخطيب ، ص 165 .

³ - ديوان لسان الدين : 2/597 .

⁴ - المصدر نفسه : 1/702 ، و انظر وصفه لهذه المدينة في القصيدة : 224 .

⁵ - ابن الخطيب معيار الاختيار : تحقيق د/ محمد كمال شبانة ، ص 184 .

الهدى و يفوح من بسايتها العرف الطيب ، أما عينها المعروفة بحبيبة أم يحيى فتفضل الغواني الحوراوات ، و نلاحظ هنا ما أشرنا إليه من قبل من اعتماد لسان الدين على المعاني الإسلامية في الوصف و عدم وقوفه عند الوصف الحسي الظاهري :

حبي تلمسان الحيا فربوعها	صدف وجود بدره المكنون
ما شئت من فضل عميم إن سقى	أروى و من ليس بالمنون
أو شئت من دين إذا قدح الهدى	أروى و دنيا لم تكن بالدون
ورد النسيم لها ينشر حديقة	قد أزهرت أفنانها بفنون
و إذا "حبيبة أم يحيى" أنجبت	فلها الشفوف على عيون العين ¹

5 - المنكب :

هذه المدينة مرفأ أندلسي ، لم تعجب لسان الدين ، لارتفاع عقابها و وعورة مسالكها ، فمن أقدم على السير فيها ، فكأنه اقتحم العقبة الكأداء أما من نجا من السقوط في هاويتها فليشكر الله بعثق رقية ، و هنا أيضا نلاحظ هذا المنحى القرآني ، الواضح من هذا الوصف ، يقول لسان الدين :²

عقبات منكب ناكبة	من أقدم فاقتم العقبة
و تخلص من درك للهوى	فليُنقك عن سُكر رقية

و يصف عقاب هذه المدينة المعروفة ، "بعقاب الشعير" متبرما من وعورتها فقد كادت عير الشاعر أن تهوي فيها ، كما يهوي المجرمون في قعر جهنم ، و طرقها بين تحديب و تقعر ، كغارب الناقة و عنقا و يوظف الشاعر الأسلوب البديعي فيرى أن الشين في اسمها قلبت عن السين كما يقرأ الألفج السين شينا :

"عقب الشعير" لقد هوت بك عيري	كالمجرمين هووا لقر سعير
بيننا نرى من فوق ظهر محدد	صارت من الأشكال في تقعر
من كل واجبة كغارب ناقه	أو كل عوجاء كعنق بعير
ما الشين في اسمك غير نقطة ألتغ	بدل السعير أتى بلفظ شعير ³

د - المباني :

يرد وصف المباني في شعر لسان الدين بشكل لافت للانتباه من حيث وفرة أبياته ، و لعل ذلك عائد إلى إعجابه بروعة الآثار العمرانية ، التي أنشأها الملوك النصريون ، و لما تمثله بالنسبة إليه من قيمة تاريخية عظيمة باعتباره من مؤرخي المغرب و الأندلس المعدودين ، أو لأن تلك المباني جزء

¹ - المصدر السابق : 603/1 .

² - ديوان لسان الدين : 1/ 155 ، و انظر وصف هذه المدينة في معيار الاختيار لابن الخطيب ، ص 94 .

³ - ديوان لسان الدين : 406/1 .

من مظاهر الحضارة الإسلامية في عصره ، و لأنها تعتبر من ناحية أخرى رمزا لسيادة الدولة النصرية التي تحاذي مملكتين تتاصبانها العداء و تقاسمانها ويلات الحرب ، و لذلك تظهر النزعة السياسية ، جلية في هذا الوصف ، جريا على أسلوب الشاعر في عدم الفصل بين السياسة و الشعر .
و قد تناول لسان الدين في هذا الفن الشعري القصور و القباب و الحصون و طيقان الماء ، و النواير ، كما وصف منازل البدو كبيوت الشعر .

* القصور :

وصف لسان الدين ، القصور ، أو بعض أجزائها ، و من تلك القصور : "عين الدمع" بضاحية غرناطة ، و هو تابع للشاعر الوزير و يزهو لسان الدين مفتخرا بهذا البناء الفخم ، و يرى نفسه إنسان عين هذا القصر ، و يتمنى أن يدوم مقاما لحياته الباذخة ، و هو قصر أليق بالكبراء لسموكة و عظمته ، فالثريا تتمنى أن تكون موضعا لنعله ، و تلهج بمدحه الشعري ، و تحرسه الكواكب :

إذا كان عين الدمع عينا حقيقة
فإنسانها ما نحن فيه و لا دعوى
فدام لخير الأئس و اللهو ملعبا
و لا زال مثواه المنعم لي مثوى
تود الثريا أن تكون له ثرى
و تمدحه الشعري و تحرسه العوا¹

* القباب :

- قبة العرض بقصر الحمراء :

الحمراء أشهر الآثار الإسلامية بغرناطة ، و هي دار الملك لبني نصر ، و قبلة الزائرين ، و قبة العرض مكان مخصص لعرض الجنود ، نظم لسان الدين في وصفها أبياتا ، أمره بذلك السلطان أبو الحجاج و كتبت الأبيات على تلك القبة ، التي تفوق غيرها من المباني ، و الجنود يعرضون من تحت أقدامها كأنهم سطور كتب ، و أمامها ساحة يجلس فيها السلطان للنظر في أمر من يأتونه سائلين أو مستجدين ، أو تائبين من ذنب ، فكأنها بذلك كعبة يؤمها الناس من كل صوب مع أنها عادة حسناء غنيت بحسنها عن الزينة لأن أجمل النساء من كان جمالها طبيعيا لا تكلف فيه ، و يزيد من عظمة هذه القبة أنها وقفت من القصر العظيم موقع الحاجب من الملك :

أ أبصرت مني في المصانع قبة
تأنق في السعد من كل جانب
فنتلى سطور الكتب فوقى دائما
وتعرض من تحتي سطور الكتائب
وفي ساحتي مسعى لطالب رحمة
ومأمن مرتاع وموقف تائب
فقل في أني للمؤمل كعبة
وإن كنت قد أبرزت في زي كاعب

¹ - ديوان لسان الدين : 761/2 .

أنا الغادة الحسناء يغني جمالها عن الدر من فوق الطلى والترائب
وما الحسن إلا أن يكون طبيعة بلا جهد محتال ولا كسب كاسب
ومن آيتي أي على حال عزتي قعدت بباب الملك مقعد حاجب¹

واضح ما ترمي له هذه الأبيات من بعد سياسي ، فلم يلتفت لسان الدين إلى حسن هذه القبة من الناحية العمرانية ، إلا قليلا ، وإنما توجه همه ، إلى إبراز جوانب عظمة المملكة النصرية من خلال أجزاء قصر الحمراء ، ولذلك يمكن أن نطلق على هذا الوصف ” الوصف السياسي “ .

- قبة قصر عين الدمع :

و هي قبة لا نظير لها في تاريخ العمران قد اكتسب من الرياح حلا خضراء ، و اتخذت من البهو تاجا ، و من صهريج الماء مرآة ، إنها عروس مجلوة . و مع ذلك ، و هنا المفارقة ، فهي خادمة شقراء من بنات الروم ، قامت أمام مولاتها دار الملك النصري (الحمراء) ، فهي مهما شمخت تظل ، في محلها من تبعيتها لحمراء الملك ، و هنا يمزج الشاعر بين التشخيص ، و الوصف السياسي و الطبيعة الأندلسية :

ماريء مثلي في الماضي و لا الآتي فريدة جمعت ما بين أشتات
أنا العروس من الرياح لي حلل و البهو تاجي و الصهريج مرآتي
قد قمت من خلف دار الشعر خادمة فكنه حالي أي يا أختياتي
خديمة من بنات الروم واقفة رفعت من فوق راسي بنت مولاتي²

* طيقان الماء :³

استرعى انتباه الشاعر ، هذا الشكل من الأبنية الجميلة التي تزين القصور ، فوصف عددا معتبرا منها ، و قد أوحى إليه ، بمظهر العروس ، متوجة بالجواهر ، قد جلست على كرسيها ، و جعل ما تساقط عليها من مياه الأمطار ، موردا عذبا يطفئ غلة الظامئين ، و في التفاتة بارعة يشبه هذه الطاق ، بقوس قزح الزاهي الألوان ، تأخذ ألوانها من نور الشمس التي هي عند الشاعر المولى أبو الحجاج :

رقت أنامل صانعي ديباجي من بعد ما انتظمت جواهر تاجي
و حكيت كرسيّ العروس و زدته أني ضمننت سعادة الأزواج

¹ - المصدر السابق : 115 / 1 .

² - انظر وصفة لقبة (المشور) في القصيدة رقم 693 من الديوان .

³ - ديوان لسان الدين : 174/1 .

³ - طوائف القصر عقوده ، و الطوائف جمع طاق الذي يعقد بالآجر ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، لسان العرب المحيط ، إعراد و تصنيف : يوسف الخياط ، دار لسان العرب ، بيروت لبنان ، د.ت. مادة (طوق) المجلد 2 ، ص 627 .

من جاعني يشكوا الظماء فموردي
فكأنني قوس السماء إذا بدت
صرف الزلال العذب دون مزاج
و الشمس مولانا أبو الحجاج¹

* بيوت الشعر :

استلقت الشاعر هذا المنظر البدوي الصرف ، و بيوت الشعر ، هي بيوت الأعراب في بادية العرب ، أكثر شعراء المشرق من وصفها ، و يعد هذا الاهتمام من الشاعر بها ، جزءا من تكوينه العربي المشرقي ، و أغلب الظن أن الشاعر رأى هذه البيوت في بادية المغرب أين يكثر البدو المنتجعون للماء و الكلاً ، و الذين يضربون خيامهم في المرباع التي يطمنون إلى خصبها ، و قد جرت عادة شعراء المشرق ، و لا سيما الجاهليين منهم أن يتخذوا من الخيمة رمزا للعزة العربية . بيد أن لسان الدين لم ير فيها ذلك ، نظرا لنشأته المتحضرة ، و انتقاله بين القصور الباذخة ، فتلك الخيام عنده بلامين أو مرآة بيوت العنكبوت الواهية النسج ، أو هي كطائر الخفاش بعدما ينشر جناحيه في شكلها و ألوانها :

ترى حلال الأعراب في رؤية العين
نسيج شباك العنكبوت بمطبخ
إذا ما لتشييه جنحت بلا مين
و إلا فكالخفاش مدّ جناحين²

2 - وصف الطبيعة الحية :

تناول لسان الدين بعض المظاهر الطبيعية الحية بمختلف حيواناتها ، و لا ننتظر منه أن يصف لنا الثور و الحمار الوحشيين أو الطباء لأن هذه الحيوانات من لوازم البيئة العربية ، و ربما ورد الطبي جزءا من صورة بيانية فهو عادة مما يشبه به النساء ، جريا على عمود الشعر العربي ، و لكنه وصف الحيوانات التي تتوفر عليها البيئة الأندلسية ، و منها الخيول ، غير أننا لا نتناولها في هذا المبحث بعدما ، عرضنا لها في مبحث من مباحث شعر الجهاد ، في الفصل الثالث . و قد استرعى انتباه لسان الدين بالإضافة إلى ذلك وصفه لبراغيث "تأفلقت" بالمغرب ، فقد أزعه هذا البرغوث الكثير الذي يضح له الملك المعظم فإذا وثب على الشاعر ، فكأنما أُثير جراد³ على مزرعة فأهلكها :

بتأفلقت برغوث كثير
إذا عجلت لنا بالوثب قلنا
يضج لهوله الملك الأثير
أثار جراد مزرعة مثير³

¹ - ديوان لسان الدين : 197/1 .

² - ديوان لسان الدين : 615/2 .

³ - المصدر نفسه : 380/1 .

و هكذا اتسعت شاعرية ابن الخطيب لما حوله من المظاهر الطبيعية المختلفة حية و جامدة ، فأغرم بالرياض ، و الأزهار ، و الأشجار ، و الأنهار ، شأن شعراء الأندلس كما أعجب بروائع مبلني مملكته ، من قصور ، و قباب و طيقان ، و أحب حواضر الأندلس و لا سيما العاصمة غرناطة ، و وصف مدن المغرب ، و هو في هذا الوصف ، يمزج بين ثلاثة عناصر :

- الطبيعة الأندلسية الفاتنة

- الثقافة الإسلامية

- الحياة السياسية في الأندلس و المغرب

و لذلك يمكن أن نصنف هذا الوصف صنفين :

- وصف تدعو إليه نفس الشاعر التواقة للجمال أينما وجد ، و هو وصف وجداني

- وصف يحمله عليه واجبه السياسي كوصف القصور و القباب ، و هو ما أطلقنا عليه من قبل

الوصف السياسي .

أما معانيه فأغلبها تقليدي ، تابع فيها لسان الدين أرباب هذه الصناعة من شعراء الأندلس ،

و المشرق ، و قد اتبع فيه أسلوبين :

- أسلوب الوصف التقريري الحسي

- و بدرجة أكبر أسلوب الوصف التشخيصي .

و في الأخير فقد عبر الشاعر عن إيمانه بوحدة الوطن الإسلامي ، و يتجلى ذلك في إعجابه

بحواضر الأندلس و المغرب على حد سواء .

خامسا : شعر اللّهُو :

عرف الشعر العربي الشعر اللاهبي الذي يخلع الشاعر فيه عذاره و يتهالك على لذاته فيصّف مجالس الأُنس و الطرب مع عزف النقيان على عيدياتها و تجاذب كؤوس الراح .
و قد اتخذ بعض الشعراء الحياة اللاهية و طلب اللذائد ، دينا و مذهباً و (فلسفة) و نجد على رأس هؤلاء من شعراء العصر العباسي ، أبا نواس ، و يعد هذا الشاعر أستاذا لكثير ممن جاء بعده من شعراء اللّهُو .

و حيث ما ذكرت الأندلس استحضرت مجالس الأُنس و العزف ، في جو طبيعي مهياً لتحقيق المتع على أوسع نطاق ممكن و قد ساعد على انتشار أمثال هذه المجالس التي يعصف فيها بحدود الشريعة، و هذا مؤسف جداً، بعض الحكام ، يقول أحد الدارسين المعاصرين : ” أما السلاطين و الوزراء و الأشراف فكان معظمهم لا يغيّب عن مجالسها أو لا يخلو بيته من مجلس يقام لها خصيصاً فكانت أيام محمد الثالث الملقب بالملخوع (1302-1309م) مثلاً أعياداً و كان يقرض الشعر و يصغي إليه و يثيب عليه فيجيز الشعراء ، و يرضخ للندماء“¹

و قد عرفنا من حياة لسان الدين أنه كان يملك القصور و الضياع و كان له قصر يدعى قصر عرين الدمع قريب من الحمراء فهل كان هذا الترف وراء ما نجده في ديوانه من أبيات و قصائد في اللّهُو و وصف الخمر ؟ و هل كان لسان الدين ممن اتخذوا اللذة مذهباً و الحياة (الأبيقورية) شعاراً ؟
لقد ترك لسان الدين اثنتي عشر قصيدة و مقطوعة في اللّهُو و بعض الأبيات في قصائد المدح أو الإخوانيات ، تعرض فيها للخمر لا باعتبارها موضوعاً مستقلاً و إنما طرفاً في صورته الشعرية معينة .

و أغلب ما قاله لسان الدين في هذا الغرض ، صرح أنه كان باقتراح² مولاه أبي الحجاج أو الغني بالله و ما كان على شاعر البلاط إلا أن يحقق رغبة سيده كما صرح في بعض القصائد ، التي نظمها معارضة لأسلوب الحسن بن هانئ³ .

¹ - د / عبد الله حمادي : دراسات في الأدب المغربي و الأندلسي (الباب الخامس : من أسباب سقوط غرناطة العث و المجرن) ، ص 378 عن الإحاطة : 568/1 .

* - و يستثنى من هؤلاء الملوك من عرف بالحزم و الشدة على أصحاب الخلاعة ، فأراق الخمر و أقام الحدود كالسلطان أبي الوليد إسماعيل ، انظر الإحاطة : 396/1 .

² - انظر مثلاً القصيدة 149 من الديوان .

³ - انظر القصيدة رقم 656 من الديوان .

و ذهب بعض الدارسين المعاصرين إلى الموافقة على عريضة الاتهام التي كتبها القاضي أبو الحسن النباهي ، في إدانة لسان الدين بالمجون ، و علل ذلك باهتمامه بمن كان يتخذ اللهو مذهباً ، من هؤلاء على الخصوص أستاذه ابن هذيل المتهم في دينه المتهاك مع اللذة المتعاطي للمنطق و التنجيم و الطب هذه العلوم و لا سيما التنجيم و المنطق تجر على صاحبها اللعنة في المجتمع الأندلسي المحافظ على سننائه المتشبهت بعري الإيمان ... غير أن عناية لسان الدين بأستاذه المطعون فيه لا تكفي لاتهامه بالخلاعة لأن الشاعر قد أنفق قسطاً معتبراً من شعره في التعبير عن توقيره لأساتذته و لا سيما ابن الجياب ، و ليس في الديوان قصيدة واحدة في مدح ابن هذيل .

و لذلك نميل إلى الرأي القائل بأن لسان الدين لم يكن له شعر لهو بالمعنى الذي يفهم من كلمة لهو و إنما هو في الحقيقة شعر مفتعل مصطنع أراد به مجازاة الشعراء في عرضهم هذا .. و لذا فقد مضى في عدة قصائد يتحدث عن مجالس الأُنس و الخمرة دون أن يكون ثمة صلة مطلقاً بين هذه القصائد وبين النمط الذي جرى عليه في حياته¹ .

بعد هذه التوطئة نشرع الآن في عرض المعاني التي تناولها الشاعر في أبيات اللهو و الخمرة .

تأتي الخمر في بعض القصائد عرضاً حين يشبه الشاعر رسالة وردت عليه من أستاذه بخمر بابل المعتقة التي تنفت بالسحر إذ تنسب إلى هاروت المضروب به المثل في صناعة السحر :

زارت و قد صرف العيان الغيب
...بكر من السحر الحلال بيابل
تمنى إلى هاروته إذ تنسب²

و هذه صورة مألوفة في الشعر العربي ، حين يعجب الشاعر بقطعة منثورة أو أبيات بليغة ، فينسبها إلى سحر بابل .

أما أوصاف الخمر عند لسان الدين فهي تلك التي ورثها عن أرباب هذه الصناعة ، و يحاول لسان الدين أن يبدع في تلك الصور بما تتيح له بيئته الأندلسية محاولاً الإضافة إلى تلك الصور التقليدية الموروثة فيتصور الحباب الذي يطفو فوق زقاق الخمر قباب جيوش ملأت الجهات بين يدي ملكين قعدا للتشاور :

و كأنما صور الزجاج و قد رمت
ملكاً قد قعدا قعود تشاور
أبدي المزاج على الكؤس حباباً
عمت جيوشهما الجهات قباباً³

¹ - د / عصام قصبجي : لسان الدين بن الخطيب ، حياته و فكره ، و شعره : ص 242 .

² - ديوان لسان الدين : 109/1 .

³ - المصدر نفسه : 1 / 145 .

و من صور مجالس الخمر التي تلت انتباه الدارس تشبيه الإبريق و المدام تتسكب من فدامه ،
 بإمام ، يتلعثم في حروف الحلق يحاول ترديدها لكي يصير نطقها لديه طبعاً ، و لكنها تتمتع عليه فلا
 يستطيع الإفصاح بها ، و هذه الصورة الشعرية تعود إلى مصدر عقلي و تسمح لنا بالقول بأن دواعي
 الشاعر ، إلى هذا الفن ، إثبات القدرة ، و التصنع في فنون الشعر المختلفة فهو يحاول أن يتفنن في
 النقاط البديع من الصور و المعاني الطريفة . و لا يحفى ما في البيت الثاني من تلميح الشاعر إلى
 اطلاعه على فنون اللغة و الفلسفة ، فهو يذكر الطبع و التطبع و حروف الحلق و الإفصاح :

تخال بها الإبريق عند سجوده إماما يطيل المكث في أحرف الحلق
 يرددها كي يكسب الطبع دربة بها و لكن ليس يفصح في النطق¹

و لهذه الخمرة سر مغيب عجيب ، و كأنها من عالم غير عالم الإنسان ذلك لأنها تحلق بشربها
 إلى عالم الأرواح و تتعد به عن عالم الأرض المادي ، فهي إذن ليست ما يعرفه الشعراء من مدام
 ترشح من الفدام و إنما هي حالة روحية خالصة ، لا تتاسب بينها و بين الحياة اللاهية المعقدة و بهذا
 البيت و أشباهه يعبر لسان الدين عن ابتعاده عن عالم المعصية و تصبح الخمر عنده رمزا لا غير
 تماما كالمرأة :

و راح إذا ناجيت في الكأس روحها رأيت اتصال الروح بالعالم الأرضي²

و يوحى إليه مجلس الأنس بما فيه من نشوة و طرب و حسان و جنان فنيانة ، بجنة الخلد التي
 نعيمها مقيم و فيها ما تلد الأعين و تهوى الأنفس و هذه الصورة أيضا بعيدة عن العريضة و الفاحشة
 إنها أقرب إلى آمال و أشواق روحية عبر عنها الشاعر بطريقة حسية منها إلى الواقع العملي :

جنان بينهن الحور تمشي أحقا هذه دار الخلود؟³

أما تأثيرها في نفس شاربها فعظيم فهي تصرف عنه الهموم التي تكدر حياته و التي لا
 تبارحه فهي كامنة في بواطنه تحرمه النوم و تمنحه السهاد و ما هي هذه الهموم يا ترى ؟

أليست هي هموم السياسة ؟ و الاشتغال بأسرار القصر ، من إحباط فتنة تنجم و مداراة حاسد
 يظهر وداً ، و مصاولة عدو مترصد ، لحوزة المسلمين يبغيها إرهاباً و خيانة و مكرًا ؟ و ما هو
 السرور الذي تتيحه هذه الكأس ، أليس هو عودة السلطان (أبي عبد الله بن أبي الوليد) مستصرخا
 صاحب المغرب على عدوه (الطاغية) ! فلا شك إذن أن النشوة التي تمنحها الكؤوس للسان الدين ما
 هي إلا أفراح مملكته ، و انتصاراتها على الطاغية ، و ما الهموم التي تجلوها سوى ما كان يمني به

¹ - ديوان لسان الدين : 694/2 .

² - المصدر نفسه : 639/2 .

³ - المصدر نفسه : 283/1 .

نفسه من الرحلة إلى البقاع المقدسة ، فلم يتمكن من ذلك بسبب ما كان يشده إلى غرناطة من مسؤوليات ثقيلة ، يقول لسان الدين :¹

نبه نديمك للصبح و هاتهما
و اصرف بصرف الراح هنا كما
و يقول أيضا :²

حث الكؤوس و هاتينها قهوة
تتفي الهموم و تجلب الأفراحا

و يتناول لسان الدين في قصائد اللهو ، مسألة (الإرجاء) ، فهو ينصح نديمه باغتنام اللذات في هذه العاجلة قبل فواتها ، و ما له لا يفعل ذلك و الله وسع الذنوب مغفرة ، و عفوا ، و مهما عظمت معصية الإنسان فهو مرجي لأمر الله إما يعذبه و إما يعفو عنه ، غير أن رجاءه في الله أكبر من يأسه منه ، فلا حُوبَ عليه في الأخذ بأسباب النعيم في هذه الدار . و لا تعتقد أن هذا مذهب لسان الدين في حياته العملية فقد دافع عن إيمانه بالعقيدة السنوية الصحيحة في (روضة التعريف) و ظهر من حياته الشخصية ، و من شعره الصوفي ، و المولدي ، ما ينفي عن هذه العقيدة و لكنه ، على عادته ، يقلد الشعراء ، في كثير من المعاني ، و الأفكار إذا أعياه التكلف و الجهد و لقد سبقه إلى التعبير عن هذه الفكرة - فكرة الإرجاء الشاعر أبو نواس حين دافع عن نفسه و عن معاصيه ، فكان يحرص على ادعاء هذه الفكرة "لأنها توافق تصرفه ... و قد كان يخيل لأبي نواس أن الله لا يتعقبه بخطاياها في هذا العالم" ،³ يقول لسان الدين :⁴

و لا تضيع فُرصَ اللذاتِ إن لنا
ربًّا كريمًا يُقِيلُ الذنْبَ غفرانا

و في تقليد أسلوب أبي نواس : نظم لسان الدين قصيدتين ، عرض فيهما قصته مع صاحب دير نصراني ، به جماعة من الرهبان عاكفين على عبادة تماثيلهم و قراءة الإنجيل ، و دراسته ، فيفد الشاعر و ندماؤه على صاحب الدير ، يسألونه ما عذبه من (قرى) ، فيتعجب من حالهم لأنهم مسلمون قد حرمت عليهم الخمر ، غير أنهم لا يبالون بهذا الحكم الشرعي و يلحون في السؤال حتى يجيبهم إلى طلبهم ، فيقضون وطرهم من معاقره الشمول .

و هذه قصة أراد بها الشاعر ، أن يبرهن على توقفه في هذا الفن ، مجاريا لأربابه على الأقل و فيها يعرض علينا جانبا من ثقافته فهي إلى درس ديني في أصول الديانة النصرانية أقرب منها إلى رحلة شاعر مع رفقة يطلبون اللذة ، و ربما قصد لسان الدين إلى هذا السرد القصصي لما فيه من

¹ - المصدر السابق : 169/1 .

² - المصدر نفسه : 222/1 .

³ - إيليا الحاوي : في النقد الأدبي ، الجزء الثالث ، العصر العباسي و قصائد معلقة ، الطبعة الأولى 1980 ، دار الكتاب اللبناني بيروت ، ص 93 .

⁴ - ديوان لسان الدين : 583/2 .

إمتاع فني خالص حرصا على توفير نوع من الوحدة ، و التماسك بين أجزاء القصيدة ، كما فعل أبو نواس قبله حين "توسل بحيلة جديدة ليغالي بالخمرة ، و شو في ذلك قصاص ماهر يعرف كيف يوقع الحوادث أو بالأحرى كيف يسبب الحادثة اللاحقة من الحادثة السابقة ليؤدي معناه"¹ .

يقول لسان الدين في هذه القصة :²

و دير أدرنا في قرارته العيسا
عكوف على التمثال يستلمونه
.. و قلنا بنو سُبُلٍ جوانح للقرى
فقال : أخمر و هي شيء محرم
فقلنا دع الإنكار إنا عصابة
فقام يجر المسح ثم أتى بها
بحلة رهبان إلههم عيسى
و يعنون بالإنجيل حفظا و تدرسا
فقال زعيم القوم رحبا و تأنيسا
عليكم لبئس المسلمون إذن بيسا
.....
فأبصرت كيوانا تناول برجيسا

و يقول في القصيدة الثانية³ :

و حانة خمار هdana لقصدها
تطلع ربانيها من جداره
شميم الحميا واصطكاك النواقيس
يهينم في جنح الظلام بتقديس

و قد تبين مما أوردناه من نماذج لشعر اللهو في ديوان ابن الخطيب قلة هذا الشعر مقارنة مع الأغراض الأخرى ، و في هذا ما يدل على عدم ميل لسان الدين إلى هذا الفن بحكم نشأته الدينية المحافظة .

و أكثر ما نظمه في هذا الباب إنما كان بتكليف من سلطانه في ساعات خلواته و تحقيقاً لما يبتغيه من متع ، و استماع إلى الشعر ، و بعضه عارض فيه الشعراء السابقين محاولا إثبات قدرته الشعرية و الإضافة إلى ما هو متوارث من صور مع التنويع فيها ، و طلب المعاني الطريفة .
و قد حاول لسان الدين أن يضيف على شعر اللهو ، طابعا دينيا مميزا ، فوردت فيه بعض الأفكار الإسلامية ، و نميل إلى أنها وردت قصدا لإثبات سعة ثقافته الإسلامية . كما أنه اتخذ من الخمرة أداة رمزية أفصح بها عن بعض حالاته النفسية القلقة ، التي كانت تتتابه و هو في الأندلس .
و نلاحظ أن ما قاله من هذا الشعر ، كان كله في غرناطة ، أما في المغرب فلم يصدر عنه هذا الشعر ، و يمكن تعليل ذلك بأن حياته في الأندلس تعاورها جانبان : جانب باذخ زاه أو جانب القوة و الراحة النفسية ، حيث يعيش في قصور غرناطة يصدر الأوامر ، و نيولي ، و يقلل فقد كان مطلق اليد بما له من مكانة في صدر الغني بالله خاصة .

¹ - إيليا الحاوي : في النقد الأدبي ، الجزء الثالث ، العصر العباسي ، و قصائد حجلة الطبعة الأولى 1980 ، دار الكتاب اللبناني بيروت ، ص 74 .

² - ديوان لسان الدين : 720/2 ، 721 .

³ - المصدر نفسه : 730/2 .

و جانب قلق ، مضطرب ، و في كلا الجانبين نظم شعرا لاهيا بحكم ما تدعوه إليه حياة القصر .

أما في المغرب فلم يكن له متسع من الوقت لينظم في هذا الشأن ، إذ قضى أكثر أوقاته ، هنالك في التأليف ، و ذكر الله و محاولة الخلوة ، هذا من جهة و من ناحية أخرى ، فقد كانت البيئة المغربية أكثر جدية ، من البيئة الأندلسية نظرا لأسباب تاريخية و حضارية ، و لذلك أصبح ما يصدر عنه في السنوات الأخيرة التي قضاها في المغرب إما في السياسة أو الدين أو بعض الإخوانيات .

و بهذا نظن أن لسان الدين لا يعد من شعراء اللهو ، و لا من المتهاكين على اللذات الذين يخلعون في طلبها العذار ، و يلقون جانب الوقار ، و إنما ورد في ديوانه هذا النوع الشعري للعوامل السابقة .

سادسا : الهجاء :

ليس لابن الخطيب شعر كثير في الهجاء ، و ما وجد منه في ديوانه هو عبارة عن نثف لا تتعدى البيتين على الأكثر . و لعل تفسير ذلك يعود إلى أن الشاعر لم يكن له أعداء إلا في أخريات حياته ، فقبل مغادرته للأندلس هاربا ، لم يكن في ديوانه شيء من هذا الشعر تقريبا ، و نحن نعلم أن من أكثر ما يبعث الشاعر على الهجاء ، العداوة و الحقد ، و الضغينة ، و قد برئ لسان الدين من ذلك تقريبا ، لأنه بمحل تشرب إليه الأعناق ، و تصطنع لديه الوسائل ، أما حاسدوه ، فهو في غير حاجة إلى أن ينشر ذكرهم في شعره و حسبه أن يخلهم بالإغضاء عنهم .

أما حين قلب الدهر له ظهر المجن فغدا منبوذا لاجئا ، فقد أصبح في حاجة إلى الدفاع عن نفسه ضد أعدائه ، و من وسائله في هذه المعركة الشعر ، و لذلك فأغلب ما وجدنا من هجاء إنما هو موجه إلى القاضي النباهي العدو اللدود لابن الخطيب .

و قد أشرع الشاعر سنانه في وجه أعدائه كما رمى بعض أصدقائه بقوارص من نقده و سخريته مداعبا إياهم ، دون أن يضر لهم العداوة و الحقد .

و هو في هجاء القاضي أبي الحسن النباهي ، عنيف ثائر حائق ، و قد أجهد نفسه في ابتكار الأشكال و الصور التي يشبهه بها ، فقد وصف عمامته ، و نعله ، و دواته ، و شكله ، و قصره ، كما هجا أخلاقه ، و أعماله ، و سخر من وقوفه إلى الصلاة .

فمن وصفه لشكله ، أن جعل التكالى تفهقه عند رؤيته ، و تبسم العيون لمنظره المضحك فقون عمامته من نضار العاج ، أما وجهه فمن لباب الأبنوس ، و هذه الصورة على ما فيها من إيلام لصاحبها إلا أنها أقرب إلى التهكم و السخرية إذ تبعث القارئ على الضحك ، و لا تحرك فيه عاطفة الانتقام و البغض :

تفهقه عند رؤيته التكالى و يضحك منه معتاد العبوس

فَقَرَنَ مِنْ نَضَارِ الْعَاجِ سَلْمٍ و وجه من لباب الأبنوس¹

أما من الناحية الخلقية ، فيصفه بالمكر و الخداع شأن الثعالب ، و يتمنى له الموت و يتيمم ابنته و قد حاول أن يخرج هذه الصورة مصطنعا للتورية إذ ينسب المهجو للثعالب فصار ثعاليبا ، و ورى

بينته عن يتيمة الثعالب الأديب و اللغوي ، المعروفة (بيتيمة الدهر) :

جعسوس ثعلب مكر و ذو خلال ذميمه

ثعالبِّي انتماء مخلف لييتيمه²

¹ - ديوان لسان الدين : 738/2 .

² - المصدر نفسه : 572/2 .

و في صورة من صور هجائه ، يستشعر لسان الدين معنى دينيا ، حين يشبه قيامه إلى الصلاة بصليب فوق كنيسة ، و فيه إشارة إلى فساد صلاته لعدم إتقانه لفروضها و سننها :

إذا جعسوس جاء إلى صلاة و طالعنا بطلعته النحيسة
أينا من يديه و من قفاه صليبا قد أطل على كنيسة¹

و لابن الخطيب نوع آخر من الهجاء أكثر جدية ، يمكن أن ندعوه بالهجاء السياسي ، لأن بواعثه سياسية ، فقد هجا الرئيس أبا سعيد الملقب (بالبرميخو) الذي ساهم في الانقلاب الذي وقع على الغني بالله غير أنه لجأ إلى طاغية الروم بعد عودة السلطان المسلوب ، من غير سابق عهد ، و لا ميثاق ، فقتله و أرسل برأسه إلى غرناطة فقال لسان الدين في هجائه :

في غير حفظ الله من هامة هام بها الشيطان في كل واد
ما خلفت ذكرا و لا رحمة في فم إنسان و لا في فؤاد²

و لسان الدين يشير بهذين البيتين إلى فساد حكمه ، بحيث ساءت أحوال الناس ، و انتشرت الموبقات ، و ضاق الناس بولايته ذرعا .

و له في هجاء وزيره إبراهيم بن أبي الفتح ، و ابن عمه محمد بن إبراهيم قصيدة بدأها بالاعتبار بصروف الدهر ، و النصيحة بالحدز منها :

كن من صروف الردى على حدز لا يقبل الدهر عذر معتذر³

ثم يشرع في هجاء الوزير ابن أبي الفتح فيرميه بالبلادة و الغباء ، و يذم وزارته التي لم تنفع مستزيره بل زادتة شؤما على شؤمه فكانت نهايته القتل ، ثم يعدد مساوئه ، فإذا هو حقود ، فظ لا يحكم بالعدل ، فالظالم و البريء عنده سيان ، يكاد لون وجهه أن ينطفئ لما يضمرة قلبه من الحسد ، كأنه شرر متطاير ، و في الأخير ينسبه إلى الفاحشة ، و المعصية ، فقد ملئ قذرا بما عرف عنه من معاقرة الخمر :

قل للوزير البليد قد ركضت في ربك اليوم غارة الغير
...وزارة لم يجد مقلدها عن شؤمها في الوجود من وزر
...يا دائم الحقد و الفظاظ لا يفرق بين ظالم و بري
يا كمد اللون ينطفي كمددا من حسد يستطير بالشـرر
يا عدل سرج يا دن معتقد ملآن من ريبة و من قذر⁴

1 - ديوان لسان الدين : 737/2 .

2 - المصدر نفسه : 328/2 .

3 - المصدر نفسه : 428/2 .

4 - المصدر نفسه : 428/2 .

و لابن الخطيب نوع آخر من الهجاء ساخر متهمك خاطب به بعض معارفه ، فإذا وجّه الشاعر و هو في المغرب دعوة إلى أحد موثقي (فاس) فلم يجب دعوته ، تحركت شاعريته ، فنظم أبياتا في التهمك به ، و هذا الموثق ، هو ” ابن القباب“ ، جاء إلى سلا في مهمة ، و حين دعاه لسان الدين إلى بيته ”تعجرف و نفر .. حتى بهت الرسول كما بهت الذي كفر و آب يحمل عذرا باردا ، فأفطمته جانب شماسه و خلّيت بينه و بين و سواسه“¹

و يستهل ابن الخطيب قصيدته بأن من استغضب بأمر خليق بالإنكار ، ثم لم يغضب ، فهو تيس أو حمار ، على الحقيقة لا مجازا ، و ما دام الشاعر ، حقيقا بالغضب ، فما الذي يحول بينه و بين تأنيب من قصر في حق الزيارة كِبْرًا و عَجَبًا ، و لذلك استحق أن يدعوا عليه الشاعر بمرض عضال لا يفوق منه طول حياته و لكنه داء الجهل ، إذا استحكمت في نفس الجاهل ، أغرقه في بحره :

من استغضبت من هذي الخليفة بِمُغْضِبَةٍ بِإِنْكَارٍ خَلِيقَةَ
و لم يغضب فتيسٌ أو حمارٌ مجازا لا لعمرى بل حقيقة
... و من جهل الحقوق أطاع نفسه بِبَحْرِ الْجَهْلِ رَاسِيَةَ غَرِيقَةَ²

و له في ابن كماشة ، و هو من رجال الدولة المرينية هجاء لم أتبين بواعثه و لعله أبقى عليه بعض ما سأله من الحوائج ، و في هذه القصيدة يعتمد لسان الدين على عنصرين : الأول ديني و الثاني تاريخي .

فقد شبه المهجو بياجوج و مأجوج ، القوم الذين وردت قصتهم في القرآن الكريم ، إذ أتى بعظيمة عجز عنها هؤلاء القوم المفسدون ، فهدم على ضعفه ، السد الذي بناه الملك العظيم المؤمن ذو القرنين ، و يحذر الحكام من غدره ، إذا لم يجعلوا بقتله ، كما سعى أشقى ثمود فعقر الناقة فحق عليهم عذاب الله :

هدم السد و هو ما هو فار كيف شيخ مكابيدُ غَدَّار
إنما الملك ناقة و هو و اللسه إذا لم تعاجلوه قدار³

ثم يقرن أعماله بالشؤم و ذلك حين سعى في وفادة من المغرب إلى الأندلس ، فهزم الملك المريني بعدها و استبيحت حرائمه و أسر ولده في موقعة طريف و كذلك الشأن في موقعه القيروان حيث أوقعت القبائل العربية بالسلطان أبي الحسن⁴ لأن ابن كماشة كان حاضرا فيها :

¹ - انظر القصة في مثل الطريقة في ذم الوثيقة لابن الخطيب ، تحقيق د. عبد المجيد تركي ، ص 81 .

² - ديوان لسان الدين : 428/1 .

³ - المصدر نفسه : 437/1 .

⁴ - معركة القيروان 749 هـ التي أوقعت القبائل العربية فيها بأبي الحسن المريني و يظهر أن ابن كماشة كان حاضرا فيها (انظر الهامش رقم

(404) من ص 437 من ج 1 من الديوان .

إن سرى في رسالة قرنت بالحنس منها الأعمال و الأسفار
 جاء فيها الأمير يوم طريف فاستباح حريمه الكفار
 ثم في القيروان عاد فكان الشؤم مستصحباً له و الفرار¹
 و لابن الخطيب أبيات ساخرة خاطب فيها بعض الطلبة (بسببة) بالمغرب ، حين أرسل إليه
 كتاباً في غاية البرودة لم ينل إعجاب الشاعر ، و في تلك الأبيات يسخر منه بأن جعله مخلوقاً من برد
 خالص و من ثلج ، أما ألفاظ نثره ، فقدت من زمهرير يهب في بعض الفجاج :

يا من براه الله لما برا من برد صرف و من ثلج

.. و لفظك البارد يا سيدي من زمهرير هب في فج²

و في ديوان الشاعر نوع آخر من الهجاء هو أقرب إلى النقد الاجتماعي لم يتوجه فيه إلى
 شخص ، بل إلى أهل بلدة ، و قد رأينا في غرض المدح وصف الشاعر لأهل سلا بالحمق ، بل جعلهم
 معدن الحمق ، و هو الآن يهجوهم أو يهجو بعضهم ، و هم (بنو عيس) ، بالبخل ، و يلوم نفسه على
 المبيت عندهم :

غضب الإله على بني عيس و على ما اشتملت عليه من تيس

ما كان رأيي في المبيت بها عن فطنة مني و لا كيـس³

و له في هجاء طائفة دينية بالأندلس قلما نظفر به عند غيره من شعراء الأندلس ، الذين تمكنوا
 من الاطلاع على أشعارهم ، و هم اليهود و قد لعب بعضهم دوراً أساسياً في السياسة النصرانية ،
 و يذكر ابن الخطيب أن الطبيب اليهودي (ابن زُرُور) الغرناطي ، كانت له صلة بالمتوثيين على
 الملك في عهد الغني بالله ، و أنه ابتهج بذلك الانقلاب ، و لهذا يهجوهم لسان الدين ، بأنهم عصابة شر
 لا تلين قلوبهم للهدى ، إذ يأتون من المنكرات و الخبائث ما يعف عنه لسان الشاعر ، إذا واتتهم
 الفرصة ، و غفلت عنهم أعين الرقيب ، ثم يصف هيئة صلاتهم فحينئذ يميلون رؤوسهم تسقط
 شواشيهم الصفراء التي فرضت عليهم من حكام غرناطة تميزاً لهم عن سائر المجتمع الغرناطي ،
 بسبب ما يضمرون من مكر ، و ما يأتون من الفساد ، ويشبه تلك الشواشي ، بأ زهار الأقبان عند
 ما تهوي بها الريح على الأرض فتنتثر الوريقات البيضاء ، و تبقى الزهرة الصفراء ، يقول لسان الدين
 في ذلك⁴ :

و عصابة شر من يهود لقيتها بجانبها داعي الهوى و يحاشيها

¹ - ديوان لسان الدين : 437/1 .

² - المصدر نفسه : 209 / 1

³ - المصدر نفسه : 734 / 2

⁴ - المصدر نفسه : 739/2 .

إذا أمنوا و استوثقوا الباب أعلنوا خبائث ما كان اللسان ليفشيها
كان رؤوس القوم عند صلاتهم و قد أومات للأرض صفرا شواشيها
أقاح أمالتها الرياح على الثرى و قد أسقطت عنها بياض حواشيها

من خلال ما استعرضناه من نماذج هجائية ، نستخلص أن لسان الدين لم يكن من شعراء الهجاء ، لقلّة ما نظم فيه من الأبيات . إذ لم يوجد في حياته من الدواعي ما يحمله عليه ، ما عداه معاداته للقاضي النباهي ، والرئيس الغادر المتوثب ، و وزيره و كاتبه .

و ينطبع هجاء لسان الدين بطابع سياسي ، مثلما نلمس ذلك في أغلب شعره ، و هو مع ذلك غير مقذع ، و لا فاحش الألفاظ ، على النحو الذي نجده عند الشاعر العباسي (دعبل الخزاعي) أمثلا ، و هو مقتصد في ذلك ، يختار الكلمة الساخرة التي تبعث على الابتسام و لا تزرع في النفس الضغينة . و في بعض هجائه ، اتجه أخلاقي ، و لا غرابة في ذلك إذا علمنا طراد الروح الإسلامية فسي أغلب شعره ، نظرا لنشأته الإسلامية المستقيمة و لتقافته الدينية الواسعة .

يضاف إلى ما سبق ، اصطباغ هذا الشعر بصبغة علمية ، و نعني بذلك مزج الشاعر بين المعاني الهجائية ، و معارفه التاريخية ، فهو يوظف ثقافته التاريخية ، و يأخذ منها مادته و أدواته الشعرية .

و أخيرا يمكن أن يقال : إن هجاء لسان الدين على ما فيه من روح مرحة ، هو نقد بناء ، يقتنص النقائص ، و يهاجمها ، و لا يلتفت إلى المعايير ، لإشاعة الفاحشة بين المسلمين .

¹ - انظر ديوان دعبل بن علي الخزاعي ، حققه و جمعه د / محمد يوسف نجم ، نشر و توزيع دار الثقافة ، بيروت لبنان ، و على الخصوص : هجاء أخيه رزين بن علي الخزاعي ص 83 ، و هجاء أبي نضير الطوسي ص 95 ، و هجاء الحسن بن وهب ص 98 ، و هجاء يحيى بن أكرم ص 101 .

سابعا : الإخوانيات :

الإخوانيات باب من الشعر يتسع لعدة أغراض كالتهنئة ، و العتاب ، و المداعبة و تبادل الآراء ، و كل ذلك تضمنه ديوان لسان الدين فقد نظم لسان في هذه الأغراض ، فعاتب ، و داعب ، و هنا ، و استنجز الوعد ، و تبادل الآراء مع أساتذته و أصدقائه ، و لعل ذلك راجع لطبيعة شخصيته ، فهو محب للكتب و للعلماء ، و معتد بنفسه ، معجب بأدبه و علمه ، مؤثر لحياة البذخ و مع ذلك فهو سمح النفس منشرحها ، له قابلية للتعامل مع العامة و الخاصة ، و إذا أضفنا إلى ذلك غزارة علمه ، و شهرته الأدبية ، و خطورة منصبه ، لم ننكر كثرة أصدقائه ، و معارفه في المغرب و الأندلس ، و لم نستغرب كثرة المقطوعات التي خاطب فيها هؤلاء الأصدقاء و الشيوخ ، سائلا ، و مهنتا ، و معتذرا ، أو عاذلا ، و عاتبا .

و حتى يتسنى لنا دراسة هذا الشعر ، يستحسن أن نجعله في محورين :

- الأول : علاقة لسان الدين بأصدقائه و أساتذته ، و رجال العلم و الأدب عموما .

- الثاني : شخصيته الطموحة ، و حبه للحياة الباذخة .

1 - علاقة لسان الدين برجال العلم و الأدب :

يعتبر لسان الدين شخصية علمية و أدبية طبقت شهرته الآفاق ، فعرف أهل العلم و الأدب قدره ، و كاتبوه ، و بادلوه الإعجاب ، و بعضهم كان له صديقا ، و من أكثر هؤلاء الأصدقاء شهرة ، ابن مرزوق ، الخطيب كاتب السلطان المريني أبي الحسن ثم من بعده ابنه أبي عنان ، و هو شخصية علمية كبيرة في المغرب الإسلامي¹ و من مؤلفاته : شرح كتاب الشفا للقاضي عياض الذي انتشرت شهرته في المغرب و الأندلس فتقدم الأديباء و الشعراء مهنيين إياه بهذا الشرح ، و كان منهم ابن الخطيب ، حيث كتب في هذه المناسبة ثلاث قصائد و فيها يزجي الثناء الجم على كتاب الشفاء و على شارحه ، فهذا الكتاب روض من المعارف لأنه تناول شمائل الرسول (ص) ، صب عليه شارحه ، غمام فكره فأثمر و أتى أكله :

روض من العلم همى فوقه من صَيَّبِ الْفِكْرُ الْعَمَامُ السَّقُوحُ²

و هو بناء شامخ و طد مؤلفه أركان الدين الإسلامي ، فارتفع مناره و قبس من هديه أهل العلم ، و هكذا شاد صروح الهداية ، التي تزري بمن شاد للضلال بناء ، يصد به عن الإيمان بالله ، كما فعل (هامان) وزير فرعون :

¹ - كان ابن مرزوق الخطيب كاتبا ، و شاعرا ، و عالما مناظرا من ذلك رده على الرغزدي حين ذم أهل السنة ، و التصبر للتعبه الاعترافي .

انظر : الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج محمد الطمار ، ص 220 ، نشر الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1983 .

² - ديوان لسان الدين : 1 / 238

و معلم للدين شيدته
فقل لهامان كذا أو فلا
فهذه الأعلام منه تلووح
يا من أضل الرشد تبني الصروح¹

و في آخر القصيدة يلتفت الشاعر إلى صديقه الذي وضع (للشفاء) شرحا فاق به كل من شوحه من قبله فقد فتح الله به بابا للعلم ، الذي لا يناله الإنسان بكسبه ، و اجتهداه و إنما هو نوع من الاصطفاء يخص الله به بعض عباده :

يا خير مشروح وفي و اكتفى
فتح من الله حباه به
منه ابن مرزوق بخير الشروح
و من جناب الله تأتي الفتوح²

و هذه الأبيات و إن كان غرض الشاعر منها تهنئة صديقه بهذا العمل الجليل ، هي ثناء على الكتاب نفسه ، و هي تكشف لنا شدة حب لسان الدين للكتب و لا سيما الدينية منها .

و في قصيدة أخرى ، بعد تقريره للكتاب ، أتى على ابن مرزوق لاجتهاده الدؤوب ، و سهره الذي حرمه النوم ، في سبيل تلخيص هذا الكتاب الجليل ، يقول ابن الخطيب ، و الخطاب ، للقاضي عياض³:

فتولى بسط ما أجملت من غير انقباض
سأهرا لم يدر في استخلاصه طعم اغتماض

و تكشف بعض إخوانيات لسان الدين ما يكنه من عظيم الاحترام و التقدير ، لأهل البيت ، بل إنه ليعتبرهم وسيلة عند الله لمكانهم من الرسول (ص) ، و الأبيات التي نظمها في هذا الغرض تشف عن تدين الشاعر ، و عقيدته الراسخة و تعظيمه للرسول (ص) ، فقد أصيب (الشريف أبو القاسم الحسيني)⁴ و هو بغرناطة بعلة ، ثم أبل منها فخاطب الشاعر يعرّفه بذلك ، فأجابه بأبيات استهلها بالاعتراف بفضل هذا الشريف الذي ينبغي أن يعرفه كل مسلم ، و يؤدي حقه عليه من التعظيم و التوقير ، هذا الفضل الذي ارتفع إلى عنان السماء ، تحل دونه النجوم ، و هل هناك أب أو ابن أشرف من ولد فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله (صلى الله عليه و سلم) ؟

لك الحق الذي يجب
و دون علاك ما تسمى
و فضلك ليس يحتجب
إليه السبعة الشهب
و فوق ابن البتول ابن
و فوق ابن البتول أب؟⁵

¹ - ديوان لسان الدين : 238/1 - 239 .

² - المصدر نفسه : 239/1 .

³ - المصدر نفسه : 644/2 .

⁴ - ترجمته في الإحاطة : 181/2 .

⁵ - ديوان لسان الدين : 123/1 - 124 .

ثم ينتقل الشاعر إلى شعر أبي القاسم ، فيفضله على شعر أبي الطيب المتبني و نظم الشريف الرضى الذي يشترك مع أبي القاسم في شرف المنتمى ، غير أنه قصر عنه في الفن كما اشترك حسناوان في كل المحاسن ، و تتفوق إحداهما بصفاء ثناياها ، و جمال ثغرها يقول ابن الخطيب ¹ :

أنتني منك زائرة يقود هديها الأدب
زرت بابن الحسين فما له في الحسن منتسب
و نادت بالرضي لقد حكيت و فاتك الشنب

بعد هذا الثناء يلتفت لسان الدين إلى نفسه فيتضرع إلى الله كما يتضرع المؤمن إذا أحس سلعة الإجابة ، فهذا الشريف ذخر للشاعر و عزّ له ، بل هو أنفس عنده مما يدّخره من الذهب ، كما أنه وسيلته التي يتقرب بحبها إلى الله إذا افتقر إلى العمل الصالح :

فإنك ذخري الأعلى و معقل عزّي الأشب
و أنت جميع أسبابي إذا ما أعوز السبب
وجدتك عدتي و غنى يدي إذ أذهب الذهب ²

و قد كشفت لنا مخاطباته لأستاذه ابن الجياب ، عن تواضعه أمام شيخه و اعترافه بفضله عليه ، فهو يعتبر ذلك الفضل قلادة طوقها به ، و منّة ينوء بحملها منكبه ، و هل يستطيع التلميذ أن يوفي أستاذه حقه من الشكر ، و لكن الشاعر ، صار بعد شبابه ، أدبياً مجلياً ، و عالماً ، موسوعياً ، ووزيراً ذائع الصيت و كل ذلك جنى ما غرسه أستاذه ، أتى أكله بعد حين :

طوقتني منها قلادة مفخر في مثلها باغي المكارم يرغب
هذا و كم لك من يد مشفوعة لا يستقل بحملها لي منكب
..هذا جنى غرسه كف رضاك لي فهصرته و هو الكثير الأطيب ³

و إذا كان الأستاذ بهذا المحل من الفضل ، فما الفرق ، بينه و بين الوالد ؟ و اعترافاً بهذا الفضل ، فإن الشاعر يخاطب أستاذه خطاب الأب ، يلوذ به أبناؤه عند غشيان الطوارق :

أعمادنا السامي العلى و أبانا و ملاذنا من حادث يغشانا ⁴

و يشرح الشاعر لأستاذه وجهة نظره في الصداقة و الأصدقاء ، حين حذّره من قطيعة بعض خلّانه ، غير أن الشاعر أدرى بأصحابه ، بعدما جرّبهم ، و خبّر أحوالهم ، أما أستاذه فليس له منهم إلا الظاهر .

¹ - المصدر السابق : 124/1 .

² - المصدر نفسه : 124/1 .

³ - المصدر نفسه : 110/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 124/1 .

و للشاعر في اتخاذ الأصدقاء مذهب ، فهو لا يحفل بمن ينفونهم و يهجرونهم ، ذلك أن في الأرض سعة ، و في الناس أبدال ، فلا داعي للتحسر على هؤلاء الخلان الجاحدين لحق الأخوة ..

و حذرت لي عقبي القطيعة جاهدا
..كلني لعلمي في صحابي إنني
و هي الطريقة و السبيل الأصوب
بهم خير ماهر و مجرب
منهم بواطن عن عيانك غيب
سعة و في عرض البسيطة مذهب¹

و يرى لسان الدين أن الصداقة لا تستقر بين الأكفاء المتنافسين ، لأن الأهواء تفرق بينهم ، لا سيما إذا كانوا من أهل السياسة ، المقربين من الحاكم ، فكل منهم يسعى إلى كسب مودته ، و الحظوة لديه ، فتتصادم الأهواء ، و تضيع معها حقوق الأخوة .

و إذا كان أصدقاء الشاعر بهذه الصفات ، فقد يؤس منهم و من الصداقة نفسها ، في مجتمعه أو على الأقل في الوسط الأرستقراطي الذي يعيش فيه ، فصارت الصداقة ، عندئذ كعنقاء مغرب .
إن يأس الشاعر من أصدقائه يكشف لنا ما تعج به حياة القصر من تنافس غير شريف ، و من امتلاء النفوس حسدا ، و لعل ذلك من الأسباب التي حملت الشاعر على ترك غرناطة نهائيا في السنوات الأخيرة من حياته ، يقول لسان الدين :

لا تستقر على التنافس صحبة
و مودة الأكفاء أمر يصعب
إن الصداقة لفظة مدلولها
في الدهر كالعنقاء بل هو أغرب²

و مع ذلك فالصديق عند لسان الدين كنز ثمين يدخره لأوقات الشدة ، و يحوطه بمحبته ، فكانه بني عليه جدارا يحصنه ، من أن تمتد إليه الأيدي الآثمة ، و هذا الجدار هو الوفاء :

و أعددت وذاك كنزا عتيدا
أقمت الوفاء عليه جدارا³

و إن مما يبقي الصداقة متينة التزاور ، و الزيارة أكرم هدية يقدمها الخليل العاقل لخليله ، لا سيما إذا جاءت دون موعد مضروب ، لأنها حينئذ أصدق تعبير عن مشاعر الود المخلصة :

و إن لقاء جاء من غير موعد
لأكرم ما يهدي الأريب أريب⁴

أما صديقه ابن خلدون الذي حل بغرناطة ، فأكرم ابن الأحمر وفادته فقد توثقت علاقته بالشاعر ، ثم أحس ابن خلدون بعد مدة بانقباضه عنه⁵ و عند رحيله عن الأندلس ودعه لسان الدين

¹ - ديوان لسان الدين : 111/1 .

² - المصدر نفسه : 111/1 .

³ - المصدر نفسه : 386/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 138/1 .

⁵ - التعريف بابن خلدون ، ضمن الجزء 14 ، من تاريخ ابن خلدون ، ص 888 .

و بعد انصرافه أرسل إليه قصيدة ضمن كتاب ، يتشوق فيها إليه ، و ينفي عنه التهمة ، و يعاتب صديقه على ما كان منه من جفاء ، أيام إقامته بحاضرة غرناطة ، و يؤكد له أنه مع ذلك مشناق إليه ، كما يتمنى الظمان جرعة ماء واحدة .

ثم يقسم الشاعر على وفائه ، و عدم مجارة العاذلين فيه ، إلى أن تحاموه بأسا من أن يطاوعهم على مجافاة صديقه :

و إني على ما نالني منه من قَلِيٍّ لأشتاق من لقياه نغبة ظمآن
.. و تالله ما أصغيت فيه لعاذل تحاميته حتى ارعوى فتحاماني¹

2 - نفس الشاعر المؤثرة لحياة البذخ و اللهو :

أما المحور الثاني الذي تدور عليه إخوانيات ابن الخطيب ، فهو نفسية ابن الخطيب نفسه وأول ملامح تلك النفسية أنها في فترة الشباب ، عرفت الحياة اللاهية المرححة ، حيث يقضي لياليه مع أهل وده ، يجاذب فيها أستاذه رئيس الكتاب ابن الجياب ، مدارس العلم و الحديث الفكه إنها حياة لا يعدل بها النفوذ ، و الوزارة و الجاه ، فقد كان فيها منظر الحياة زاهيا ، صرفه عن كل متعة بعده ، يقول لسان الدين :

فكم ليلة لي للمني في رياضها أجرر من عصب الفكاهة أردانا
.. أبا حسن ما شئتُ بعدك مُنظِّرا يروق ولا خامرتُ نفسي سلوانا²

و من إقباله على الحياة بانسراح صدر و رضا بما هو فيه من جاه ، قبوله للهدايا و ارتياحه إليها ، فقد أهديت إليه قباقب خشب من بعض أصدقائه ، فأعجب بها كل الإعجاب ، وراح يشبهها بالجياد الدهم الأصيلة ، عندما تقبل الأفراس منها مع كل منها تبيع :

قد قبلنا جيادك الدهم لما أن بلونا منها العتاق الحسانا
أقبلت خلف كل حجر تبيع خلفت وصفها عليه عيانا³

و إذا كانت نفس الشاعر راضية بحياة القصر . بالأندلس ، فقد طرأت عليها طوارئ ، جعلتها تذوق السامة و الملل بعد ما انتقل إلى المغرب فها هو ذا يتشفع بصديقه ابن مرزوق لدى سلطان المغرب في استرجاع أمواله المغتصبة من طرف الغادرين بغرناطة ، فقد أنكر نفسه حتى أصبح غريبا لا يستطيع للملل الذي يحيط به دفعا حتى ظن أن الهموم ليلها طويل لا صبح له و يعود الشاعر إلى وعيه ، فيذكر ما أحاطه به البلاط المريني من رعاية و لكن آمال النفس لا حدود لها ، و هنا تكشف لنا هذه الأبيات نفس ابن الخطيب الميالة إلى الاستتكار من الأموال ، فهي قد عرفت بحبوحة العيش

¹ - المصدر السابق : 600/2 .

² - المصدر نفسه : 581/2 .

³ - المصدر نفسه : 596/1 .

و دفع القصور ، فها هي اليوم ، تلجئها الأقدار إلى الحياة القاسية التي تحرمه من سلطانه فلا أمر ،
و لا نهى ، بل توسل ، و رجاء ، و أمل :

يقول لسان الدين :

ما كنت أحسب أن أرمى بقاصية للهجر أقطع فيها جانب الممل
..و لا لليلي من صبح أطالعه كأن همي قد مد الدجئة لي
..و لست أجد ما خولت من نعم و لكنها النفس لا تنقل عن أمل¹

و يفصح الشاعر عن ملله من الحياة المقتررة حين يضح بالشكوى لصديقه ابن مرزوق من
بعض خدام السلطان أبي فارس الذين يقترون على الشاعر جرائته ، فيتأسف لما آلت إليه حياته إذ
أصبحت جرائته تجري على يد جائر ينقده ديناراً زائفاً ، بخس القيمة :

و ما كان ظني أن أنال جراية يحكم من جرائها في جائر
متى جاد بالدينار أخضر زائفاً و دارته دارت عليها الدوائر²

و هكذا جعل لسان الدين من شعر الإخوانيات الذي خاطب به أساتذته و أصدقائه صورة
صداقة لشخصيته ، فقد عبر فيه عن شغفه بالكتب ، و احترامه لأهل العلم ، و توقيره للأشراف منهم
لمكانتهم الدينية ، كما صور فيه علاقته بأصدقائه و وفاءه لهم و بين لنا رؤيته للصدقة و العوامل التي
تحفظها من الانهيار .

و في تلك القصائد أيضاً ، تصوير لنفس ابن الخطيب المحبة لحياة البذخ و المتعة ، و فيها
كشف لطموحه إلى الاستكثار من الأموال ، و تبرمه بحياة المنفى ، و قلقه و شكواه .
و هو شعر أغلبه مقطوعات ، لا يتوفر على الجودة الفنية لأن أكثره ينظم في مناسبات عاجلة
لا وقت فيها للروية و التفكير .

و نخلص في نهاية هذا الفصل إلى أن ابن الخطيب تناول أغلب الأغراض الشعرية التقليدية ،
و توسع في أفانين من القول فيها ، فقد مدح السلاطين و رجال البلاط ، و هو في ذلك المدح يصدر ،
عن رجل السياسة المحنك و شاعر البلاط الرسمي ، الذي لا يفوت مناسبة جلّت أو صغرت ، ليفيض
على ممدوحه بضروب من الإطراء ، يرتفع به فيها إلى مقام الحكماء ، و العابدين و إلى بطولة القيادة
المظفرين تارة أخرى ، و هو في ذلك كله يأخذ مادته الشعرية من إطلاعه الواسع على التاريخ ،
و معرفته العميقة بعلوم الإسلام و قد أطل في قصائد المدح ، و أكثر ، جارياً بذلك على سنة من سبقه
من شعراء البلاط .

¹ - المصدر السابق : 519/2 - 520 .

² - المصدر نفسه : 421/1 .

و قد سمحت لنا تلك المدائح ، بالكشف عن جانب من تاريخ أمتنا الإسلامية في شطر من الوطن الإسلامي ، ذلك التاريخ الذي عرف الأيام المشرقة التي عكس نصابها سلاطين خدموا دينهم ، و أضافوا إلى مجد حضارتهم منجزات مشرقة غير أن تلك القصائد أسفرت لنا عن جانب أسود سيئ حيك في الدسائس و المؤامرات و أضيعت فيه الأمانات ، و سقطت عروش و لذلك تعد تلك القصائد بحق وثائق تاريخية ، بقدر ما تتوفر عليه من حقائق ، ذلك أن الشعر على الرغم من ملامسته للوقائع التاريخية ، يظل فنا ، يصور ، و يشخص ، و يرمز و ينم ، عن ذات الشاعر ، و عواطفه ، و عالمه الوجداني عموما .

عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الخامس

- الخصائص الفنية لشعر ابن الخطيب

- أولا : الصور في شعره

- ثانيا : الموسيقى الشعرية

جامعة الأمير
القادر للعلوم الإسلامية

بعد أن تناول الفصل الثالث و الرابع: الجوانب الموضوعية من شعر ابن الخطيب ، يتكفل هذا الفصل بدراسة بعض الجوانب الفنية ، و نعني بذلك : دراسة الصور الشعرية و الموسيقى الشعرية في شعر ابن الخطيب اعتقادا بأن الفصل الثاني قد اتسع لبعض الجوانب الفنية الأخرى .

أولا - الصور الشعرية :

و الصورة من المصطلحات الفنية التي عرفها النقد المعاصر ، و لا نريد في هذا الفصل أن نبحث موضوع الصورة باستقصاء ، و لكن لا غناء بنا عن أن نحدد الإطار الذي نريده لهذا المصطلح حتى يتسنى لنا دراسة الصور في ديوان شاعرنا على ضوءه .

تعتبر الصورة جوهر العمل الشعري ، و كما أن الرسم تصوير بالألوان ، و الظلال فكذلك الشعر تصوير أداته الكلمة ، و غني عن البيان أن اللفظة في الشعر غيرها في الاستعمال العلمي ذلك أنها ترتبط بروية الشاعر و نفسيته فهي إذا جاز التعبير رمز و تلويح ، لا تعطينا المعنى المباشر منها فهي تحوجنا إلى تأمل و تعمق .

و من المعلوم أن الشاعر ، يؤلف صورته من قاموسه اللغوي ، تبعا لتكوينه الشعري و لتقافته ، و عبقريته عموما . و قد صاغ الشعراء العرب القدامى صورهم في القوالب الفنية التقليدية من تشبيهه و استعارة و مجاز ، و كناية .

و قد نظر نقادنا القدامى إلى بلاغة التشبيه ، و غيره من الأنواع البلاغية . فدرسوا تلك الأنواع من جوانب متعددة و لقد أدرك الإمام عبد القاهر الجرجاني قيمة الصورة الشعرية ، و أنها أبلغ من التعبير المباشر ، فقد "أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح و التعريض أوقع من التصريح و أن للاستعارة مزية و فضلا ، و أن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة" ¹ .

أما النقد المعاصر ، قد اعتبر الاستعارة أساس الصورة الشعرية و جوهرها فمهما كانت رؤية الشاعر إلى الحياة ن فإنه لا يختلف مع شاعر آخر في توظيف الاستعارة باعتبارها الوسيلة الفنية ، و الغاية في الوقت نفسه .

"إذ يتفق النقاد على مكانة الاستعارة الفطرية من الشعر فكل ما عدا الاستعارة من خواص الشعر تتغير ، من مثل مادة الشعر و ألفاظه و لغته و رؤيته و اتجاهاته الفكرية و لكن الاستعارة تظل

¹ - الجرجاني أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، علق عليه محمد رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت ، لبنان ،

مبدأ جوهرياً¹، و عمل الشاعر غير عمل المؤرخ إذ ليس هو كشافاً و تحقيقاً شأن العالم في تحقيقاته العلمية ، و لكنه إحياء و رمز و لما كانت الاستعارة أساس الشعر فهي نوع من الرمز غير أنها تختلف عنه في كونها أبعد غورا و أكثر تجريدا لأنها تتجاوز الحقيقة و تتسامى على الواقع ”فالرمز خاضع لعالم المشاهدة و الصورة من الممكن أن لا تكون خاضعة له“² .

و لقد فطن عبد القاهر من قبل إلى أهمية الاستعارة ، فأسند إليها وظيفة بالغة التعقيد ، فهي تشخص المعنى ، و تبعث فيه الحياة و الحركة ، و تكشف الغوامض ، و تورد المعاني المجردة في معرض ما يشاهد عيانا ”فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا و الأعجم فصيحاً و الأجسام الخرس مبينة ، و المعاني الخفية بادية جليلة... إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل ، كأنها قد جمعت حتى رأتها العيون ..“³ .

و الشاعر إذا أراد التعبير عن عالمه الخاص من أفكار ، و عواطف و أشواق صوفية في حاجة إلى التصوير ، مستعينا بالعالم الخارجي ، و من الواضح أنه يعتمد في ذلك على الحواس ، لأنها الوسائل التي تسهل إيجاد علاقة بين العالم المادي ، و العالم المعنوي ، و لعل المدركات البصرية تتال نصيب الأسد في هذا المقام بحكم أن ما يراه الإنسان و الشاعر ، بالطبع ، أوسع كثيرا مما يسمعه ، و يتذوقه ، أو يشمه و يلمسه و لذلك فالصورة الشعرية مهما تكن فهي نوعان : نوع ينتمي إلى العالم المحسوس ، و هي الصورة الحسية ، و نوع ينتمي إلى عالم المعاني و الأفكار المجردة ، و هي ما ندعوه الصور التجريدية ، و قد اعتبر عبد القاهر أن الصميم الخالص من الاستعارة ما كان الشبه فيه ”مأخوذا من الصور العقلية ، و ذلك كاستعارة النور للبيان و الحجة الكاشفة عن الحق“⁴ . و قسم التشبيه ضربين أحدهما ضرب لا يتصلح الشبه فيه محصلا بشيء من التأويل ، و ذلك كأن يكون من جهة اللون ، و الشكل و من جهة الهيئة أو من جهة الصوت⁵ .

و الصور عند ابن الخطيب ، تأتي على الأساليب الموروثة ، فهو يوظف الأنواع البلاغية التي يوظفها غيره من الشعراء القدامى من تشبيه ، و استعارة ، و كناية و من أشكال البديع المعرفة في عصره ، و التي أسرف الشعراء و الكتاب في التفنن في استخدامها ، كالجناس ، و التورية ، و المقابلة و الطباق .

¹ - د / مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ط2 ، دار الأندلس بيروت ، 1981 ، ص 124 .

² - د / ساسين عساف : الصورة الشعرية و نماذجها في إبداع أبي نواس ، ط 1 المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، ص 39 .

³ - الجرجاني عبد القاهر : أسرار البلاغة ، صححه و علق على حواشيه محمد رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت لبنان ، ص 33 .

⁴ - المرجع نفسه : ص 49 .

⁵ - المرجع نفسه : ص 71 .

و لدراسة الصور الشعرية عند ابن الخطيب رأينا توزيعها على المضامين الشعرية ، لأن الصورة مهما تكن ذاتية مرتبطة بنفس الشاعر فإنها ذات مضمون موضوعي ، و لا يمكن الفصل بين الذات و الموضوع في دراسة الفنون ، غير أنه من الناحية الأكاديمية العلمية ، نحاول دراسة الصورة كأنها مستقلة عن الموضوع .

لقد تبين من خلال الفصول السابقة (الذائي ، و الثالث و الرابع خاصة) ، ظهور محورين يحكمان شاعرية ابن الخطيب ، هما العقيدة الإسلامية ، من جهة ، و الطبيعة الأندلسية من جهة أخرى و لذلك فمن المناسب تضيف الصور الشعرية على هذا الأساس ، فهناك صور ذات منحى ديني إسلامي ، و صور ذات منحى طبيعي .

و قد تبين من عملية إحصائية قمنا بها أن الصورة المفضلة عند الشاعر هي التشبيه و لعل أغلب شعراء العربية ، و لا سيما القدامى منهم يميلون إلى استخدام هذه الوسيلة البلاغية ، فقد استخدم الشاعر هذه الوسيلة ألفا و مائتين ، و عشر مرات (1210) ثم تأتي بعد ذلك الصورة الاستعارية ، حيث استخدمها الشاعر ، سبع مائة و أربعا و سبعين مرة (774) ، في حين استخدم النوع الكنائي مائة و إحدى و عشرين مرة (121) .

* الصور الشعرية التي ألهمته بها الطبيعة :

للطبيعة في الأندلس سلطان على خيال الشعراء لا فكاك لهم عنه ، فحيثما قلب الشاعر بصره ير جمالا أذا ، فلا يملك إلا أن تفيض شاعريته متدفقة بما تلهمه تلك الطبيعة الشاعرة ، و لذلك نجد أن أغلب صور الشاعر ، يكون أحد عناصرها من الطبيعة الأندلسية سواء أكانت حية ، أم صامتة جامدة ، و لذلك أيضا فتلك الصور تؤلف خيالا حسيا ، بصريا ، أو سمعيا أو شميا أو ذوقيا و قد رأينا في شعر لسان الدين الغزلي ، كيف مزج الشاعر بين عواطفه ، و بين طبيعة الأندلس الفاتنة ، و من هنا تأتي تلك الصور للتعبير عن ذات الشاعر المنطلقة ، و المقبلة على الحياة في حبور و نشوة .

و لدراسة تلك الصور ، رأينا من الأفضل ، توزيعها على مجالي الطبيعة الحية و الصامتة ، و غني عن البيان أننا لا ندرس تلك الصور جميعا ، و حسبنا أن نمثل لأصولها التي تكفي للدلالة على عمل خيال ابن الخطيب في إنتاجه الشعري .

و سوف نمزج بين الصور التشبيهية ، و الاستعارية و الكنائية ، تقاديا للوقوع في التكرار .

1 - الطبيعة الصامتة :

في هذا المجال تتفاوت المشبهات بها من حيث اهتمام الشاعر بها ، و ربما كان أبرز مظاهر الطبيعة الجامدة (الصامتة) حضورا في الشعر العربي القديم هو البدر ، في جميع حالاته .

أ / البدر : و البدر في الغالب رمز لجمال المرأة أو مكانة الممدوح نما له من أهمية في حياة الإنسان و لا سيما في الليل ، و يربط لسان الدين بين جمال المرأة و جمال البدر ، فهذا يهتدي به السارون في الليلة الظلماء ، و ذلك بدر يهتدي به الشاعر في ليالي ضلاله و أرقه ، و لا سيما إذا كان في ليلة تمه :

يا بدر تم يهتدي بضياؤه ساري الفلاة و ليلتي ليلاء¹

و يكون البدر عادة ساطع الضياء ، و حوالبه ظلام كثيف ، و ذلك مما يزيد في جماله ، و يلتفت الشاعر إلى هذه الصورة البصرية ، و يرى فيها شيها بالمرأة التي ظعننت مخلفة آثار الجوى في قلبه ، و كانت في هودجها من وجهها في تسر و بين شعرها الفاحم في ظلام الهزيع الأول من الليل:

فأجبتهم شدوا الركائب موهنا و تحملوا الأقمار تحت هزيع²

و قد يلتفت الشاعر إلى صورة تقليدية حين يرى في جيد المرأة قمرا يطل تحت الأزرار (ق 185 - بيت 13) ، أو يرى في المرأة المتعممة في حياة القصور ، هلالا (في أسعد الأبراج) (ق 126 - بيت 1) .

ثم يأتي بعد المرأة ممدوح الشاعر في شبهه بالقمر فهو بدر يهتدي الناس بأرائه إذ لولاه ، لفسدت عقولهم و آراؤهم :

يا نيرا لولا توقد نور هفت الحلوم و قالت الآراء³

و إذا كان القمر ، يصاب أحيانا بالخسف فإن ممدوح الشاعر كامل أبدا : هو البدر إلا أنه الدهر كامل إذا عيب نور البدر بالنقص و الخسف⁴ و لكن قد يكون الملك طفلا غير راشد ، و حينئذ يكون كالبدر يبدأ هلالا ثم ، يكتمل حتى يصبح بدرا ، يقول لسان الدين مخاطبا المرثي و والد الطفل⁵ :

لئن خلفت منه هلال ملك و رحنا بعد شمسك في ظلام

فها هو كل يوم في ازدياد يشابه هيئة البدر التمام

¹ - ديوان لسان الدين : 268/1 .

² - المصدر نفسه : 653/2 .

³ - المصدر نفسه : 94/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 675/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 564/2 - 565 .

و في المادة أن يكون البدر محاطا بهالة من النور ، تفجر ينبوع الشعر في نفوس كثير من الشعراء لأنها سر من أسرار القمر التي تبعث على التساؤل ، و يؤخذ الشاعر بهذه الصورة البصرية فيمزج بينها و بين ممدوحه داخل قصره العظيم :

و تمتع منه بهالة ملك أطلعت منك أي بدر ليح¹
و من المعروف أنه لا يوجد إلا بدر واحد هو بدر السماء ، و لكن للشاعر أكثر من بدر ففي القصر ، ثان و ثالث من الأمير و ولي عهده :

لئن غر فضل الأفق فضل انفراده فبين القصور البيض ثان و ثالث²

و قد يرى لسان الدين في المرثي بدرا جلا الدجى لمن اهتدى (ق.24-بيت.10)
ثم يأتي الرجال الأشداء في الحرب مشبهين بالبدر ، في إشراق أوجههم و اطمئنان نفوسهم لشجاعتهم و استصغارهم لعدوهم ، فهم بدور فوق سحاب من دروعهم الصافية السابغة .

..إذا سحبوا ذيل الدروع إلى الوغى كما تسحب السحب البدر الطوالع³

و يستحضر الشاعر صورة البدر في مجالس اللهو ، فالخمر من صفاتها و انتشار حبابها بدر طلع في دجى الليل ، و قد مزج الشاعر في هذه الصورة بين اللذة الذوقية ، و المتعة البصرية بشكل يذكرنا بخمريات أبي نواس حيث تشترك أكثر من ساحة في تأليف حالة من النشوة (الكاملة) .

و كأنما بين الندامى أطلعت بدرا بجنح الليل من آياتها⁴

و في تلك المجالس أيضا يؤلف القمر مع بقية الكواكب صورة مقابلة لهيئة الشرب ، و قد دارت بينهم كؤوس الطلا ، و هي صورة بصرية اشتركت فيها أكثر من متعة نفسية و جسدية .

و دارت بنا الأقداح حتى كأننا بدور و كاسات المدام كواكب⁵

و أخيرا تأتي القصائد التي أرسلها إليه بعض أصدقائه ، كأنها بدور أبعدها فلك التدبير ، و الفكر :

و أقبلت تنهادى كالبدور إذا سبجن من فلك التدبير في حصص⁶

ب / الشمس :

1 - المصدر السابق : 190/1 .

2 - المصدر نفسه : 257/1 .

3 - المصدر نفسه : 170/1 .

4 - المصدر نفسه : 649/2 .

5 - المصدر نفسه : 108/1 .

6 - المصدر نفسه : 634/2 .

ربما كان البدر ، رمزا لجمال المرأة ، و إن كان يرمز إلى بعض صفات الرجل غير أن الشمس أقرب في حال الشاعر العربي القديم إلى الرجولة ، منها إلى الأنوثة ، بما تمثله من قوة و هيمنة و سمو ، فالممدوح شمس منيرة طلعت عند ما اشتدت بقومه الشدائد ، فأشرقت أرجاء البلاد ، و الشمس بقوة نورها تجلو الظلام ، و تبين المعالم ، و تهدي إلى سبيل الخلاص :

طلعت لها في الجحجح شمسا منيرة فأشرقت الأرجاء و انفرج الغم¹
و هو شمس في وضوح آرائه ، و صدقها بحيث لا يقع فيها اشتباه ، و هنا تكون الشمس مصدر إقناع ، و قد ابتعد الشاعر في هذه الصورة عن المعنى الحسي و انتقل إلى المعنى العقلي
المجرد :

هو السحب جودا و الكواكب همة و بدر الدجى وجها و شمس الضحى رأيا²
أو هو شمس في وضوح سيوخ فضله على الناس ، هذا الفضل الذي اشتهر بينهم مع العلم أن الشمس تخفي ، ثم تظهر ، و في هذه الصورة تجاوز الشاعر حدود المعادلة البلاغية المألوفة من أن المشبه به أقوى في الصفة من المشبه :

يا شمس فضل سناء ليس يحتجب و الشمس تسفر أحيانا و تنتقب³
و يأتي الممدوح مشبها الشمس أخيرا ، في حسنها ، و جمالها إذ السلطان في قصره شمس ، و القبة فوقه قوس قزح ، و نلاحظ هنا ، فضل المشبه ، إذ يفيض حسنه على القصر ، كما تفيض الشمس أشعتها على القوس :

فكأنني قوس السماء إذا بدت و الشمس مولانا أبو الحجاج⁴
ثم تأتي المرأة مشبهة بالشمس في صورة حسية بصرية ، فالمرأة تحت حجابها كالشمس وراء الغيوم ، يقول لسان الدين في إحدى موشحاته⁵ :

..عن شمس عكف في حجب عن عيون الورى
و أخيرا تشارك الشمس الخمرة في إشراقها ، وإشاعة النور في كل الأمكنة :
نبتة نديمك للصبوح و هاتها كالشمس تشرق من جميع جهاتها⁶
ج / البرق :

¹ - المصدر السابق : 544/2 .

² - المصدر نفسه : 676/2 .

³ - المصدر نفسه : 144/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 197/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 788/2 .

⁶ - المصدر نفسه : 169/1 .

رغم أن البرق أقل نورا من الشمس ، إلا أنه يروق للشعراء لأنه يخلب الأبصار و الأَبصار ،
لسرعة حركته ، و لما يدل عليه من عميم الخير ، و البركة .
و هو يقرن عادة بحركة السيوف في ساحة الوغى ، لا سيما إذا كان الجيش كثير العدد
موفور القوة ، فيهجم على العدو كقطع الليل ، حيث تلوح البيض ، في انقضاضها على الأعداء
كالبرق في سرعته :

فيومض من بيض الظبا بيوارق و يقذف من سمر الرماح بشهبان¹
و لآلاء البرق يوحى بانهمار الغيث ، و ذلك يناسب السيف في يد الممدوح ، فيجمع حينئذ بين
وظيفتين ، الإهلاك للأعداء و الجود على الأولياء :

و لحت مثل البرق في كفه لا ينكر البرق على الغيث²
و ما دام البرق ، يوحى بالقوة و السرعة فإن لسان الدين يتخذ منه قسيما للجياذ الغر ، إذ تغير
على الأعداء ، في حركة خاطفة ، و يلوح بياضها ، و تختفي أحيانا عن الأبصار ، و الصورة
المتحركة ، تناسب مقامات الحرب و الملاحم :

و أعددت من غر الجياذ صوافنا تغار بأدناها البروق اللوامع³
و من الصور التي يحرص الشاعر على استحضار ضوء البرق فيها تشبيهه بياض ثنايا المرأة
بلمعان البرق ، و يتساءل الشاعر إن كان ذلك البياض الذي يلوح و يخفى من ثغر المرأة وميض
ثناياها أم هو لمح البرق ، و يفتن الشاعر بذلك اللمعان ، فيلقي بنفسه في المهالك ، و يركب إليه
الخطوب و إن جلت معاطبها لما له من أثر على نفس الشاعر :

و وميض ثغرك أم تألق بارق و شهاب شنفك ذا أم الجوزاء⁴
إذا بارق للثغر يوما أهاب بي ركبت إليه الخطب و هو جليل⁵
و أخيرا يسند الشاعر للبرق وظيفة إجلاء الحق ، ذلك أنه قد يهتدي به الساري ليلا ، إذا
اختفى البدر :

و بروق الحق فاصرف نحوها خاطر الهمة مهما أومضت⁶

د / الماء :

¹ - المصدر السابق : 591/2 .

² - المصدر نفسه : 192/1 .

³ - المصدر نفسه : 649/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 93/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 481/2 .

⁶ - المصدر نفسه : 645/2 .

الماء من لوازم الطبيعة الأندلسية ، و لذلك أكثر شعراء الأندلس في إيرادها في صورهم ،
و يحمل ، إحياءات عديدة ، فيرمز إلى الحياة ، و الخصب و الصفاء ، و لابن الخطيب صور كثيرة
ضمن فيها عنصر الماء مشبها به ، و يوجد الماء في ديوان الشاعر في أشكاله المعهودة ، فهو غيث ،
و بحر ، و نهر و سحاب و مورد ، و بئر .

فالممدوح غيث غير أنه يغني عن البحر ، في عطائه العميم ، ذلك لأن البحر قد يغيب إذا
كان أحد موالى الممدوح المتوفين ، فيكون الغيث خلفا منه .

غنينا عن البحر الذي غاض بالحيا و عن كوكب العلياء بالقمر السعد¹
و تارة تكون هبات الممدوح بحارا (ق.588-بيت.20) ، أو يقوم مقام الغيث عند اشتداد الأزمة
(ق.459-بيت.16) أو يكون مورد غنى للشاعر يكفيه الفقر (ق.274-بيت.18) وإذا حلف المطر
المنسكب بعد الجذب بأنه أعم ندى من الممدوح فهو حانث ، و هنا يصيح الممدوح أقوى في الصفة من
المشبه به :

و إن حلف الغيث السكوب بأنه أعم ندى من يوسف فهو حانث²

و كما يكون الماء رمزا لجود الممدوح ، فهو أيضا رمز لرحمة :

أي غيث من رحمة الله هام و سراج بهديه وضاح³

أما الدموع فهي المشبه الثاني الذي يشبهه الشاعر بالماء ، مشيرا بذلك إلى غزارتها ، و معبرا
كذلك عن حزنه على فقيد أو شوقه إلى حبيب ، فتارة تكون نهرا ، يقذف بالياقوت و هنا تكون الصورة
أكثر إحياء لكون المشبه به مركبا ، و في هذه الصورة كذلك يصف الشاعر الدموع بالغرارة بالإضافة
إلى الصفاء (ق.415-بيت.2) ، و تارة تكون نهرا (ق.673-بيت.16) و في بعض الصور تكون
الدموع موارد يتجدد ماؤها و لا يغيب و يشير الشاعر بذلك إلى شدة معاناته و طولها ، و قلة صبره
في ذلك :

و عهدا "بعين الدمع" للدمع بعده موارد في أمأقنا و بحور⁴

و تكون سحابا هتانا (ق.24-بيت.16) ، و أخيرا قد تكون بئرا لما فيها من العمق الذي يناسب

عمق حزن الشاعر :

و فؤاد على جمر البعاد مقلب يماح عليه للدموع قلب⁵

¹ - المصدر السابق : 309/1 .

² - المصدر نفسه : 190/1 .

³ - المصدر نفسه : 253/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 395/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 158/1 .

و في دائرة الممدوح تنحصر عدة صور مشتقة من الماء ، فهو مجاهد في سبيل الله ، يغير بخيله على الأعداء ، مثيرة للنقع ، كأنه سحب في كثافته و ارتفاعه و هذا السحاب نشأ من بريق السيوف ، و أسنة الرماح ، و هكذا يحاول لسان الدين أن ينوع في صورته فيؤلف منها بين عدة عناصر ، طلبا لصورة مثالية للممدوح تتكافأ مع عظمتة و مكانته الإسلامية :

ناصر الحق مرسل النقع سحباً بين سمر القنا و بيض الصفاح¹

و قد حقق الممدوح نصرا لأنه قاد إلى أعدائه روضا ، جاده النصر ، بمنسكب غمامه ، و هنا أيضا يجتهد لسان الدين في إبداع الصور الجهادية ، مستعينا ، بما ترفد به الطبيعة الأندلسية ، إذ المؤلف عند شعراء المشرق أن يكون السحاب رمزا للعطاء ، العميم ، غير أن الشاعر بحكم ما يتميز به الشعر الأندلسي ، يؤلف من صورته الماء المنسكب على الروض صورة لجيش يحقق عظيم الانتصار و ربما كان في هذه الصورة ملمح قرآني إذ يومئ ماء المطر ، إلى تثبيت أقدام المؤمنين و تأييدهم بالنصر :

و روض سقاه النصر صوب غمامه و دارت عليه مفعمات سجاله²

و من الصور التقليدية التي يكون الماء فيها مشبها به ، أن الدرع على جسد المقاتل غدير فسي سقيها ، و صفائها ، و قوتها ، غير أن لسان الدين يضيف إلى هذه الصورة التقليدية ، عنصرا أندلسيا حين يرى في رماح المقاتل ، قضا نما و ترعرع بماء الدرع :

إذا اضطرب الخطي فوق غديرها يروك في لجة و قضيب³

و أخيرا يؤلف الشاعر من الماء صورة طريفة ، تنتمي إلى عالمه الخاص ، حين يرى قلمه مع دواته ، غائضا على الدر ، في بحر من الظلمات :

غائضا يستخرج الدر ببحر الظلمات⁴

و هكذا نلاحظ أن الماء بما له من تميز في الطبيعة يؤلف أكثر صور الشاعر مبتعدا بع عن مظهره المحسوس ، معبرا به عن عوالم من التجريد ، أولها نفسه المعذبة .

هـ/ الرياض و الأشجار:

الرياض و الأشجار مجلى الجمال في الأندلس ترنو إلى الشاعر من حيث التفت ، و لذلك نالت نصيب الأسد ، من صور ابن الخطيب ، و قد شبه بها عدة مشبهات ، أولها المرأة .

¹ - المصدر السابق : 255/1 .

² - المصدر نفسه : 485/2 .

³ - المصدر نفسه : 159/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 179/1 .

و أكثر الصور التي تقرن فيها المرأة بالغصن يتجه فيها اهتمام الشاعر إلى اللدونة ، و التمايل
الذين يتصف بهما جسد المرأة أثناء مشيتها .

إذا مشت أو تبت أعطافها فرحا فالظبي في نظر و الغصن في ميل¹

و من أنواع الشجر التي تكثر في صور لسان الدين البان : لما يتصف به من امتداد و لدونة ،
و كثافة أوراق ، و خضرة و في هذا المجال يأتي البان جزءا من أجزاء صورة متكاملة كل عناصرها
طبيعية ، مرئية ، فالمرأة بانة زانها ورق الشباب ، و قلب الشاعر يتفياً ظللها ، كأنه حمامة و قد
حاول لسان الدين أن يضيف إلى الصور التقليدية عناصر ، يستمدّها من بيئته لتكون أكثر تعبيراً عن
امتلاء نفسه بحبه لموطنه ، و تعلقه به :

يا بانة ورق الشباب ظللها و كأن قلبي بينها ورقاء²

و لابن الخطيب بعض الصور التي يطرف فيها كل الأطراف حين يحاول استغلال مشاهد
المكان إلى أقصى غاية ممكنة ، ليوفر لصورته شيئاً من الجدة و التأثير ، و هو بذلك يرسم لوحة
زاهية مليئة بالألوان ، و الحياة و ذلك حين يرى في وجه المرأة روضاً أما زهوره ، فهي ورود الخد
و نرجس العين إنه مزج عضوي بين الإنسان ، و المكان ، و أمثال هذه الصورة ، تعبر عن ذات
الشاعر ، المليئة بحب المكان ، و المتفتحة على الحياة اللاهية ، في بعض الأحيان :

و في الوجوه لنا روض أزاهره من وردة الخد ، أو من نرجس المقل³

و في صورة أخرى يشبه المرأة بالروضة التي سقي ورد خدها بدمع الشاعر :

يا روضة غرست لحاظي وردها و سكبت دمعي ديمة و سقيته⁴

أما المشبه الثاني بالأشجار ، و الغصون فهو حال الشاعر ، من شباب مضي و سرور يجده أو
أيام قضى فيها وطره من اللهو .

ففي لحظات الأنس ، يتحول الزمان إلى غصن متأود ، قد هزت أعطافه الأيام المستبشرة :

فقد عاد الزمان اليوم عيداً و هز البشر أعطاف الوجود⁵

و توحى للشاعر أيام الصبا و الشباب بهذه الصورة نفسها ، من النضارة و الحياة الناعمة
(ق.187-بيت.6) ، و قد يرى الشاعر في أيام الشباب غصنا داني الثمر ، لما يحقق الشاعر فيه من
رغائب ، و ما تدر عليه الحياة من مال و فير :

1 - المصدر السابق : 491/2 .

2 - المصدر نفسه : 93/1 .

3 - المصدر نفسه : 492/2 .

4 - المصدر نفسه : 184/1 .

5 - المصدر نفسه : 105/1 .

إذ العيش غض و الشيبية وارف جناها و شمل الحي منتظم العقد¹
و إذا تذكر أحبته في الأيام الخالية اهتز شوقا كما يميد غصن رطيب في روضة غناء :
ترنحني الذكري و يهفو بي الجوى كما مال غصن في الرياض رطيب²
و حينما يتوجه الشاعر إلى سلطان بمدائحها فهو كالروض ، تسقيه سحائب علمه فيثمر شعرا :
و إنما أنا روض و العلوم له غيث فإني جنى إن شئتة تجد³
و أما المشبه الثالث فهو أصل الممدوح ، فهو عند الشاعر ، فرع من دوحة الملك التي تفرع
منها أبأؤه .

فارتاح دوح الملك عن فرع العلى فازداد في أفق الجلال شهاب⁴
أما عزم الممدوح على الانتصار من أعدائه ، فهو دوح هزه في روض الرجاء فنال ما يتمناه
(ق.91-بيت.28) ، و إذا تمنى شيئا كان لأمنيته غصون دانية القطاف (ق.179-بيت.5) ، و إذا
طمحت نفسه إلى غاية سامية فغصونها تعود عليه بأطيب الجنى (ق.403-بيت.8) .
و / الأزهار :

للأزهار حضور قوي في الشعر العربي عامة و الأندلسي خاصة ، لما لها من معاني الجمال ،
و لذلك أكثر ما تكون مشبها به ، إنما تكون للمرأة ، و قد اهتم الشعراء بعدد معين من الأزهار ، فابن
الخطيب مثلا ، يذكر زهرة الأقحوان في صورة الأسنان ، لبياضها ، و حسن تربيتها ، حيث يورد هذه
الصورة ضمن الأسلوب الشائع المشهور عند الشعراء ، و ذلك بقوله :⁵

بسمت أقحوانة و تثنتت بانه ثم لاحظتني غزالة

و يجتهد لسان الدين في تأليف صور أكثر إبداعا و جمالا ، فيضيف إلى أقحوان الأسنان تألق
البرق منها ، و إشراق الوجنات بسبب ذلك اللعان :

و لثغرها عند ابتسام أقاحه برق تألق في سنا وجناتها⁶

و لابن الخطيب صورة مبتكرة حقا ، إذ يشبه شواشي اليهود الصفراء ، بأقحاح أسقطتها الريح ،
فنزعت منها حواشيها البيضاء ، و هنا يحافظ الشاعر على اللون الأصفر من هذه الزهرة مريدا بذلك
المقاربة في التشبيه (ق.672-بيت.3و4) .

1 - المصدر السابق : 301/1 .

2 - المصدر نفسه : 158/1 .

3 - المصدر نفسه : 278/1 .

4 - المصدر نفسه : 105/1 .

5 - المصدر نفسه : 527/2 .

6 - المصدر نفسه : 170/1 .

أما الشقائق ، فيشبهه لسان الدين ، الخد بحمرتها ، و هو في ذلك يتابع ما جرى عليه شعراء العربية ، من تقاليد ، و صور موروثة :

..و سال بصفح الخد در دموعه رأيت شقيق الروض بالغيم قد تظلاً¹

أو يشبه بها السيوف ، المسربلة بدماء الأعداء ، و تساعل عند رؤيتها قاذلاً : أهذه سيوف أم شقائق نعمان ، قاصداً بذلك ما فيها من حمرة قانية :

..نظرت إليها و النجيع لباسها فقلت سيوف أم شقائق نعمان ؟²

و إن أسلوب المبالغة هنا جلي ، إذ اعتمد الشاعر على أسلوب تجاهل العرف و ربما شبه الخدود بالورد لتوردها ، و مشاكلتها إياه في اللون (ق.515-بيت.51)

و أما النرجس ، فيشبهه به العين (الموشحة رقم 6) و قد يخالف ما يكاد يكون عرفاً بين الشعراء ، فيشبهه القباب البيضاء ، بالسوسان الذي قلبت أزهاره :

مضارب في البطحاء بيض قبابها كما قلبت للعين أزهار سوسان³

و ربما استعمل الأزهار لكتاب يجيد صاحبه تأليفه ، و يبدع فيه (ق.583-بيت.1) أو للأجر الذي ينخره الله للممدوح (ق.171-بيت.83) أو للأدب الجيد (ق.296-بيت.2) أو لخد امرأة (ق.114-بيت.12) ، أما الريحان بما يتضمنه من معنى العلاقة الطيبة فهو رمز لرضا الممدوح ، و ربما شبه باللسان الطيب العرف ، تحية الممدوح (ق.537-بيت.13) .

و أخيراً يلتفت لسان الدين إلى الروائح الطيبة التي تتخذ من الأزهار ، غالباً لأن فيها شبيهاً بذكر الممدوح الذي انتشر بين الناس كانتشار العرف الطيب بينهم كما يشبه ضريح المرثي الذي تبعث منه الرائحة الطيبة ، بالشذى الزاكي نظراً للأجر العظيم ، و العاقبة الحسنة التي آل إليها (ق.256-بيت.38) .

ز / الصباح و الليل :

الصباح بضوئه و الليل بظلامه ، طرفاً نقيض : الأول يرمز إلى بداية الحياة ، و الثاني يرمز إلى نهايتها ، و هاتان الظاهرتان تسترعيان نظر الشعراء ، و لاسيما شاعراً أرقاً ، يقضي أغلب لياليه ساهراً .

فالصباح عند لسان الدين جواد سريع ، أبيض اللون ، و هنا يمزج الشاعر بين مشبهين ، السيف المسلول اللامع ، و الصبح المنبثق بين الظلام :

و منصلت كالصبح أشهب ساطع و أحمر وردي و أصفر فاقع⁴

¹ - المصدر السابق : 768/2 .

² - المصدر نفسه : 591/2 .

³ - المصدر نفسه : 590/2 . 4 - المصدر نفسه : 649/2

أو هو الممدوح يكلف بأعمال جسام فيقوم بها أحسن قيام ، فيكون ذلك بشرى لا تكذب أبدا ،
و ذلك لما فيها من إدخال السرور على قلب الشاعر ، كما تتشرح نفسه لرؤية ضياء الصباح :

بشرى أتت مثل الصباح لناظر لم تعز نسبتها إلى كذاب¹

أما الليل ، فيتابع لسان الدين فيه شعراء العربية ، إذ يشبه به سواد شعره أيام شبابه ، و هو لا
يبعث على السرور إلا في هذه الحالة و أحيانا يقابل لسان الدين بين صورتَي البياض و السواد ليعبر
عن شدة أسفه على ما انخرم من أيام حياته ، فقد كان يستره ظلام شببته فصار يفضحه صباح شبيهه :

قد كان يسترنني ظلام شببتي و اليوم يفضحني صباح مشببي²

و قلما وجدنا صوراً للمرأة مشبهة بالصباح في بياض وجهها ، و منها :

و أسفرن عن مثل الصباح المسافر كواكب الظلماء لحن لناظر³

و لابن الخطيب صورة في الشفق الذي يأتي بعد ضياء النهار ، و قبل ظلام الليل فيشبه النهار

بأفق مضيء ، و الورود حواليه بحمرة الشفق :

كانما النهار في أثائه أفق و الورد في الشط منه حمرة الشفق⁴

جـ/ النجوم و الشهب :

النجوم في العرف العربي رمز للرفعة و الأسرار المبهمة و قد ترتبط بها عقائد هي أقرب إلى
الشعوذة ، و لذلك كثر ورودها في الشعر العربي ، أما الشهب فهي مثال للرفعة ، و سرعة الحركة ،
و الإشراق .

و أكثر النجوم وروداً في صور لسان الدين : هي الجوزاء إذ هي عنده موطئ قدمه ، كأنها
نعل له تيهها بنفسه ، و إعجاباً بها ، و نلاحظ أن الشاعر على عادة شعراء العربية ، قلما يلتفتون إلى
لون هذه النجوم ، و يكتفون بسموها ، مع أن العرب اشتقت اسمها من الشاة الجوزاء أي البيضاء
الوسط⁵ :

و أنتعل الجوزاء عجباً و إن غدت تقرط آذان بها و تشنف⁶

أما الكواكب ، و أكثر ما تستعمل جمعا ، و قد استعملها لسان الدين مفردة في تشبيه خوذه
السلطان حين يضعها على رأسه ، إذ تبدو أشبه بكوكب الصباح في تقوب ضوئه :

¹ - المصدر نفسه : 164/1 .

² - المصدر نفسه : 128/1 .

³ - المصدر نفسه : 584/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 691/2 .

⁵ - الزمخشري : أساس البلاغة ، ص 104 .

⁶ - ديوان لسان الدين : 671/2 .

كأنني كوتب الصباح بدا على جبين الغني بالله¹

غير أنه استعملها جمعا ، لمنازل مدينة بيضاء ، تبدو شبيهة بكواكب الظلماء (ق.10-بيت.1) و لكؤوس المدام في انتشار حبابها ، و إشاعته للنور (ق.14-بيت.4) .
أما الشهاب فلسان الرمح المشع وسط جيش كثيف كأنه ظلام الليل فكأنه يقذف (بشهبان) يرمم بها العدو (ق.515-بيت.45) أو لشنف المرأة في لونه (ق.1-بيت.2) أو للممدوح حين يرزق بولد (فيزداد ، في أفق الجلال شهاب) (ق.12-بيت.8) .

ط / الجواهر :

إن الجواهر و الأحجار الكريمة ، استرعت ذوق الشاعر ، لما تمثله من نفاسة و نقاء ، و لمعان و حسن ، و أكثر الجواهر ورونا في شعره ، اللؤلؤ ، وهو كبار الدرّ ، فيشبه بها الدموع لصفاتها ، و نفاستها :

قبت و جفني من لآلي دمه غني و صبري للشجون سليب²

أو يشبه بها الخمر ، مجاريا بذلك أسلوب شعراء الخمرة³ (ق.91-بيت.4) و يشبه الثنايا بالجواهر عموما (ق.126-بيت.12) .

أما الزبرجد فينسب به قوائم الخيل ، لشدته ، و صلابته :

و قامت على منحوتة من زبرجد تخط على الصم الطلاب إذا تخطو⁴

و من عناصر الطبيعة الجامدة الأخرى ، نجد الظل ، و يشبه به الأمن في مملكة الممدوح ، لما يبعثه في نفس من يتقيؤه من راحة ، و طمأنينة .

2 - الطبيعة الحية :

الصور التي تؤلفها الطبيعة الحية قليلة ، قياسا إلى السابقة ، و أكثر الحيوانات حضورا في هذا النوع : الغزال ، و الأسد ، ثم بعض الطيور ، كالغراب ، و الصقر و نلاحظ أن أكثر هذه الصور تقليدي لم يأت فيه لسان الدين بجديد يضاف إلى رصيد الشعر العربي .

أ / الغزال :

أورد لسان الدين صوراً كثيرة شبه فيها النساء بالطباء ، في روعة نظراتها ، فقد أعجب الشاعر بامرأة إذا نظرت تغار منها الطباء :

¹ - المصدر السابق : 750/2 .

² - المصدر نفسه : 158/1 .

³ - انظر هذه الصورة في شعر الأعشى و بعض الجاهليين في : أساليب الصناعة في شعر الخمر و الأسفار بين الأعشى و الجاهليين ، د/محمد عمدة حسين ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، 1973 ، ص 31 .

⁴ - ديوان لسان الدين : 460/2 .

إذا ما رنت غارت بأحاطها الظبا
و مَهْمَا انْتَبَتْ غَصَّتْ مَنْعَمَةَ الْقُضْبِ¹
و إذا ما نظرت إلى الشاعر مطيلة النظر إليه كانت غزالة (ق.456-بيت.33) . و قد يشبهه
لسان الدين بالغزلان خيل الممدوح لضمور بطونها ، و دقة سيقانها :

و تذعر غزلان الظباء بغزلان²

ب / الأسد :

الأسد رمز للقوة ، و الشجاعة و الشموخ ، و هي الصفات التي أخذها الشاعر من الأسد
لممدوحه و قومه ، فهم أسد جهاد أذعنتم لهم الأعداء :

و أسد جهاد أذعنتم لسيوفهم جلالقة الثغر الغريب و رومه³

و (مشور) الممدوح غاب أسود (ق.171-بيت.79) ، و يحاول الشاعر أن يركز على قوة
الممدوح أمام أعدائه ، فيشبهه بالأسد ، و قد هجم على صغار الغنم ، مستصغرا بذلك هؤلاء الأعداء :

و صلت يوم التقى الجمعان مُنْصَلْتَا
كالصقر في السَّربِ أو كالليث في النَّقْدِ⁴

ج / الطيور :

من الطيور يشبه الشاعر قلبه بورقاء ، مريدا بذلك ما لها من سجع ، و بكاء تعبيراً عن حزنه
و قلقه (ق.1-بيت.3) و يشبه بالغربان سفن الحرب ، لسوادها إلا أنها غربان سانحة ، تفاؤلاً للممدوح
بالنصر :

و غربان أثباج زجرت سنيحها و يظهر نجح الأمر في حسن فآله⁵

أو يشبه الليل بالغرراب للون كذلك (ق.163-بيت.2) أو يشبهه بالطير عموماً حين يمد جناحه
في انتشار الظلام (ق.163-بيت.1) .

و من الطيور التي تؤلف بعض صور الشاعر ، الظليم في سرعته (ق.515-بيت.48) و يجد
الشاعر في النحل مَتَشَبِّهًا بِخَلَايَاهُ شَبِيهَا بِرِجَالِ الْمَدْحِ حِينَ يَتَعَلَّقُونَ بِسُورِ حِصْنٍ ، يَشْتَدُّونَ فِي بُلُوغِ
نَهَائِهِ (ق.11-بيت.13) .

1 - ديوان لسان الدين : 122/1 .

2 - المصدر نفسه : 591/2 .

3 - المصدر نفسه : 552/2 .

4 - المصدر نفسه : 277/1 .

5 - المصدر نفسه : 485/2 .

* الصور الشعرية ذات الطابع الإسلامي :

نريد بهذا النوع من الصور ما كان المشبه فيه فيها مستعاراً من مجال من مجالات الحياة الإسلامية ، كالعقيدة ، و العبادة و القصص الإسلامي ، و الشخصيات الإسلامية ، و سنحاول معرفة ، كيفية ربط الشاعر بين ركني الصورة ، أعني المشبه و المشبه به ، و ما هي أغراضه في ذلك .

1 - الصور التشبيهية :

لا يمكن في هذا المجال ، دراسة كل تشبيه على حدة لعدم إمكان ذلك من الناحية العملية و لعدم جدوى هذه الدراسة الشكلية أيضا ، و لكن حسبنا أن نوزع تلك الصور ، إلى زمر حسب المشبه به ، معتمدين على المجالات الإسلامية التي استوحاها الشاعر في قصائده ، أعني التي جعلها مصدرا لخياله الشعري .

أ - العقيدة الإسلامية :

في هذا المجال ، نجد القضاء و القصر ، ينال اهتمام الشاعر ، و هو مشبه بجنود السلطان ، و يتميز هذا النوع من الصور بكونه عقليا ، تجريديا ، إذ العلاقة بين جنود السلطان و قضاء الله ، علاقة عقلية ، و هي عبارة عما تميز به كل منهما من قوة خارقة و إرادة نافذة ، بحيث لا يستطيع الإنسان لها دفعا و نحن نعلم ما تمثل ، عقيدة القضاء بالنسبة للشاعر المسلم إذ هي مصدر القوة كما سلف ، و لكنها أيضا مصدر الراحة النفسية و الطمأنينة ، و هو بالنسبة لجيش المسلمين تعبئة روحية عظيمة ، و طاقة تفوق عدة العدو و عدده ، مهما تكن كثرتهما :

فمن المدافع و الملائك حزبه و الله رده و الجنود قضاء !¹

أما الجنة ، دار الخلود ، فقد تأتي للشاعر استخدامها أكثر من مرة ، و هي مرة أشبه بروضه زاهية فيها (حور) تمشي ، و قد عبر الشاعر في هذه الصورة عن متعة روحية ، و كان المظنون أن حياة اللهو ، تستدعي متعة جسدية غير أن خيال الشاعر المسلم ينأى به عن اللذات العاجلة ، و يسمو به إلى حياة روحية أسمى لذة :

جنان بينهن الحور تمشي أحقا هذه دار الخلود ؟²

و تارة تأتي مشبها بما يجده الشاعر من متعة عند وصل الحبيب : و هذا النوع من الصور

أيضا عقلي ، كما تأتي مشبها بقاء الشاعر ببعض أصدقائه³ :

و وصل كأننا منه في سنة الكرى و عيش كأننا منه في جنة الخلد

¹ - ديوان لسان الدين : 95/1 .

² - المصدر نفسه : 283/1 .

³ - المصدر نفسه : 302/1 .

أما الشيطان : و هو رمز الشر فيأتي مشبها بعدو المسلمين : النصراري الصليبيين ، و من أعمال الشيطان الإغواء ، و لكن الشاعر أسند إلى أعداء المسلمين عملا قبيحا آخر هو استراق السمع من الملا الأعلى ، معتمدا على ما قصه القرآن عن الجن المردة ، الذين تتلقاهم الرجوم و هذا التشبيه من الصور الوهمية التي لا تتركها الحواس ، و لكنها لو أدركت بها ، لكانت مرئية بالبصر :

إن طاف بها شيطان عدى يبغى لسماك مسترقا¹

ب - العبادة و المناسك :

في هذا المجال تأتي المحاريب مشبها بها في كثير من الموضوعات و الأغراض ، منها أثر أخفاف النياق التي تحمل ركب الحج ، لزيارة الرسول (ص) ، و للمحراب قداسته في الإسلام إذ هو موضع العبادة ، و مناجاة الله ، و لما كانت النياق تحمل على ظهورها زائري النبي (ص) فقد أصبح لآثار أخفافها من القداسة ما هو للمحراب ، فجاز للشاعر أن يسجد في ذلك الموضع و هذه الصورة العقلية ، تحمل شحنة صوفية أشرنا إليها أثناء الدراسة الموضوعية للأغراض الشعرية :

إذا أثر الأخفاف لاح محاربا يخر عليها راکعا و ينيب²

و تأتي الكعبة ، ضمن رموز العبادة الإسلامية ، مشبها بكثير من المشبهات منها ، القبة المطلية على المجلس بقصر الحمراء ، و ظاهر الصورة حسي غير أن حقيقتها عقلية إذ أن الكعبة هي أظهر مكان في الأرض ، عند المسلمين ، و قد أراد الشاعر أن يسند إلى قبة القصر ، بعض قداسة الكعبة إذ هي أعني القبة ، رمز لسلطان مسلم يحمل شعار الإسلام ، و به يقضي بين الناس :

فقل في إني للمؤمل كعبة و إن كنت قد أبرزت في زي كاعب³

و ما أكثر ما يستعير الشاعر ألفاظ المناسك الإسلامية ، و أسماء البقاع التي تختص بعبادات إسلامية ، كالحطيم و زمزم لتصوير حالة صوفية معينة ، فيأتي الحطيم مشبها بجسمه الذي أضواه الشوق ، و يرد زمزم للعين الباكية ، شوقا إلى "ظل الحمى" :

و يقنعني أني به متكيف فزممه دمعي ، و جسمي حطيمه⁴

ج - الشخصيات القرآنية :

و يصوغ لسان الدين تشبهاته ، بشكل لافت للانتباه ، من الشخصيات القرآنية ، و على رأس هؤلاء ، الأنبياء عليهم السلام باعتبارهم مثلا عليا في الأخلاق ، و العمل الصالح و الأسوة الحسنة ، و يأتي (يوسف) عليه السلام مشبها بابن صديق للشاعر ، انتظره طويلا بعد اغتراب ، و في هذا المقلم

¹ - ديوان الصيب و الجهام : ص 630 ، و في الديوان يبغى سماك مترقا ، و نظن ذلك خطأ مطبعيا .

² - ديوان لسان الدين : 157/1 .

³ - المصدر نفسه : 115/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 549/2 و انظر : القصيدة رقم 114 البيت 2 .

يتخذ الشاعر من النبي يوسف عليه السلام رمزا للرجل ، يغترب عن أهله قهرا ، و ظلما ، و يأتي يعقوب عليه السلام مشبها بهذا الصديق ، في البث و الشكوى و الجوار إلى الله تعالى ، و نلاحظ أن الشاعر في هذه الصورة يعتمد على أسلوب الشخيص ، لأنه الأنسب للتعبير عن معاناة الوالد ، في انتظار ولده الذي حكم الزمان عليه بالغرابة :

كيوسف كان فعل الزمان به و كنت في البث و الشكوى كييعقوب¹
د - القصص القرآنية :

يهتم لسان الدين بأخذ مواد صوره من قصص القرآن الكريم ، و في هذا الشأن نجد ، من نماذجها قصة يأجوج و مأجوج ، القوم المفسدين في الأرض الذين ضرب عليهم ذو القرنين سدا ، فهم يسعون في نقبه ، و يستحضر الشاعر هذه الصورة ، في بيت تهكمي ، يسخر فيه من بعض أصدقائه ، و يشبه أولاده في إلحاحهم عليه في المال ، و بشاعة منظرهم بهؤلاء القوم المفسدين ، إن الصورة هنا تعتمد على قصص قديم لكنها لا تبلغ مستوى الرمزية في التعبير ، و لكنها صورة تأخذ الظاهر لا غير :

تخالهم يأجوج دارت بذى القرنين يدعون إلى خرج²

و من أنواع الصور التشبيهية التي يستخدمها الشاعر ما يعرف بتشبيه التمثيل الذي يختلف عن التشبيه ، في طبيعة وجه الشبه و ”كل تمثيل تشبيه و ليس كل تشبيه تمثيلا“³ ، و من خلال هذا النوع من الصور يستخدم الشاعر ، قصة نوح عليه السلام حين حطت سفينته على (الجودي) و قد أوردها الشاعر لوصف عذار مقوس على صفحة خد حسناء :

و قال قوس عذار فوق صفحته سفينة الحسن قد حطت على الجودي⁴

هـ - الأسلوب القرآني :

يمكن أن يدرس أثر الأسلوب القرآني : لغة ، و صورة ، في شعر ابن الخطيب في بحث مخصوص ، غير أننا ، نقنصر هنا على بعض النماذج البيانية ، بعدما تقدم من أمثلة لذلك التأثير في الفصل الثاني⁵ .

و من الصور القرآنية التي يستوحياها لسان الدين ما ورد في وصفه تعالى لعاقبة الكافرين و جزائهم : و ذلك قوله : ”.. و لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط“ (الأعراف/40) .

1 - كذا ورد وزن البيت مختلا في الشطر الأول ، الديوان : 162/1

2 - الديوان : 212/1 .

3 - الجرجاني : أسرار البلاغة : ص75 .

4 - ديوان لسان الدين : 324/1 .

5 - انظر الفصل الثاني : الأثر القرآني ص96 .

و هي كناية عن استحالة دخول هؤلاء ، إلى الجنة ، غير أن لسان الدين يوظف هذه الصورة من خلال التشبيه ، لوصف حالته بعد مقتل والده و أخيه في معركة طريف ، فصارت الدنيا في عينيه كسم الخياط ، في الضيق و الحرج و انعدام الحول ، و القوة .
و من هذه الصورة القرآنية صورة المظهر المخادع الذي يودي بمن ينخدع به و ذلك في قوله تعالى : " و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا " الآية . (النور/39) ذلك لأعمال الكافر يوم القيامة ، و عند الشاعر يأتي السراب بقيعة ، لمظهر الدنيا الخادع الذي يغتر به الإنسان :

.. لا تغترر فهو السراب بقيعة قد خودع الماضي به و الآتي¹

و أخيرا يورد لسان الدين (الحدائق الغلب) لأصل الممدوح و أرومته ، و نلاحظ أن أحد ركني الصورة معنوي (الأرومة) و الثاني ، حسي بصري (الحدائق الغلب) و سوف نقف على كثير من الصور البصرية التي يؤثرها الشاعر ، و هذا لا يعني أنه قد أهمل الصور العقلية و قد أوردنا لها بعض النماذج فيما سبق :

و أنت من الصيد الذين سمت بهم أرومة لخم في حدائقها الغلب²

2 - الصور الإستعارية :

الاستعارة هي الوسيلة الثانية التي يستخدمها لسان الدين بعد التشبيه و هي نوع من الصورة تلغي التباعد بين عالم الحس و عالم العقليات المجردة ، بادعاء أن أحدهما عوض عن الآخر ، ففوة الخيال فيها أظهر منها في التشبيه ، لكونها تكسر الحواجز الفاصلة بينهما و لذلك فهي أكثر ملاءمة للتعبير عن ذات الشاعر ، و عواطفه التي لا يكفي الأسلوب المباشر للإفصاح عنها ، إن هذا النوع البياني قابل لتوفير التشخيص ، و بعث الحركة في الصورة .
و قد تأتي لسان الدين أن يوظف، صورا استعارية تكون صفات المشبه به ، فيسها تابعة للإنسان ، و لكنها كثيرا ما تكون صفات دينية :

فمن العبادات : نجد الدوح يصلي عند تمايله ، و في الصلاة كما هو معلوم أفعال جسدية ،

و أخرى قلبية ، و لذلك فهذه الصورة أقرب ما تكون إلى التجريد :

و الدوح صلى بالتحيات التي ألقى بمسمجه النسيم الطيب³

و من صور العبادات الإسلامية كذلك أن الطير ، يرفع صوته بالأذان و الحمام البيضاء ، تتلو

آيات القرآن الكريم ، و البلابل تخطب ، ..

¹ - ديوان لسان الدين : 187/1 .

² - المصدر نفسه : 117/1 .

³ - المصدر نفسه : 109/1 . انظر القصيدة رقم 598 ، البيت 19 .

و في هذه الصورة نلاحظ امتزاج الدين بالجمال ، فهي على كونها صورة تشخيصية توحى لنا بمدى حضور الجانب الديني ، و دوره في خيال الشاعر :

و الطير قد نفض الجناح مؤذنا و الورق تتلو و البلايل تخطب¹

أما قصر السلطان المريني فهو ، كعبة يحج إليها ، فيأتيها الطائفون من كل مكان و بذلك يتحول القصر إلى مكان مقدس نظرا لهيبة السلطان و مكانته في قلوب المسلمين :

حتى تحج محلة رفعوا بها علم الوفاء لأعين النظار²

و أما ركاب الراحلين ، فهي صائمات عن كل شيء إلا عن الوصول إلى ديار الأحبة ، لا تقبل رخصة في ذلك ، و الصوم رمز لمكابدة الشوق إلى الحبيب و عدم الالتفات إلى غيره كما أنه رمز للوفاء ، و لا يكون بعد الصوم إلا الجائزة و ذلك العيد ، و هو عند الشاعر لقاء أحبته .

إن هذه الصورة على ما فيها من تشخيص أيضا ، تفسر لنا نفسية الشاعر القلقة المضطربة لشوقها إلى حبيبها ، لأن الرخصة عفو عن الشاعر ألا يعاني ، و لكنه لا يأخذ بها ، شأن المؤمن المحتسب المخلص في عبادته يقول لسان الدين في إحدى موشحاته :³

كل و جناء تتلع الجيدا و تبذ الرفاق
حسبت ليلة اللقا عيدا فهي ذات اشتياق
صائمات لا تقبل الرخصة قبل فطر و عيد
و هي مذ أثلته مختصة بجهاد جهيدا

و من الصور التابعة لعظمة الممدوح ، أن الدهر يقف أمامه تائبا ، و قد أراد لسان الدين هنا أن يخرق ذلك الإجماع بين الشعراء العرب القدامى على اعتبار الدهر قوة لا تقهر ، تعظيما لممدوحه فتوبة الدهر توحى بقوة الممدوح التي تعلو على البشر ، و نحن نعلم أن التوبة إذعان و خضوع ، و لا يكون ذلك إلا للقاهر ، الغلاب :

أ يوسف إن الدهر أصبح واقفا على بابك المأمول موقف تائب⁴

و من الصور التي يستوحى الشاعر فيها مناسك العبادة الإسلامية إذعانه للهوى ، و هو يحج كعبته ، و يقضي مناسكه ، و إخراج المعنى في هذه الصورة يوحي بعذرية هذا الحب ، و صوفيته ، لأن الكعبة كما سبقت الإشارة : أقدس مكان عند المسلمين :

لما دعا داعي الهوى لبيته

1 - المصدر السابق : 1/ 113

2 - المصدر نفسه : 1/ 420 .

3 - المصدر نفسه : 2/ 789 .

4 - المصدر نفسه : 1/ 184 .

و حجبت كعبته فما من منسك إلا أتيت شعاره و قضيت¹

و من مجال العقيدة : تأتي الجنة في المقام الأول ، و هذا النوع من المشبهات فيما يبدو ، هو الأثير لدى الشاعر و قد رأينا في الصور التشبيهية أنها وردت مشبهة بالحياة اللاهية للشاعر ، و لكنها في هذه الصورة الاستعارية تأتي لتشبيه الممدوح ، فلقاءه دخول إلى الجنة ، و فراقه جزاء لذنب ارتكبه الشاعر ، و هذه الصورة تختصر لنا مصير بني آدم المؤلم بخروج أبيهم آدم من الجنة بسبب المعصية ، و يمكن أن تكون هذه الاستعارة قد قاربت شيئا من التكثيف الرمزي :

يا جنة فارقت من غرفاتها دار القرار بما اقتضته ذنوبي²

و من الشخصيات الإسلامية التي تأتي طرفا في استعارات لسان الدين ، النبي (سليمان) عليه السلام أما المشبه به ، فهو الممدوح ، (أبو حمو) . و سليمان رمز للسلطان المطلق اليد ، الذي أوتي من الكرامات و المعجزات ما لم يوهب لغيره من ملوك الدنيا ، فبالإضافة إلى القوة الخارقة التي سخرها الله له من جن و حيوان ، و إنس ، فقد أوتي منطق الطير ، و الحيوانات الأخرى يضاف إلى ذلك ما أتاه الله من حكمة ، في القضاء بين الناس . إن هذه الصورة تختزل ما ذكره الشاعر في مطولته التي مدح بها (أبا حمو) و بذلك تعد من الصور الرمزية الموحية ، يقول لسان الدين ،
والضمير للقصيدة التي نظمها في الممدوح :

قصدت سليمان الزمان و قاربت في الخطو تحسب نفسها بليسا³

و مثلما وجدنا القصص القرآني مُستلهمًا في بعض الصور التشبيهية فقد عاد لسان الدين مرات أخرى إلى القصص القرآني لبناء صورته الاستعارية ، و في هذا المجال ، يأتي بقية قوم عاد ، مسندة إلى أعداء الغني بالله ، و قوم عاد حيثما ذكروا ، قرنوا بالهلكة المستحقة على الطغيان و التمرد على هدايات الله ، و في هذه الصورة اختصار لمسافة الزمن ، حيث يصبح هذا الطرف من الصورة ، حاضرا عتيدا بعد أن كان غائبا ، بعيدا في الزمان و المكان و فيها كذلك تصوير للعقاب المؤلم الذي حل بأعداء الممدوح :

و بقية من قوم عاد أهلكوا ببقية الريح العقيم و جدلوا⁴

و من صور القرآن التي يستلهمها الشاعر ، صفة الخيل ، الصافنة⁵

¹ - المصدر السابق : 1/184

² - الديوان : 1/131 .

³ - المصدر نفسه : 1/728 .

⁴ - المصدر نفسه : 2/500 .

⁵ - الفرس الصافن : القائم على ثلاث قوائم ، قال الشاعر : ألفت الصفون فلا يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسيرا

الزحشري : أساس البلاغة ، ط1 دار صادر بيروت 1412 هـ - 1992 م ، مادة صفن ، 357 .

و قد استعارها الشاعر للسفن الحربية المكونة للأسطول النصري ، و هيئة الصفون من الأوصاف المستحبة في الخيل ، حربًا و سلمًا ، فهي تدل على قوة الجواد ، و أصلاته و مهارته في فنون القتال ، و ترتبط الخيل في المفهوم القرآني ، بالجهد في سبيل الله ، و لما كان الجيش النصري يحمل راية الإسلام ، و يقاتل الصليب ، و أهله ، فقد رجع الشاعر بخياله إلى فترة الإسلام الأولى بحثًا عن صورة أكثر إثارة و إلهابًا للحمية الإسلامية ، إذ بالإضافة إلى كون الصورة تشخيصية فهي أنسب لإذكاء روح الاستماتة ثم إن الصورة تؤلف بين طرفين يتفقان في اللون ، إذ يكثر شعراء الجاهلية من وصف الخيول الدهم ، المائلة إلى السواد ، و هي تناسب كثيرا لون السفن السحم مما طليت به من القار .

و بالإضافة¹ إلى المشاكلة اللونية فقد استطاع الشاعر أن يبيث في هذا المشهد الحركة على طريقة الشاعر الجاهلي الذي "يولي عنايته الفائقة لعنصر الحركة فيلجأ إلى الاتكاء على خياله البصري المتحرك ، فيوظف الأفعال و الكلمات الدالة على الحركة"¹ ، يقول لسان الدين :
فَلله عَيْنًا مَنْ رَأَاهَا صَوَافِنَا أَفَاضَ عَلَيْهَا الْقَارَ سُحْمَ جِلَالِهِ²

و من صفات الخيل التي يؤلف منها لسان الدين صورته ، الغرة و التحجيل ، و قد نسبت هذه الصفة في بعض الآثار المروية عن النبي -صلى الله عليه و سلم- إلى المؤمنين عند لقاء ربهم يوم القيامة ، و قد نسبها لسان الدين إلى يوم بيعة الغني بالله ، منتقلا بذلك من العقلي إلى الحسي البصري غير أن الصورة لا تتوقف عند الحسية الخالصة ، إذ الغرة في جبهة الخيل ، و التحجيل في قوائمه ، إنما يدلان في جبين المؤمن و رجليه ، على أثر الصلاة و الوضوء ، و من شأن هذا المشبه به أن يعطي للصورة بعدا روحيا ، إذ إن بيعة (الغني) عند الشاعر ستكون على المسلمين فاتحة حياة ملؤها البر و التقوى و هكذا نلاحظ أن الشاعر ينتقل بحسه القرآني من المقيد البشري إلى المطلق الروحي و الديني :

فَلله من يوم أغر محجل لحزب الهوى قدما إليه تشوف³

و يروق لابن الخطيب أن يقتبس من القرآن الكريم صورته الشعرية و لا نعني في هذا المقام الأسلوب البيديعي المعروف بالتضمين أو الاقتباس فقد مضى فيه الكلام في الفصل الثاني ، و لكن نريد أنه يأخذ بعض صور القرآن ليوظفها في معنى من معانيه الشعرية ، مستعينا بأسلوب التصوير الفني في القرآن .

¹ - الأخصر عيكوس : الأبعاد الفنية للصورة التشبيهية في الشعر الجاهلي ، مجلة العلوم الإنسانية ، منشورات جامعة فلسطينية ، عدد 5 ، 1994 ، ص 13 .

² - ديوان لسان الدين : 485/2

³ - المصدر نفسه : 670/2 .

فمن الصور القرآنية التي وقف عندها البلاغيون طويلاً¹ قوله تعالى: "و اشتعل الرأس شيباً" (مريم/4) ، و قد اقتبس الشاعر هذه الصورة القرآنية للتعبير عن حاله ، و ضعف قواه ، مخاطباً أبا حمو :

و هل منة ترضي إذا كَلَّت القوى و بان اشتعال الرأس أو وهن العظم²
و قد جمعت هذه الصورة الحركة ، و اللون و التعبير عن الحالة النفسية للشاعر الذي يكاد رجاؤه ينقطع بسبب تقدمه في السن و عدم قدرته على مواجهة أعدائه ، و كأنني به يستشعر حال زكريا عليه السلام لدى مناجاته لربه ، لما في تلك الصورة مِثْلَ مَظَنَّةِ استعطاف الممدوح و الإسراع بنجدة الشاعر الكسير .

و الصورة القرآنية الثانية التي أوردها الشاعر ، مرارا هي قوله تعالى: "و ترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج" (الحج/5) ، و نذكر من صور الشاعر التي استلهمها من الآية الكريمة ، اثنتين الأولى : في إشاعة الممدوح أبي الحجاج للأمن في مملكته ، بعد أن قرّر زلزالها ، و تبدلت حياة الشطف إلى حياة النعيم ، و اخضرار الأرض ، يدل على خصوصيتها و كثرة غلاتها ، و بالتالي ازدهار الحياة الاقتصادية في غرناطة على أن اهتزازها و ربوها ، حركتان تدلان على الحياة ، و تعطيان للصورة بعدا حسيا تتملاه العين ، لما فيها من التشخيص على طريقة القرآن في عرض صورته :

و اهتزت الأرض في ريعانها و ربت كأن ملكك شمس حَلَّت الحَمَلًا³
و الثانية : في شأن فترة أبي الحجاج ، أيضا و لكن الشاعر أضاف إليها عنصرا قرآنيا آخر : ذلك أن الشاعر ، ينسب إلى الممدوح إسالة الماء غدقا ، على أهل غرناطة فعاشوا في نعيم :
فاهتزت حين أتى و ربت و أسال بها ماء غدقا⁴
و من أثر الأسلوب القرآني ، أيضا : أن الدهر (يعض أنامله من الغيظ) راغما أنفه ، لأن الشاعر استطاع أن يظفر منه بأيام النعيم :

و إذ نعمنا برغم الدهر فيه و قد عض الأنامل من غيظ و من حنق⁵
أما أخلاق الممدوح و سيرته ، فهي دمثة لينة ، (لا ترى فيها عوجا و لا أمتا) .

¹ - انظر : دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، ص : 274 .

² - ديوان لسان الدين : 547/2 .

³ - المصدر نفسه : 765/2 .

⁴ - المصدر نفسه : 688/2 .

⁵ - المصدر نفسه : 690/2 .

و يظهر ما في الصورة من خيال حسي يعرض المشهد مرئيا و يسبغ على المعنى مظهرها ماديا مستوحى من عالم يجلوه البصر :

أراؤه شهب تهدي و سيرته ما إن ترى عوجا فيها و لا خلا¹

و يبدو أن الشاعر لم يحافظ على موضوع الصورة القرآنية و إنما اكتفى بجانبها الفني ، و هذا يدل على أنه لا يكتفي أحيانا بنسخ الصور التي تحتفظ بها ذاكرته الشعرية ، و إنما يجتهد في توظيفها لخدمة رؤيته الخاصة ، و هذا ما نلمسه في صورة أخرى : حيث شبه سيف الخليفة (بالنجم الثاقب) و من شأن النجوم في عرض القرآن لها أن تكون رجوما للشياطين ، كما تكون علامات هداية غير أن الشاعر يستعير صفة النجم الثاقب للسيف ، فتحدد وظيفته عندئذ بالإهلاك و الفتك ، غير أن الخيال البصري الملمح في الصورة مقتبس من الصورة القرآنية ، في قوله تعالى ” و السماء و الطارق ، و ما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب“ (الطارق/14) ، فالنجم المقسم به في الآية الكريمة ”يتقرب الظلام بضوئه فينفذ فيه“² ، أما سيف الممدوح فينفذ في أجسام الأعداء ، فيرديهم :

و الروم فارم بكل نجم ثاقب يذكي بأربعها شواظ لهيب³

و من صور الجهاد التي يستوحى فيها الأسلوب القرآني ، أن فتح السلطان النصرى لـ ”كركبول“ تم على يد جنود كأنهم ”شعوب و قبائل“ عدداً ، و اختلاف لغات :

حفت به رياتك الحمر التي قادت إليه قبائلا و شعوبا⁴

3 - الصور الكنائية :

قد مضى تنويه البلاغيين بشأن الكناية ، و أنها أبلغ من التصريح ، و يعرفها عبد القاهر بقوله : ”و المراد بالكناية ما هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى مع المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، و لكن يجيء إلى معنى هو تاليه و ردفه في الوجود ، فيومئ به إليه ، دليلا عليه“⁵ . غير أن الكناية أقل بلاغة من الاستعارة بحيث لم يعدها عبد القاهر من المجاز ، و لهذا قل هذا النوع البلاغي في ديوان لسان الدين .

و من الصور الكنائية التي وردت في ديوانه و التي يتابع فيها أسلوب القرآن أن الممدوح قد سلَّ على الأعداء سيفا في الوقت الذي اضطربت قلوب أعدائه فرقا حتى ”بلغت القلوب الحناجر“ :

¹ - المصدر السابق : 764/2 .

² - جار الله الزمخشري : الكشاف ، 204/4 .

³ - ديوان لسان الدين : 131/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 104/1 .

⁵ - الجرجاني ، عبد القاهر : دلالات الإعجاز ، ص 60 .

الله سيفك و القلوب بوالغ ثغر الحناجر و النفوس ظماء¹
و أن جيشه مؤيد من الله يخيف أعدائه حتى كأنه (يقدمه جيش من الرعب) :
يصاحب التوفيق في كل وجهة و يقدم منه الجيش ، جيش من الرعب²
و منها أن الممدوح ، من نفاذ عزيمته و ابتغائه المعالي ، و تهالكة عليها قد ضرب الصخر
فانفجر ، و ضرب البحر فانفلق ، كأنه موسى عليه السلام :

ضربت الصخر فانفجر انفجارا ضربت البحر فانفلق انفراقا³
أما أمير المسلمين بالأندلس فقد مهد السلم ، و كفى الإسلام كلب الأعداء بعد أن كساد داؤه أن
(يجعل الولدان شيئا) :

أمير كفى الإسلام كل عزيمة و قد شاب من طول العناء وليده⁴
و قد أبلى الممدوح في الجهاد ، وثبت في أرض المعركة حيث (لا يجزي والد عن ولده
شيئا):

وقفت و الروح قد ما جت جوانبه بحيث لا ولد يلوي على ولد⁵
* الصور البديعية :

ليس البديع علما تحسینیا ، بالقياس إلى علمي البيان و المعاني فقد يحقق الشاعر بأشكال البديع
المتعددة صوراً فنية ناجحة ، و قد أصبحت الرؤية المعاصرة للبلاغة لا تفرق بين الأنواع البلاغية
المختلفة ، فقد صار مصطلح علم البيان يقترب مدلوله من مدلول الصورة الفنية ، و هو قسي الوقت
نفسه يتسع لعلوم البلاغة جميعاً⁶ .

و قد ذهب الجرجاني إلى ذلك في "أسرار البلاغة" ، الكتاب الذي وضع فيه علم البيان أو
على وجه أدق : وطد دعائمه ، و بين مفاهيمه ، و حدد أنواعه ، فقد قرن التجنيس ، بمفردات علم
البيان : التشبيه و الاستعارة ، و المجاز و الكناية ، و رأى أن الحسن فيه ، لا يرجع إلى اللفظ وحده ،
بقدر ما يرجع إلى المعنى ، و كذلك فعل بالنسبة للسجع⁷ .

غير أن الشعراء مذاهب في تعاملهم مع ألوان البديع ، فبعضهم يسعى إليه طلباً لتحسين اللفظ ،
و بعضهم يوظفه لخدمة المعاني ، و يجتهد في إبداع صور فنية لا تقل جمالاً عن البيان المختلفة :

1 - ديوان لسان الدين : 94/1

2 - المصدر نفسه : 123/1

3 - المصدر نفسه : 208/2

4 - المصدر نفسه : 268/1

5 - المصدر نفسه : 277/1

6 - د / محمد بركات حمدي أبو علي : فصول في البلاغة ، دار الفكر للنشر و التوزيع ، عمان ، ط 1403هـ - 1983 م ، ص 225 .

7 - الجرجاني . عبد القاهر : أسرار البلاغة ، ص 4 ، و ما بعدها .

و لابن الخطيب ، على غرار شعراء القرن الثامن ، ولع خاص بـ صور البديع ، فهو يكثر من ترديده ، و يتفنن في استخدامه إلى درجة تستحق من الباحث أن يقف عندها .
و أكثر ألوان البديع ، و رودا في شعر لسان الدين ، هي الطباق ، و المقابلة ، و الجناس و التورية ، و يمكن أن نميز بين نوعين من صور البديع عند لسان الدين :
الصور البديعية التي يسعى فيها إلى تحقيق فكرة فلسفية أو صوفية ، أو منحى قرآني معنيا ، و هذا الصنف قليل ، و الصور البديعية التي يقصد بها إلى الإطراف ، أو العبث اللفظي ليس غير .

1 - صور البديع المعبرة عن ثقافة الشاعر :

يجد الباحث في بديع لسان الدين شيئا من الثقافة الإسلامية ، و الفلسفية و العلمية و يحاول الشاعر فيها أن يضيف شيئا من العمق إلى الفكرة التي يتأسس عليها البيت ، لكنه لا يبلغ في هذا الميدان مبلغ أبي تمام في تصنعه حين يطوع فنون البديع ، لأفكاره الفلسفية ، فيتحد الفكر عنده مع الفن فلم يكن أبو تمام "يستخدم الطباق استخداما ساذجا بسيطا ، بل كان يستخدمه استخداما معقدا ، إذ يلونه بأصباغ فلسفية قاتمة .. فإذا هو من طراز آخر غير معروف ، طراز فلسفي إن صح التعبير .. و كان يسميه نوافر الأضداد" ¹ .

فمن صور البديع التي يتكى فيها لسان الدين على ثقافته الإسلامية ، الطباق الذي يأخذ مادته من القرآن الكريم ، كقوله في مدح الرسول - صلى الله عليه و سلم - :

و هل هو إلا مظهر أنت سرُّه ليمتاز في الخلق المكبُّ من الأهدى ²

فقد جعل لهذا الكون ظاهرا ، و باطنا . أما ظاهره فما نشاهده ، من أرض سماوات و إنس ، و غيرها من العوالم ، و أما علته ، و سره فهو النبي (ص) إذ لولاه لما وجد الكون أصلا ، و قد عبر لسان الدين عن هذه الفكرة عن طريق الطباق بين : السر ، و المظهر ، و هذه الصورة البديعية إذن ، لم ترد شكلية سطحية ، و إنما لعبت دورها في تعميق الفكرة .

و في الشطر الثاني من البيت اقتباس من القرآن الكريم ، لم يضاف إلى جمال الصورة في الشطر الأول ، جديدا ، لأن الشاعر قصد إليه قصدا تقضيهِ القافية .

و من صور الطباق التي يتصنع فيها الألفاظ القرآن الكريم ، قوله :

و نادمت من أجله فتية تراهم سكارى و ما هم سكارى ³

و فيه يصف حالة من حالات التواجد الصوفي ، إذ نادم رققة له (بديري) أخذتهم فيه نشوة الذكر ، فهم سكارى ، في مظهرهم و ما هم سكارى في حقيقة أنفسهم ، و في الصورة تتأقظ ظاهري

¹ - د / شوقي ضيف : الفن و مذاهبه في الشعر العربي : ص 250 .

² - ديوان لسان الدين : 348/1 .

³ - المصدر نفسه : 385/1 .

غير أنه تناقض ينفذ به الشاعر إلى أعماق الصورة أو بتعبير أدق ينفذ إلى صورة لا تراها العين و إنما يتخيلها الحس الصوفي .

و لابن الخطيب صور أخرى من هذا النوع من الطباق بيدي فيها براعة فنية ، يستند فيها إلى ألفاظ القرآن الكريم ¹ .

و من صور التورية بألفاظ القرآن أيضا ، قوله : في رثاء شيخه أبي جعفر بن صفوان ² :
و قد كان صفوانا عليه طلاوة فأصبح "صفوانا عليه تراب"

فقد ورى بصفوان الثانية عن اسم أستاذه ، مظهرا الصفوان المرادف للصخر ، الذي ورد في القرآن الكريم ³ مثلا لبطلان عمل المرئين بالصدقة ، فقد كان أستاذه في حياته عالما عليه سيماء العلماء ، و أديبا عليه حكمة أهل الأدب ثم أودى ، فصار في قبره يعلوه التراب ، و في هذه الصورة ، مقارنة بين حالتين : الأولى تدعو إلى الابتهاج و الأنس ، و الثانية تدعو إلى الأسى ، لأنها ترسم مآل الإنسان بعد موته بما يدعو الإنسان إلى التأمل ، و الاعتبار. و من ألوان الجناس التي وردت في ديوان لسان الدين ، نوع يستحسنه القارئ لأمر يرجع إلى المعنى لا إلى اللفظ ، "كأنه يخدعك عن الفائدة و قد أعطاه و يوهمك كأن لم يزدك و قد أحسن الزيادة و وفاها" ⁴ كما يقول عبد القاهر ، و مثل له بقول الشاعر ⁵ :

ناظراه فيما جنى ناظراه أودعاني أمت بما أودعاني

غير أن هذا النوع قليل عند ابن الخطيب و منه قوله في المدح ⁶ :

كيف اشتهى قبض العنان بأنمل نشأت و ليس القبض من عاداتها

و في البيت تجنيس بين القبض في الصدر ، و القبض في العجز ، فقد يظهر حقا كما يقول عبد القاهر ، أنه لم يزد القارئ بإعادة اللفظ ، فائدة تذكر مع أنه قد فعل ، و في الصورة تأكيد للمدح بما يشبه الذم ، إذ توجد فيه مفارقة ، فهذا الممدوح يشتهي قبض العنان راكبا على جواده في ساعة المعركة غير أنه ، نشأ لا يحب القبض ، و لا هو من عاداته و إنما أراد الشاعر ، أنه يهوى اقتياد الخيل عن شجاعة ، و يأنف عن قبض يده كرمًا .

2 - صور البديع المتكلفة :

¹ - انظر القصيدة : 257 ، بيت 26 ، و 225 ، بيت 2 .

² ديوان لسان الدين : 1 / 140 و انظر أيضا في هذا النوع من التورية ، ق 88 ، بيت 5 .

³ - سورة البقرة : الآية 264 .

⁴ - المرجحان : أساس البلاغة ، ص 5 .

⁵ - المرجع نفسه : ص 4 .

⁶ - ديوان لسان الدين : 1 / 171 . و انظر في هذا النوع مثلا ، ق 551 ، بيت 1 .

و هذا النوع يجوز أن نسميه (غير المفيد) لكونه لا يضيف إلى المعنى شيئاً جديداً و إنما هو شكلي يقصد الشاعر فيه إلى العبث بالألفاظ إظهاراً لمقدرته اللغوية و ما أكثر هذا النوع من البديع في شعر ابن الخطيب .

فمن صور الطباق التي يتصنع فيها لسان الدين لألفاظ المنطق ، قوله :¹

و نتيجة قدمت عند قياسها ما يوجب الإنسان لا ما يسلب
و إلا يجاب و السلب من مصطلحات المنطق

و من صوره التي يتصنع فيها لتقافته الإسلامية قوله :²

معاهد فيهن الملائكة العلى غواد بتنزيل الكتاب روائح
و قوله كذلك :³

فتدخلني للرضا جنة و تصلى حسودي نارا وقودا

و لابن الخطيب بعد هذا ولع خاص بالجناس ، تاما ، و ناقصا ، و هو جناس شكلي القصد منه إظهار البراعة اللغوية كذلك ، فمن التام قوله :⁴

لمن كنت تعجم بالعزائم عودها عود الصليب اليوم غير صليب
و من الناقص ، و هو يتكرر كثيرا في الديوان :

أتلك شمول صرفة أم شمائل و هل صَرَبَ عذب الجنى أم ضرائب ؟⁵

و قد أضاف إلى الجناس ، نوعا آخر من البديع هو تجاهل العارف . و منه نوع يدعى (الجناس المرفوف) و ذلك كقوله :⁶

بتنا نكابدهم القحط ليلتنا و أنجد السهد و الكرب البراغيثا
و كان يُحْمَل ما كنا نكابده من المشقة لو أن البرى غيثا

فقد جانس بين (البراغيث) و (البرى ، غيث) و الطرف الثاني يقصد به أنه كان يحتمل ما

كابده في ليلته من مشقة البراغيث ، لو أن البرى و هو التراب ، غيث بالمطر ، و ليس فيه فائدة بلاغية غير التصنيع .

¹ - المصدر السابق : 110/1 .

² - المصدر نفسه : 225 /1 .

³ - المصدر نفسه : 279/1 .

⁴ - المصدر نفسه : 132/1 .

⁵ - المصدر نفسه : 121/1 .

⁶ - المصدر نفسه : 191/1 .

و من التورية التي نجدها في شعره ما يكثر فيها استخدام أسماء الأعلام ، كما مر ، في الفصل الثاني ، و من نماذجه ، و قد جمع فيه إلى التورية الاقتباس من شعر أبي تمام :

فقول حبيب إذ يقول تشوقاً عسى وطن يدنو إلى حبيب¹
و قوله ، يخاطب أستاذه (أبا الحسن علي بن الجباب)² :
و أنت علي قد علمت تشيعي فكن ناصري و ادراً جموع بني حرب
و من خلال دراستنا للصور عند ابن الخطيب ، نلاحظ أنه يميل إلى استخدام الصور البلاغية التقليدية ، و لا سيما فن التشبيه ، لكونه الصورة التي تهين له المقارنة بين عنصرين ، يتخذ أحدهما من الطبيعة أو حياته الدينية في الغالب ، كما نلاحظ ميله إلى توظيف ألوان البديع المعروفة متصنعا فيها ، مبديا براعته الفنية ، دون أن يكون لتلك الأصباغ البديعية قيمة جمالية كبرى أحيانا و هو في ذلك يجارى الذوق الذي يميل إليه شعراء عصره .

¹ - المصدر السابق : 158/1 .

² - المصدر نفسه : 166/1 .

ثانيا : الموسيقى الشعرية :

إن الكلام عن الموسيقى الشعرية ، يقود الباحث إلى الحديث عن طبيعة الشعر نفسه باعتبارها فنا ، له خصائصه التي تحدد ما هيئته ، و تميزه عن سائر الفنون ذلك أن ما يواجه المتلقي من تمليه لهذا الفن ، بعد اللغة الشعرية ، و الصورة هو الموسيقى ، أو ما عرفه نقاد العرب القدامى بالوزن الشعري ، و ذلك لأن الأذن العربية تألف هذا الكلام الموزون ، و أول ما تتعلق به النفس منه ، ما فيه من موسيقى و إيقاع و توالي الحركات و السكنات بشكل مطرد رتيب ، و هو الأمر الذي ساعد على تبلور النظرية العربية ، في حد الشعر ، بأنه مؤلف من ثلاثة أركان ، الوزن و القافية و المعنى كما يؤثر عن قدامة بن جعفر¹.

و الواقع أن اللغة العربية ذاتها أداة طيعة للشعر ، بما تهيأ لها من نظام خاص يحكم كلماتها ، التي بنيت على الاشتقاق الذي هو رديف الوزن و النظم فصارت بذلك لغة شاعرة ، كما يقول العقاد². و هذا هو السر في أنس النفسية العربية ، و طربها للكلام الموزون ، حتى إنها لا تعد شعرا ، كل كلام افتقر إلى الوزن و الموسيقى ، و هو السر في مبالغة نقادنا القدامى في العناية بهذا الجانب من الفن الشعري ، ثم إن الصلة بين الفنون ، و منها الموسيقى و الشعر أمر لا ينكر ، حتى ربط كثير من النقاد و الفنانين بينهما ، و بين الرسم ، مع ما يوجد بين هذه الفنون من اختلاف في المادة ، فذهبوا إلى القول : ”إن الشعر كالرسم ، أو أنه كالموسيقى“³.

و قبل أن نتناول الأنماط الموسيقية في شعر ابن الخطيب ، يحسن بنا أن نعرض بإيجاز ، ما نريده بهذه الأنماط ، كما تعرضها كتب النقاد العرب ، القدامى أو المعاصرين . يميز النقد العربي المعاصر بين نوعين من الموسيقى : الموسيقى الخارجية الناتجة عن الوزن و القافية ، و الموسيقى الداخلية الناتجة عن الإيقاع و جرس الألفاظ .

*الموسيقى الخارجية :

يتناول هذا النمط كما مر ، الوزن ، و القافية ، و إذا كان النقد العربي القديم لا يماري في جدوى هذين الركنين ، فإن النقد المعاصر يحتدم فيه جدل كبير ، حولهما ، نظرا لما يمثلان من عراقة في القصيدة العربية ، و المعروف أن القصيدة العربية ، بنيت على العروض الخليلي ، الذي يقوم على الأوزان التقليدية ، حيث يمثل البيت ، وحدة موسيقية تتألف من عدد معلوم ، و منتظم من التساعيل ، تطرد في كل أبيات القصيدة التي تشترك في صفة أخرى ، هي انتهاء خواتمها بحرف موحد ، يدعى

¹ - الدكتور مصطفى الجوزو : نظريات الشعر عند العرب ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ، ط1 صفر 1402هـ ، ديسمبر 1981م ، ج1 ، ص 19 .

² - عباس عمود العقاد : اللغة الشاعرة ، منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا ، د.ت ، ص 8 .

³ - الدكتور إحسان عباس : فن الشعر ، سلسلة الفنون الأدبية ، نشر و توزيع دار الثقافة ، بيروت ، لبنان : ط2 ، 1959 ، ص13 .

حرف الروي ، و يرى بعض النقاد المعاصرين أن قيمة هذه الأوزان شكلية ، فلا يختلف وزن عن غيره ، اختلافا يعود إلى قيمته الفنية ، ما عدا ما يكون فيها من سعة ، أو قصر بقدر ما تتألف من تفاعيل ، و ذلك بقوله : ”و أستطيع أن أقرر من استقرائي الخاص ، أن هذه الأوزان جميعا ، تشترك في خاصية واحدة و هي أنها ليست خصائص و لا تتحدد لها خصائص إلا بعد أن يخرج منها الشعر“¹ .

إن هذه النظرة إلى الأوزان الخليلية أو للموسيقى التقليدية بصفة عامة تصطدم بموسيقى الموشح ، و ما توفره من قيمة غنائية ، بل أن قيمة الموشحات نفسها ، فيما ابتدئته من إيقاع متنوع ، يساعد على التغني ، و الذي نرجحه أن لهذه الأوزان أبعادا فنية ، يمكن للشاعر المقتدر أن يستغلها لإغناء قصيدته بقيم صوتية مؤثرة ، و فعالة .

*الموسيقى الداخلية :

يمكن أن نصف هذا النمط ، بأنه خفي ، و دقيق لا يدركه إلا المتأمل البصير ، بمواقع الكلمات و مدى تلاؤم حروفها و اتئلافها ، أو تنافرهما و اختلافها ، و هذه الموسيقى تنتج من امتزاج الصور ، و الألفاظ ، و الحالة النفسية للشاعر ، و هي بذلك ، لا تخضع لمقياس ثابت دقيق بقدر ما تعتمد على براعة الشاعر ، و سلامة ذوق الملتقى ، و لذلك يعرفها أحد الدارسين المعاصرين ، بقوله : ”أما الموسيقى الداخلية فهي النغم الذي يجمع بين الألفاظ و الصورة ، بين وقع الكلام و الحالة النفسية للشاعر ، إنها مزاجية تامة بين الشكل و المعنى بين الشاعر ، و المتلقي“² .

و يمثل النقاد العرب للموسيقى الداخلية ، و روعتها ، بسينية البحري في وصف ”إيوان كسرى“ نظرا لما حققه الشاعر فيها من انتلاف رائع بين ألفاظها ، و ما التزمه فيها من قافية تنسجم مع نفسه المتألّمة .

غير أن نوعا من الموسيقى لا يخضع للوزن ، و لا لجرس الألفاظ و لكن ”قد يأتي من وقلنت متكررة أو من علامات الاستفهام و التعجب أو من الفاصلة ، أو من جميع ما في القصيدة من كلام و حركات“³ و ذلك هو الإيقاع ، و قد التفت إليه نقادنا القدامى ، في مباحثهم البلاغية ، و ذلك عند كلامهم عن ”الترصيع“ أو ”حسن التقسيم“ و جودة النظم حيث يؤلف الشاعر داخل البيت الواحد ، مجموعة من الفواصل ، و التشظيرات ، فكأنها قواف داخل قواف ، دون أن يعنى بذلك النقد العربي القديم إلا من الناحية الشكلية ، باعتبار ذلك نوعا من المحسنات البديعية . حقا إن نقادنا القدامى أسهموا بجهود وافرّة في البحث عن الموسيقى المتأتية من ”النظم“ غير أنهم التمسوا ذلك في القرآن الكريم ،

¹ - الدكتور عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، ص 78 .

² - الدكتور عبد الحميد جيدة : الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1980 ، ص 354 .

³ - المرجع نفسه : ص 356 .

أما إذا عدنا إلى أنماط الموسيقى عند ابن الخطيب ، فإننا نلاحظ نوعين من الموسيقى الخارجية ، نوعا يعتمد على البحور الخليلية ، و نوعا خارجا عنها ، ذلك أنه سبق في الفصل الثاني الكلام عن أثر الأندلسية في شعر لسان الدين و من ذلك براعة لسان الدين في فن التوشيح .

أ / النمط الخليلي :

الأوزان:

فبالنسبة للبحور النسبة للبحور الخليلية ، وجدنا أن ابن الخطيب استعمل أربعة عشر بحرا منها غير أنه استخدمها بنسب متفاوتة ، فقد استخدم الطويل (217) مرة ، و الكامل (172) مرة ، و البسيط (86) مرة و الخفيف (61) مرة و السريع (53) مرة و الوافر (49) مرة و المتقارب و الرمل (25) مرة و المنسرح (12) مرة و المجتث (10) مرات و الرجز (05) مرات و المديد و المتدارك (03) مرات ، و العميد و هو بحر مهمل ، وزنه : (مفعولن مفاعيلن مفاعيلن فع) ¹ مرتين (02) .

و نلاحظ أن الشاعر يستعمل البحور التقليدية التي أكثر الجاهليون منها و هي الطويل ، و البسيط ، خاصة ، و إذا صح ما نسب إلى الجاهليين من استخدامهم اثني عشر وزنا و ترك ثلاثة من أوزان الخليل هي المضارع و المقتضب و المجتث ، فضلا عن المتدارك ² ، علمنا مدى ميل لسان الدين إلى تفضيل الموسيقى التقليدية لما تمتاز به تلك الأوزان ، أعني التي نظم فيها الجاهليون ، من فخامة و قوة و ما تمثله الأوزان التي نظم فيها المحدثون و المولدون من رقعة ، و خفة و هذا الصنيع غير مستنكر ، من شاعرنا الذي رأيناه في أكثر أغراضه الشعرية يأخذ بعض صورته و معانيه عن الجاهليين و الإسلاميين و كأنه يحب أن يسلك مع أولئك المتقدمين الذين يقتني أثرهم المتأخرون ، إنها نظرة تقديس للماضي ، من شاعر عاش فترة حرجة من حياة الأمة العربية و الإسلامية ، لأنه يجد في ذلك الماضي فخرا ، لكونه فترة ازدهار الأدب العربي .

و الأوزان تختلف في قيمها الموسيقية ، بحسب ما تتألف منه ، من سواكن و متحركات و من سعة و ضيق ، و سرعة ، و بطء و غيرها من الخصائص الصوتية ، و قد جعل حازم القرطاجي الأوزان درجات ، يكون الافتتان في الكلام ، في بعضها أعم من بعض "فأعلاها درجة في ذلك ، الطويل و البسيط و يتلوهما الوافر و الكامل .." ³

¹ - د/ عبد العزيز نبوي يوسف : شعر التفعيلة و الترنية ، مجلة الثقافة ، وزارة الإعلام و الثقافة ، الجزائر ، السنة العاشرة ، العدد 55 ، صفر - ربيع الأول 1400هـ ، يناير - فبراير 1980م ، ص 66 .

² - د/ مصطفى الجوزو : نظريات الشعر عند العرب ، ج1 ، ص 18 .

³ - أبو الحسن حازم القرطاجي : منهاج البلغاء ، و سراج الأدباء ، تقديم و تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ط 2 ، 1982 ، ص 268 .

و اعتمادا على نظرية حازم هذه ، نرى أن لسان الدين قد نظم في الدرجة العليا من الأوزان التي يتسع فيها القول ، و تنتظم كثيرا من المعاني لما فيها من سعة و طول ... ذلك لأنه اعتمد على الطويل و الكامل ، ثم البسيط ثم بعد ذلك بقية الأوزان ، و للباحث أن يسأل عن سر افتتاح شاعرنا بهذا النوع من الموسيقى البطينية الحركة ، و الإيقاع ، و مدى ملاءمتها للأغراض الشعرية التي نظم فيها ، و عن توافقها مع حالته النفسية في تلك الأغراض .

و لكن علينا قبل ذلك أن نسأل إن كانت الأوزان بدرجة واحدة في لياقتها بغرض من الأغراض ، يجيب حازم القرطاجني عن ذلك بأن للأغراض اعتبارا من جهة ما تتناسب معه من الأغراض ، و أنماط النظم ، فالأغراض الفخمة الرصينة ”تصلح لمقاصد الجد و الفخر و نحوه ، نحو عروض الطويل و البسيط“¹ ، و لذلك رأينا ابن الخطيب أكثر ما يستخدم عروض الطويل في قصائد المدح ، التي يعنى فيها بالأغراض ذات الصلة بحياة الدولة في علاقاتها السياسية مع خصومها أو أصدقائها ، و يمكن أن نصف تلك الأغراض ”بالملمحية“ مع أننا لا نعني بهذا المصطلح ، الملحمة في المفهوم الغربي ، بل نعني بها ما تعنيه في المفهوم الإسلامية ، من أنها الوقعة العظيمة بين قوى الإيمان ، و جحافل الكفر ، التي يجدل فيها الكافرون صرعى ، و يستشهد فيها أهل الإيمان و جنده في سبيل العقيدة الصحيحة ، و نكتفي هنا بذكر أمثلة توضيحية دون استقصاء كل القصائد التي نظمها الشاعر ، في وزن (الطويل) ، فمن ذلك قصيدة ابن الخطيب التي يهنئ فيها أبا الحجاج بهلاك ”طاغية“ الروم و هو محاصر ”جبل الفتح“ و التي يتجلى فيها العنصر الملمحي القصصي واضحا مع ، ما يتطلبه هذا الموقف من حرارة العاطفة ، و استحثاث القريحة ، و إبداع الصور الجهادية التي تحمل المتلقي على الاعتبار ، و التدبر ، فيما صارت إليه جحافل الروم من هلاك بسبب ما استنهر فيها من داء الطاعون الجارف ، ذلك أن منحى الشعراء في (الطويل) ” يناسب معاني التغني بجلالة الماضي و عنصر القصص و النعت فيه من الطراز الذي يدعو السامع لأن يصغي و يتفهم قبل أن يهتز و يرقص “² ، و مطلع قصيدة ابن الخطيب المشار إليها هو قوله :³

ألا حدثاها فهي أم العجائب و ما حاضر في وصفها مثل غائب

أما الكامل فيلي الطويل أهمية عند الشاعر ، و موسيقاه فيها شيء من الجلجلة و أكثر ما يستخدمه الشاعر في الأغراض المدحية التي يتوجه بها إلى العظماء و هذا الضرب من الأغراض يتطلب من الشاعر وقارا و حكمة ، و رزانة و هو الأمر الذي لا يناسب إلا الموسيقى ذات الوقار ،

¹ - أبو الحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، و سراج الأدباء ، تقديم و تحقيق عماد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1982 ، ص 205 .

² - الدكتور عبد الله المنجوب : المرشد إلى فهم أشعار العرب و صناعتها ، شركة الحلبي للنشر و الطبع ، مصر ، د.ت. ج 1 ، ص 399.

³ - ديوان لسان الدين : 112/1 .

و يمكن التمثيل لذلك بقصيدة في مدح أبي عنان فارس أثناء عودة الشاعر من سفارته التي كلفه بها الغني بالله ، و مطلع تلك المدحة :

أبدى لداعي الفوز وجه منيب و أفاق من عدل و من تأنيب¹

غير أن للشاعر في عروض الكامل سعة لا يجدها في غيره من الأعراب ، لأن فيه لونا خاصا من الموسيقى ” يجعله -إن أريد به الجد- فخما جليلا مع عنصر ترنمي ظاهر“² و ذلك يعني أن هذا الوزن ، مع وقاره فيه جانب من الغنائية ، و الترنم الهادئ ، و لذلك فهو أكثر ملائمة لمجالس الأُنس التي يجلسها السلاطين ، و هذا ما يفسر ، استخدام ابن الخطيب لهذا الوزن في القصائد الغزلية التي يقترحها عليه الممدوح ، فينشدها إياه ، و التي يضمن آخرها أبياتا قليلة في مدحه ، و هو وزن يطرب له السلطان ، دون عريضة ، و لاسفه ، لما فيه من غنائية عفة ، و من نماذج ذلك تائيه الشاعر التي نظمها في زمن الشيبية و التي مطلعها³ :

لَمَّا دَعَا دَاعِي الْهَوَى لِيَبْتَه و حَلَّتْ رَحْلِي مُسْرَعَا و أُتَيْتَه

و إذا انتقلنا إلى نمط آخر من الموسيقى الخارجية عند الشاعر ، و التي نظم فيها كثيرا من قصائده ، فأول ما يلقانا منها ، هو عروض الخفيف و هذا النمط يمكن وصفه بالرقعة ، بخلاف النمط السابق الذي ، يتسم بالفخامة ، و الجلجلة ، فالخفيف وزن ، قلما ينظم الشعراء فيه ، و لا سيما الجاهليين ، و أكثر ما يستخدمه ابن الخطيب في قصائد الغزل ، أو التصوف و الزهد ، و الاعتبار ، غير أنه ينظم فيه أربع قصائد مدحية بعضها أقرب إلى الشكوى ، و السر في ذلك ” أن هذا البحر يصلح للتغني بالألفاظ العذبة ، و العواطف الرقيقة ... و مع هذا فالمنظوم فيه ليس بكثير و لا مشهور اللهم إلا المتصوفة فإنهم قد استفادوا به كثيرا في أناشيدهم“⁴

و هذا الحكم يصدق على ابن الخطيب ، فكل ما نظم على الخفيف من شعر ، فهو رقيق جلي العاطفة ، و لا سيما العواطف الحزنية ، كالشوق و الوجد إذ نظم ست قصائد دينية في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم ، و الزهد ، و التصوف و الاعتبار ، و بقية القصائد في الغزل أو الشكوى ، أو الوصف ، و قصيدة واحدة في الهجاء .

و الخفيف من البحور الطوال ، فهو يصلح للأغراض الجادة و لكنه يتميز بنوع من الخفة ، تهيؤه للمعاني الرقيقة ، و الصوفية ، و من نماذج المعاني الإسلامية التي نظمها الشاعر في هذا الوزن ميلادية في قافية الحاء مطلعها :

¹ - المصدر السابق : 128/1 .

² - د/عبد الله المجذوب : المرجع السابق ، 264/1 .

³ - ديوان لسان الدين : 184/1 .

⁴ - د/عبد الله المجذوب : المرشد إلى فهم أشعار العرب و صناعتها ، 82/1 .

ما على القلب بعدكم من جناح أن يرى طائرا يغير جناح¹

و هي قصيدة مليئة بالمعاني الصوفية المتصلة بذات الرسول (ص) عبر فيها الشاعر عن عظمة شوقه إلى النبي (ص) ، و كبير توقيره و حبه ، و قد كان وزن الخفيف ملائما كل الملائمة لتلك المعاني .

و هناك نمط آخر من هذه الموسيقى ، أعني الموسيقى الخارجية ، و هو هذا النمط المولد ، الذي تكثر فيه البحور المجزوءة و المشطورة و المنهوكة أو البحور الأقل دورانا في أشعار الجاهليين و الإسلاميين كالمنسرح و المجتث و المتدارك ، و هي أقرب إلى الحالات النفسية الساخرة أو اللاهية و لذلك ، يسمُّها حازم بالسذاجة و الطيش و الكزارة ، و عدم اللدونة لما فيها من نشاز بحيث لا تطرب لها النفس ، و لا تعبرها الأذان كبير إصغاء ، فيقول في ذلك : "فأما المنسرح ففي اطراد الكلام عليه بعض اضطراب ، و تقلل و إن كان الكلام فيه جزلا ، فأما السريع و الرجز ففيهما كزارة ، فأما المتقارب فالكلام فيه حسن الاطراد إلا أنه من الأعاريض الساذجة المتكررة الأجزاء ... فأما المجتث و المقتضب فالحلاوة فيهما قليلة على طيش فيهما"² . و إذا عدنا إلى شعر ابن الخطيب ، لا حظنا كأنه يوزع الأوزان على الأغراض بقدر ، إذ نراه رصد للأغراض الثانوية ، إن أجاز التعبير ، هذه الأوزان التي يقل جمالها الموسيقي كاللهو ، و المجون ، و الهجاء ، و أغلب المقطوعات التي نظمها فيها ، جاءت على وزن السريع ، و المنسرح ، و المجتث ، و الرجز ، تاما ، و مجزوءا ، و المتقارب و المتدارك ، و المديد ، و العميد الذي هو وزن مهمل ، كما مر ذكره .

و لنأخذ السريع مثلا : إذ هو أكثر هذه البحور حضورا في ديوان الشاعر ، فلم نجد فيه إلا قصيدة مدحية واحدة و بقية ما ورد فيه ما هو إلا قطع في أغراض متنوعة ، أكثرها لاه ، و تلك القصيدة في مدح المتوثب على عرش الغني بالله ، و قد سبق أن تعرضنا لها في الفصل الرابع عند الكلام عن المدح ، و اختيار الشاعر لهذا الوزن ذو دلالة نفسية ، هي عدم صدق لسان الدين في مشاعره نحو الممدوح إذ كان مضطرا لمدحه ، فلما انعدم عنصر الصدق في القصيدة جاءت موسيقاها ذات كزارة كما وصفها حازم ، قربية من إيقاع النثر المفصل ، كالخطابة ذات الفواصل المسجوعة .

و هذا النمط يناسب الأحوال النفسية المضطربة ، الحانقة ، فهي قليلة الإنسانية ، و أقرب إلى الطبيعة الشهوانية المعقدة التي لا تتوفر على ضبط النفس ، و إحكامها برادع الخوف من عواقب الأمور ، أو من عقاب الله تعالى ، فهي منطلقة ، انطلقا لا انتظام له ، و ذلك بخلاف انطلاق النفس

¹ - ديوان ابن الخطيب : 250/1 .

² - حازم القطامي : منهاج البلغاء ، و سراج الأدباء ، ص 268 .

في تمردها على الظلم و غضبها للحق ، و هذه الموسيقى ، تليق بمجالس اللهو ، و الغناء ، أو الهجاء المفرط الإنتذاع ، و لذلك يقول بعض الدارسين المعاصرين عنها : ” و هذه البحور سمينها شهوانية لأنه لا تكاد تصلح إلا للكلام الذي قصد فيه قبيل كل شيء أن يتغنى به في مجالس السكر و الرقص المتهتك المخنث ، و لو تأملتها جميعا لوجدت في نغمها شيئا يشعر بالشهوانية“¹ ، و حسبنا في هذا المقام الإشارة إلى بعض المقطوعات التي رددت في عروض السريع : فمن المقطوعات الهجائية ما ذكره عن أهل ”سلا“ من بخل ، بما استوجب دعاه عليهم بالهلاك :

أهل ”سلا“ صاحبت بهم صائحة غادية في دورهم رائحة
يكفيهم من عوز أنهم ريحانهم ليست له رائحة²

فلا يجد القارئ لهذين البيتين جمالا فنيا ، و ليس منشأ هذا الجفاف الفني عدم توفيق الشاعر في هذه الصورة المتكلفة فحسب ، بل من كزارة هذا الوزن و توعره أيضا ، لا لأننا نؤمن إيماننا مطلقا بقيمة الوزن مجردا من الألفاظ و المسماني ، كما يرى بعض النقاد المعاصرين حين نسب ذلك إلى حلزم بقوله : ”.. و هو بذلك أبقى على مفهوم هذه الأوزان كتوالب و أبقى على البنية الإيقاعية للقصيدة منفصلة في بنيتها اللغوية و الدلالية إذ أعطى للوزن خصائص سابقة للتأليف الشعري مما سمح له أيضا بالمفاضلة بين الأوزان“³ ، و إنما للفرق الجلي بين ما تتركه هذه الأوزان من أثر في نفس المتلقي ، و ما تحدثه تلك الأوزان الطويلة من وقع ، لدى القارئ ، و تستطيع أن تقارن ذلك بالإيقاعات الموسيقية ، فليست هي سواء في الحسن ، و في مقدار ما تحدثه في السامع من بهجة . و من المقطوعات الواردة في بعض مداعبات لسان الدين التي لا يتأثم فيها من كلمة طائشة ، ما خاطب به بعض الفقهاء⁴ فهي على ما فيها من لفظ مستكره ، ضئيلة الحظ من الجمال الموسيقي .

القوافي:

و للموسيقى الخارجية مظهر آخر في القصيدة ، هو القافية ، و هي في الشعر العربي قرينة الوزن ، لا يسمى الشعر شعرا إلا بتوفره عليها ، و قد كانت عناية علماء العروض بها كبيرة ، فاشتروا فيها شروطا كثيرة ، و ميزوا بين ما هو جيد مستحسن منها ، و ما هو مردول تنبؤ عنه الأذن ، كما لاحظوا ما يعتورها من عيوب و نبهوا الشعراء عليها ، و هي على أهميتها عندهم اختلّف فيها بينهم ”فأبوا يعلى التوخي“ في كتاب القوافي ، يذكر قولين للخليل في حدها ، و يستحسن قول ”أبي موسى الحامض“ فيها و ذلك في قوله : ”القافية ما يلزم الشاعر تكريره في كل بيت من

1 - د / عبد الله المنجذب : المرشد في أشعار العرب و صناعتها ، 90/1 .

2 - ديوان لسان الدين : 259/1 .

3 - د/جودت فخر الدين : شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري ، ط1 ، دار بيروت ، 1984 ، ص 143 - 144 .

4 - انظر القطعة رقم (474) في الديوان : 555/2 .

الحروف و الحركات¹ . وربما اعتبرها بعضهم حرف الروي ، لأنه الحرف الذي يتكرر حقيقةً في القافية ، و لأن القائل يقول قافية هذه القصيدة دال أو ميم² .

و إذا عدنا إلى ديوان لسان الدين ، وجدنا أن الشاعر ، قد ركب كل القوافي ، غير أنه وزعها بدرجات متفاوتة كصنيعه في الأوزان ، و يأتي في مقدمتها حرف الراء الذي استخدمه الشاعر (112) مائة و اثنتي عشرة مرة ، ثم الدال المهملة (96) ستا و تسعين مرة ، فالباء (80) ثمانين مرة ، فالنون (63) ثلاثا و ستين مرة ، فاللام (61) إحدى و ستين مرة ، فالميم (47) سبعا و أربعين مرة ، فالقاف (33) ثلاثا و ثلاثين مرة فالتاء (30) ثلاثين مرة ، فالهاء (27) سبعا و عشرين مرة ، فالحاء (22) اثنتين و عشرين مرة ، ثم بنسبة أقل ، و متقاربة الجيم ، فالسين ، فالعين المهملة فالضاد المعجمة فالفاء ، فالهمزة و الواو فالطاء ، فالكاف ، فالتاء و الزاي و الشين ، فالصاد المهملة ، فالغين و الذال ، و الظاء .

و هكذا نلاحظ أن لسان الدين لم ينظم على حرف واحد فقط ، و هو الحاء الذي لا ينظم عليه شعراء العربية عادة إلا في القليل ، و قد كاد الشاعر بذلك ينظم على كل حروف الأبجدية ، و لا ريب أنه بذلك يكشف عن قدرة شعرية ، و لغوية واضحة ، كما أنه تابع شعراء العربية في القوافي الأكثر دوراناً في قصائدهم ، و هي القوافي الذلل ، التي تطبع الشاعر ، و لا تستعصي عليه ، و هي ”البياء ، و التاء ، و الدال ، و الراء ، و العين ، و الميم ، و الباء ، المتبوعة بألف الإطلاق ، و النون في التشديد أسهلها جميعاً لما يعترئها من حالات الإسناد و الجمع و التثنية ، و لما يقع فيها من الصفات على وزن فعلان“³ ، و يلاحظ الباحث أن الراء يأتي في مقدمة قوافي ابن الخطيب ، و ليس ذلك بمستكرر ، لما يتصف به هذا الحرف من طاقة ، و تكرارية ، مما يجعله أقدر على التعبير عن حالات نفسية متعددة و أما الدال ، و الباء فهما حرفان انفجاريان يليقان بمقامات الانفعال خاصة .

و لابن الخطيب بعد ذلك نمط آخر من القوافي ، أقل طواعية من النمط السابق ، و ردت في ديوانه بنسبة أقل كالصاد و الزاي ، و الطاء ، و الظاء ، و الهاء ، و الواو ، و هي التي يقل نظم شعراء العربية القدامى فيها ، و لذلك يطلق عليها بعض الدارسين المعاصرين : ”القوافي النفر“ و لذلك ليس لشاعرنا فيها إلا المقطوعات ، و مع ذلك فله قصيدة طائفة⁴ طويلة ، اضطر فيها إلى غريب اللغة و إلى بعض عيوب القافية .

¹ - أبو يعلى عبد الباقي : التنوخي كتاب القوافي ، تحقيق د / عوض عوني عبد الرؤوف ، ط2 ، مكتبة الخانجي مصر ، 1978 ، ص 66 .

² - المرجع نفسه : ص 66 .

³ - د/عبد الله المنجوب : المرشد في فهم أشعار العرب و صناعتها ، 44/1 .

⁴ - ديوان لسان الدين : 457/2 .

ثم للشاعر مستوى آخر من القافية هو مستوى الحوشي ، الغريب ، كالثاء ، و الذال و الشين ، و الغين ، و يرجح أن الشاعر لم يجد في هذه القوافي من الجوانب الجمالية ما يدعو إلى النظم فيها ، إلا مجاراته للشعراء الذين يكلفون أنفسهم ، و يعتنونها إثباتاً لقدراتهم اللغوية كما فعل المعري إذ جاء بالقوافي الحوش جميعها في لزومياته¹ . و ليس لابن الخطيب على روي الغين مثلاً ، إلا مقطوعة من أربعة أبيات نظمها في إجازة بيت أستاذه ابن الجياب ، الذي يصف فيه تحرك الطاغية نحو غر ناطة سنة إحدى و أربعين و سبعمائة² و لم يعد الشاعر إلى النظم على هذه القافية بعد ذلك مما يدل على عدم تفضيئه لهذا النوع من القوافي .

نسبة ورود البحور و القوافي في ديوان ابن الخطيب :

أولا البحور :

النسبة	عدد المرات	البحر
%29	217	الطويل
%23	172	الكامل
%11	86	البسيط
%08	61	الخفيف
%07	53	السريع
%06	49	الوافر
%03	25	المتقارب
%03	25	الرمل
%01	12	المنسرح
%01	10	المجتث
%00.4	03	المديد
%00.4	03	المتدارك
%00.2	02	العميد

¹ - د / عبد الله المنسوب : المرجع السابق ، 64/1 .

² - انظر المقطوعة رقم 606 في الديوان : 667/2 .

ثانيا القوافي :

النسبة	المرات	القافية
%15	112	الراء
%13	96	الدال
%11	80	الباء
%08	63	النون
%08	61	اللام
%06	47	الميم
%04	33	القاف
%04	30	التاء
%03	27	الهاء
%03	22	الحاء
%03	22	الجيم
%02	19	السين
%02	18	العين
%02	15	الضاد
%01	13	الفاء
%01	10	الهمزة
%01	10	الواو
%01	09	الطاء
%01	08	الكاف
%00.6	05	الثاء
%00.6	05	الزاي
%00.6	05	السين
%00.5	04	الصاد
%00.1	01	الغين
%00.1	01	الذال
%00.1	01	الظاء

ب/نمط التوشيح :

اختلف في أمر الموشح في نمطه الموسيقي ، و عوامل ظهوره و أصله ، فبعض النقاد المعاصرين يذهب إلى أنه فن تفرع عن المسمطات العباسية ، و من هؤلاء : شوقي صيف¹ بينما يذهب ابن بسام ، من النقاد القدامى ، إلى أنه فن أندلسي خالص ، ظهر في الأندلس ، نتيجة لعوامل حضارية و ثقافية ، ترجع إلى طبيعة المجتمع الأندلسي و تكوينه من حيث الأجناس ، و اللهجات و يرى ابن بسام ، إذ ينسب الموشحات إلى (محمد بن محمود القبري) ، أنها خارجة عن أوزان الخليل و ذلك حيث يقول : ”و أول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا و اخترع طريققتها فيما بلغني محمد بن محمود القبري الضرير ، و كان يضعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة“² .

إن الموشحات و إن خالفت عروض الخليل ، في كثير من أنماطها ، لا تخرج عن إطار الذوق الشعري العربي ، و لا تعدو أن تكون ارتفاعاً أو تطورا للعروض الخليلي دون أن تكون ثورة عليه و نقضا لأصوله ، ذلك أن أكثر أعاريضها كما يقول ابن بسام على البحور المهملة التي تنتظمها الدوائر العروضية التي أبدعها عقل الخليل و عبقريته غير أنها لا تلتزم نظام القصيدة العربية التقليدية ، في الأشطار ، و التقفية ، و لها في ذلك أشكال عديدة لا سبيل إلى حصرها فقد أصبح للوشاح قدر وافر من الحرية في التنويع ، و التفرع ، و البحث عن النموذج الموسيقي الذي يلبي ذوقه و أغراضه الشعرية .

و مع كون الموشحات لا تتبع نظام الخليل ، إلا أن لها نظامها الخاص ، و إذا كانت القصيدة التقليدية تعتمد على وحدة البحر ، فإنه الموشح له نمط شائع ، و وحدة خاصة ، هي وحدة التفعيلة و هو يشبه في ذلك الشعر الحر ، غير أنه يلتزم عددا محددًا من الأشطار ، و نظاما خاصا من التقفية ، و يرى بعض النقاد المعاصرين أن الموشح يمثل انحرافا عن موسيقى الخليل من ثلاثة مبادئ : ”الاعتماد على التفعيلة كوحدة للوزن بدلا من البحر ، و مزج البحور في الموشحة الواحدة ، و ارتكاز الإيقاع على اللحن المصاحب لا على الوزن العروضي فحسب“³ .

و يحسن أن نعرض بإيجاز للنمط النموذجي للموشح قبل أن نتناول موشحات ابن الخطيب ، إذ يتكون النموذج الذي يكاد أن يكون متواترا بين الوشاحين من خمسة أفعال ،

¹ - د / النعمان القاضي ، و حيد عبد الحكيم الجمل : موسيقى الشعر العربي ، دار الثقافة للطباعة و النشر ، القاهرة ، 1980 ، ص 87 .

² - أبو الحسن علي بن سام الشنتري : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، القسم الأول - المجلد الأول ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، 1975 م ، ص 469 .

³ - د/صلاح فضل : طراز التوشيح بين الانحراف و التناص ، بحث قدمه ضمن أبحاث و مناقشات الندوة التي أقيمت في نادي جدة الثقافي تحت عنوان ”قراءة جديدة لتراثنا النقدي“ ، في الفترة من 09 إلى 15/04/1409 هـ - الموافق 19 إلى 24/11/1988 م ، ص 924 .

أ - فالقفل الأول يسمى المطلع أو المذهب : ، و يتكون عادة من شطرين أو أربعة أشطر ، و قد تتفق قافيتا الشطرين و قد لا تتفق .

ب - الدور : و هو مجموعة من الأبيات تلي المطلع ، و يتكون الدور من مجموعة من الأقسام لا تقل عن ثلاثة ، و لا مانع أن تزيد ، و يشترط أن يكون الدور بوزن المطلع ، و لكن بقافية مختلفة ، تلتزم في أشطر الدور الواحد و يسمى كل شطر منها "سطا" .

ج - البيت : يتكون في الموشح من الدور مضافا إليه القفل الذي يليه .

و - الغصن : كل شطر من أشطر المطلع أو القفل أو الخرجة ، و تتساوى الأغصان عددا و ترتيبا و قافية في كل الموشحة .

د - الخرجة : هي القفل الأخير من الموشحة ، و تتوفر على كل مواصفاته ، غير أنها تتميز باشمالها على بعض الألفاظ العامية أو الأعجمية¹ .

و قد وجدت في ديوان ابن الخطيب تسع موشحات (09) ، يمكن تصنيفها من حيث عدد الأقفال كما يلي :

موشحان ذاتا تسعة أقفال : و هما الموشحة الثالثة ، و السادسة .

موشحان ذاتا ستة أقفال : و هما الموشحة الثامنة و التاسعة

- موشحة ذات أحد عشر قفلا : و هي الموشحة السابعة

- موشحة ذات عشرة أقفال : و هي الموشحة الأولى

- موشحة ذات ثمانية أقفال : و هي الموشحة الثانية

- موشحة ذات خمسة أقفال : و هي الموشحة الرابعة

- موشحة ذات ثلاثة أقفال : و هي الموشحة الخامسة

و واضح من هذه الأعداد أن ابن الخطيب لم يلتزم بالنموذج المشهور للموشحة و هو ما كان على خمسة أقفال إلا مرة واحدة ، و يلاحظ أيضا أنه يكثر من عدد الأقفال ، و قد يصل بها إلى أحد عشر قفلا ، و ربما كان ذلك راجعا إلى ما سبق أن عرضناه في الفصل الثاني من كونه يميل إلى الإطالة ، و إظهار البراعة ، و قد يقلل منها إلى أن يبلغ الثلاثة كما هو جلي في الموشحة الخامسة و لكن علينا أن ننتبه إلى كون هذه الموشحة لم تصلنا كاملة ، فقد وجدها المحقق ضمن مختارات المقرئ من شعر ابن الخطيب ، فبعد قفلين منها ، يقول المقرئ : "و منها و هو آخرها"² ، فهذه العبارة تدل على أن الموشحة الأصلية كانت تشتمل على خمسة أقفال أو أكثر .

¹ في أجزاء الموشح انظر : د / مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه ، دار العلم للملايين ، ط 6 ، 1986 م ، ص 375 و ما بعدها .

² ديوان لسان الدين : 789/2 .

و قد حاولنا أن نكشف عن أوزان هذه الموشحات ، فوجدنا أنها خارجة عن البحور الخليلية ، وأغلبها لا يستقيم وزنه إلا على آلات الطرب ، و الألبان لأنها وضعت أساسا للغناء و لذلك عد ابن بسام الموشحات فنا خارجا عن مفهوم الشعر التقليدي لكونها متصلة بحياة الطبقة البسيطة من المجتمع فهي تغذي أذواق العامة قبل الخاصة ، و لم يورد منها ابن بسام شيئا في كتابه الضخم¹ ، و لابن الخطيب موشحة واحدة جاءت على أوزان الخليل هي الموشحة التي مطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث همي يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس²

فوزن هذه الموشحة هو الرمل و لعل السبب في التزام ابن الخطيب بالوزن الخليلي في هذه الموشحة دون سواها كونه عارض فيها موشحة "ابن سهل" التي على وزن الرمل أيضا فلم يكن للشاعر إذن اختيار في هذا النمط لكونه ملزما في المعارضة بعدم مخالفة وزن النموذج المعارض ، و قد اشتهرت موشحة ابن سهل شهرة كبيرة بين الأندلسيين خاصة فعارضوها و نسجوا على منوالها و قد أحصى أحد الباحثين في ذلك أكثر من خمسين موشحة أشهرها موشحة لسان الدين التي فاقت في الذبوع موشحة ابن سهل³ .

و رغم شهرة هذه الموشحة ، فإن النقاد يعتبرون الموشح الذي يأتي على وزن خليلي أضعف أنواع الموشحات ، و يطلقون عليه "الموشح الشعري" كإبن سناء الملك⁴ ، و هذا ما يفسر ابتعاد لسان الدين في موشحاته عن الأوزان الخليلية ، إلى الأوزان التي لا تستقيم إلا على الغناء و الألبان المصاحبة للموشحة ، و لأن اتباع الأوزان التقليدية ليس فيه إبداع و لا براعة فنية ، و ابن الخطيب يدرك هذا المبدأ الأساس الذي قام عليه فن التوشيح و له في ذلك كتاب مصنف اختار فيه ما استحسنته لمن تقدمه من الوشاحين و نعني به "جيش التوشيح" .

و قد جاءت أقفال موشحات لسان الدين مكونة من أربعة أغصان في ست موشحات منها ، و من غصنين في موشحة أخرى و قد يأتي بها متفقة القوافي كالموشحة السادسة حيث أن أغصانها وردت على قافية الحاء ، أو مختلفة القوافي و ذلك في بقية الموشحات .

و يلاحظ أن ابن الخطيب يكثر من السموط المكونة للأدوار ففي سبع موشحات أورد ستة سموط كل ثلاثة منها بقافية ، و في موشحة واحدة أورد تسعة سموط و في موشحة أخرى أورد ثلاثة سموط متفقة القوافي . و لكي يتضح هذا الجانب الموسيقي من موشحات لسان الدين ، ندرس نموذجا

¹ - ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق د / إحسان عباس ، القسم الأول - المجلد الأول ، ص 470 .

² - ديوان لسان الدين : 789/2 .

³ د / صلاح فضل : طراز التوشيح بين الانحراف و التناس ، مرجع سابق ، ص 944-945 .

⁴ د / محمد رضوان الداية : الأدب الأندلسي و المغربي ، ص 321 .

نرجح أنه أصدقها تمثيلاً لجهود شاعرنا في توفير جانب الموسيقى المؤثرة ذات القيمة الغنائية العالية ،
و يمكن هذا النموذج هو الموشح الذي عارض فيه موشح ابن سهل .

فهذا الموشح ورد في أحد عشر قفلاً كل قفل منها يتضمن أربعة أغصان ، اثنان منهما مقفیان
بالميم و الآخران بالسین ، يقول في القفل الثاني¹ :

و روى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً معلماً يزدهي منه بأبهي ملبس

و هكذا في بقية الأقفال ، و في هذا الموشح عشرة أدوار كل دور يتكون من ستة سموط ، كل

ثلاث منها بقافية واحدة ، على النحو التالي :

- الدور الأول : ورد على قافيتي النون المفتوحة و الميم المضمومة .
- الدور الثاني : ورد على قافيتي الواو المفتوحة و الراء المكسورة .
- الدور الثالث : ورد على قافيتي الصاد المفتوحة و الهاء الساكنة .
- الدور الرابع : ورد على قافيتي الضاد المفتوحة و الهاء المكسورة .
- الدور الخامس : ورد على قافيتي الباء المضمومة و الدال الساكنة .
- الدور السادس : ورد على قافيتي اللام المضمومة و الباء الساكنة .
- الدور السابع : ورد على قافيتي الباء المفتوحة و الدال الساكنة .
- الدور الثامن : ورد على قافيتي الضاد المفتوحة و الباء الساكنة .
- الدور التاسع : ورد على قافيتي الفاء المفتوحة و الدال الساكنة .
- الدور العاشر : ورد على قافيتي اللام المفتوحة و اللام الساكنة .

نلاحظ أولاً القافية التي اختارها لسان الدين و هي قافية مهموسة ذات جرس موسيقي أخاذ لا
سيما أنها جاءت مكسورة ، حيث يحس السامع فرقاً بين الصوت المفتوح و المضموم من جهة
و المكسور من جهة أخرى ، فلهذا الأخير جمال ليس لذنيك ، فالسين إذا جاءت مكسورة أجمل منها
مضمومة أو مفتوحة ، و لعل ذلك ما لاحظته النقاد حين أعجبوا بسينية البحترى المكسورة الروي ،
و لعل شاعرنا ممن أخذوا ببراعة البحترى ، فقد تبين في الفصل الثاني مدى إعجاب الشاعر بالأدب
المشركي شعره و نثره .

ثم نلاحظ ، ثانياً هذا التنوع في القوافي الداخلية إذا جاز التعبير و نعني بذلك قوافي الأدوار
فقد تعددت و تنوعت بين النون و الميم و الواو و الراء و الصاد و الهاء و الضاد و الدال و الباء

¹ .. ديوان لسان الدين : 792/2 .

و اللام و الفاء ، و كأن الشاعر أراد توزيع هذه الأصوات على عدد الألحان المصاحبة للموشح الذي يتغنى به في مجالس الطرب ، فلكل صوت حالة نفسية و عاطفية مناسبة .

و نلاحظ بعد ذلك تنوعاً موسيقياً مرتبطاً بالقافية و حروفها إذ نجد أن لسان الدين التزم في بعض القوافي حرفاً من حروف المد قبل حرف الروي و ذلك في الدور الثالث حيث التزم الياء قبل حرف الروي (الهاء) في قوله¹ :

أي شيء لامرئ قد خلصا فيكون الروض قد مكن فيه

و في الدور الخامس التزم الياء أيضاً قبل روي الدال في قوله(2) :

و بقلبي منكم مقرب بأحاديث المنى و هو بعيد

و في الدور السادس التزم الواو قبل روي الباء في قوله(3) :

إن يكن جار و خاب الأمل و فؤاد الصب بالشوق يذوب

و في الدور السابع التزم الياء قبل روي الدال في قوله(4) :

ما لي قلبي كلما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد

و في الدور الثامن التزم الألف قبل روي الباء في قوله(5) :

سلمي يا نفس في حكم القضا و اعمرني الوقت برجعي و متاب

و في الدور العاشر التزم الألف كذلك قبل اللام في قوله(6) :

هاكها يا سبط أنصار العلى و الذي إن عثر النصر أقال

فهذه المدود تساعد على ترجيع الصوت بالغناء من جهة و تعبر عن حالات التأوه و الوجد من

جهة أخرى .

ج/ الموسيقى الداخلية :

تعتمد جمالية القصيدة عند ابن الخطيب على ما تحمله من طاقة غنائية موسيقية كما يرى بعض النقاد و قد أشير إلى ذلك في الفصل الثاني . و للشاعر في هذا النمط مستويات تدل على خبرته الواسعة بخصائص اللغة العربية و ما تزخر به من جماليات صوتية لأن ابن الخطيب يتصنع لذلك تصنعاً غير أن القارئ لا ينفرد من جهد الشاعر الصانع ، و أول تلك المستويات ما يمكن أن نطلق عليه "المشاكلات الصوتية" حيث يجتهد الشاعر في اختيار الألفاظ المتشاكلات الأصوات ، فيأتي بأكثر عدد من الكلمات المشتركة في بعض الحروف ، دون أن يقع في النوع البديعي المعروف بالجناس بل

(1) - ديوان لسان الدين : 792/2 .

(2) ، (3) ، (4) ، (5) : المصدر نفسه : 793/2 .

(6) - المصدر السابق : 794/2 .

إن اشترك هذه الكلمات في بعض الصفات الصوتية له دلالة نفسية لأنه يوحى بشيوع جو نفسي موحد يطرد في كل القصيدة أو أغلبها ، و قد لاحظنا ذلك في أكثر من حالة نفسية ، و نضرب لذلك مثالين :
 أولهما قصيدة ملادية حائية ، و في هذه القصيدة يتكرر حرف الحاء في عدة أبيات يقول من تلك القصيدة¹ :

هل كنت تعلم في هبوب الريح	نفسا يوجب لاجع التبريح
أهديك من شيخ الحجاز تحية	غاضت لها عرض الفجاج الفيح
..جاد الحمى بعدي و أجراع الحمى	جود تكل به متون الريح
..هن المنازل ما فؤادي بعدها	سال و لا وجدي بها بمريح
..فأبث فيها من حديث صبابتي	و أحث فيها من جناح جنوحسي

فيلاحظ القارئ لهذه الأبيات أن أكثر كلماتها يشتمل على صوت الحاء و هو من جهة يناسب حرف الروي و من جهة أخرى يناسب حالة الشاعر النفسية ذلك أن صوت الحاء حلقي و هو أقرب إلى أصوات البكاء و أنسب للتعبير عن الاشتياق و النشيج ، و لا يخفى أن الشاعر يتلهف على عدم زيارته لأرض الحجاز و يتحرق شوقا إلى الاكتحال برؤية تلك المعالم الطاهرة ، فكانت كلمات "الريح ، التبريح ، الحجاز ، تحية ، الفيح ، مريح ، حديث ، أحث ، جنوحسي" أسعف للشاعر في التعبير بصدق عن تلك الحالة .

أما المثال الثاني فهو قصيدة عيدية في مدح أبي الحجاج ، و قد رأينا أن لسان الدين يعتمد في أكثر مدائحه على المعاني الجهادية ، و من تلك المعاني القوة بتجلياتها المختلفة و لذلك نرى الشاعر يحرص على اختيار الكلمات ذات الجرس القوي ، و قد فضل في القصيدة المشار إليها روي القفاف و يلاحظ الباحث في الحالات النفسية التي يتصعد فيها حماس الشاعر أنه يوظف الكلمات المشتملة على حرف القاف ، و كأن هناك معادلة بين الأصوات و اهتزاز مشاعر المبدع ، و في الأبيات الآتية نلاحظ هذه الظاهرة الفنية بوضوح ، يقول الشاعر في أبيات متفرقة من القصيدة² :

أقام للدين قسطاسا فأمنه	ما سامه الجور من بخس و من رهق
..فألق البيض و اهزز كل غالبية	فالدين في مرح و الكفر في وهق
حتى إذا الروم رامت فرصة و نزا	يوما مناقفها الأشقى عن النفق ..

¹ المصدر السابق : 241/1 ، 242 .

² المصدر نفسه : 691/2 ، 692 .

فأغلب كلمات هذه الأبيات تشتمل على حرف القاف كقوله "أقام - قسطاس - وهق - ألق - رهق - مناقها - الأشقى - النفق" و معلوم ما في هذا الصوت من قلقة و قوة تناسب أوصاف الشدة على الكفار و الإعداد لهم .

أما المستوى الصوتي للموسيقى الداخلية في شعر لسان الدين ، فهو محاولة الشاعر أن يحقق الاتسجام بين الموسيقى و الموضوع و ذلك يعني أن لكل قصيدة شخصية موسيقية مستقلة إذا جاز التعبير لأن الشعر قبل كل شيء لغة و من المعلوم أن اللغة و الفكر صنوان ، أو وجهان لعملة واحدة و دون الخوض في هذه المسألة الفلسفية و أيهما أسبق في الوجود اللغة أم الفكر ؟ نحاول أن نتلمس مدى قدرة الشاعر على توفير هذا التوافق بين الناحية الصوتية و المعنوية من تأملنا في أبيات نختارها من قصيدة في استغاثة أبي عنان المريني حالة عودته إلى غرناطة بعد انقضاء سفارته عن الغني بالله يقول لسان الدين في مطلعها¹ :

أبدى لداعي الفوز وجه منيب و أفاق من عدل و من تأنيب
كلف الجنان إذا جرى ذكر الحمى و البان حن له حنين النيب

فالذي نلمسه في هذا المطلع هذه الموسيقى الهادئة العذبة لأن الشاعر في مقام الإنابة و الارعواء عن التصابي بعدما عدل و أنب و تتجلى هذه السكينة في المد الذي صرع به البيت الأول في كلمة "منيب" و في "البان" و هو شجر يرمز إلى منتهى الرقة و في "حنين النيب" إلى مواطنها أو إلى صغارها الحنين الذي لا شيء فوقه ، و بعد هذا المطلع يقول الشاعر في وصف مقامه عند الممدوح² :

لما حلت بأرضه متملياً ما شئت من بر و من ترحيب
شمل الرضى فكأن كل أقاحة تومي بثغر للسلام شنيب

و في هذين البيتين يذكر الشاعر " البر و الترحيب و الأفاحي و السلام و الثغر الشنيب " و كل هذه الألفاظ توحى بالرضى و الحبور و لا سيما شنب الأسنان و بياضها عندما يفتقر الثغر مبتسما و نلاحظ الفرق بين الموسيقى في البيتين السابقين و في هذا المقطع فهنا تستوقف القارئ هذه المدود في البيت الثاني التي بلغت خمسة ، و في مد الصوت استرخاء و راحة و هو الجو النفسي الذي أراد الشاعر أن يضع المتلقي فيه لا سيما عندما يكون الشاعر في حالة الإنشاد ، و كثيرا ما كان لسان الدين ينشد قصائد فيأسر بإنشاده المؤثر قلب ممدوحه و عواطف سامعيه .

¹ - المصدر السابق : 128/1 .

² - المصدر نفسه : 130/1 .

ننتقل بعد هذين المقطعين إلى أبيات في الاستغائة يقول فيها لسان الدين ، و الخطاب لأبي

عنان¹ :

نادتك أندلس و مجدك ضامن أن لا تخيب لديك في مطلوب
غصب العدو بلادها و حسامك الماضي الشبا مسترجع المغصوب
أرها السوابح في المجاز حقيقة من كل قعدة محرب و جنيب
يتأود الأسد المتقف فوقها و تجيب صاهلة رغاء نجيب
و الروم فارم بكل نجم ثاقب يذكي بأربعها شواظ لهيب

أما في هذه المقطوعتين نلاحظ أن الشاعر يختار الألفاظ الفخمة نحو "ضامن - مطلوب - غصب - الماضي - مغصوب" و هذه الكلمات تشتمل على بعض حروف الإطباق كالصاد و الضاد و الطاء ، و في الإطباق امتلاء الفم بالصوت بالإضافة إلى الصفير الذي يحدث عند التلفظ بكلمة صاهلة و هي صفة لصوت الخيل و من المعروف أن الحصان العربي يتميز بطبيعة مقاتلة بما يعرف عنه من سرعة و تحمل للصعاب و حممة أثناء المعركة ، أما كلمة "شواظ" و هي كلمة قرآنية ، فقد جمعت إلى الصوت الفخم الباعث على الخوف و الرهبة ، اللون المرعب . و ينبغي أن نتوقف عند الأصوات المشددة و ما تمثله من قيمة موسيقية كما يظهر من قول الشاعر "يتأود - المتقف - فلا شك" أنهما تعبران عن الانفعال ، انفعال الشاعر الغاضب على العدو الذي سلب أرض الإسلام ، و لا يخفى ما لكلمة يتأود من دلالة على الحركة المستمرة و المتموجة للرماح و هي تشهر في وجه الأعداء فمن خلال ما تمثله هذه الألفاظ من طاقة موسيقية استطاع أن ينقل المتلقي من حال السماع إلى حال المعاينة فكانه يشاهد وقائع معركة دامية بناظريه .

أما المستوى الثالث للموسيقى الداخلية في شعر ابن الخطيب فهو اعتماد الشاعر على التوقيع المتأتي من الترصيع أو حسن التقسيم ، و يلجأ الشاعر إلى هذا النوع من الموسيقى في حالات المطرب المرحة ، و من أبرز نماذجها قصيدة أنشدها أبا الحجاج في نيروز عام سنة و ثلاثين و سبع مائسة و أكثر أبيات هذه القصيدة ذات إيقاع داخلي منتظم ، من ذلك قول الشاعر² :

كهدف لجأ الإسلام له فغفى و حمى و كفى و وقى

فالموسيقى الداخلية هنا قائمة على حسن التقسيم في الشطر الثاني ، أما قول الشاعر³ :

و الأرض تضيق بساكنها و تغص بريقها شرقا

فاهترت حين أتى و ربت و أسال بها ماء غدقا

¹ - ديوان لسان الدين : 131/1 .

² - المصدر نفسه : 688/2 .

³ - المصدر نفسه : الموضع نفسه .

..مهلا فمواطر كفاك ما أبقت محتاجا مرتزقا
و لقد أمرت حتى غمرت و تخوف سائلك الغرقا
أبني الأنصار لكم شرف حكم القرآن به نطقا
أووا نصرُوا أوذوا صبروا كانوا لرسول الله وقا

فالموسيقى الداخلية فيه بنيت على الترصيع بحيث دمج بين قافية البيت والقوافي الداخلية كقوله
”فاهتزت حين أتى و ريت - و لقد أمرت حتى غمرت - أووا نصرُوا أوذوا صبروا ، و جمال هذه
القوافي يعود إلى تساوي المقاطع تماما مثلما نجده في السجع المتوازي في حالة النثر ، و واضح أثر
الصناعة النثرية في موسيقى الشاعر فهو يمزج بين الصناعتين الشعر و النثر ، و نلاحظ من جانب
آخر اعتماد الشاعر على الموسيقى القرآنية التي تراعي تناسب الفواصل و يظهر ذلك جليا في القرآن
المكي حيث ترد الآيات الكريمة موجزة متحدة المقاطع و ذلك ما يزيد في قوة تأثيرها في نفس المتلقي.

و هكذا رأينا في هذا الفصل أن لسان الدين يستغل طاقته اللغوية و الأدبية ، لإغناء الجانب
الفني ، و الجمالي لشعره ، ففي ميدان الصورة يأخذ مواد من طبيعة الأندلس ، بما عرفت من فتنة
و جمال ، يبدع الشاعر منها صورا تشخيصية ، كما يستمد تلك المواد ، من ذاكرته الأدبية و الدينية ،
فيحاكي صور الشعراء الجاهليين ، و الإسلاميين ، و العباسيين أو ينسج على منوال الصور القرآنية ،
و يتخذ من الرموز الإسلامية رافدا لخياله الشعري ، و لا يلقي بالمعنى جاهزا غفلا من التلويح ،
و التصوير ، أما في مجال الموسيقى فقد رأينا أن الشاعر ، مزج بين النمط الخليلي و النمط الأندلسي
المتمثل في التوشيح ، و هو في النمط الأول ، يميل إلى البحور التي ينظم عليها الجاهليون خاصة
كالطويل و البسيط و الكامل كما يفضل القوافي الذائعة بينهم و يتحاشى القوافي الحوش و هو في ذلك
يرمي إلى البرهنة على قدرته الأدبية ، أما في نمط الموشحات فإن لسان الدين يميل إلى الموشح التام
و يكثر من الأفعال و قلما يراعي النموذج المشهور المعتمد على خمسة أفعال و يتميز شعر لسان الدين
بطاقة موسيقية داخلية برع الشاعر في توظيفها راميا بذلك إلى إحداث التأثير الفني في نفس المتلقي
و القارئ لشعره و حسبنا في هذا المقام^{الإشارة} إلى موشحه الذي فاق في الذبوع موشح ابن سهل لما يتوفر
عليه من طاقة موسيقية و غنائية كبيرة و لما يتركه في النفوس من أسر و نشوة فنية بالغة .

الخاتمة

تكفلت الفصول السابقة بعقد تمهيد أطل منه الباحث على عصر ابن الخطيب و قد تبين من تلك الإطلالة الجهود العظيمة التي بذلها ملوك بني الأحمر و لا سيما مؤسس الدولة في توطيد أركان دولته التي تعرضت للقلقل و الفتن كثيرا ، و عرفت حياة الاستقرار و الطمأنينة قليلا و رغم ذلك فقد عرف العمران ازدهارا و العلوم و الفنون انتشارا .

و في هذا العصر ولد لسان الدين و نشأ ، و اغترف من معارفه الخصبية ، و لم تكن حياته لتعرف السكينة و هو في قمة الهرم فتكاثر عليه الحساد و تألبت عليه الأعداء، و ذلك ما اضطره إلى أن ينجو بنفسه إلى مستقر كان يرجوه أمنا خالصا من الأذى و سقط الشاعر صريعا في معركة لم تكن أسلحتها شريفة لا سيما عند خصومه .

و رغم هذه الحياة المضطربة فقد خلف لسان الدين للأدب العربي تراثا ضخما سلم بعضه من الأذى ، دأب الباحثون على تحقيقه و نشره .

• و للكشف عن شاعرية ابن الخطيب و بيان مصادرها قادنا البحث إلى رسم صورة و جيزة لمفهوم الشاعرية في النقد العربي و قد تبين من ذلك العرض الموجز أن الشاعرية تقاس بجانبين : ملكة الإبداع عند الشاعر و هو ما يدعوه النقد القديم بالطبع و النقد الحديث بالموهبة أو الشخصية الشعرية ، و الجانب الثاني هو الإنتاج الشعري نفسه و ما يوصف به من جودة فنية أو تفرد في أسلوب مميز أو ما يرسمه من فلسفة خاصة تعكس رؤية الشاعر للحياة .

• و تعود شاعرية ابن الخطيب إلى ثلاثة روافد هي :

- ثقافته العميقة ، و قد تجلت مظاهرها في شيوخه الذين أخذ عنهم و هم بين حكيم وفقير و صوفي و لغوي و أديب و قد انعكست هذه الثقافة في شعره الإسلامي خاصة .
- وظائفه السياسية ، و قد ظهر أثرها في أكثر أغراضه الشعرية و لا سيما المدح و الوصف و الرثاء .

- المنابع الذاتية ، و نعني بها مواهبه و عبقريته ، و أخص جانب يبرز لنا ذلك هو شعره الوجداني الخالص الذاتية و الذي عبر فيه عن أشواقه الإنسانية و تطلعاته الروحية .

• لقد أدرك النقاد و الدارسون لأدب لسان الدين قيمة هذه الشاعرية فأبدى بعضهم إعجابهم بها ، و اختلفوا بعد ذلك في تحديد مصادرها فبعضهم يعزوها إلى امتلاكه ناصية اللغة و غيرهم يرجعها إلى ما

يزخر به شعره من فكر ، و ذلك من نتائج تأملاته الفلسفية و سبحاته الصوفية و أبحاثه التاريخية ، و فريق ثالث يلتمس ذلك فيما يزخر به شعره من طاقة غنائية موسيقية .

• و قد تبين من الفصل الثاني ما يميز شاعرية لسان الدين من سمات ، و تتلخص فيما يأتي :
فشعره نموذج مشرق للشعر الأندلسي المحافظ على أندلسيته في القرن الثامن الهجري ، بما ظهر على يديه من تجديد لصنعة التوشيح ، و ما بث في قصائده من أمثال الأندلسية ، أو معارضته لشعراء الأندلس و وشاحيها . و هو على ذلك صورة من صور الشعر العربي عامة بما تجلى فيه من آثار مشرقية نتيجة لمحاكاته لكبار شعراء المشرق محاكاة قائمة على اعتبار الشعر المشرقي المثال الذي ينبغي أن يحتذيه و يترسم خطاه كل شاعر مشرقى أو مغربى .

و من أبرز الملامح التي انطبع بها شعر لسان الدين بروز أثر الثقافة الإسلامية بما اشتمل عليه من اقتباسات من القرآن الكريم و الحديث الشريف أو بما ظهر فيه من ملامح صوفية و زهدية .
و في هذا الشعر مسحة واضحة من أثر الثقافة العلمية فما أكثر ما يقف الباحث فيه على مصطلحات العلوم و الفنون التي برع فيها الشاعر .

و لم يخل هذا الشعر من مظهر شكلي ، ذلك أن أكثر قصائد الشاعر تميل إلى الطول المسرف أحيانا و قد صار للمعيار الكمي وجه من أوجه البراعة الفنية في عصر الشاعر .

و أخيرا ظهرت في إنتاج لسان الدين الشعري سمة التصنع لأشكال البديع حتى رأينا أديبا ممن اشتهروا بالتأليف في فن البديعيات يشيد ببعض مظاهر الصنع البديعي في شعر لسان الدين .

• و قد تبين من دراسة الأغراض الشعرية التي ألم بها الشاعر أنه شارك في أكثر فنون الشعر العربي مع حضور أقوى لقصيدة المدح ، و الواقع أن ذلك يتماشى مع طبيعة الشعر العربي عامة ، و في تلك الأغراض ظهر اتجاهان كبيران في شعر ابن الخطيب هما الاتجاه الإسلامي الملتزم ، و الاتجاه التقليدي .

أما الاتجاه الإسلامي الملتزم ، فقد تجسد في ثلاثة أنواع شعرية هي : شعر الجهاد ، و شعر المدائح النبوية أو المولديات ، و شعر الزهد و التصوف . و في هذا الشعر يتجلى أمام نظر الباحث أن ابن الخطيب نموذج للشاعر الإسلامي الذي ألزم نفسه برسالة مقدسة سخر لها فنه و لم ينزو بمنأى عن أحداث عصره المصيرية .

• ففي شعر الجهاد صور لنا الشاعر جهود سلاطين بني الأحمر في المحافظة على الأندلس التي أحاط بها الأعداء و تربصوا بها الدوائر ، و قد أبرزت القصائد التي صور فيها معارك بني الأحمر ضد النصارى صورة تاريخية حية من صور الصراع الديني بين عقيدة التوحيد و الصليبية كما عكست تلك القصائد صورة رائعة من صور الوحدة بين مسلمي العدوتين : أهل الأندلس و أهل

المغرب الإسلامي . و قد كان لهذا الاتحاد القائم على الأخوة و الموالاة في الدين دور في صد هجمات الأعداء ، و في الوقت نفسه رسم لنا صورة للروم أعداء المسلمين فإذا هي صورة قبيحة لما يمتثلونه من غدر و خيانة و جبن و محادة للدين القويم ، و هي في كل الحالات صورة خلقية غير قائمة على النظرة الشعبية المقيّنة . و في تلك القصائد سرد لوسائل الصراع و هي نوعان : وسائل مادية مما يتخذه المسلمون من عدد و عدد ، و وسائل معنوية تتمثل فيما يستند إليه المسلمون من عقيدة قوية صحيحة و راسخة في النفس . و قد كان الشاعر واقعياً حين جسد صور الانكسار معترفاً بالضعف الذي يعرو المسلمين أحياناً فتلحقهم الهزيمة .

• أما في شعر المدائح النبوية فتظهر قيمة روحية تتمثل في الصلة الوثيقة بين فن المدائح النبوية و شعر التصوف ، لما يمثله شعر المدائح من قيمة عقديّة حيث إنه يتناول شخصية الرسول صلى الله عليه و سلم في علاقة الشاعر المسلم بها . و تقوم القصيدة المولدية عند لسان الدين على وصف الشمائل النبوية الكريمة اعتماداً على المصادر الإسلامية كالقرآن و السنة و كتب السير و الشمانسل . و يلاحظ الباحث اهتمام لسان الدين بالمعجزات المادية التي أيد الله بها رسوله أكثر من اهتمامه بالقرآن كما يلاحظ اهتمامه بالقصص المروي عن الحوادث التي صاحبت مولد النبي صلى الله عليه و سلم أو التي كانت إرهاباً بقرب مولده متابعاً في ذلك البوصيري في طريقته و مرضياً ما آل إليه فكر عامة المسلمين في عصره من الإيمان بالخوارق و بناء العقيدة على أساس منها .

• وقد كشف شعر التصوف تلك الجوانب التي كانت تهتف بالشاعر أن يسلك طريق المتصوفة ، غير أن ذلك لم يطرد في حياته ، فسرعان ما تجذبه شواغل الحياة السياسية عن تلك البوارق الروحية ، فلم يصدر في شعره عن مذهب صوفي واضح وإنما صدر عن نظرات جزئية ، والمهم في ذلك أن تصوفه بعيد عن الغلو أو المناداة بالوحدة المطلقة بل كان أقرب إلى مذهب العارفين من أهل السنة ، و قد تجلّى ذلك في بعض القضايا التي طرحها كالإيمان بالكرامات ، و اعتبار المعرفة قائمة على الكشف الرباني ، متأثراً في ذلك بأراء الغزالي ، أو في ظهور آثار قدرة الله و تجليها في مظاهر الكون و هو يستند في ذلك كله إلى توجيهات القرآن و السنة .

• و قد ارتبطت المعاني الصوفية بالمعاني الزهدية ، و نظرة الشاعر إلى الدنيا معتدلة لا إسراف فيها و لا رهبانية و إنما هي اعتبار بمصائر الأمم ، و وقفات مع النفس الطموح و كبح من جماحها ، و بناء على ذلك يعد لسان الدين شاعراً متصوفاً لا متصوفاً شاعراً .

• و في شعره التقليدي كان لقصيدة المدح النصيب الأوفر عدد أبيات و موضوعات بحكم كثرة من مدحه الشاعر من السلاطين و الوزراء و خاصة السلطان أبا الحجاج النصري و ابنه الغني بالله . و حفلت مدائحه فيهما بذكر ما اتصفا به من مزايا الملك و ما تم على يديهما من أعمال حضارية ،

و كان ينزع في مدحه أحيانا نزعة مثالية بحيث يحل ممدوحه أعلى درجات العظمة ، وقد لاحظنا في مدائحه ميله إلى توظيف المواقف السياسية للممدوح تلميحاً أو تصريحاً فكشفت لنا تلك المدائح جانب الصراع بين الملوك و الوزراء المتغلبين خاصة في مدائحه في المرينيين و الزيانيين حيث ضعف مركز السلاطين و انحصر النفوذ و السلطة في أيدي القادة و الوزراء المستبدين ، و قد لاحظنا كذلك تلون مواقف الشاعر من الأحداث السياسية حسب ما تمليه عليه مصالحه الشخصية ، و قد تجلّى ذلك واضحاً في موقفه من الصراع بين الزيانيين و المرينيين على مملكة تلمسان . و لم تخل مدائحه من نظرات سياسية ثاقبة تتم عن معرفة بمزايا الملك و أساليبه الحكيمة ، فقد صور لنا رأيه في مستحق منصب الإمامة فإذا هو يستند فيه لا إلى المواصفات السلطانية وحدها بل إلى شروط فقهية قارب فيها القول بمذهب الشيعة دون أن يكون ذلك عقيدة له و مذهباً .

• و في مرثيته حكم لا تبلغ أن تكون فلسفة واضحة و هي مأثورة عن شعراء الحكمة و في تلك المرثية تفجع مقرون برضا الشاعر بقضاء الله و فيها يمزج بين عواطفه و مواقفه السياسية غير أنه أصدق في بكاء أصدقائه و ذويه منه في رثائه السياسي .

• و قد كشفت لنا قصائد الغزل عن ميل الشاعر إلى العفة و القول بمثالية الجمال و هو في ذلك جار على مذهب الأندلسيين في نظرتهن إلى المرأة و إلى الجمال ، هذا المذهب المتأثر بفلسفة ابن حزم في الحب ، فقيمة غزليات الشاعر جمالية في المقام الأول و ذلك راجع إلى نشأته الدينية .

• و في فن الوصف تظهر أندلسية الشاعر حيث فتن بالطبيعة حية و جامدة و خلد مظاهر الجمال الذي تشتهر به طبيعة الأندلس و عمرانها .

• و تعكس قصائد اللهو جانبا من حياة الشاعر في طور شبابه و إقبال الدنيا عليه من جهة كما تعكس ، من جهة أخرى ، وجهها للأندلس في أدوارها السلبية بما عرفته من لهو و غناء و مجالس عابثة ، غير أن هذا الجانب بالنسبة للشاعر عرضي ، دفع إليه بحكم حياة القصور التي تسامحت مع القيم الإسلامية أحيانا .

• و في شعر لسان الدين جانب من جوانب النفس البشرية في ضعفها و اندفاعها مع غضبها و كراهيتها ، و يبدو ذلك في أهاجيه التي نظمها في خصومه إلا أن ذلك الشعر لم يسقط في إثم إشاعة الرذائل بل كان في بعضه نقداً لمسالك سياسية منحرفة و تحذير من بعض الطوائف التي عرفت بسعيها في الأرض بالفساد . و في شعر لسان الدين جوانب إنسانية مشرقة نرى فيها مزايا إنسان أخلص الود لأصدقائه فبادلهم المشاعر النبيلة و عبر عن قيمة العلاقات الإنسانية في حياة الإنسان ، و تلوح لنا في ذلك الشعر نفس شاعر شغف بالعلم و العلماء و مصنقاتهم الذائعة الصيت .

• أما قيمة شعر ابن الخطيب الفنية فهي كونه يتوفر على جماليات القصيدة العربية ؛ ففي مجال الصورة يعتمد لسان الدين على الوسائل البلاغية التقليدية من تشبيه و كناية و استعارة و بديع ، غير أنه يتخذ مواد صورته من أندلسيته ، و فقهه لأساليب القرآن الكريم ، أما في مجال الموسيقى فيعد شعر لسان الدين نموذجا مشرقا لفنيات الأداء الصوتي بما توفر عليه من طاقة غنائية متميزة .

الجمعة الأمير عبد القادر للعطوم الإسلامية

المصادر و المراجع

أولا : الكتب :

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم .
- ابن الأبار أبو عبد الله محمد ، القضاعي البلنسي : ديوان ابن الأبار ، قراءة الدكتور عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر و ديوان المطبوعات الجزائرية ، ط2 ، 1982م .
- ابن أبي حجلة التلمساني : ديوان الصباية ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف الإسكندرية .د.ت
- ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف : تثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ، تحقيق وتقديم و دراسة الدكتور محمد رضوان الداية ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، بيروت ، 1967م .
- ابن بسام ، أبو الحسن علي الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس 1975م .
- ابن تيمية ، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم : علم الحديث ، تحقيق موسى محمد علي ، دار الفكر الجزائر ، ط3 ، 1993م .
- ابن حجة ، أبو بكر علي الحموي : خزانة الأدب و نهاية الأرب ، شرح عصام شعيتو ، دار مكتبة الهلال بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1981م .
- ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي : رسائل ابن حزم ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط1 ، 1401هـ - 1980م .
- ابن جزري ، أبو القاسم الكلبی الغرناطي : التسهيل لعلوم التنزيل ، الدار العربية للكتاب ، (د.ت) .
- ابن خاقان ، الفتح : قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، مطبعة التقدم العلمية ، ط1 ، 1360هـ .
- ابن الخطيب ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني ، الإحاطة في أخبار غرناطة (4 أجزاء) ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط1 ، 1394هـ - 1974م .
- ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني (مجلدان) : دراسة و تحقيق : الدكتور محمد مفتاح ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1989م .
- الصيب و الجهام و الماضي و الكهام : دراسة و تحقيق : الدكتور محمد الشريف قاهر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط1 ، 1973م .
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، الجزء الأول ، تحقيق

- ليفى بروفنسال ، دار المكشوف ، ط2 ، 1956م .
- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، ط1 ، 1968م .
- روضة التعريف بالحب الشريف ، تحقيق الدكتور محمد الكتاني ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1970م .
- مثلى الطريقة في ذم الوثيقة تحقيق الدكتور عبد المجيد تركي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1983م .
- معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار ، تحقيق الدكتور محمد كمال شبانة ، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية و دولة الإمارات العربية المتحدة 1976م .
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العباري ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، د.ت .
- ابن خلدون ، عبد الرحمان : كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر : دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة ، 1983م .
- المقدمة : دار القلم لبنان ، ط7 ، 1989م .
- التعريف بابن خلدون و رحلته غربا و شرقا ، (ضمن الجزء 14 من تاريخ ابن خلدون) ، دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة ، 1983م .
- ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني : العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط3 ، 1383هـ - 1963م
- ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى المغربي : كتاب الجغرافيا : تحقيق إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط2 ، 1982م .
- ابن شهيد ، أبو عامر أحمد بن أبي مروان : رسالة التوابع و الزوابع : تحقيق و شرح بطرس البستاني ، دار صادر ، بيروت ، 1400هـ - 1980م .
- ابن العماد ، عبد الحي الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت د.ت.
- ابن الفارض ، أبو حفص عمر بن أبي الحسن : ديوان ابن الفارض ، شرح كرم البستاني ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، 1404هـ - 1983م .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم : الشعر و الشعراء ، دار صادر ، بيروت ، طبعة مصورة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت ، ط 2 ، 1403 هـ - 1983 م .

* التنسي ، محمد بن عبد الله : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان) ، تحقيق محمد بن عياد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، المكتبة الوطنية الجزائرية ، 1985 م .

* توات ، الطاهر محمد : أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع و الثامن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د.ت .

* الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة في علم البيان ، صححه و علق على حواشيه ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت ، لبنان ، د.ت .

- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، علق عليه محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ،

بيروت لبنان ، ط 1 ، 1994 م .
* الجرجاني ، علي بن عبد العزيز الواسطي ، محقق و شرح محمد أبو الوضيل إبراهيم و محمد الجاوي ، منشورات طلبة بيروت
* الجوزي ، الدكتور مصطفى : نظريات الشعر عند العرب : الجاهلية و العصور الإسلامية ، دار
الطبعة للطباعة ، بيروت ، ط 1 ، 1403 هـ ، 1981 م .

* جيدة ، الدكتور عبد الحميد : الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1980 م .

* الجيلالي ، عبد الرحمان : تاريخ الجزائر العام ، دار الثقافة ، بيروت ، ط 4 ، 1400 هـ ، 1980 م

* الحاوي ، إيليا : شرح ديوان أبي تمام ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1981 م .
- في النقد الأدبي الجزء الثالث : العصر العباسي و قصائد محللة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1980 م .

* حاجي ، الدكتور حمدان : حياة و آثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط 2 ، 1982 م .

- حياة و آثار ابن زمرك (شاعر الحمراء) ديوان المطبوعات الجامعية ، و المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989 م .

* حسين ، الدكتور طه : تجديد ذكرى أبي العلاء (ضمن الجزء الثالث من كتاب من تاريخ الأدب العربي) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط 4 ، 1988 م .

* حسين ، الدكتور محمد محمد : أساليب الصناعة في شعر الخمر و الأسفار بين الأعشى و الجاهليين ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1972 م .

* حمادي ، الدكتور عبد الله : دراسات في الأدب المغربي القديم ، دار البعث للطباعة و النشر ، قسنطينة ، الجزائر ، ط 1 ، 1406 هـ ، 1986 م .

- الحمصي ، أحمد فائز : تهذيب سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين الذهبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، 1992م .
- حومد ، الدكتور أسعد : محنة العرب في الأندلس ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط1 ، 1980م .
- الجَزاعي دعبل بن علي : ديوان دعبل بن علي الخزاعي ، حققه و جمعه الدكتور محمد يوسف نجم ، نشر و توزيع دار الثقافة ، بيروت لبنان .
- خليل إبراهيم عبد الرحمان : دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول - صلى الله عليه و سلم - الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 1971م .
- خوجة ، كمال الدين : المثل الأعلى في الأنبياء ، عربيه ، أمين محمود الشريف ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1409هـ ، 1989م .
- الذبياني زياد بن معاوية (النابغة) : الديوان ، تحقيق و شرح كرم البستاني ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، 1402هـ ، 1982م .
- الرازي ، أبو عبد الله محمد بن عمر ، فخر الدين : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي و الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي ، دار الفكر للنشر و التوزيع ، عمان الأردن ، 1985م .
- الرافعي ، مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، 1974م .
- رومية ، الدكتور وهب : شعرنا القديم و النقد الجديد ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، عدد شوال 1416هـ ، مارس 1996م .
- الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر : أساس البلاغة ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1992م .
- الكشف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجود التأويل ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د.ت .
- الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط5 ، 1985م .
- السدوسي ، أبو فيد مورج : كتاب الأمثال ، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1982م .
- السايح ، الحسن : منوعات ابن الخطيب ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية 1398هـ ، 1978م .
- السد ، الدكتور نورالدين : الشعرية العربية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1995م .

- الشكعة ، الدكتور مصطفى محمد : الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط6 ، 1982م .
- الأدب العربي في موكب الحضارة الإسلامية ، كتاب الشعر ، دار الكتاب اللبناني بيروت ، ط2 ، 1974م .
- المغرب و الأندلس : أفاق إسلامية ، و حضارة إنسانية و مباحث أدبية ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ط1 ، 1987م .
- الشهر ستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم : الممل و النحل ، تحقيق أمير علي مهنا و علي حسين فاعور ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، ط5 ، 1995م .
- الشايب ، الدكتور أحمد : تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، د.ت .
- الشوكاني ، محمد بن علي : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ط1 ، 1348هـ .
- صبحي ، الدكتور محي الدين : نظرية الشعر العربي من خلال نقد المتبني في القرن الرابع الهجري ، الدار العربية للكتاب ، د.ت .
- الصنهاجي ، أبو عبد الله محمد : أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م .
- ضيف ، الدكتور شوقي : الفن مذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف مصر ، ط10 ، د.ت .
- الطمار ، الدكتور محمد : الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1983م .
- عباس ، الدكتور إحسان : فن الشعر ، سلسلة الفنون الأدبية ، نشر و توزيع دار الثقافة بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1959م .
- عبد الرحمان ، الدكتورة عائشة : مع أبي العلاء في رحلة حياته ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1392هـ ، 1972م .
- عامر ، الدكتور فتحي أحمد : من قضايا التراث العربي ، الشعر و الشاعر ، منشأة المعارف .
- عتيق ، الدكتور عبد العزيز : الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، ط2 ، 1986م .
- العربي ، إسماعيل : دولة الأدارسة ملوك تلمسان و فاس و قرطبة ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1983م .
- عساف ، الدكتور ساسين : الصورة الشعرية و نماذجها في إبداع أبي نواس ، المؤسسة الجامعية

- للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، د.ت .
- العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله : كتاب الصناعتين الكتابة و الشعر ، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 1406هـ ، 1986م .
- العشماوي ، أيمن محمد زكي : قصيدة المديح عند المتنبّي و تطورها الفني ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، ط1 ، 1983م .
- العقاد ، عباس محمود : اللغة الشاعرة ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، صيدا ، د.ت .
- مطالعات في الكتب و الحياة ، دار الفكر ، القاهرة ، 1978م .
- عميرة ، الدكتور عبد الرحمان : التصوف الإسلامي منهجا و سلوكا ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، د.ت .
- عنان ، محمد عبد الله : الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا و البرتغال ، دراسة تاريخية أثرية ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1381هـ ، 1963م .
- لسان الدين بن الخطيب حياته و تراثه الفكري ، ط1 ، مكتبة الخانجي القاهرة ، 1388هـ ، 1968م .
- نهاية الأندلس و تاريخ العرب المتتصرين ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، ط3 ، 1966م .
- ط4 ، مكتبة الخانجي ، 1987م .
- عياض ، أبو الفضل اليحصبي ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د.ت .
- عيد ، الدكتور رجاء : التراث النقدي نصوص و دراسة ، منشأة المعارف الإسكندرية د.ت .
- الغزال ، أحمد بن المهدي : نتيجة الاجتهاد في المهادنة و الجهاد ، تحقيق و تقديم إسماعيل العربي ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1984م .
- الغزالي ، أبو حامد محمد : إحياء علوم الدين ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت .
- فخر الدين ، الدكتور جودت : شكل القصيدة العربية في النقد العربي القديم حتى القرن الثامن الهجري ، دار بيروت ، ط1 ، 1984م .
- فرحات ، الدكتور يوسف شكري : غرناطة في ظل بني الأحمر دراسة حضارية ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1982م .
- فيصل ، الدكتور شكري : تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ط6 ، 1982م .
- القاضي ، الدكتور النعمان و وحيد عبد الحكيم الجمل : موسيقى الشعر العربي ، دار الثقافة

- للطباعة و النشر ، القاهرة ، 1980هـ .
- القرطاجني ، أبو الحسن حازم : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تقديم و تحقيق محمد لحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1982م .
- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الثالث ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر 387هـ - 1967م .
- القشيري ، أبو القاسم عبد الكريم : الرسالة القشيرية في علم التصوف ، دار الكتاب اللبناني ، د.ت .
- قصبجي ، الدكتور عصام : لسان الدين بن الخطيب حياته و فكره و شعره ، منشورات جامعة حلب ، 1982م .
- الكريم ، الدكتور مصطفى عوض : فن التوشيح ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1974م .
- مؤنس ، الدكتور حسين : رحلة الأندلس ، الدار السعودية للنشر و التوزيع ، ط2 ، 1985م .
- مبارك ، الدكتور زكي : التصوف الإسلامي في الأدب و الأخلاق ، منشورات المكتبة العصرية للطباعة و النشر ، صيدا ، بيروت ، د.ت .
- عبقرية الشريف الرضي (الجزء الأول) منشورات المكتبة العصرية للطباعة و النشر ، صيدا ، بيروت ، ط2 ، د.ت .
- المدائح النبوية في الأدب العربي ، منشورات المكتبة العصرية صيدا ، بيروت ، د.ت .
- المنتبي ، أبو الطيب أحمد بن الحسين : الديوان ، دار صادر ، بيروت ، 1983م .
- طبعة دار الجيل ، بيروت .
- المجذوب ، الدكتور عبد الله : المرشد إلى فهم أشعار العرب و صناعاتها (الجزء الأول) ، شركة الحلبي للنشر و الطبع ، مصر ، د.ت .
- محمود ، الدكتور عبد الحلیم : إبراهيم بن أدهم ، دار الإسلام ، القاهرة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت .
- المراكشي ، عباس بن إبراهيم : الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الإعلام ، المطبعة الجديدة فاس ، 1936 .
- مصاييف ، الدكتور محمد : جماعة الديوان في النقد ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 1982م .
- مصطفى ، الدكتور موهوب : المثالية في الشاعر العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982م .

- المعموري ، الطاهر : الغزالي و علماء المغرب ، الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1990م .
- المقدسي ، موفق الدين عبد الله بن قدامة : الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار ، تحقيق وتقديم علي نويهض ، دار الفكر ، 1973م .
- المقري ، أحمد بن محمد التلمساني : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، الجزء الأول تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة 1358هـ - 1939م .
- نفع الطيب من غصن الأندلس الطيب : تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، لبنان ، 1388هـ ، 1968م .
- مكّي ، الدكتور الطاهر أحمد : دراسات أندلسية في الأدب و التاريخ و الفلسفة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط3 ، 1987م .
- ميسوم ، الدكتور عبد الإله : تأثير الموشحات في التروبادور ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1981م .
- النابغة ، زياد بن معاوية الذبياني : الديوان ، تحقيق و شرح كرم البستاني ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، 1402هـ ، 1982م .
- ناصف ، الدكتور مصطفى : دراسة الأدب العربي ، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1983م .
- الصورة الأدبية ، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط2 1981م .
- الوراكلي ، الدكتور حسن : لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين دراسة و بيبليوجرافية ، سلسلة المعتمدين عباد للتاريخ الأندلسي و مصادره ، منشورات عكاظ ، الرباط المغرب ، 1990م .
- الوزان ، الحسن بن محمد (ليون الإفريقي) : وصف إفريقيا ، ترجمة محمد صبحي و محمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1983م .
- يانوت ، شهاب الدين بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط 1410هـ - 1990م .
- ثانيا : الدوريات :
- أعراب ، الطرايسي أحمد : "الأصوات النضالية و الانهزامية في الشعر الأندلسي" ، دورية عالم

- الفكر ، وزارة الإعلام ، الكويت ، المجلد 12 ، عدد أبريل مايو ، 1981م .
- عيكوس ، الدكتور الأخضر : ”الأبعاد الفنية للصورة التشبيهية في الشعر الجاهلي“ ، مجلة العلوم الإنسانية ، منشورات جامعة قسنطينة ، عدد5 ، 1994م .
 - فضل ، الدكتور صلاح : ”طراز التوشيح بين الانحراف و التناص“ قراءة جديدة لتراثنا النقدي : أبحاث و مناقشات الندوة التي أقيمت في نادي جدة الأدبي الثقافي ، من 9 إلى 14/04/1409هـ - 19 إلى 24/11/1988م .
 - قاهر ، الدكتور محمد الشريف : ”لسان الدين بن الخطيب ، و تراثه الفكري في تلمسان“ مجلة الأصالة (عدد خاص عن تاريخ تلمسان و حضارتها) ، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية ، الجزائر ، العدد 26 ، السنة الرابعة ، رجب ، شعبان ، 1395هـ - جويلية - أوت ، 1975م .
 - مرتاض ، الدكتور عبد الملك : ”حركة الشعر المولدي في تلمسان على عهد أبي حموا الثاني“ ، مجلة الأصالة (عدد خاص عن تاريخ تلمسان و حضارتها) ، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية ، الجزائر ، العدد 26 ، السنة الرابعة ، رجب - شعبان 1395هـ ، جويلية - أوت 1975م .
 - مفتاح ، الدكتور محمد : ”مفهوم الجهاد و الاتحاد في الأدب الأندلسي“ دورية عالم الفكر ، وزارة الإعلام ، الكويت ، المجلد 12 ، عدد أبريل - مايو ، 1981م .
 - نبوي ، الدكتور عبد العزيز : ”شعر التفعيلة و الترنيمة“ ، مجلة الثقافة ، وزارة الإعلام و الثقافة الجزائر ، العدد 55 ، السنة العاشرة ، صفر - ربيع الأول 1400هـ ، يناير - فبراير 1980م .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
.....	إهداء
أ-ر	المقدمة
18-1	تمهيد : عصر ابن الخطيب
2	مملكة بني الأحمر في القرن الثامن الهجري
2	1- غرناطة
6	2- بنو نصر (بنو الأحمر)
10	3- أضواء على الحياة الاجتماعية و الدينية و الفكرية في عصر ابن الخطيب
10	أ- الناحية الاجتماعية
12	ب - الناحية الدينية
13	ج - الناحية الفكرية
53-19	الفصل الأول : حياة ابن الخطيب و آثاره :
20	أولا : حياة ابن الخطيب :
20	1- عناية الدارسين بابن الخطيب
21	2- اسمه و نسبه و مولده
23	3- نشأته
24	4- الوزارة الأولى
27	5- اللجوء إلى المغرب
28	6- فترة التأليف و الزهد
32	7- الوزارة الثانية
35	8- الاستقرار في المغرب
39	9- محنة ابن الخطيب و نهايته
42	ثانيا : آثار ابن الخطيب :
49	ديوان ابن الخطيب
108-54	الفصل الثاني : شاعرية ابن الخطيب
55	أولا : مفهوم الشاعرية في النقد العربي القديم و النقد العربي الحديث

55	1- الشاعرية في النقد العربي القديم
57	2- الشاعرية في النقد العربي الحديث
60	ثانيا : مصادر شاعرية ابن الخطيب
61	أ- ثقافته
61	شيوخ ابن الخطيب
75	ب- بينته و وظائفه
78	ج - المنابع الذاتية لشاعرية ابن الخطيب
81	ثالثا : شاعرية ابن الخطيب في نظر النقاد و الدارسين
88	رابعا : سمات شاعرية ابن الخطيب
88	- أندلسية لسان الدين
90	- الأصدقاء المشرقية
92	- المعيار الكمي لشعر ابن الخطيب (الإطالة)
94	- البديهة و الارتجال
96	- الأثر القرآني
99	- أثر الحديث الشريف
101	- أثر الثقافة الأدبية
102	- أثر الثقافة العلمية
107	- التصنع البديعي
185-109	الفصل الثالث : شعر ابن الخطيب الإسلامي
112	أولا : شعر الجهاد
112	1- دور بني الأحمر في المحافظة على الأندلس
122	2- الاستغاثة بمسلمي العدو
128	3- صورة الروم
131	4- عوامل النصر
133	5- وصف الأسلحة
139	6- صورة الانكسار في شعر لسان الدين
143	ثانيا : شعر المدائح النبوية (المولديات)
146	1- استهلال المدحة النبوية

149 2- شمائل الرسول - صلى الله عليه وسلم -
156 3- معجزاته - صلى الله عليه وسلم -
158 4- حقيقة النبوة
159 5- إرهاصات مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم -
165 ثالثا : شعر الزهد و التصوف
167 أ- المعاني الزهدية
171 ب- المعاني الصوفية
171 1- الميل الصوفي العام
174 2- أخلاق المرید
175 3- مقام التوبة
177 4- المحبة
179 5- معرفة الله
180 6- الخمرة الإلهية و رؤية الحق
182-186 الفصل الرابع : شعر ابن الخطيب التقليدي
188 أولا : المدح
188 1- مدائح بني الأحمر (المعاني التقليدية)
188 أ- أبو الحجاج
200 ب - الغني بالله
207 2- المعاني السياسية التابعة لمدائح بني الأحمر
214 3- مدائح بني مرين
223 4- ممدوحو الشاعر من حاشية البلاط المريني
228 5- مدائح الزيانيين
233 ثانيا : الرثاء
240 ثالثا : الغزل
241 1- أوصاف المرأة
246 2- عذرية الحب
248 3- موطن الحبيب
250 4- اللقاء العفيف

252	رابعاً : الوصف
252	1- وصف الطبيعة الجامدة
253	أ- المناظر الطبيعية
255	ب- المظاهر الطبيعية
257	ج- المدن
260	د- المباني
263	2 - وصف الطبيعة الحية
265	خامساً : شعر اللهو
271	سادساً : الهجاء
276	سابعاً : الإخوانيات
276	1- علاقة لسان الدين برجال العلم و الأدب
280	2- نفس الشاعر المؤثرة لحياة البذخ و اللهو
331-283	الفصل الخامس : الخصائص الفنية لشعر ابن الخطيب
284	أولاً : الصور الشعرية
284	الصور الشعرية التي أهتمت بها الطبيعة
286	الطبيعة الصامتة
297	الطبيعة الحية
299	الصور ذات الطابع الإسلامي
299	1- الصور التشبيهية
302	2- الصور الاستعارية
307	3- الصور الكنائية
308	الصور البديعية
309	1- صور البديع المعبرة عن ثقافة الشاعر
310	2- صور البديع المتكلفة
313	ثانياً : الموسيقى الشعرية
315	أ- النمط الخليلي
315	الأوزان
319	القوافي

323	ب- نمط التوشيح
327	ج- الموسيقى الداخلية
332	الخاتمة
337	المصادر و المراجع
337	أولا : الكتب
345	ثانيا : الدوريات
347	فهرس الموضوعات

الإمام عبد القادر للعطوم الإسلامية